

روح وريحان

عائض القرني

جمع وترتيب

محمد [أ] أمد

دارالمحرر الأدبي

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران/ ١٠٢ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء/ ١ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ الأحزاب/ ٧٠ - ٧١ .

ثمّ أما بعد...

فقد قال الإمام أبو حنيفة النعمان - فيما نقله عنه محمد بن الحسن الشيباني- كما في تذكرة السامع والمتكلم (ص ٥٠) : " الحكايات عن العلماء أحبُّ إليَّ من كثيرٍ من الفقه ، لأنها آداب القوم وأخلاقهم " .

وحكايات العلماء ، ودروسهم ، عِبْرَة ، وموعظة ، وفقه ، وتربية وسلوك ... ومن فرسانها ، ومُبرِّزها ، ورافع لوائها ، الشيخ الأديب ، المحدث الفقيه ، ريحانة الوعاظ ، وروح الحكمة والموعظة بالتي هي أحسن .. عائض بن عبد الله القرني الذي سارت بكتبه الركبان ، وتناقلت الغرب قبل الشرق بأخباره الحسان ، له من الكتب الجم الكثير ، حتى صارت في العلم كالأعلام ، وأشرطته الدعوية بداية الصحوّة منار السبيل ، وهداية الراغب ، في الفتح المبين .

جمعتُ دررها ، وجوهرها النفيس ، وسلكتها في عقدٍ منظوم ، مسبوكة في كتابٍ إمامٍ للعالمين ، المهتدين ، ووسمته بـ " روحٌ وريحان " .

والله أسأل حسن القبول والمغفرة منه وفضلا ، هو ولي ذلك والقادر عليه .

وكتبه

محمد حامد

ترجمة عائض بن عبد الله القرني

عائض بن عبد الله القرني، ولد الشيخ عام ١٣٧٩هـ، ولد في قرية آل سليمان في بلاد بلقرن، وتلقى تعليمه الابتدائي بقرية آل سليمان في بلاد بلقرن، ثم تلقى تعليمه الأساسي بمعهد الرياض العلمي، ثم تلقى تعليمه بالمرحلة الثانوية في معهد أبيها العلمي، ثم التحق بكلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع أبيها، ثم تخرج منها بالشهادة الجامعية وعين بها محاضراً، ثم حصل على شهادة الماجستير، وكان عنوان أطروحته العلمية رواية المبتدع في علم الحديث، والشيخ محدث وشاعر وأديب -كما تعلمون- بدأ زهرة شبابه بالدعوة إلى الله والتحصيل العلمي، والتضلع من الكتاب والسنة، وكفّيه بذلك نبلاً أنه تتلمذ على كتب شيخ الإسلام، وتلميذه ابن القيم، ومناقب الشيخ أكثر من أن تحصى، ونسأل الله أن يوفقه لما يحبه ويرضاه.

الإيمان بالله

أن تؤمن بالله خالقاً وكلمة "خالقاً" لا تكفيك لأن فرعون يعرف أن الخالق هو الله، وأبو جهل يعرف أن من خلق السماء والأرض هو الله، {وَلَيْنُ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [لقمان: ٢٥] ويقول موسى عليه السلام لفرعون: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء: ١٠٢].

فلا يكفيك أن تعرف أن الخالق هو الله، فهذا يعرفه أبو جهل والمشركون، لكن لابد أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه لا يستحق العبادة بحق إلا الله الواحد الأحد الصلاة، الصيام، الحج، الذكر، الخوف، الرجاء، الرغبة، الرهبة، الاستغاثة، والذبح كل هذه الأبواب لابد أن تعلم أنه لا يستحقها إلا الله تبارك وتعالى.

ألفاظ شركية

من القضايا المهمة التي أنبه عليها وهي منتشرة في بعض النواحي: ألفاظ الشرك التي يستخدمها بعض الناس متساهلين في ذلك، مثل: ما شاء الله وشئت، وهذا لا يجوز بل ما شاء الله وحده، أو يقول: لولا الله وفلان، أو لولا الله والقاضي، وهذه ليست بجائزة؛ لأن واو المعية والتشريك ليست بواردة، ومثل ألفاظ الشرك التي يدعيها بعض الناس وأشركوا بها وهو نسبة الضر والنفع، والعطاء والمنع، والأخذ والهلاك إلى الجن، كخذه للجن أو شلوه أو اقتلوه إلى غير ذلك من الألفاظ فهي شرك.

أبلغ رسالة في التاريخ

أبلغ رسالة في التاريخ رسالة سليمان عليه السلام إلى بلقيس: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} [النمل: ٣٠ - ٣١]

هل سمعتم أفصح من هذا الكلام وأشجع منه؟

فالقادر والمرسل والوالي والمعبود حقيقة هو الله.

وقد حدثنا أحد المفكرين من المشايخ الثقات: أن الشيخ حسن البنا رحمه الله في مصر جاءه السفير البريطاني في القاهرة بهدية، ووراءها ما وراءها، فهم يشترون الذمم والعهود والمواثيق بالمال يشترون المبادئ بالشيكات، فوصل الشيك إلى حسن البنا مع السفير.

قال: ما المطلوب؟

قال: خذها، هذه هدية من الحكومة البريطانية.

فقلب حسن البنا الشيك وكتب على ظهره بقلمه بالعربية - وهي تترجم هناك - {أَتَمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} * اُرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} [النمل: ٣٦ - ٣٧].

أقصر رسالة عند أهل التاريخ

أقصر رسالة عند أهل التاريخ والأدب رسالة خالد بن الوليد، لما التقى في اليرموك - انظر هذه الهمم العالية- بجيش الروم، وكان جيش الروم عند كثير من المؤرخين أنه مائتين وثمانين ألفاً، وجيش خالد ما يقارب ثلاثين ألفاً، فلما رآهم في الصباح أقبلوا كالجبال، تدلف كتيبة وتستقر في الصحراء، وكتيبة بعدها، وكتيبة أخرى.

فقال أحد الناس لـ خالد: اليوم نفر إلى جبل سلى وأجا في حائل فدمعت عينا خالد وقال: [[لا والله لا نفر إلى سلى وأجا ولكن إلى الله الملتجأ]] ثم قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ثم أرسل رسالة وهو في المعركة- إلى عياض بن غنم، وكان عنده جيش الاحتياط في الصحراء، تركه عمر على بعد وقال له: [[أنت بالذراري والنساء، فإن طلبك خالد فلب طلبه]] وكان يظن خالد أن الجيشين متقاربين أربعون مقابل ثلاثين لكنهم مائتان وثمانون ألفاً.

فكتب: [[بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد إلى عياض إياك أريد]] فلما أتته الرسالة حشد قبائل العرب ولقي بها العدو مع خالد وكان النصر العظيم: {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِّلْ لَمْ يَمَسَّ سُهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: ١٧٤].

أحب الناس إلى الله

في بعض الآثار يروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {الناس عيال الله، أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله} فأحبهم إلى الله عز وجل الذي يسعى في نفع الناس، وبعض الناس أناني ذاتي، لا يعيش إلا لبطنه ولبيته ولمصالحه الشخصية، فلا ينظر في هموم الناس ولا مشكلاتهم ولا ديونهم ولا معاناتهم، ولا يقف على المستضعفين، ولا يشفع لهم، ولا يجمع التبرعات لهم، ولا يدخل الإسعاد عليهم، وهذا خطأ، فقد يوجد من الأغنياء من يسكن في حي وبجانبه فقراء، وأبناء هذا الغني مترفون بذخون، وأبناء الفقير لا يجدون كسرة الخبز.

إحياء روح التكافل الاجتماعي

لماذا لا نتعامل بالنظام الإسلامي الذي أنزله الله في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؟

ولماذا لا ننفق الأموال إنفاقاً شرعياً؟ ولماذا لا نتكافل بأوجه التكافل التي فرضها الله عز وجل في كتابه وجعلها سنة في مبدأ رسوله صلى الله عليه وسلم؟ فهذه المدينة المنورة يقولون: في كتب التاريخ مر بهم حالة فقر فما وجدوا لحماً مدة طويلة، حتى قالوا: أهدي لبيت فقير رأس تيس ليطبخوه ويتعشوا عليه، فأتى هذا البيت الفقير فقالوا: جيراننا أولى منا بهذا الرأس {وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: ٩] فأهدوا هذا الرأس لجيرانهم، وجيرانهم أهدوه لجيرانهم وجيران الجيران أهدوه لجيرانهم، ودار في المدينة حتى عاد لمن أهداه أول مرة.

وفي عام الرمادة عام (١٨هـ) كما عند ابن كثير والذهبي ، أن عمر رضي الله عنه وقف على المنبر فقرقر بطنه من الجوع يوم الجمعة ، لأنه لم يجد إفطاراً يفطر وفي استطاعته أن يأكل ، يقول: [[والله إني أعلمكم بأجود البر وبنسير العسل وبلحم الماعز ، لكن أخشى أن أعرض على الله يوم القيامة فيقال لي: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا} [الأحقاف: ٢٠]] وقف على المنبر وبطنه تقرقر فقال: [[يا بطن قرقر أو لا تقرقر ، والله لا تشبع حتى يشبع أطفال المسلمين]] ويقولون: إنه ما أكل سميناً ولا سمناً ، وكان يوزع ما يأتيه على الفقراء ، ويطوف والصحفة على رأسه ، تصنع الثريد امرأته أم كلثوم بنت علي ويطوف وهو يوزع على الفقراء ويقول: أواه يا عمر ، كم قتلت من أطفال المسلمين.

وكان يضع خده على التراب ويبكي ويقول: لا أرفع خدي حتى ينزل القطر ، وصلى بالناس الاستسقاء فما خرج من المصلى إلا والسيول ترزف من المدينة رضي الله عنه.

الدنيا فانية

أعرف تاجراً وهذه قصة ومعها عليها شهود- تاجر شهير توفي في غير المدينة التي كان فيها ، أصابه مرض ونقل إلى المستشفى ومات وهو بعيد عن أهله ، والله لقد أخذ له كفن من أهل الخير ، وهو صاحب ملايين وقصور ومزارع وبنساتين وأمور عظيمة ، وما وجد كفناً من ماله الخاص ، لأن أمواله كلها في البنك وما أخذ شيئاً منها ؛ ومات فجأة في المستشفى ، فأتى أهل الخير فشروا له كفناً من السوق ثلاثة أمتار من القماش وكفنوه ودخل قبره.

التفكر في مخلوقات الله

اغرس في نفسك توحيد الباري تبارك وتعالى، وأنت تنظر في بديع صنعه ولطيف خلقه.

قال تعالى: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ} [النمل: ٦٠].

من الذي أنبت الشجر؟ من الذي جعل القُمري يهتف على الأغصان؟ من الذي أسرى بالنسيم على الماء؟

قال تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} [الحج: ٥] إنه كتاب الكون. وكتابي الفضاء أقرأ فيه صوراً ما قرأتها في كتاب {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} [ق: ١٠].

من الذي رسم هذا الجمال؟ وأبدع هذا الكمال؟ من الذي جعل الرابية تشكو إلى الجبل، والماء يتمتم بالإسرار إلى الزهر، والبلبل ينشد قصيد الشكر على أغصان الشجر؟

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة

من الذي أبدعها من حبة مندثرة

ذاك هو الله الذي أنعمه منهمرة

ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

تقدير نعم الله

فلا تصرفها في غير ما تصرف له، ولا تسرف في الإنفاق، قال سبحانه وتعالى: {وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا} [الإسراء: ٢٦ - ٢٧] {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧] إن الموائد التي تعرض تكفي عشرات الناس.

إن بطون المجاهدين والفقراء واللاجئين بحاجة ماسة إلى ما يلقي في القمائم من الفضلات.

فيا مسلمون! أنتم مدعوون لشكر نعمة الله، فإن نعمة الجو نعمة امتن الله بها على من سبق، قال عن بني إسرائيل: {وَوَهَبْنَا لَهُمْ عِلْمَ الْغَمَامِ} [الأعراف: ١٦٠] فلا تحرقهم الشمس، ولا يلهيهم النسيم، وإنما يعيشون في رغد من الجو، وفي سعادة من العيش.

وامتن الله عز وجل على قوم بالحدائق والبساتين قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} [سبأ: ١٥].

أهمية التوحيد وفوائده

التوحيد يصلك بالله، فيجعل في قلبك أن كل شيء بيد الله، التوحيد يجعلك تقول: (حسبي الله ونعم الوكيل) فإذا الدنيا أمامك أسفاط، وإذا هيئاتها وأشخاصها وكياناتها لا شيء.

قال ابن عباس في صحيح البخاري: [[حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم لما أوقدوا النار له فجعلها الله برداً وسلاماً]] وحسبنا الله ونعم الوكيل قالها محمد عليه

الصلاة والسلام في أحد لما قيل له: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

(حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها خالد بن الوليد لما أقبل عليه جيش الروم كالجبال، كتائب مجندة، وجيوش مجيشة، مقيدون بالسلاسل، يحملون السيوف، وهم أضعاف مضاعفة على أعداد المسلمين، فإذا جيش المسلمين حفنة أمام الجبال من أهل الروم، فقال مسلم لأبي سليمان خالد بن الوليد قبل المعركة، يا أبا سليمان! انظر ما أكثرهم وما أقلنا، نفر اليوم إلى جبل سلمى وأجا فدمعت عين خالد -حامل القلب الذي فيه (حسبنا الله ونعم الوكيل) حامل القلب الذي فيه (لا إله إلا الله) خالد الذي تخرج من مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم، خالد الذي تعلم في المسجد، وحمل القرآن، وتوضأ كل يوم خمس مرات.

وما أتت بقعة إلا سمعت بها الله أكبر تسعى في نواحيها

ما نازل الفرس إلا خاب نازلهم ولا رمى الروم إلا طاش رامها

فدمعت عين خالد وقال: [[لا والله، بل ما أقل الروم وما أكثرنا، ثم قال: لا نفر إلى جبل سلمى وأجا ولكن إلى الله الملتجأ، حسبنا الله ونعم الوكيل]] فانطلق في المعركة فسحق أعداء الله، قال تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٤٥].

الملعونات من النساء

المرأة المسلمة لا تتشبه بالكافرات، فقد قال عليه الصلاة والسلام: {من تشبه
بقوم فهو منهم} المرأة المسلمة لا تتشبه بالرجال، صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه
قال: {لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال} فخلقها
الله امرأة، مواصفاتها امرأة، ومؤهلاتها امرأة، وفطرتها امرأة، فإذا حرفت فطرتها لتكون
رجلاً بعملها، ومشيتها، وفي كلامها ولبستها؛ فهي ملعونة، وقد لعن في النساء أصناف:

الواشرة: وهي التي تحد أسنانها لتتظاهر بأنها فتاة.

النامصة: هي التي تقلع حواجبها لغير حاجة.

الواشمة: وهي التي تغرز الحبر وما أشبهه في خدها، أو في أنفها، أو في وجنتها.

المفلجة: وهي التي تفرق بين ثناياها وأسنانها لغير حاجة.

الواصلة: وهي التي تصل شعر غيرها بشعرها، فهذه ملعونة على لسان محمد عليه
الصلاة والسلام وجميع من سبق ملعونات.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: {أنه سوف يأتي صنف من النساء في آخر
الزمان، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، مائلات مميلات، فاتنات مفتونات، لا يرحن
رائحة الجنة} يركبن الشعر على الرأس، ثم ينزلن إلى الأسواق، ويلبسن كل موضحة
تخالف اللباس الشرعي من قصير، أو شفاف، أو ضيق، أو ما يبدي الزينة، ثم تتعرض
لعيون الأجانب فتتمر على الخياطين، وعلى باعة الذهب، وعلى كل فاجر تعرض نفسها
وتستوجب غضب ربها ولعنة الملائكة.

صفات المرأة المؤمنة

المرأة المسلمة تحيا بحياة الله، وتنقل حياة الإيمان إلى أخواتها، داعية تتصل بأخواتها، تدعوهن بالهاتف، بالكتيب، بالشريط، بالكلمة الطيبة، وبالنصيحة.

المرأة المسلمة تحفظ زوجها في أطفاله فتربهم على سنة محمد صلى الله عليه وسلم منذ أن يصبحوا إلى أن يمسوا؛ في لباسهم وطعامهم، تسي على الطفل في غسله، في لباسه، وفي طعامه، وفي نومه واستيقاظه، تعلمه الصلاة، تعلمه القرآن، تعلمه آداب الإسلام، تذكر له سيرة الصحابة الأخيار، هذه المرأة المسلمة فلا يضعف توحيدها ويقينها، نسأل الله أن يصلح نساءنا وأن يجعلهن من المؤمنات الصالحات، فإن الله قال بعد أن ذكر الصالحين: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى} [آل عمران: ١٩٥].

تربية الولد وتأديبه

تؤدبه على تقوى الله، أول ما يفتق لسانه تقول: قل لا إله إلا الله، الله أكبر، سبحان الله، لا يفتق لسانه على الأغاني الماجنة، واللحن والإعراض عن منهج الله، والسب والبذاءة، ولذلك تعرف البيت من ابنه، إذا كان في الشارع فهو صورة للبيت، لا يمر به أحد من الناس -إن كان سيئاً- إلا قال له: لعنك الله، ليس عنده إلا سب وتبجح، وهذا من سوء التربية في البيت، وأنا أظن أن بيوتكم ليس فيها شيء من هذا، وأنها بيوت إسلامية إن شاء الله.

قصص عن السعادة

أعرف رجلاً عابداً زاهداً في قرية في جهة نجد له مزرعة، وله بعض الغنم، ومن مسجده إلى بيته، عنده المصحف، ويتنفل، ويصوم، ويعبد الله في سعادة ما سمع بها

الناس، وفي نور من الله، كلامه يقودك إلى الجنة، يقولون: يقوم قبل الفجر بساعتين وهمه القرآن، إن مات فألى جنة - إن شاء الله- وإن عاش عاش سعيداً، لم يصبه القلق من الحشود على الحدود، ولا من التهديدات الدولية، ولا من القوات في الخليج، وإنما يعيش القرآن، وطريق الجنة والصيام والاستغفار، وهو قليل الخلطة بالناس، لا يسمع غيبة، ولا تمر به الشيكات السياحية، ولا كلمة الدولار، ولا التضخم المالي، ولا قلة الموارد الغذائية، ولا مشكلة تلوث البيئة، ولا غير ذلك.

وعندنا تاجر شهير في البلاد، عمل عملية في مستشفى في جدة - وجد الأطباء أن عنده سوء تغذية، ووجدوا أن أمعائه التصقت، وسئل أنه كان يتغذى غذاءً خفيفاً، كان يتغذى فولاً وجبناً، والناس يتغدون لحماً وأرزاً، الفقراء الآن الواحد منهم ربما ضحى بدجاجتين في الغداء سمطاً، ولكن أهل رءوس الأموال أكثر الناس قلقاً، كارنيجي يقول: إن أكثر الناس قلقاً هم أهل رءوس الأموال، لأنه لا يفتأ يفتح السجلات، وعنده تلفونان يتصل بهما، ولا يأتي أهله إلا في ظلام، أو بعد الواحدة، أو الثانية فينام، ثم يصحو متأخراً، فكانه مبرمج يجمع ويحسب ويسجل ويكتب ويتصل، ونسي نفسه حتى أصيب بسوء التغذية، ولو علم أن المال القليل.

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ولكن التقى هو السعيد

لا ارتباط بين المال وبين القرب من الله

المال يمتحنك الله به، فلا تظن أن الأغنياء والتجار لمنزلتهم عند الله آتاهم المال، لا.

{كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا* انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٢١].

حياة الحمار يشبع منها، والثور يأكل ويشبع، وكذلك الإبل والبقر والغنم، حياة تافهة! لكن يقول الله عز وجل: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: ١٥ - ١٦] {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَبَّرُونَ} * وَخُوفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

الخواجة يسكن في الدور العاشر، والمسلم لا يجد قطعة من الخيمة في الصحراء وكسرة الخبز؛ لماذا؟

لأنها دنيا، ولأن الله أعد الجنة لأوليائه تبارك وتعالى.

صدق عمر بن الخطاب مع الله

إن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم لهداية الإنسان، فأتى عليه الصلاة والسلام والناس في جاهلية جهلاء -وبعض مناطقنا لا زالت تعيش بعض الصور من تلك الجاهلية التي عاشها الناس قبله صلى الله عليه وسلم- فلما أتى صلى الله عليه وسلم، قال: {يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا} وعاد الناس واستجاب من أراد الله أن يستجيب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٢٤].

وكان ممن استجاب الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خليفة الإسلام، كان قبل الإسلام بلا إرادة ولا تفكير ولا طموح، كان يعيش مثلما يعيش كثير من الناس، يأكل ويشرب وينام، لا يغضب إذا انتهكت حدود الله، لا يحزن إذا فاتته صلاة، لا يحزن ولا يغتم إذا رأى شباب الإسلام مهمكاً في المعاصي، إنما همه بطنه وفرجه، فإذا بقي عليه رزقه، بقيت عليه وظيفته، فكل شيء على ما يرام.

فأتى عمر ووضع كفه في يد المصطفى صلى الله وسلم وأسلم، وذلك بعد أن سمع سورة طه، ومن يوم أسلم بدأ قلبه حياً مع الله؛ لأن الله يحيي القلوب بعد إمامتها، واستمر في الإسلام.

وبعد عشرين سنة أو أكثر تولى خلافة المسلمين وأصبح ذهب الدنيا تحت يديه، وفضة الدنيا تحت يديه، أصبح هو المسئول الأول، فماذا فعل؟

كان من أبسط الناس، وأزهدهم في الدنيا وأفقرهم، ما كان يشبع من الشعر، يصعد يوم الجمعة على المنبر وعليه رداء فيه أربع عشرة رقعة، وبإمكانه لو أراد أن يلبس الذهب والديباج.

قصة يونس عليه السلام

يونس عليه السلام أحد الأنبياء، كان يحفظ الله في الرخاء، كان صائم النهار قائم الليل، مصلياً ذاكراً، خرج غاضباً على قومه، وما استأذن الله، والواجب أن يستأذن ربه، لكن قومه عاندوه، يقول لهم: هذا الطريق المستقيم فقالوا: لا.

خطأ، وفي الأخير غضب وما صبر.

فلما ركب السفينة في البحر، أخذت الريح تلعب بالسفينة، فقال ربان السفينة: معنا رجل مذنب، ولا يمكن أن تهدأ الريح حتى تنزلوا هذا الرجل من السفينة! وقد كان قواد السفن يعرفون أنه لا يأتي الخلل إلا من ذنوب وخطايا، قالوا: نقترع.

واستهموا فوقعت القرعة على يونس عليه السلام، فأقرعوا ثانية فوقعت عليه، فأقرعوا ثالثة فوقعت عليه، فأخذوه بثيابه ويديه ورجليه، وأوقعوه في البحر وسط الليل.

سبحان الله! لا قريب ولا أهل، لا زوجة ولا ولد، وليته بقي على خشبة، لكن ابتلعه الحوت -سمكة- فما وقع في البحر إلا وهو فاغر فاه، فأصبح في ظلمات ثلاث: ظلمة اليم، وظلمة الليل، وظلمة الحوت.

فمن يتذكر؟!

هل يتصل بأهله؟!

هل يكلم أخاه أو قومه؟!

لا.

قال: {إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٨٧] رد إلهامه إلى الله.

وناد إذا سجدت له اعترافاً بما ناداه ذو النون بن مَتَّى وأكثر ذكره في الأرض دأباً لتذكر في السماء إذا ذكرنا فلما قال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، قذفته السمكة في الصحراء، وأنجاه الله الذي يقول للشيء: كن فيكون.

لماذا؟ لأنه حفظ الله في الرخاء.

احفظ الله يحفظك

يذكر ابن القيم في كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي قصة رجل من الصالحين كان يصوم النهار ويقوم الليل، والصلاح ليس كلمة تقال، ولا خطبة جمعة يخطبها الإنسان، فإذا خرج فهو هو من أظلم الناس وأفجرهم، قاطع رحم، عاق والديه، يحلف الأيمان الغموس، فهذا ليس بصلاح، الصلاح عمل، إنما الصلاح تقوى، ومخافة من الحي القيوم.

فهذا الرجل الصالح كان يشتغل في التجارة، وكان كثير الذكر، والتلاوة، والصيام، والعبادة، خرج ببغلات -وعنده بغال يستعملها في التجارة- فمر به مجرم فقال: يا فلان! أوصلي إلى ذلك المكان.

قال: اركب معي.

فركب معه، فلما أصبحوا في غابة لا يراهم إلا الله، أتى هذا الرجل المجرم، فأخرج خنجراً معه، وقال لهذا الرجل الصالح: ادفع ما عندك من مال فوالله لأقتلنك، قال الرجل الصالح: أسألك بالله الذي قامت به السماوات والأرض أن تأخذ ما عندي من مال وما عندي من تجارة وتتركني، فلدي سبعة أبناء وأمهم، لا يعولهم بعد الله إلا أنا.

قال: والله الذي لا إله إلا هو لأقتلنك.

قال: فأسألك بمن قامت به السماوات والأرض أن تتركني لأصلي ركعتين، فقام فتوضأ وقام يصلي، قال: فلما كبرت، نسيت كل آية من القرآن من الخوف، والله ما ذكرت إلا قوله تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: ٦٢] من

يجيب المضطر إلا الله! من يكشف السوء إلا الله! من يشفي المريض إلا الله! من يجبر الكسير إلا الله! {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: ٦٢] قال: فقلت في نفسي: يا من يجيب المضطر إذا دعاه أجبي! يا من يجيب المضطر إذا دعاه أجبي! من يجيب المضطر إذا دعاه أجبي!

قال: فوالله ما انتهيت من الدعاء، إلا وفارس قد أقبل على فرس من أسفل الوادي ومعه حربة أرسلها، فوقعت في لبة هذا الرجل، فإذا هو مقتول على قفاه، قلت: أسألك بالله أنت رسول من؟

قال: أنا رسول من يجيب المضطر إذا دعاه، لما دعوت الدعوة الأولى كنت في السماء السابعة، ولما دعوت بالدعوة الثانية كنت في الرابعة، ولما دعوت الثالثة أتيت إلى الأرض لأقتل هذا المجرم.

وهذا عند أهل السنة والجماعة والعلماء من كرامات الأولياء.

إن من يحفظ الله في الرخاء، يحفظه في الشدة، يقول عليه الصلاة والسلام لابن عباس: {احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف}.

هذه يا عباد الله قضايا لا بد أن تفهم لكل مسلم، أن من لم يحفظ الله لا يحفظه الله.

قسوة القلب أو موته

وهي درجتان: ذكر في القرآن القفل، والطبع، والران، وهي منازل بل ذكر بعض العلماء أن هناك عشرين منزلة للقلب تبدأ بالغين {إنه ليغان على قلبي} وتنتهي بالقفل، قال سبحانه وتعالى: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [النساء: ١٥٥] وقال سبحانه: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤] موت القلب لا يحس.

ومن يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

قال سيد قطب كذلك في قوله سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} [آل عمران: ١٣٥] يقول كلاماً معناه: إن ثقل الدم واللحم قد ينتهي في بعض الناس إلى أن يتبدل إحساسه، ولكن تأتي الفطرة الحقة -أو كما قال- فتستيقظ فيعود إلى الله عز وجل، وتجد بعض الناس من يرتكب من الذنوب والخطايا مثل الجبال ولكن ما يحس، تقول له: لا تغتاب، قال: الغيبة سهلة، إسبال الثوب، قال: هذه من القشور، حلق اللحى، قال: الأمر سهل ليس الإسلام قضية حلق لحى ولا إسبال ثوب، يفتفت الدين فتفتة ويمزقه تمزيقاً، وما عرف عند السلف قشور ولا لباب، هذه كلمة مستوردة وغير مسئولة ولا يقولها طالب علم، بل الدين لباب كله، أتى به معلم الخير عليه الصلاة والسلام، بل أتى بلا إله إلا الله، وفي الحديث: {إماطة الأذى عن الطريق صدقة} الحديث فالدين كله لباب.

وقسوة القلب أو موته تأتي من وقوف الإنسان أمام المعاصي والخطايا والزلات، فتجده قاسي القلب لا يتأثر قال سبحانه: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ} [البقرة: ٧٤] وابن تيمية يرى في درء تعارض العقل والنقل في المجلد الثاني

يقول: كل خطاب لبني إسرائيل فإن المقصود به نحن، على قول المثل السائر: "إياك أعني واسمعي يا جارة" نحن المخاطبون بهذا الخطاب، وقال سبحانه: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ١٦].

إخوتي في الله! ابن القيم في مدارج السالكين يذكر أسباباً لقسوة القلب منها:

الأول: الذنوب والخطايا، وهذا موضوعنا.

الثاني: كثرة المباحات، مثل: كثرة الكلام بغير ذكر الله، وكثرة الطعام بغير حاجة، وكثرة النوم، وكثرة الخلطة، هذه من أسباب قسوة القلب.

وقد فصلها بكلام عجيب، أما موته فنعوذ بالله من موت القلب: {وَمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: ١٢٢].

وأما قسوته فإنها تحدث للمؤمن وسئل عبد الغني المقدسي كما ترجم ابن رجب له في ذيل طبقات الحنابلة أو أبو يعلى في كتاب الطبقات قيل له: ما صحة الحديث: [[أن أبا بكر مر على قوم فوجدهم يبكون -من الصحابة- فقال: كنا كذلك حتى قست قلوبنا]] ويروى عن أبي بكر ذلك، وسببه بعض شواغل الحياة التي تحدث للمؤمن، فقد يقسو قلبه بذلك وهو ليس أثماً في هذا، بسبب شغل مباح أو لم يشتغل بالرفائق مثل: المجاهد في سبيل الله، لا تجد قلبه كالعاكف في المسجد المصلي المسيح ببيكي، ولكن المجاهد الذي يعيش مع السيف والدبابة والطائرة قد لا يجد من الرقة مثل ما يجد هذا، والآخر يعذر ويشكر على هذا ولو أن المطلوب فيه أن يكون كاملاً من كل جهة.

أما القسوة التي يلام عليها العبد فهي ترك ذكر الله، والإدبار والإعراض عن تدبر القرآن الكريم، وعدم تذكر الموت ولقاء الله عز وجل.

الوحشة بين العبد وربّه

والوحشة أمرها عجيب، ونباها غريب وسرها ومكمنها أنها تنسي العبد حلاوة الحياة وسعادتها، لا تنعم -والله- بأطفال ولا تهاد -والله- في بال، ولا تعيش في خير حال، تبدو دائماً قلقاً مشذباً مندداً مزعزعا حتى يقول ابن القيم: إن العاصي دائماً إذا سمع نفحة من ريح يظن أن الصوت عليه، قال تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو} [المنافقون: ٤] ولذلك هو في وحشة، العاصي لو تحرك الباب خاف، لو سمع البوليس انتفض، لو أتت دعاية قال: ضدي، ولذلك:

كاد المريب أن يقول خذوني

فهي وحشة بينه وبين الله لأنه كما قيل: أوصدتم طرق الإجابة والقبول بينكم وبين الله، فكيف تطلبون حلاوة؟

قيل لأبي معاذ الرازي: أيجد العبد حلاوة الطاعة إذا هم بالمعصية؟ قال: لا والله، ولو فكر فيها، أي: إذا عمل معصية هل يجد حلاوة الطاعة؟ قال: لا والله، حتى ولو هم بها، مجرد هم لا يجد حلاوة الطاعة من الوحشة.

والوحشة هذه لها آثار منها:

الأول: أن العبد لا يثق في موعود الله، أي: آيات الرجاء، وآيات الخير وآيات الوعد الحسن لا يثق فيها ولا يجد فيها مصداقية، ولذلك يقرأ المصحف ويمر على آيات الجنة ورحمة الله عز وجل وكأنها ليست بآيات.

الثاني: لا يحسن ظنه بربه في لقائه، ولذلك جعلوا حسن الظن بالله من حسن العمل.

الثالث: أنه لا يهتم نفسه؛ لأنه في وحشة، ولأنه يرى أن ما بينه وبين الله مقطوع، فلا يعيش سهاماً لنفسه، حتى قالوا: إن من أسباب هذا قضية النفاق، قال الحسن البصري: [[لا يخافه إلا مؤمن، ولا يأمنه إلا منافق]] والنفاق والوحشة هذه تصاحب العبد حتى يريد أن يقضي عليها وينهي عليها ببعض المجريات والأمور لكن يأبى الله، الآن بعض الفسقة أكثر الناس ضحكاً لا يضحك مثل الناس بل يقهقه قهقهة؛ لأنه مكبوت، ولأن في قلبه شدة وغلظة وفزعاً وقلقاً وخوفاً فيريد فرصة ينفذ بها إلى هذا المرح، تجده يزجي الأوقات في مجلة خليعة أو أغنية ماجنة أو مسلسل مهدم أو فيديو مخرب أو جلسة لاغية لاهية، ولذلك يخاف إذا سمع القرآن.

والله! لقد سمعنا بعض العصاة إذا سمع الراديو على القرآن يقول: لا، لا، دعونا نرتاح، دعونا نأكل العيش، دعونا نطمئن قليلاً؛ لأن القرآن هذا يستنفر طاقته ويؤنبه ويبيكته ويوقفه أمام الله في محاسبة، ويدخل عليه من أقطار الناس ولذلك يخاف ويوجل، إنما يهدأ مع الموسيقى، الموسيقى الإيطالية قبل النوم، أو الألمانية بهوفن، ولذلك يستيقظ على الموسيقى، ويمسي على الموسيقى.

أبو الطيب الطبري يقفز من السفينة

أتى أبو الطيب الطبري -أحد علماء الإسلام- إلى سفينة فركبها، فلما اقترب من الشاطئ -وهو في السبعين من عمره- أراد أن يدلف إلى الشاطئ فقفز، وكان معه شباب فأرادوا أن يقفروا فما استطاعوا؛ فقالوا له: كيف استطعت وما استطعنا وأنت شيخ كبير؟ قال: هذه أعضاء حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر.

{قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤] وهذه القصة ذكرها ابن كثير رحمه الله.

فالعين يحفظها الله إذا حفظت الله، والسمع يحفظه الله يوم يحفظ الله، وكذلك اليد والرجل: {قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

البرامكة ضيعوا الله فضيعهم

كان البرامة وزراء لبني العباس، فأعطاهم الله المال من الذهب والفضة، وطلوا قصورهم بكل شيء من الألوان، حتى قال بعض المؤرخين: كانوا يطلون قصورهم بماء الذهب! لكنهم ضيعوا أوامر الله، فالمعصية في داخل القصور: غناء وخمر ومجون وضياح وتضييع للصلاة، وزنا وفحش، فأخذهم علام الغيوب الذي يمهل ولا يمهل: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢] فسبحانه ما أقدره! ولا إله إلا الله ما أعظمه! ولا إله إلا الله ما أجله! ورد في أثر قدسي: {رقاب الملوك بيدي إذا أردت أن أقصم ملكاً قصمته} وصح في الحديث: {الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري؛ من نازعني فيهما عذبتة}.

فهؤلاء الوزراء أخذوا في غداة واحدة، سلط الله عليهم أحب الناس إليهم وهو هارون الرشيد، الذي كان صديقهم وأخاهم وهو الخليفة، فغضب عليهم ضحى (قبل الظهر) فأخذ شبابهم، فقتلهم بالسيف قبل الظهر، وأخذ أشياخهم فأودعهم في السجن، وأخذ أبناءهم فجعلهم في المستعمرات تحت الأرض، وأخذ النساء فأوعد عليهن في الغرف.

بكاء هنا وبكاء هناك، ودمع هنا ودمع هناك.

قيل لـ يحيى بن خالد البرمكي: ماذا أنزلكم في هذا المنزل في الظلام بعد هذه النعم، بعد الذهب، والحرير، والديباج؟! قال وهو يبكي: دعوة مظلوم سرت في ظلام الليل غفلنا عنها وما غفل الله عنها!

جاءت تردى تمشي رافعاً ذراها أولها ردت على أراها

قيل لـ علي أبي الحسن رضي الله عنه وأرضاه: كم بين العرش والتراب؟ قال: دعوة مستجابة.

لم يجب بالأميال ولا بالكيلومترات ولا بالمقاييسات، وإنما قال: دعوة مستجابة يرفعها الله على الغمام حتى تصل إليه، ثم يقول: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين. وكان عليه الصلاة والسلام يقول لـ معاذ فيما صح عنه: {واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب}.

أخذ البرامكة، فبقي الشيخ أبوهم في السجن سبع سنوات، طالت أظفاره، وطال شاربته، ما وجد مقراضاً يقلم أظفاره ما وجد مقصاً يأخذ من شاربته، كان يتوضأ ويقضي حاجته في مكانه وفي زنارته، وهو يبكي بعد النعيم، وبعد السرير والديباج.

باتوا على قمم الأجيال تحرسهم غلب الرجال فما أغنهم القل

واستزلوا بعد عز من معاقلهم إلى مقابرهم يا بئسما نزلوا!

{قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

من الذي يصرف الأمور إلا الله؟! من الذي بيده المقاليد إلا الواحد الأحد؟! من الذي يأخذ رقاب الناس ويأخذ لهذا من هذا إلا الله؟! فاعتمد على الله، ولذلك ندد الله بالمشركين والمتخلفين والفجرة فقال: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً} [الفرقان: ٣].

العصفور ينقل للحية رزقها

قال ابن الجوزي في صفة الصفوة: رأى رجل عصفوراً يطير من شجرة إلى شجرة وبفمه لحم، فصعد هذا الرجل إلى النخلة فوجد فيها حية عمياء، فكان إذا اقترب منها العصفور وشوش لها بصوته فتفتح فمها فيضع قطعة اللحم.

حية يصلها رزقها إلى رأس النخلة بعصفور، وهي عمياء يوصوص لها العصفور فترفع فتفتح!!

من الذي دل العصفور؟! إنه الواحد الأحد، رب العصفور، ومن الذي رزق الحية؟! إنه الحي القيوم رب الحية: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦].

مالك بن دينار

قال ابن رجب وهو يروي عن أحد الصالحين، وهو مالك بن دينار قال: نمت في حديقة، فاستيقظت من نومي وإذا بحية أخذت زهرة في فمها وهي تزيل البعوض والذباب عن وجهي.

سبحان الله! ونحن نقر كرامات الأولياء ونشهد أنها حق، وقد أقرها أهل السنة والجماعة، ولكن الشاهد {قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

يرسل رسالة في خشبة فيوصلها عالم الغيب والشهادة

روى البخاري في صحيحه في باب الوكالة: {أن رجلاً من بني إسرائيل ذهب إلى أخيه يستلف منه ويقترض ألف دينار -وكلاهما مؤمنان مصدقان بالله الواحد الأحد- فقال له: أسلفني ألف دينار فأنا محتاج وفقير.

قال: من يكفلك؟ قال: الله يكفلني، قال: رضيت بالله {من رضي بالله سلمه الله وأعطاه ما تمنى، قال: رضيت بالله، وهل بعد الله من مطلب؟!

{قال: من يكفلك؟ قال: الله الواحد الأحد.

قال: رضيت بالله، تعال بالصك؛ فكتب الصك، فلما بقيت خانة الشهادة قال: من يشهد لك؟ قال: يشهد لي الله.

قال: رضيت بالله شاهداً، فكتبوا وشهد على ذلك الحي القيوم، وأخذ الصك وأعطاه ألف دينار، وذهب الإسرائيلي من أخيه لا يدري أين يذهب، ولا يدري أين منزله لكنه توكل على الله.

وبعد حين جاء وقت أداء القرض فذهب هذا الإسرائيلي ليركب البحر ويوصل الدين إلى صاحبه، فإذا أمواج البحر تضطرب وإذا بالهول أمامه، فعاد إلى بيته، ثم رجع إلى الشاطئ فما وجد سفينة ولا قارباً، فدمعت عيناه، وقال: يارب! أراد كفيلاً

فقلت: أنت الكفيل فرضي بك، وطلب شاهداً فقلت: أنت الشاهد فرضي بك، اللهم ادفع له هذا المال.

وأخذ خشبة ونقرها ووضع فيها ألف دينار، ثم كتب رسالة إلى صاحبه، ثم قال: باسم الله، ووضعها في الماء.

فأخذها الكفيل الذي ليس بعده كفيل والشاهد الذي ليس بعده شاهد، وأخذت تندرج على ظهر الماء ولا تغرق، والرجل الآخر في نفس الميعاد خرج ليستقبل صاحبه في السفينة على الموعد، فانتظر فما قدمت سفينة، وما أتى قارب، ولم يأت صاحبه، وإذا بالبحر يرمي إليه بخشبة، فقال: لا أفوت سفري، أخذ هذه الخشبة حطباً لأهلي، فذهب فكسر الخشبة فوجد الألف الدينار ووجد الرسالة {قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

صلة بن أشيم يحفظه الله من الأسد

قال ابن كثير وأبو نعيم بسندين جيدين: كان صلة بن أشيم يغزو في خراسان مع قتيبة بن مسلم، وكان صلة بن أشيم من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر وهو في صلاة وفي عبادة وفي بقاء، فقل لأهل الغناء وأهل البلوت، قل لأهل الطرب والفواحش صلة بن أشيم من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر وهو في دعاء وفي مناجاة.

وكان قتيبة بن مسلم يقول: الحمد لله الذي جعل في جيشي مثلك يا صلة وكان إذا قام يصلي الليل يأخذ بردة بألف دينار ويطيها ويقول: اللهم إنك جميل تحب الجمال ما لبستها إلا لك.

فيلبسها في الليل وإذا أتى النهار خلعها، لا يتجمل للناس، ولو أن التجمل للناس مطلوب، لكن الله هو الجميل الذي يحب الجمال، كما في صحيح مسلم.

فخرج من الجيش بعد أن ناموا، ودخل الغابة وقام يصلي ويتنفل ويبكي، وهو في الجهة في سبيل الله، قريباً من كابل التي ضيعناها يوم ضيعنا لا إله إلا الله.

قام يصلي فأتى الأسد عليه، وأنتم تعرفون الأسد، حيدرة، الهزير، الليث، الذي سمته العرب ملك الحيوانات، كان إذا زار في واد يرتحل العرب من الوادي، لا يصارعه أحد.

فأتى الأسد وهو في الصلاة، فدار عليه قالوا: فما تحول وما تحرك وما اضطرب، فلما سلم من الركعتين قال: يا حيدرة، ياليت، إن كنت أمرت بأكلي فكلني فإنه ليس معي سلاح إلا حماية الله، وإن كنت ما أمرت بقتلي فلن تسلط علي فاذهب واطركني أصلي، فقام الأسد فلوى ذنبه، وخفض صوته، وذهب كأنه جرو الكلب حتى دخل جحره: {قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

قال أحد العلماء: لما أطعنا الله سخر لنا الوحوش، ولما عصينا الله سلط علينا الفئران.

محمد بن واسع

فتح قتيبة بن مسلم كابل وطوقها، فلما اقتربت ساعة الصفر وسلت السيوف، وتنزل النصر من السماء: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ} [آل عمران: ١٦٠] قال قتيبة بن مسلم: التمسوا لي محمد بن واسع الأزدي -أحد الصالحين الأخيار- أين هو؟ فذهبوا

فوجدوه قد صلى الضحى وجعل رمحه إلى الأرض، واعتمد على الرمح وهو يدعو الله بالنصر: يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام نصرك الذي وعدتنا.

فعادوا إلى قتيبة فأخبروه فبكى وقال: والله الذي لا إله إلا هو! إن إصبع محمد بن واسع خير عندي من مائة ألف سيف شهير ومن مائة ألف شاب طير.

{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

خالد بن الوليد وسحقه للروم

جاء في ترجمة خالد -وكلكم يعرف خالد- ومن الذي لا يعرف أبا سليمان؟ من الذي لا يعرف سيف الله المسلول الذي سله الله على المشركين؟ التقى بالروم، وظن خالد أن الروم عددهم نسي، كان جيش خالد اثنين وثلاثين ألفاً، وجيش الروم كان عدده مائتين وثمانين ألفاً، وفي الصباح مع طلوع الشمس أقبلت كتائب الروم تهمدر، والسيوف تلمع مع الشمس، تنزل الكتيبة حتى امتلأت الأودية والجبال والسهول، إلى أين يلتجئ خالد؟ أيلتجئ إلى هيئة الأمم؟ أو إلى مجلس الأمن؟! التجأ إلى الله الواحد الأحد.

{وَمَا زَمَيْتَ إِذْ زَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ زَمَى} [الأنفال: ١٧] {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤] وأتى القادة حول خالد، وصدق خالد مع الله في ذلك اليوم، فقد باع نفسه، حتى يقول عليه الصلاة والسلام: {إنكم تظلمون خالداً، لقد ابتاع أعتده وأدرعه في سبيل الله} فبعث خالد إلى شيخ بدادي السماوة، وهو عربي مسلم اسمه عياض بن غنم.

ولذلك تقول العرب: أقصر كتاب في التاريخ كتاب خالد إلى عياض بن غنم.

فالأمر أعجل من ذلك؛ لأن خالداً ليس لديه وقت يملي ولا يكتب؛ فأخذ الرسالة وكتب إلى شيخ قبائل العرب: بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى عياض بن غنم، إياك أريد والسلام.

وتمهل خالد لئلا يشتبك في الحرب مع الروم، ووصلت الرسالة إلى عياض بن غنم فبكى يوم قرأها، وقام في قبائل العرب وحشد الحشود، وما أتى في الليلة الثانية إلا وقد اجتمعوا مع خالد بن الوليد، لكن ههنا، قبائل الروم مائتان وثمانون ألفاً كالجبال، جيش عرمرم متدربون وقادة، فلما خرجوا، قال أحد المسلمين لخالد: يا خالد ما أكثر الروم وما أقلنا! اليوم نفر إلى جبل سلمى وأجا.

فدمعت عينا خالد، وقال: بل إلى الله الملتجأ.

ثم جرد السيوف، ولم تأت ثلاثة أيام إلا وقد أوقعهم في كربة وفي سحق ومحق لا يعلمه إلا الله: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٤٥].

عقبة بن نافع ينادي الوحوش

خرج عقبة بن نافع قائداً للمسلمين ليفتح شمال أفريقيا، فلما وصل إلى شمال أفريقيا ودخل غابة أفريقيا الموحشة، وإذا بالأسود في طريقه والحيات والعقارب، فقام فصلى ركعتين، وخرج مترجلاً حتى صعد على صخرة وسط الغابة وقال: أيها الأسود - ينادي الأسود في الغابة - أيها السباع! أيها الحيات! أيها العقارب! نحن أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام جئنا نفتح الدنيا بلا إله إلا الله محمد رسول الله، ادخلي في بيوتك.

قالوا: فدخلت في جحورها وخرج.

قصة موسى مع فرعون

يدخل موسى عليه السلام إلى فرعون، وقبل أن يدخل إلى الديوان وهو يعرف أن الموت في الديوان، فإن فيه فرعون الطاغية، وهو إرهابي فتاك، ودكتاتوري مجرم، أعلن خساره في الدنيا والآخرة: {قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى} [طه: ٤٥] فأتى كلام الذي هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦] فتكلم معه بقوة فحفظه الله.

نزل إلى الميدان وقال: ألقوا، فلما ألقوا أوجس في نفسه خيفة، فأتاه كلام الذي هو خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، قال: {قُلْنَا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} [طه: ٦٨] أنت مع الله، ولذلك يقول سيد قطب: عند قوله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩] قال: نحن الأعلون سنداً، والأعلون متناً، ميراثنا من الله، وعزنا من الله، وصلتنا بالله.

أو كلام قريب منه.

{قُلْنَا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} [طه: ٦٨] فأنت الأقوى والله معك، وإذا كان الله معك، فمن تخشى؟!

ألقى العصا ونجا، ولما أراد أن يدخل البحر قال الله له: {اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ} [الشعراء: ٦٣] فأنجاه الله من فرعون، وفرعون لما ضيع الله ضيعه الله.

يونس بن متى في ظلمات ثلاث

قال أهل العلم: دخل يونس السفينة فتموجت بها الريح وعصفت؛ لأن المعصية أليمة، وخيمة العواقب، وقد أرسله الله إلى قومه، فلم يستأذن في الخروج، فقال ربان السفينة: معنا عاص فلنقترع، فاستهموا فوقعت القرعة عليه، ومن وقعت القرعة عليه يضعوه في اليم، فوقعت عليه! فاستهموا ثانية فوقعت عليه! وفي الثالثة وقعت عليه! فأخذوه وألقوه في اليم في الليل، فابتلعه الحوت فأصبح في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة اليم، وظلمة الحوت.

فلما أصبح في بطن الحوت انقطعت صلته بالمخلوقين جميعاً، لا ولد، ولا زوجة، ولا أهل، ولا قوم، ولا مال، ولا رئاسة، ولا منصب، وقال وهو في الظلمات في آخر الليل: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٨٧] وانطلقت لا إله إلا الله إلى رب لا إله إلا الله مباشرة: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠].

قال بعض أهل التفسير: سمعت الملائكة قول يونس بن متى وهو في ظلمات ثلاث: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٨٧] فبكوا وقالوا: يا رب! عرفنا الصوت، ولكن لا ندري أين يونس.

الملائكة لم تعرف في أي قارة، هل هو في أفريقيا، أم في آسيا، أم في البحر أم في النيل أم في دجلة؟ لكن الواحد الأحد يدري أين هو، يدري بالزمان والمكان: {عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه: ٥٢] {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩].

يقول لقمان لابنه: {يَا بُنَيَّ إِنِّي أَنَا تِلْكَ الْكَلِمَةُ الَّتِي كُنْتُ أَقُولُ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [لقمان: ١٦] يا بني! لو كانت حبة كالخردل، وكانت في صخرة مقفلة صماء يأتي بها الواحد الأحد.

قالت الملائكة: يا رب! صوت معروف من عبد معروف لا ندري أين مكانه؛ لأن صوته معروف كان يسبح دائماً، كان في نهاره وفي ليله يقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ فعرف صوته في الملاء، ولذلك بعض الناس يعرف صوته بالتسبيح، وبعض الناس يعرف صوته بالفجور والغناء.

بكت الملائكة وقالت: يا رب! صوت معروف من عبد معروف لا ندري أين مكانه.

قال: أنا أدري، فنجاه الله بكلمة "كن" وقذفه الحوت في الصحراء، وكان عرياناً ليس عليه من الملابس شيء، فأنبت الله عليه في الحال شجرة من يقطين، فأكل من ثمرها، وتظلل بظلها واكتسى، وأرسله الله إلى قومه: {قُلُوا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} * لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤] لأنه حفظ الله في الرخاء فحفظه في الشدة، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: {احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك}.

الأوزاعي في مجلس من مجالس الموت

قال الذهبي وابن كثير وغيرهما: لما فتح عبد الله بن علي العباسي دمشق، وهو ملك من الملوك، أمره عجيب وخبره غريب! وهو عم أبي جعفر المنصور، من أبناء عبد الله بن عباس ما كان يتبسم، حرسه ما يقارب ثلاثين ألفاً، دخل دمشق فقتل في ساعة

واحدة ستة وثلاثين ألفاً من المسلمين، وأدخل بغاله وخيوله في المسجد الأموي، ثم جلس للناس وقال للوزراء: هل ترون أن أحداً سوف يعترض علي؟ قالوا: إن كان ف الأوزاعي.

والأوزاعي هو أمير المؤمنين في الحديث، أبو عمرو زاهد وعابد، راوية البخاري ومسلم.

قال: ائتوني به، فذهب الجنود إلى الأوزاعي فما تحرك من مكانه، قالوا: يريدك عبد الله بن علي.

فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل، انتظروني قليلاً، فذهب فاغتسل ولبس أكفانه تحت الثياب؛ لأنه يعرف أن الأمر ليس فيه إلا الموت، ثم قال لنفسه: الآن أن لك يا أوزاعي أن تقول في الله ولا تخشى في الله لومة لائم.

دخل على هذا السلطان الجبار فغضب السلطان لما رآه، قال الأوزاعي وهو يصف القصة: دخلت فإذا سماطين من الجنود -صفان- قد سلوا السيوف ولاقوا بين رءوسها، فدخلت من تحت السيوف حتى بلغت إليه، وقد جلس على سرير وبيده خيزران، وقد انعقد في جبينه من الغضب، قال: فلما رأيته والله الذي لا إله إلا هو كأنه أمامي ذباب، ووالله ما تذكرت أهلاً ولا مالاً ولا زوجة، وإنما تذكرت عرش الله إذا برز للناس في يوم الحساب.

قال: فرفع طرفه وبه من الغضب ما الله به عليم، لا يتكلم إلا بالدم، والسياف واقف عنده مسلول السياف، والوزراء جلوس عن يمينه وعن يساره، فهم يريدون ملكاً في الدينا.

أخذوا ملك الدنيا ستمائة سنة حتى كانوا يطاردون مغرب الشمس، ويطاردون
نقفور كلب الروم، ويطاردون كل ملحد في الأرض.

فلما جلس قال: ما رأيك يا أوزاعي في الدماء التي أرقناها وأهرقناها؟

قال -آتياً بالسند في موقف ينسى الإنسان فيه اسمه:- حدثنا فلان -بالرواية كأنها
من صحيح البخاري - حدثنا ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لا
يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه
المفارق للجماعة} فإن كان من هؤلاء فقد أصبت، وإن لم يكن فدماؤهم في عنقك.

قال: فنكت بالخيزران، ورفعت عمامي أنتظر السيف، ورأيت الوزراء
يستحضرون ثيابهم ويرفعونها عن الدم.

قال: وما رأيك في الأموال؟

قلت: إن كانت حلالاً فحساب، وإن كانت حراماً فعقاب!!

قال: خذ هذه البدرة (كيس مملوء بالذهب).

قال: لا أريد المال.

قال: فغمزني أحد الوزراء، أي: خذ الكيس؛ لأنه يريد أدنى علة لكي يقتله، قال:
فأخذ الكيس فوزعه على الجنود حتى بقي الكيس فارغاً فرمى به وخرج، ولما خرج قال:
حسبنا الله ونعم الوكيل، قلناها يوم دخلنا وقلناها يوم خرجنا: {فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ
اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شُؤٌّ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل
عمران: ١٧٤].

يقول أحد الصالحين لابنه: هل أدلك على القوة التي لا تغلب؟ قال: نعم، قال: توكل على الله.

ابن أبي ذئب مع المهدي العباسي

دخل المهدي الخليفة العباسي مسجد الرسول -عليه الصلاة والسلام- وفي المسجد أكثر من خمسمائة من طلبة الحديث، أهل العمام والمجابر والأقلام فقام الناس جميعاً إلا ابن أبي ذئب وهو أحد العلماء من رواة البخاري ومسلم، فقال الخليفة المهدي العباسي: يا ابن أبي ذئب قام الناس لي جميعاً إلا أنت لم تقم.

قال: والله الذي لا إله إلا هو لقد أردت أن أقوم لك، فلما تهيأت للقيام تذكرت قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٦] فتركت هذا القيام لذلك اليوم.

قال: اجلس والله ما بقيت في رأسي شعرة إلا قامت.

فقد قال له كلمة من القرآن: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٦] ثم قال: أردت أن أقوم لك، فتركت القيام لذلك اليوم؛ لأنه لا يقام إلا لله الواحد الأحد.

أعرابي يتكلم مع الحجاج في الحرم

قال طاوس بن كيسان، وهو من تلامذة ابن عباس الأبرار الأخيار، ومن رواة البخاري ومسلم والمسانيد، قال: دخلت الحرم أعتمر، فلما أديت العمرة جلست عند المقام بعد أن صليت الركعتين، ولما انتهيت جلست ألتفت إلى الناس وأنظر إلى البيت، وإذا بجلبة السلاح والسيوف والدرق والحراب، فالتفت فإذا هو الحجاج بن يوسف!

ولقد قتل مائة ألف نفس، وقتل سعيد بن جبير، قال أحدهم: رأيت الحجاج في المنام فقال: إن الله قتلني بكل نفس قتلها مرة إلا سعيد بن جبير قتلني به على الصراط سبعين مرة.

دخل الحجاج فسمعت الجليلة، وعنده خدم وحرس وجنود، قال: فرأيت الحراب فجلست مكاني، وبينما أنا جالس إذا برجل من أهل اليمن فقير زاهد عابد، أقبل فطاف بالبيت، ثم أتى ليصلي ركعتين، فتعلقت حربة من حراب الحجاج بثوب هذا اليمني الأعرابي فوقعت على الحجاج؛ فأمسكه وقال: من أنت؟

قال: مسلم.

قال: من أين أنت؟

قال: من اليمن.

قال: كيف تركت أخي؟

أخوه ظالم مثله اسمه محمد بن يوسف وهذا الحجاج بن يوسف أي: كيف صحتة أخي؟

قال: تركته سميناً بطيناً لكنه ناكل في الدين.

قال: ما سألتك عن صحتة بل عن عدله؟

قال: تركته غشوماً ظلوماً!

فقال: أما تدري أنه أخي؟

قال: من أنت؟

قال: أنا الحجاج!

قال: أتظن أنه يعتز بك أكثر من اعتزاي بالله؟

قال طاوس: ما بقيت شعرة في رأسي إلا قامت، ثم أفلته الحجاج.

لماذا؟ لأنه توكل على الله: {قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظٍ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

فالزم يديك بحبل الله معتمصاً فإنه الركن إن خانتك أركان

الحسن مع الحجاج في صراع رهيب

وقف الحسن البصري، وهو إمام التابعين يفضله كثير من العلماء على التابعين كلهم.

اجتمع القراء عند قصر الحجاج يطلبون أعطيات (أرزاقاً) فلبس الحسن البصري ثيابه وأتى على القراء، وقال: بئس أنتم، قبحتم، رققتم نعالكم، وشففتم ثيابكم، وتطيبتم تطلبون الدنيا بعلمكم! أنتم المتأكلون.

ثم قال: هذا الغشوم الظلوم، يقرأ القرآن على لخم وجذام، ويعظ وعظ الأبرار، ويبطش بطش الجبارين، ويلبس لباس الفسقة!

وكان الحجاج في قصره ولكن لديه استخبارات، ثم وصل الكلام إلى الحجاج.

فقال: علي به، والله لأقتلنه هذا اليوم.

وقتل الناس عند الحجاج كذبح الدجاج.

فأرسل إلى الحسن فلما سمع الحسن الجنود قال: أنظروني قليلاً، فدخل في غرفة مع الواحد الأحد {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [المجادلة: ٧] فاختلى بالله وبكى وقال: يا رب! يا ذا القدرة التي لا تضام، والركن الذي لا يرام، أسألك أن تسخره لي وأن تنصرني عليه.

ثم خرج.

وفي أثناء الطريق قلب الله قلب الحجاج؛ لأن قلب الحجاج بيد رب الحجاج {قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

فدخل عليه الحسن، فقام الحجاج فاستقبله عند ركن الباب، وقبله على رأسه، وأخذ غالية من طيب، وطيب لحية الحسن، وقال: هيجناك يا أبا سعيد، اعذرنا ولا نعود إلى ذلك.

فلما خرج قال الوزراء: أين وعودك وأيمانك؟

قال: ما دخل علي حتى كان عندي من أرباب الناس: {قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

الإمام الزهري وصوت الحق

ذكر الشوكاني وغيره في فتح القدير: أن الزهري -المحدث الكبير- دخل على الخليفة هشام بن عبد الملك فقال هشام للعلماء -وكانوا جلوساً عنده-: من الذي تولى كبره؟

الذي تولى كبره في سورة النور هو عبد الله بن أبي بن سلول، في حادثة رمي عائشة بالفاحشة طهرها الله وزكاها، فخاف العلماء؛ لأن هشاماً كان ناصبياً يبغض علي ويدعي ويزعم أن الذي تولى كبره هو علياً رضي الله عنه وأرضاه.

قال لمسلم بن يسار: من الذي تولى كبره يا مسلم؟ قال: الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي.

قال: كذبت، الذي تولى كبره هو علي بن أبي طالب.

قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول.

ثم قال للآخر: من الذي تولى كبره؟ فأخبره فكذبه.

ثم قال لمحمد بن مسلم بن شهاب الزهري: من الذي تولى كبره؟ قال: الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول.

قال: كذبت.

قال: بل كذبت أنت وأبوك وجدك، والله لو نادى مناد من السماء أن الكذب حلال ما كذبت، والله الذي لا إله إلا هو لقد حدثني علقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وحدثني عروة بن الزبير عن عائشة أن الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول.

فارتعد الخليفة وقال: هيجناك، سامحننا! {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

المحافظة على الصلاة

سمى الله أداء الصلاة وحفظها حفظاً، فقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [المعارج: ٣٤] فمن حفظ الصلاة في أوقاتها وخشوعها وخضوعها وجماعتها حفظه الله يوم يضيع الناس: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت: ٤٥].

كان عمر وهو مطعون في سكرات الموت يقول وعيناه تهراق بالدموع: [[الله الله في الصلاة، لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة، من حفظ الصلاة حفظه الله، ومن ضيع الصلاة ضيعه الله]] فمن حفظ الصلاة حفظه الواحد الأحد.

وكان رضي الله عنه يكتب لرؤساء الأقاليم والأمراء: عليكم بالصلاة؛ فإنها أول الإسلام وآخر ما تفقدون من دينكم.

والله يقول: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨].

واعلم أنك لا تحافظ على الصلاة إلا بثلاثة أسباب:

الأول: أن تؤديها في وقتها، فلو أخرتها إلى أن يخرج الوقت ما قبلها الله إلا بعذر، ويرمى بها وجه صاحبها، وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني.

وأول ما يحاسب عليه العبد في القبر الصلاة، فمن حفظها حفظه الله يوم تضيع الأفهام وتضل العقول، وتندesh الأفكار.

الثاني: أن تكون في جماعة، فلا صلاة إلا في جماعة إلا من عذر، يوم ينادى بها في المساجد، يوم يقول لك المؤذن: حي على الصلاة حي على الفلاح؛ فتقوم من فراشك، وتزحف إلى المسجد ليحفظك علام الغيوب.

ويقول عليه الصلاة والسلام في الفقرة الأولى في الوقت، لما قال له ابن مسعود: ما أفضل العمل؟

قال: {الصلاة في وقتها} وعند الترمذي والحاكم {الصلاة في أول وقتها} وهذا هو الحفظ.

الثالث: أن تؤديها بخشوع وخضوع، وأن تعيش مع الإمام وهو يقرأ عليك، وتستمتع هذا القرآن العجيب والنبأ العظيم الذي طرق الدنيا، واعلم -كما قال ابن القيم- أن مواقف الناس في الآخرة وفي العرصات كمواقفهم في الصلاة.

بين عمر بن عبد العزيز والقاهر العباسي

حفظ الله عز وجل كثيراً من الناس في أعمارهم، كالصالحين جميعاً والرسل عليهم الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين، ومنهم على سبيل المثال ولا أذكر الكثرة الكثيرة، لكن أذكر من المتأخرين عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الزاهد العابد، حضرته الوفاة وأطفاله ليس عندهم من المال شيء، خليفة أنفق المال في سبيل الله، فجمع أبناءه، قيل: كانوا سبعة أو ثمانية، وبالبنات كانوا أربعة عشر، فدمعت عيناه وقال: يا

أبنائي ما خلفت لكم مالاً، خلفت لكم الواحد الأحد: {إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف: ١٩٦] ما تركت لكم مالاً، إن كنتم طائعين فسوف يحفظكم الله، وإن كنتم عصاة فما تركت لكم ما تستعينون به على المعصية.

هذا اجتهاده وهذا رأيه الخاص به رضي الله عنه وأرضاه، ثم مات، لكن: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤] حفظ الله أبنائه بعده، حتى قال العلماء: كان أبنائه من أغنى الأغنياء في الناس.

وأتى القاهر -خليفة عباسي- فقال: أكتنز للدهر، أحتفظ بالمال لليالي وللأيام السود، فحفر بركاً في الأرض وملأها من الذهب والفضة، لكن ما اعتمد على الله، وقال لأبنائه: يا أبنائي لا تخشوا الفقر، فقد ملأت لكم في هذه الخزانات والبرك ما لو وزع على أهل بغداد لكان كل بغدادى تاجراً.

فماذا فعل به لما خالف أمر الله؟ خلع من خلافته خلعاً، وسلب سلباً، ثم وسلمت عيناه بالحديد الحار حتى أصبح أعمى، ثم أخذت أملاكه وصودرت إلى الخليفة من بعده وأخذت قصوره؛ وأصبح يقف في المسجد في بغداد ويقول: من مال الله يا عباد الله!

قالوا: فانظر إليه يوم ضيع الله كيف ضيعه الله، وانظر لذاك يوم حفظ الله كيف حفظه الله: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤].

عبد الملك بن مروان حضرته الوفاة فأخذ يقول: يا ليتني ما عرفت الخلافة، يا ليتني ما عرفت الملك لأنه فرط في الدماء، ثم قال: يا ليت أُمِّي لم تلدني! قال ابن المسيب لما سمع هذه الكلمة: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا وقت الموت ولا نفر إليهم.

ابتلاء موسى عليه السلام

رسول التوحيد أنقى وأوضح من الشمس في رابعة النهار، الذي أتى إلى الطاغية فرعون في القصر يقول له لما قال: {فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى} * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى { [طه: ٤٩ - ٥٠] ولكن على صدقه ونصحه وعصمته ماذا فعل به؟

قال أهل التفسير وأهل التاريخ: أتى قارون بكنز عظيم -جرة مملوءة ذهباً- إلى امرأة زانية من بني إسرائيل فقال: خذي هذه الجرة، فإذا اجتمع الناس وقام موسى فينا خطيباً، فقومي وابكي ومزي شعرك، وأقسي أن موسى زنا بك، واجتمع الناس وموسى يتكلم عن التوحيد والإيمان، وقارون يريد أن يمرغ دعوة التوحيد والإيمان، يريد أن يمرغ دعوة موسى عليه السلام في التراب، وأن يمرغ منهجه لئلا يثق به الناس مرة ثانية، ولئلا يصدق الناس مرة ثانية، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره، فالنور نوره، والرسالة رسالته، والرسول رسوله، والمنهج منهجه، فبينما موسى يتكلم، وإذا بالبكاء يرتفع من تلك المرأة تلطم وجهها؛ إنها الخطط البائسة؛ إنها الأكاذيب والتلصيقات، إنها أنواع من المسارح يقدمها بعض المغرضين الحاقدين على الإسلام وعلى علمائه ودعائه.

سكت موسى والتفت إلى المرأة، قالت: أنت فعلت الفاحشة بي، فتلعثم وبكى، ليس في الأرض إلا موسى الذي أرسله الله بالرسالة يفعل هذه الفعل، فوقف يبكي، ولكنه صمد وعرف أنه ابتلاء؛ فرفع عصاه ووقف أمام المرأة وقال: أسألك بالذي شق البحر لي أفعلت ذلك؟ قالت: لا.

ثم بينت أمرها، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً} [الأحزاب: ٦٩] فزاد وجاهة وقوة، وإثباتاً لمنهج أنه صادق.

الإخلاص أكبر قضايا التوحيد

إن الإخلاص أكبر قضايا التوحيد، إن الإخلاص هو الباب الكبير الذي يدخل به العبد على الواحد الديان، إن الإخلاص هو الذي يبقى العمل موفوراً سليماً من العيوب والنواقص: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨ - ٨٩] يوم تتساقط الدعاوى والألقاب الأرضية وأوسمة التراب، وتبقى لا إله إلا الله قوية، وتبقى لا إله إلا الله سليمة، وتبقى لا إله إلا الله منجية لصاحبها.

ولذلك كان معنى لا إله إلا الله أن تخلص العبادة لله، وكان معنى لا إله إلا الله أنك إذا سجدت أو ركعت أو سبحت أو دعوت أو تكلمت تكون عبداً لله، ظاهرك وباطنك يحمل العبودية للواحد الديان.

جاء في كتاب الزهد للإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {قال الله تبارك وتعالى: عجباً لك يا بن آدم! خلقتك وتعبد غيري، ورزقتك وتشكر سواي، أتحبب إليك بالنعيم وأنا غني عنك، وتبغض إليّ بالمعاصي وأنت فقير إليّ! خيرني إليك نازل، وشرك إليّ صاعد!} وهذا مثل العبد الذي لا يتشرف بعبودية الله، ومن الذي لا يتشرف بعبودية الواحد الأحد؟! من الذي لا يتشرف بالإخلاص لله والصدق مع الله؟!

يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر: ٣] إي والله! ألا لله الدين الصافي النقي الذي يريده سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويقول سبحانه: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: ٥] هل أمروا أن يكونوا مرأئين؟ أو منافقين؟ أو مشركين؟ وقال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمر: ٦٥ - ٦٦].

عبد الله بن جحش وسعد بن أبي وقاص يبایعان الله

يقول سعيد بن المسيب رضي الله عنه ورحمه الله رحمة واسعة، وهو الذي ما فاتته تكبيرة الإحرام في المحراب في الروضة ستين سنة، في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقل لأهل المطاعم الشهية والمراكب الوطية والمسكن الرضوية: أين تكبيرة الإحرام؟

وقل لأهل الملابس الجميلة، ولكل من له همم في الدنيا: أين تكبيرة الإحرام؟

وسعيد الذي لا يجد كسرة الخبز، يقول: ستين سنة ما فاتتني تكبيرة الإحرام.

يقول -وهذا الحديث مرسل-: لما اجتمع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في أحد في معركة أحد الصادقة للصادقين، معركة أحد التي قدمها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قصيدة في جبين الزمن، ونجماً في سماء التاريخ، وقف الصحابة قبل ذلك وهم صفوف، صفوا للمعركة كما صفوا للصلاة.

وقبل المعركة قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لعبد الله بن جحش: [[تعال نباع الله هذا اليوم]].

إي والله! قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟} [التوبة: ١١١] لا أصدق من الله، ولا أوفى من الله، ولا أحق بالوفاء من الله، فهل تريدون الثواب من غير الله؟ قال سعد: يا عبد الله تعال نباع الله هذا اليوم، فانزوياء وراء أكمة، فرفع سعد يده وقال: اللهم انصرنا في هذا اليوم، اللهم أعل كلمتك، اللهم أيد دعوتك، فلما انتهى من الكلام تقدم عبد الله جحش أول أمير في الإسلام، الصابر على الجوع والعطش كما سماه صلى الله عليه وسلم، وهو شاب في السادسة والعشرين، فيا أبناء السادسة والعشرين ويا أبناء الثلاثين أين المستقبل مع هذا الدين؟

أين الخدمة لهذا الدين؟

أين العيش في رحاب هذا الدين؟

فيتقدم ويرفع يديه لا يريد إلا إرضاء الله والجنة، لا يريد إلا تلك الرياض، ملّ من الدنيا، فارق الأحباب والأوطان، سافر إلى الحي القيوم فرفع يديه وقال: اللهم إني أسألك صادقاً مخلصاً هذا اليوم أن تواجه بيني وبين عدو لك من الكفار شديد حرده، قوي بأسه، فيقتلني فيك، فيبقر بطني، ويجدع أنفي، ويفقأ عيني، ويقطع أذني، فألقاك بهذه الصورة، فتقول لي: يا عبد الله لِمَ فَعَلَ بِكَ هَذَا؟ فأقول: فيك يا رب! قال سعد بن أبي وقاص: فوالذي نفسي بيده لقد أتيت في آخر المعركة، وإنه لمقتول بين

القتلى، مبقور بطنه، مجدوع أنفه، مفقوعة عيناه، مقطوعة أذناه، فقلت: أسأل الله أن يكمل له سؤاله.

هذا هو الصدق، ويوم صدقوا مع الله أثابهم الله بالصدق، ولبي لهم ما سألوا.

أعرابي يصدق مع الله

يأتي أعرابي من الصحراء، لكنه يفهم حرارة لا إله إلا الله، ويدرك عمق لا إله إلا الله، فما لنا اليوم نكررها، ولكن ليس لها ذلك الطعم؟ لأننا خالطناها بالمعاصي والمخالفات، وما يناقضها {يأتي أعرابي فيقول: يا رسول الله! فيقول صلى الله عليه وسلم: نعم.

قال: أبايعك على لا إله إلا الله وأنتك رسول الله، فيبايعه صلى الله عليه وسلم، وتأتي الرسول صلى الله عليه وسلم غنائم، فيعطي هذا الأعرابي منها، فيقول: يا رسول الله! ما على هذا بايعتك، قال: على ماذا بايعتني؟ قال: بايعتك على أن يأتيني سهم من عدو كافر، فيقع هنا ويخرج من هنا، فتدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم -لأنه أحس صدق هذا الأعرابي ووضوحه وإخلاصه- فقال له: إن تصدق الله يصدقك.

وما أن انتهت المعركة إلا ويأتي سهم طائش، فيقع في لبة هذا الأعرابي ويخرج من قفاه، فيراه صلى الله عليه وسلم مقتولاً، فيمسح التراب من وجهه ويقول: صدقت الله فصدقك الله {إنه الصدق! إنه الإخلاص! إنه طلب ما عند الحي القيوم.

إخلاص عبد الله بن عمرو الأنصاري

وإن ننس فلا ننسى قصة عبد الله بن عمرو الأنصاري، الذي أنزل الله فيه وفي إخوانه قوله تبارك وتعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ

رَبِّهِمْ يُزَرِّقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

أتى عبد الله بن عمرو فصلّى صلاة الليل قبل معركة أحد بليلة، قام فتهجد ورفع يديه يوم أن كان السلف الصالح يتهجدون، ويوم أن كانوا يناجون الله في الثلث الأخير في الساعات الحبيبة القريبة من الحي القيوم، يوم أن يتجلى الله، وينزل نزولاً يليق بجلاله إلى سماء الدنيا، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأجيبه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ فقام هذا الصحابي في هذه الساعة ودعا الله سُبحانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يوفقه للشهادة، فعلم الله صدقه وإخلاصه، ثم في الصباح قال لابنه جابر: يا بني! إني رأيت في المنام كأني مقتول غداً في المعركة، فعليك بأخواتك، وأستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

وذهب إلى المعركة، واغتسل وتحنط وتكفن، ووقف في الصف صادقاً منيباً مخلصاً مع الله عز وجل.

وفي آخر المعركة أتى ابنه جابر فإذا أبوه مقطوع أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأتي أخته، فتبكي وتقول: {يا رسول الله! أهو في الجنة فأصبر وأحتسب، أم هو في غير ذلك؟ قال: أهبلت؟ أجننت؟ إنها لجنان كثيرة، وإن عبد الله في الفردوس الأعلى}.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {يا جابر! أتدري ماذا فعل الله بأبيك وإخوانه من الشهداء؟ قال: قلت لا أدري يا رسول الله! قال: والذي نفسي بيده لقد كلمهم كفاحاً بلا ترجمان، قال: تمنوا عليّ، قالوا: نتمنى أن تعيدنا إلى الدنيا، فنقتل فيك ثانية.

فقال: إني كتبت على نفسي أنهم إله لا يرجعون فتمنوا.

قالوا: نتمنى أن ترضى عنا، فإننا قد رضينا عنك.

قال: فإنني قد أحللت عليكم رضائي فلا أسخط عليكم أبداً.

فجعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر، تَرِدُ الجنة، وتشرب من ماء الجنة، وتأكل من ثمار الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة بالسماء أو بالعرش حتى يرث الله الأرض ومن عليها} قال ابن كثير رحمه الله: إسناد هذا الحديث حسن.

فقد صدق رضي الله عنه وأحسن، ولما صدق هؤلاء مع الله وفقهم الله.

قصة عبد الغني المقدسي

روى صاحب طبقات الحنابلة: أن عبد الغني المقدسي المحدث الشهير النحرير، كان مسجوناً في بيت المقدس في فلسطين، فقام من الليل صادقاً مع الله مخلصاً، فأخذ يصلي، ومعه في السجن قوم من اليهود والنصارى، فأخذ يبكي حتى الصباح، فلما أصبح الصباح، ورأى أولئك نفر هذا الصادق العابد المخلص، ذهبوا إلى السجن، وقالوا: أطلقنا فإننا قد أسلمنا، ودخلنا في دين هذا الرجل، قال: ولم؟ أديناكم للإسلام؟ قالوا: ما دعانا للإسلام، ولكن بتنا معه في ليلة ذكرنا بيوم القيامة! كانت دَعْوَتُهُمْ بإخلاصهم وعبادتهم وبنسكهم.

رؤية أيوب السختياني تذكر بالله

قال أهل العلم في ترجمة أيوب بن أبي تميمة السختياني: كان إذا خرج إلى السوق ورأى الناس وجهه، قالوا: لا إله إلا الله.

لأنهم يُذكرون برؤيتهم الحي القيوم، ما كان يتحدث ولا يدعو، وإنما كان يخرج على الناس، فإذا رآه الناس قالوا: لا إله إلا الله، وكان يحفظ الله سُبحَانَهُ وتَعَالَى عباده بالصدق والإخلاص.

إخلاص الإمام أحمد وصدق

وما حفظ الإمام أحمد في المحنة إلا بالصدق والإخلاص، وهو القائل:

الإخلاص سيف إذا وضع على جرح برئ بإذن الله؛ لأنه دواء وعلاج.

دخل الإمام أحمد السجن، وعلم الله أنه صادق، ومكث في السجن ثمانية وعشرين شهراً، صائماً نهاره، قائماً ليله، صادقاً مع مولاه، ما أكل للسلطان لقمة، ولا شرب للمعتصم شربة، وإنما بقي صادقاً مع لا إله إلا الله، فجعل الله الرفعة لأهل لا إله إلا الله، وجعل الخزي لأهل البدع الذين حاربوا لا إله إلا الله.

أتى به فعرض على السيف خمس مرات، فأبى أن يلين، وأبى أن يهادن، وأبى أن يستسلم لأنه صادق، والصادق لم يكن له أن يستسلم، يقولون: ألن في الكلام اقرب في الخطاب! فآبى ويصبح بقوة الله أسداً هصوراً.

ولما حضرته الوفاة قال: اللهم سامح من شتمني، اللهم سامح من سجنني وضربني إلا صاحب البدعة -يعني ابن أبي دؤاد- فعذبه واحبسه في جسده، فكان جزاء الصدق مع الله أن ينكل الله بعدو هذا الصادق، فيحبس أحمد بن أبي دؤاد في جسده، ويصاب بمرض الفالج، نصفه يابس ميت، والنصف الآخر حي، قال له زواره وعواده: كيف تجددك؟ قال: دعوة أحمد بن حنبل وصلّيتني في هذه الحياة الدنيا، قالوا: وكيف؟ قال:

دعا عليّ أن أحبس في جسعي، فأما نصفه فقد مات منذ زمن، والله ما أحس به ولو قطع بالمناشير، وأما نصفي الآخر فوالله لو وقع ذباب لآلمني ألماً أشد من ألم القتل.

أو كما قال.

ودعا الإمام أحمد على عدوه الآخر ابن زيات فنكل الله به، وقطعت يده وحبس، لأن الصادق لا بد أن يخرج الله، ولا بد أن ينجيه الله عز وجل.

أصبع محمد بن واسع خير من ألف سيف

وهذا محمد بن واسع الأزدي، العابد الذي يقول له تلاميذه: لماذا لا تتكئ؟ فقال: أنا خائف والخائف لا يتكئ، إنما يتكئ من أمن عذاب الله! قالوا: فمتى تأمن؟ قال: لا آمن حتى أدخل الجنة.

حضر فتح كابول، التي فقدت من أيدينا يوم أن نقص صدقنا وإخلاصنا مع الله، التي ذهبت من أيدينا يوم لم نرفع لا إله إلا الله كما ينبغي كابول التي فتحها العباد الزهاد، والتي وقف على شرفاتها وعلى روايتها محمد بن واسع مع جيش قتيبة بن مسلم.

وكان في برنامج محمد بن واسع أن يصوم كل يوم، وأن يصلي لله ما يقارب أربعين ركعة، وأن يستغفر كذا من المئات التي يفتح الله بها عليه، ثم هو في تذكّر لقاء الله حضر المعركة مجاهداً مستبشراً بفتح الله ونصره، ولما التقى أهل الإسلام وأهل الأصنام؛ أهل لا إله إلا الله وأعداء لا إله إلا الله؛ التقى أهل الحق وأهل الباطل، قال قتيبة بن مسلم: يا معشر الناس! أين محمد بن واسع الأزدي؟ قالوا: لا ندري.

فقال: أسألكم بالله أن تبحثوا لي عنه -ذكر هذا ابن كثير - فذهبوا يبحثون عنه، فوجدوه قد صلى صلاة الضحى، ووقف على رمحه رافعاً أصبعه يقول: يا حي يا قيوم! يا حي يا قيوم! يا حي يا قيوم!

فعادوا إلى قتيبة بن مسلم فأخبروه، فقال: الحمد لله أبشروا بالنصر!

والله الذي لا إله إلا هو لأصبع محمد بن واسع خير عندي من ألف سيف شهير وألف شاب طرير.

وانتصر المسلمون، وتقدم قتيبة بن مسلم يوم أن كان صادقاً مع الله، فرأى أصنام داهر، وأتباعه الكفرة في كابول، وهي بالذهب محلاة، فقالوا: خذها كنوزاً لك في بيت مال المسلمين، فقال: لا والله! لا يدخل بيت مال المسلمين كنز عبد من دون الله ولو كان ذهباً، حرقوها بالنار فنسفوها بالنار.

فهؤلاء الصادقون مع الله، والمخلصون لله، نصرهم الله، وحفظهم ووقاهم لصدقهم معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إنه حفظه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأوليائه؛ حفظهم كما يقول ابن رجب: من العدو الظاهر والعدو الباطن من المعاصي والمخالفات.

عمرو بن العاص في ساعة الاحتضار

جاء في صحيح مسلم عن شفي المهرى قال: [[حضرنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه وهو في سكرات الموت وهو في مصر، فاشتدت عليه سكرات الموت وجاء في غير الصحيح: قال له ابنه عبد الله: يا أبتاه! إنك كنت تسألني ما هو شدة الموت وأنت في الحياة، فأنت اليوم أحسن من يصف الموت، فصف لي الموت؟ قال: يا بني! والله

الذي لا إله إلا هو لكأن جبال الدنيا على صدري، وكأني أتنفس من ثقب إبرة قال شفي فحضرناه وهو في سكرات الموت، وقبل أن تفيض روحه حول وجهه إلى الحائط، وأخذ يبكي بكاءً طويلاً، وينتحب انتحاباً شديداً، ثم التفت إلينا، وابنه عبد الله يحسن ظنه بالله، ويقول: يا أبتاه! أما أسلمت؟ أما هاجرت؟ أما جاهدت؟ وكل ذلك لا يزيد عمرو بن العاص إلا بكاءً، فيقول رضي الله عنه وأرضاه وقد قلص الدمع من عينيه: يا بني! إني عشت حياتي على طباقٍ ثلاث: أما الطباق الأولى فكنيت في الجاهلية، لا أعرف الإسلام، وكان أبغض الناس إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو تمكنت منه على تلك الحال لقتلته، ولو مت على تلك الحال لكننت من جثي جهنم، ثم أسلمت، وقدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة فلما رأيته هش وبش في وجهي]]

ما أحسن هذه الكلمات! ما أحسن (هش وبش) للدعاة وللصالحين وللأخيار! قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩] {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤] وقال: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨].

قال عمرو: {فلما جلست قلت: يا رسول الله! مد يدك لأبايعك، فمد عليه الصلاة والسلام يده الشريفة، فلما بسط يده قبضت يدي، قال: ما لك يا عمرو؟ قلت: أشرت، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال: تشتط ماذا؟ قلت: أشرت أن يغفر لي ربي ذنبي قال: يا عمرو أما تدري أن الإسلام يهدم ما قبله، وأن التوبة تجب ما قبلها؟ قال: فأسلمت، فوالله ما كان من أحد أحب إليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووالله ما ملأت عيني منه، ووالله لو سألتهموني الآن أن أصفه ما استطعت أن أصفه، فلو مت على تلك الحالة لكننت أرجو أن أكون من أهل الجنة، ثم لعبت بي الدنيا ظهراً لبطن، فوالله لا أدري أيؤمر بي إلى الجنة أم يؤمر بي إلى النار، ولكن إذا مت فشدوا عليّ أزراري فإني مخاصم، وفي رواية في الصحيح: فامكثوا على قبري قدر ما تنحدر جزور وتقسم،

ثم ما عندي من عمل ألقى به الله إلا (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ثم قبض يده
عدا أصبعه السبابة ليلقى الله بيده وهي تحمل لا إله إلا الله للصادقين.

فيا بشرى من صدق مع الله! ويا بشرى من أخلص لله! لأن كل عمل لا يراد به الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَذهب وينتهي وينقضي، ويبقى ما لله تبارك وتعالى، ويوفى الصادقون
بصدقهم عنده تبارك وتعالى.

زواج جليبيب

هذا جليبيب أحد المساكين من الصحابة، ليست له أسرة معروفة، ولا عنده
جسم بهي جميل، وليس عنده مال، ولا يمتلك منصباً يديره، أتى إلى الرسول عليه
الصلاة والسلام في ثياب ممزقة، وفي هيئة الله أعلم بها.

بطنه جائع، وكبدته ظامئة، وأعضاؤه هزيلة، ووجهه شاحب، فقال له صلى الله
عليه وسلم: [يا جليبيب! ألا تتزوج؟! قال: يا رسول الله! غفر الله لك ومن يزوجني -لا
جمال ولا مال- ومرة ثانية يقول له صلى الله عليه وسلم: يا جليبيب ألا تتزوج؟! فيقول:
يا رسول الله! من يزوجني لا جمال ولا مال؟! لأن كثيراً من الناس لا يزوج إلا على
الدراهم والدنانير، يزوج الرجل إذا رأى عنده ممتلكات وسيارات وشاحنات وناقلات
وقصوراً، فيبيع ابنته لذاك الرجل كما تباع الناقة والسيارة، في سوق المزاد، لا ينظر
إلى صلاة ذاك الرجل، ولا إلى صدقه، ولا إلى أمانته، قد يكون هذا الرجل فاجراً سكيراً
لعيناً طريداً بعيداً ولكن أنساه ذلك كله مال ذاك الرجل، ومنصبه وسيارته وقصره،
فيبيع بنته، فيخسر الدنيا والآخرة فيقول له صلى الله عليه وسلم في الثالثة: ألا
تتزوج؟! قال: يا رسول الله! من يزوجني لا مال ولا جمال؟ فيقول صلى الله عليه وسلم:
اذهب إلى ذاك البيت من الأنصار، وقل لهم: رسول الله صلى الله عليه وسلم يبلغكم
السلام، ويقول: زوجوني بترككم، هذا مرسوم من كلام محمد عليه الصلاة والسلام:

حتى وضعت يميني ما أنازعها في كف ذي نقمات قوله القيل

فذهب فطرق الباب، قال أهل البيت: من؟ قال: جليبيب، قالوا: مالنا ولك يا جليبيب، فخرج صاحب البيت، فقال: ماذا تريد؟ قال: الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغكم السلام، فارتج البيت بالدعاء والرد: وعليه الصلاة والسلام، قال: ويقول: زوجوني بنتكم، فيقول الوالد: الله المستعان! لأن جليبيباً فقير، وأسرته فقيرة لا مال ولا جاه ولا منصب، يملك ثوبه الممزق، فيقول: أعود إلى زوجتي -لأنها تملك الحق، وتملك هذه المراسيم بما يسمونه حق الفيتو في هذه المواقف- فعاد إليها فقالت: الله المستعان! لو كان غير جليبيب، نزوج ابنتنا جلييباً! فاجتمعوا على أن يردا ويرفضا، فسمعت البنت العابدة الناصحة الصالحة، فقالت: أتردان أمر الرسول صلى الله عليه وسلم عليه؟ لا والله فيتوافقان ويتم الزواج، ويدعو له صلى الله عليه وسلم بالخير، فينشئ بيتاً في الإسلام، أساسه على الخير {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٠٩] أفمن أدخل ابنته بيتاً مسلماً تالياً لكتاب الله مستقيماً ذاكراً لله خير أم من أدخل ابنته بيتاً مغنياً فاحشاً ضالاً ظالماً؟! لا يستوون، وعاشت هذه المرأة في سعادة، وأنجبوا أطفالاً مشاعل في التاريخ، علماء ودعاة.

المعاصي سبب المصائب

إن ما يصاب به الناس في أملاكهم وأنفسهم ودورهم وأعراضهم إنما هو ابتلاء من الله عز وجل، وله أسباب ومسببات، وإن من أعظم الأسباب ومن أجلها: الذنوب والخطايا والمعاصي التي يفعلها البشر، وفي الأثر: {من لم يعرفني سلطت عليه من لا يعرفه}.

من لا يعرف الله في المسجد، ولا يعرف القرآن والاتصال به والخلود والسكون إليه، والرضا بحكمه والتحاكم إلى شريعته، وأكل الحلال؛ سَلَطَ الله عليه زنديقاً فاجراً بعثياً علمانياً لا يعرف الله، وهذه سنة من سنن الله في الكون؛ قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} [البقرة: ٢٥١] وقال: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٤٣].

لو أنهم يوم سمعوا ببأسنا وتدميرنا وأخذنا العصاة بالعصاة تضرعوا إلى الله وعادوا، وأكثروا من التوبة والاستغفار، ولكن هميات!

في الأثر يقول بعض السلف ولا يصح حديثاً: [[من لم يتعظ بالقرآن والموت، فلو تناطحت جبال الدنيا بين عينيه ما تعظ]] بعض الناس استمرراً الخطيئة، وشرب المعصية، وأحب الفاحشة، يسمع دكدكة الصواريخ ولا يتوب، ويرى منزله ينسف من على وجه الأرض ولا يستغفر، ويرى عرضه ينتهك وأطفاله يذبحون ولا يعود إلى الله، قال تعالى: {وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٤٣] والتزيين فعلته الأمة الإسلامية في هذا العصر، وزين لكثير من شعوبها الخطأ ورضيت به، فمعظم العالم الإسلامي لا يحكم بشريعة الله، إنما يتحاكم إلى القانون، ويقولون دول إسلامية! ولكن شريعتهم التي يتحاكمون إليها هي قانون نابليون بونابرت، وشرائع حمورابي، ومخططات هتلر، قال تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠]

كثير من العالم الإسلامي الآن استمرراً الربا فلا ينكره أبداً، يأكله ويشربه ويلبسه، وأصبح أمراً اعتيادياً؛ بل انبرى بعض الدكاترة الذين أضل الله قلوبهم، فبرروا وجود الربا في المجتمع المسلم.

يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عن الذنوب وعن آثارها التي تقع في مجتمعات الناس: {ظَهَرَ
الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ} [الروم: ٤١] قال بعض العلماء: "ما ظهر فساد في الهواء ولا ركود في الماء ولا
اختلاف في الناس؛ إلا بسبب الذنوب".

سقوط الأندلس

سقوط الأندلس عجيب!

كان في الأندلس ملوك مسلمون، وأمة مسلمة، مرت بهم الفترة إلى ما يقارب الرابع
والخامس من القرون، ثم بدأ اللهو، وتحكيم الشريعة أصبح اسمياً عندهم، أصبحت
الجواري المغنيات يمررن في السوق وينادين على أنفسهن من يشتري؟

أبطل الحجاب في الأندلس، أدخل النصارى مع المسلمين، فأصبحوا يمرجون في
بيوتهم ويخرجون ويدخلون.

كانت ولادة إحدى الشاعرات التي تدعي الإسلام، مثل بعض الشاعرات الآن في
العالم العربي تدعي أنها مسلمة، ولكنها ناشرة شعرها، ناشرة فتنها، مضیعة دينها،
مضیعة شرفها وعفافها، وتدعي أنها مسلمة، كتبت ولادة بيت شعر على وجهها تعرض
نفسها على الناس، وكان علماء الأندلس محدثون لكن أصبح صوتهم ضعيفاً،
وأصبحت النغمة والميدان لأهل المعاصي، وأصبح المتكلمون -أهل الفجور- الذين
يتصدرون المجالس أهل غضب الله وسخط الله ولعنته، وأصبح العلماء في الزوايا
مندسون، ما عندهم مكانة ولا يسمع لهم أحد، وليس لهم سلطان، إنما السلطان
لأهل المعاصي.

ويا أيها المسلمون! هذه نظرية مصدقة من التاريخ، إذا كان العلماء في مقدمة الناس وكانوا محترمين ومقدرين؛ فاعلم أن الأمة منتصرة.

ويوم يقل شأن أهل العلم ويستذلون ويستضعفون فاعلم أن الأمة طوي البساط من تحتها.

الرافضة يبالغون في تقدير علمائهم إلى حد القداسة التي نرفضها نحن، فيصفونهم بأنهم الآيات والحجج وكأنهم رسل بين الرافضة، يطاردونهم في كل مكان يتمسحون بهم وهذا نرفضه، وهذا غلو يخالف شرع الله، نحن نحترم العالم بأن نقدر كلمته وأن نسمع لنصيحته، وأن ننصت له، ونستشير، ونجعله موجهاً للجيل، ونرى له المكانة اللائقة به ليقود الأمة، قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩] وقال: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨]

وقال: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: ١١].

العلماء هم النجوم ولكن لا أقول لهم.

الشاهد: استمرت الأندلس على هذا الوضع المنحط، وأنا أعلم وأنتم تعلمون أنه كان في الأندلس دعاة وعلماء يبيكون ويصيحون وينادون: يا عباد الله عودوا إلى الله! لكن:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ولو ناراً نفخت بها أضواء ولكن أنت تنفخ في رماد

أعرضوا عنهم، وتولوا عنهم، خمر وسكر، وعهر وغناء، وربا، وعدم تحكيم لشرع الله، وتسلب الفجرة، وبطانة سيئة، فسلب الله عليهم من لا يعرفونه، فاجتاحهم النصارى مثلما اجتاحت صدام الكويت، أمسوا هادئين مطمئنين وفي الصباح أتت جيوش النصارى -الفرنجة- كالجبال، فهدموا المدن وأزالوا المساجد وحولوها إلى كنائس، وأدخلوا جرار الخمر في المنابر، وأخذوا المصحف ومزقوه وداسوه، وأخذوا الشيوخ وذبحوهم، وأخذوا النساء فاستباحوهن، وذلك بسبب المعصية ونسيان عهد الله، قال تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَدَّ بَنَاهَا عَذَاباً نُكْراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾ [الطلاق: ٨ - ٩].

إنها العبر والعظات، لكن لمن يتذكر ولمن يعي.

الإملاء والإمهال

الإملاء أي: الإمهال.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأْمُرِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]

فتجد بعض الطغاة عمره أطول من عمر الفيل فلا يموت، يسفك دماء المسلمين ويقتل، ويهدم المساجد، ويمزق المصاحف وتقول: عجباً، ما أطول عمر هذا المجرم! لماذا لا يقصم الله ظهره؟

لكن الله يقول: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} [إبراهيم: ٤٢] فهذا يكس من الخطايا مثل الجبال، ويكون عنده من الذنوب وسجلات السيئات مثل الجبال، قال تعالى: {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُ لَهُمْ هَوَاءَ} [إبراهيم: ٤٢ - ٤٣].

سنة من سنن الله أن يملي للظالم، وقد ورد في الحديث الصحيح: {إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته} حتى تجد بعض الظلمة من أنعم الناس، وأقواهم صوتاً وصولاً وقوةً وسمعةً، وتجد بعض المؤمنين مضطهدين، وبعض الأولياء في خيمة جوع وعطش وعري، وذلك المجرم متسلط، فيأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، حتى إذا أخذه لم يفلته، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢].

فهذه مسألة لا تغيب -مسألة الإملاء- وهي أن الله يملي ويمهل للظالم ويعطيه من طول العمر، حتى سمعنا من بعض الناس من يقول عن الطغاة في الشرق والغرب: لماذا يتركهم الله هذه السنوات؟ الواحد بلغ الثمانين لماذا لا يأخذه الله ليستريح الناس منه؟

حكمة بالغة وقدر من الله، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} [الفرقان: ٢٠].

الاستدراج

يقول سبحانه وتعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٨٢] فيأتيهم الله من حيث لا يتصورون، فيأخذون الاحتياطات ويحاولون الاستقرار، لكن يأخذهم

الله من مكانٍ ما ظنوا أن الله سيأخذهم منه، يقول سبحانه: {أَمْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ} [الزخرف: ٧٩] فإذا خططوا لشيء في الليل فتخطيط الله أعظم، والبرم عند العرب: لف الخيط حتى يصبح شديداً، يقول الله تعالى: {فَإِنَّا مُبْرِمُونَ} [الزخرف: ٧٩] يقول: إن كان عندهم مخططات في الكواليس والسراديب تحت الأرض؛ فأخبرهم: {فَإِنَّا مُبْرِمُونَ} [الزخرف: ٧٩].

ويقول سبحانه وتعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَايَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ {البقرة: ٨ - ٩} ثم يقول: {وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤] أي: يخطب في حماية الإسلام بينما هو يقتل المسلمين، ويشردهم، ويهدم مساجدهم، ويمزق مصاحفهم، ويقول: إنما نحن مستهزون بهذه الأجيال، قال الله عز وجل: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ {البقرة: ١٥ - ١٦}.

وهذا هو القرآن يعرض نفسه على البشر، يقول سيد قطب: "بدأت سورة محمد بهجوم أدبي على أعداء الله" مطلع السورة مثل السيف، فيقول الله في أول السورة بدون مقدمات: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ١] فهذه أول جائزة وأول عطية: أن الله أضل أعمالهم.

والثانية: قال سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} [محمد: ٢] لماذا؟

قال سبحانه: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ} [محمد:٣] اتبعوا استالين ولينين وفرعون وإبليس وميشيل عفلق {وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} [محمد:٣].

وبعد آيات يقول سبحانه: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} [محمد:١١] فهو ضائع مثل الحمار الضائع ليس له هوية، يصلح أن يكون مرة بعثياً، ومرة ناصرياً، ومرة اشتراكياً، ومرة شيوعياً، فتدخل به كل مدخل، ويدشغل على كل موجة، مثل الماس يعطيك مع الشمس كل صورة، أما المؤمن فمبادئه ثابتة في الليل والنهار، في السلم والحرب، مسلم يحمل لا إله إلا الله في دمه، وعروقه ولحمه وشحمه وعصبه، لا يساوم على عقيدته ولو دفعت له الأرض بما فيها، فهذا هو الاستدراج.

الحكم بغير ما أنزل الله

من الذنوب العظيمة التي وقعت بالبلاد الإسلامية الحكم بغير ما أنزل الله، وأنا لا أعرف بلداً إسلامياً يحكم بالشرعية إلا هذا البلد.

تلك البلاد كلها ولو ادعت الإسلام لا تحكم بالشرع، نعرف تاريخهم وكتبهم بين أيدينا، ولو صلى أحدهم وصام وحج واعتمر وطاف في البيت سبعين مرة، فهؤلاء الزعماء يرون أن الشريعة ليست مصدر ثقة، وأنها لا تواكب العصر، ولا تصلح لقيادة الأمة، ولا تصلح للدولة، ويأخذ الأحكام الشخصية من قوانين نابليون، فكيف ينصر الله قوماً لا يحكمون الشرع؟! وعندهم القرآن يقرأ على الجنائز، وفي المقابر، ويقرطسونه في قراطيس ويلقونه بخيوط، وينفثون به على المصروع، وإذا جن إنسان

يركون على صدره ويقرءون عليه، قالوا: القرآن أنزل لهذا! وإذا أتى زواج ابتدءوا به في الزواج، أو في حفل، أو افتتاح المشاريع! أما تحكيم القرآن والسنة فما يحكمونه أبداً، فهذه حقيقة يعرفها الرأي العام عندنا بصراحة.

لا وطنية في الإسلام

لا وطنية في الإسلام، وليس بين المسلمين وطنية، فكل أوطان الله أوطاننا، وكل بلد يُذكر فيها اسم الله هي بلادنا، أما جعل الإقليمية والوطنية فهذا مبدأ وشعار مرفوض، فلا وطنية في الإسلام، جمعنا الدين ولم يجمعنا الدم، لأن هؤلاء العلمانيين يقولون: أخوة الدم أخوة اللغة أخوة الضاد!! وهذه الشعارات كلها خطأ، هذه كلها أصنام وطواغيت، نحن أخوة لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فلا وطنية في الإسلام.

حقيقة الحكمة

كلمة الحكمة وكيف تعرف:

بعض الناس يستخدم كلمة الحكمة خطأ، فإذا نهيت عن شرب الخمر، قال لك: لا.

عليك بالحكمة، لا تجرح مشاعر الناس، وإذا غضبت من انتهاك حرمت الله، فيقول: الحكمة والأسلوب، لا تجرح المشاعر.

وهذا لا يعلم ما هي الحكمة؟

فبعضهم يجعل الحكمة أن تموت ولا تتكلم أبداً، يقول: لا تؤذ، لا تكن متزمتاً أتركنا عليك أن تتقي بنفسك نفسي أما أن تأمر فإنك تأخذ عداوة الناس تجرح مشاعر الناس!! وهذا كله خطأ بل الحكمة توضع في موضعها، فقد يكون من الحكمة

أن تغضب، وقد يكون من الحكمة أن تشكوه إلى ولي الأمر، وقد يكون من الحكمة أن ترفع عليه قضية وتجلسه أمام القاضي، فرجل يسب الله تسمعه في الشارع أتنتصت وتذهب وتقول: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها؟ لا.

ارفعه إلى السلطان، والله! لو أحدنا سرقت منه عشرة ريالات لغضب، أو أخذ من عرضه لأقام الدنيا وأقعدھا، لكن في حدود الله كثير من الناس يسمع ويرى ولا ينكر.

التطرف اللاديني

هم يقولون: أهل الصحوة أهل تطرف، لكنهم ليسوا متطرفين، وهؤلاء الزنادقة والملاحدة وأهل الحداثة هم المتطرفون؟ من المسئول عن الخمر؟ من المسئول عن المخدرات؟ من المسئول عن الفواحش؟ من المسئول عن تضييع الجيل؟ هم.

هذا هو التطرف.

أما نحن فليس عندنا تطرف، وإن كان فصور نادرة شاذة، يأتي واحد بها من الألف، أما الكثرة الكاثرة فلا يوجد تطرف، بل استقامة في الجميع، فهؤلاء الذين أمامي والألوف المؤلفة من غيرهم من الشباب من أهل السنة والجماعة يعرفون الولاء لله ولرسوله ولأئمة المسلمين، ويعرفون الطاعة، ويعرفون الانضباط والحكمة، وأحدهم تثق بعقله ودينه وعلمه؛ لكن يأتي شاب فيسيء التصرف فيقولون: كل الشباب متطرفون هذا خطأ!!

أبو العلاء المعري واستهزاؤه بالدين

وكان من أجداد المذهب الباطني، الزنديق أبو العلاء المعري الشاعر الفيلسوف المحسوب على الإسلام، الذي امتنن دين الله، وضحك على شريعته، واستهزأ بآياته في أبياته التي يقول من ضمنها، وهو يعترض على قطع يد السارق:

يدٌ بخمس مئین عسجدٍ ودیت ما بالها قطعت في ربع دينار

يقول: هذه اليد ديتهما في الإسلام خمس من المئین العسجد الذهب -فإذا سرقت ربع دينار قطعت، فكيف تقطع؟

تناقض ما لنا إلا السكوت له ونستعيز بمولانا من النار

يقول: هذا تناقض في دين الله.

وما التناقض إلا في عقله وقلبه يوم طبع الله عليه، وفضحه وأخزاه، فاعترض على شريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك رد عليه جهابذة الإسلام، وقال أحدهم:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل لخيانة فافهم حكمة الباري

وقال له عبد الوهاب المالكي العالم الكبير وهو يحاكمه عند الله، ويقول له:

قل للمعري عار أيما عار جهل الفتى وهو عن ثوب التقى عاري

لا تقدح بنود الشرع عن شبه شرائع الدين لم تُقدح بأشعار

فابتلاه الله بعمى القلب والبصر وأخزاه الله، حتى قال المؤرخون: ما دفن أبو العلاء ووضع في قبره إلا والتقت لسانه حية لها ذنبان اثنان كما قال ابن كثير وغيره، وهذا خزي الدنيا، وللآخرة أشد خزيًا وعارًا ونكالاً.

الهدهد يحمل هم الدعوة

وليستح الإنسان أن يكون الهدهد أعز منه جانباً وأقوى همة وأكثر حماساً لدين الله، هدهد يطير من اليمن من سبأ ويقع إلى أرض كنعان أو إلى فلسطين في كلام بعض أهل العلم، فيتأخر على سليمان، ويريد سليمان أن يأخذ منه ضريبة التأخر، فيجيب: {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ} [النمل: ٢٢] ولكن اللافت للنظر أنه يقول عن المرأة تلك: {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} [النمل: ٢٤].

هدهد نقم عليهم عملهم الخاطئ الوثني وأتى يخبرهم بعقيدة التوحيد لا إله إلا الله، ثم قال: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [النمل: ٢٥] وانظر إليه كيف التفت إلى الخبء! لأنه هدهد ورزقه دائماً يخبئه، وأعظم معجزة عند الهدهد تخبئة الرزق، فمن يكشف رزقه إلا الله!

فأشار أي: بلسان الوجدانية، وبفم الصمدانية إلى رب السماوات والأرض، ثم أخبر أن هذه العقيدة بائرة خاسرة لا تصلح، وأن الأحسن منها عقيدة التوحيد، أما أدى دوره؟! أما حمل أمانة الكلمة؟! أما قام بها؟!

والله إن منا من هم أبخس حظاً من الهدهد، وأقل حماساً وغيرة، يرون المنكرات والمخالفات والتعديات، ثم لا يغضبون ولا تتمعر وجوههم، ولا يشاركون ولا يؤثرن ولا يتحمسون، فأني لهم النجاة؟!

كيف ينجون من غضب الله عز وجل والله يقول: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣]؟!

أمانة الكلمة أمانة الميثاق: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢].

مأساة الضياع والحياة بلا رسالة

يقول أحد الفضلاء: اجعل هم الرسالة في رأسك كالصداع، أتنسى الصداع؟ رجل مصدوع يخرج إلى السوق أينسى صداعه؟ أينسى رسالته؟ أية هامشية يعيشها هؤلاء الذين يعيشون لأنفسهم ولبطونهم ولسياراتهم؟ وأية تفاهة هذه؟ أتعرف عالم التفاهة وعالم الهامشية وعالم الضياع؟ إنه يشكل خارطة كبرى من العالم الإسلامي: خارطة الكرة، والبلوت، والسيجارة، والمقهى، والمجلة، والشريط الكاسيت، والفيديو، خارطة الضياع بأنواعه، والأغنية والمجون والسفه والسقوط، ولا يسقط العبد بهذه حتى يسقط من عين الله، يوم ينظر الله إليه فلا يجد في قلبه مدافعة، ولا يجد في قلبه حباً، ولا تأثيراً بأن يكون عبداً لله عز وجل، لأنه كما قال تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣] لو علم الله في هذا الجيل،

ولا أقصد هؤلاء الفضلاء، ولا هؤلاء الشرفاء، ولا هؤلاء الأخيار، لو علم الله في ذاك الجيل الضائع الهامشي أنه يريد الدعوة والصلاح والاستقامة والتأثير في الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليدخل جنة عرضها السماوات والأرض، وليبيض وجهه يوم تسود وجوه وتبيض وجوه، وليعلي كعبه، وليدخل رضوان الله، لو علم الله في هؤلاء خيراً لأسمعهم الرسالة، فوقعت في قلوبهم، فأحبوا لقاء الله، فدفعوا العرق والدم والمال والوقت وكل شيء في سبيل الله.

والله يقول عن أعدائه: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥] وهذا الزياغ نسبي يزيغ به المنافق والكافر والفاسق، فالفاسق يزيغ، لأنه بدأ الزيغ فأزاغ الله قلبه، زاع من المسجد إلى الملعب، وزاع من المصحف إلى المجلة الخليعة، وزاع من التلاوة الحقة والشريط الإسلامي إلى الأغنية، فأزاغ قلبه، وقال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عن أوليائه وأحابيه: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩] تعبوا فينا، سهروا فينا، أعطوا فينا، تكلموا فينا، أنفقوا فينا، أي: من أجل الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

الشباب الآن، هؤلاء الألوفا المؤلفون الذي يموت أحدهم وهو على كرة وتسلية وهواية، وحزبية لنادٍ على نادٍ، وتصفيق وزفير وشهيق، ثم يغسل ويكفن ويدفن، أية رسالة قدمها للأمة؟! أي جهد؟! هل كان طياراً؟! هل كان طبيباً؟! هل كان مهندساً مسلماً، داعية مؤثراً؟! أهذا الجهد من أجله خلقت السماوات والأرض؟! من أجله خلق الإنسان، من أجله خلف في الأرض! من أجله بعثت الرسل! أمن أجل هذه الهواية؟! {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا} [المؤمنون: ١١٥] عبث صور، وعبث نماذج، وعبث ميادين، وعبث العقول، أحدهم يبلغ الستين وهو ما زال طفلاً عابثاً! وأحدهم يكون طويلاً متيناً قوياً وهو عابث! وأحدهم يدرك ويفهم ويعقل وهو عابث! وأحدهم عنده

شهادة ومال ومنصب وهو عابث! فأني عبث؟ أهي رسالة العبث أم رسالة الحق المتلقاة عن معلم الخير صلى الله عليه وسلم؟

عيد الميلاد

ليس عندنا عيد ميلاد؛ لأن عيد الميلاد أضحوكة يضحك بها الإنسان على نفسه، وسخرية يسخر بها الرشيد إذا سفه وضحل عقله على كيانه، كيف يحتفل بميلاده!! وهو لم يولد بعد في عالم الحياة!!

إن المولود حقيقة من ولد لله، وعاش ومات لله، أما هؤلاء الدجالون الخرافيون الذين عندهم عيد ميلاد فلم يولدوا بعد؛ لأن من ولد إنما ولد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال الله: {أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: ١٢٢] إنهم لم يخرجوا من الظلمات ولم يولدوا بعد، فكيف يحتفلون بعيد الميلاد!!

يوم المرأة

وليس عندنا معشر أهل الإسلام! عيد المرأة، ولا يوم المرأة؛ لأن عيد المرأة عندنا كل يوم، نحن الذين جعلوا للمرأة أعيادها كل يوم وكل ليلة، كرمناها وأهانها غيرها، وقدمناها وأخرها غيرها، وحفظناها وضيعها غيرها، وسترناها كما تستر الشمس بين السماكين، والعين بين الحاجبين، والدر في الصدف، وأخرجها غيرها وزعموا أنهم هم الذين كرموها، وكذبوا لعمر الله، فليس لها عندهم عيد ميلاد بعد أن هتكوا كرامتها وحجابها وسترها وديانتها، يهتمون بها إذا بلغت الخامسة عشرة حتى تبلغ الثلاثين، وقبل الخامسة عشرة وبعد الثلاثين لا يهتمون بها؛ لأنهم سفكوا كرامتها، ودعكوا حرمتها وسترها، فأني عيد ميلاد لها؟! نحن أهل عيد المرأة ويوم المرأة، يوم جعلنا ابنها يتقرب إلى

الله بحبها، كلما سمع قوله صلى الله عليه وسلم: {الجنة تحت أقدام الأمهات} ونحن الذين جعلنا زوجها يكذب ويتعب ويكدح، كلما سمع قوله صلى الله عليه وسلم: {الله الله في النساء، خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي} أو كما قال صلى الله عليه وسلم: فمن المظلومة إذن، المرأة عندهم أو عندنا؟!

تقول كاتبة ساخرة، ماحقة، مأكرة: المرأة المظلومة، ونقول: من هي المظلومة يا ظالمة! أهى عندكم يوم أن ظلمتموها، وعطلتم أهميتها في بيتها، وهتكتم حجابها وسترها، أم هي عندنا يوم كرمناها، ورفعناها، وشرفناها؟

فضائل سورة الإخلاص

ثبت في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه وأرضاه: {أن رجلاً كان يردد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] لا يزيد عليها، قام من صلاة العشاء إلى صلاة الفجر، يردد {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] حتى الفجر، فأتى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وسأله الصحابة في ذلك، كأنهم تقالؤها، قال: والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن}.

فمن قرأ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] فكأنما قرأ ثلث القرآن في الأجر والمثوبة.

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله من حديث أبي سعيد قال: قال عليه الصلاة والسلام: {أعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ قالوا: وأينا يستطيع ذلك يا رسول الله؟ قال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] ثلث القرآن} فمن قرأها حصل ثلث

القرآن، ومن قرأها ثلاثاً فكأنما قرأ القرآن مرة بالأجر والمثوبة، لا بالمعلومات والقضايا، فإن هذا أمر آخر.

وورد في الصحيح {أن رجلاً جعله صلى الله عليه وسلم أميراً على سرية، فخرج معهم، فكان يقرأ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] دائماً، لأنه يحبها، فكان يتأملها ويتعلق بها، فأخبروا رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال: سلوه، لم يقرأ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١]؟ فسألوه، قال: إن فيها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأها، قال عليه الصلاة والسلام: حبك إياها أدخلك الجنة}.

وفي لفظ آخر: {أخبروه أن الله يحبه}.

ما دمت أحببت كلامه، وما دمت تعلقت بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] فهذا هو الشرف العظيم.

يا شباب الإسلام! يا جيل محمد! يا كتيبة الإسلام! يا عصاة الحق! إن من المدهش والمذهل والمحزن والمبكي أن تستمع لبعض الناس يقال له في مقابلة: ماذا تحب؟ فيقول: أغنية فلان، بتلحين فلان، وكلمات فلان، فيقال له: إلى من تهديها؟ فيقول: إلى أبي وجدي، وإلى أخي وإخوتي، وإلى أبنائي وبناتي.

قارنوا بين هذا وبين ذاك العصامي الرجل الأول الذي عاش مع محمد صلى الله عليه وسلم المجاهد الشاب الذي تعلق بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] وقرأها في كل ركعة.

وفي الصحيح: {أن رجلاً جعله صلى الله عليه وسلم إماماً لقومه في قباء من الأنصار، فكان كلما قرأ الفاتحة قرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ثم أتى بسورة، فقال له قومه: إما أن تكتفي بـ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) فهي تكفي، وإما أن تقرأ غيرها، فقال: إن أردتم أن أؤمكم قرأت بكم في كل ركعة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] وإلا فابحثوا عن إمام غيري، وعلموا أنه ليس عندهم إمام غيره، لما فيه من الخير، فأخبروا الرسول عليه الصلاة والسلام فَبَيَّنَ أن حبه لها أدخله الجنة، وأن الله يحبه {سبحان الله العظيم!!}

روعة القرآن يدركها من لا يفهمه

يقول سيد قطب: ركبت أنا وبعض الصحبة من الإخوة سفينة نريد أوروبا فأبحرنا، قال: فحانت صلاة الجمعة، وكنت قد رأيت النصارى يقيمون بعض الطقوس التعبدية، فأخذتني الحمية الإسلامية، والغيرة على الدين؛ فجمعت زملائي، وقلت: أصلي بكم الجمعة في السفينة ليرانا النصارى، قال: فقمتم فألقيت خطبة، قال: ومعنا امرأة يوغسلافية من يوغسلافيا فرت من حرب تيتو -: فأخذت هذه المرأة تنظر إلينا وتسمع الخطبة، لا تعرف من العربية حرفاً واحداً، فأخذت تنظر، قال: وأديت الخطبة، ثم نزلت، فأديت الصلاة، فقرأت في الصلاة: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: ١] و {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ} [الغاشية: ١] فلما سلمت وإذا دموعها على خديها، فتقول للترجمان: سله كلام من هذا الذي صلى به؟

قال سيد قطب: فأخبرت الترجمان أنه كلام الله، فاندھشت وزاد بكاءها، قال: ولم تمكننا الفرصة أن نوصل لها الدعوة، وأن نخبرها بالإسلام، فانظر إليها، فهي يوغسلافية لا تجيد حرفاً واحداً، وسرى القرآن إلى شرايينها، ووصل إلى قلبها.

شروط لا إله إلا الله

الأول: العلم المنافي للجهل: أن تعلم أنه لا يستحق العبادة إلا الواحد الأحد، لا أن تفعل شيئاً وأنت لا تعتقده، أي تعلمه علم اليقين من قلبك، ولا بد أن تعلم طفلك وأمك الكبيرة وجدتك معنى هذه الكلمة حتى تموت على لا إله إلا الله، لأن بعض الناس يظن أنه إذا قال: لا إله إلا الله نجا، وأنه لا يعذب في الآخرة، ثم تجد لا إله إلا الله في وادٍ وهو في وادٍ، فلا يصرف العبادة لله، ولا يعبد الله، ولا يخلص له ديناً، ويقول: يكفي أن أقول لا إله إلا الله وقد أخطأ: فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما سئل عمن هو أسعد الناس بشفاعته عليه الصلاة والسلام قال: {من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه} قال أهل العلم: مخلصاً: أي يعمل بمقتضى لا إله إلا الله: فأنت تعلم أنه لا إله إلا الله علماً، أي تدرسها دراسة، لا تقلد الآباء، لأن كثيراً من الأجيال والشرائع في المجتمع يقلدون آباءهم وأجدادهم، قالوا: وجدناهم يعبدون عبيدنا، وهذا منطوق أبي لهب وأبي جهل، فلا تأخذ الدين وراثته، بل تتعلمه وتدرسه، وتسأل آباءك وأستاذك، وتسأل العلماء عن معنى لا إله إلا الله.

الثاني: اليقين: ومعناه أن تتيقن بقلبك وتعتقد اعتقاداً جازماً بهذا؛ لأن المنافق قد يعلم لا إله إلا الله، ولكن لا يعتقد جدواها، يعلم مثلاً أنه لا يستحق العبادة إلا الله، لكن قلبه يأبى، أما المؤمن فيتيقن يقيناً لا شك فيه.

الثالث: القبول: فبعضهم يعلم ويتيقن، ولكن لا يقبل لا إله إلا الله، ولا يقبل ما بعث به عليه الصلاة والسلام، فلا بد أن تقبله وتجعله على عينك ورأسك قال تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} [النساء: ٦٥] وبعض الناس يأخذ شيئاً من الإسلام ويتبرك شيئاً، انظر إليهم في السنن الآن، بعضهم يتضايق من بعض السنن، يقول: يكفي أن

أصلي وأن أصوم وأن أحج، أما هذه فتقيلة أو لا أستطيع، فهم من الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، وهم من الذين جعلوا دينهم عضين، ومن الذين فرقوا دينهم، فهؤلاء لا يرضى الله عملهم حتى يتموا القبول من الرسول عليه الصلاة والسلام، فعليك أن تقبل وأن تجعل ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم أعلى عندك من مالك ودمك وأهلك ونفسك.

الرابع: الانقياد: إذا قبلت ما جاء به صلى الله عليه وسلم فعليك أن تنقاد كما ينقاد الجمل لصاحبه، والمؤمن أكرم لكنك تسلم مقاليد نفسك وحياتك للرسول صلى الله عليه وسلم، فتعطيته معتقدك وحياتك وأدبك وسلوكك وأخلاقك، وتلزم كل حياتك على منهجه صلى الله عليه وسلم، فإن بعضهم الآن يأخذ منهج حياته في المعتقد من الإسلام، وفي الأخلاق من الغرب، وفي السلوك من الشرق، وفي الأعمال والمعاملة من فلان وعلان، فخذ أنت منهجك من محمد عليه الصلاة والسلام وحده: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١].

الخامس: الإخلاص: فلا تقولها رياءً، أو لا تعبد الله عز وجل رياءً بل كما قال تعالى: {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: ٥] {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [الزمر: ٣] فهو الذي يطلع على السرائر، وهو الذي يعلم ما في الضمائر، فتخلص له العبادة.

يقول الله عز وجل: {من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه} رواه مسلم.

ولو ذرةً، تركه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وما عمل، فلا بد أن يكون عملك خالصاً لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

السادس: الصدق: فلا تكن كاذباً في قولك، ولا فعلك، ولا كاذباً في اعتقادك، ويظهر الكذب في بعض الناس، فمن يقل: لا إله إلا الله ولا يصلي الفجر في جماعة فهو كاذب في لا إله إلا الله، ومن يقل: لا إله إلا الله وأمواله في البنوك الربوية فهو كاذب في لا إله إلا الله، من يقل: لا إله إلا الله وهو يوالي أعداء الله على أولياء الله فهو كاذب في لا إله إلا الله!

لا إله إلا الله ليست كلمة فقط، فلو كانت كلمة فحسب لقالها اليهودي والنصراني والبوذي والشيوعي ودخلوا الجنة، لكن حرمها الله عليهم لأنهم ما عملوا بمقتضاها وما صدقوا فيها.

من الكذب في الأخلاق: أن تتعامل مع المسلمين بأخلاق اليهود فتخونهم، وتعرض لهم، وتضممر لهم الدسائس، وتكيد لهم المكائد، وتطلب لهم العثرات، وتفرح بزلاتهم، وهذا كذب في لا إله إلا الله، وقس على ذلك كثيراً من السنن.

السابع: المحبة: أن تندفع إلى الدين بمحبة وبقلب، أن تأتي للمسجد وصدرك منشرح، لأن الله سبحانه وتعالى قال في المنافقين: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢] ويقول: {وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة: ٥٤] فالمنافق ينفق وهو كاره، ويأتي للمسجد وهو كاره، ويحضر المحاضرة وهو كاره، أما أنت فتحب وتحمد الله عز وجل على أن أجلسك في المسجد، وعلى أن جعلك تصلي وتصوم وتحج وتعتمر، ولم يجعلك شيعياً ولا نصرانياً ولا يهودياً ولا بوذياً.

وقد كان في استطاعة الله وبحكمته أن يولد الإنسان كافراً وأن يعيش كافراً وأن يموت كافراً، لكن اختارك الله واجتباك واصطفاك من بين الألوف المؤلفة والملايين المملينة لتكون مسلماً، تقول: لا إله إلا الله بمحبة، وتعتقد لا إله إلا الله محبة، وتعمل السنن بمحبة، بعض الناس يتضايق من السنن، يعمل بعض السنن ويقول: والله في قلبي حرج، ولولا بعض الأمور والمجاملات لما فعلت، فهذا في قلبه حرج، لا يحب ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

الثامن: الكفر بما سوى الله تعالى قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ} [البقرة: ٢٥٦] التخلي والتحلي؛ أن تكفر بغير الله عز وجل فلا تتعلق بغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ وَثْنٍ أَوْ صَنْمٍ أَوْ نَجْمٍ أَوْ كَوْكَبٍ أَوْ شَمْسٍ أَوْ قَمَرٍ أَوْ شَيْخٍ أَوْ مُعَلِّمٍ أَوْ مُرْعَوْسٍ، فلا تتجه إلا إلى الله الواحد الأحد قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥] وصور الشرك كثيرة، منها متطور ومنها بسيط، ومنها أبجدي ومنها عالي المستوى معقد، فكل بحسبه، الأعراب عند المشعوذين والكهنة والسحرة والأنصاب والأزلام إلا من رحم الله، بعض الذين تعلموا وأخذوا نصيباً من العلم عند المشايخ، يقدم رأي الشيخ على كلام الله عز وجل وكلام رسوله إلا من عصم الله عز وجل، بعض الناس عند الكيانات والاتجاه إلى غير الله عز وجل وإلى المصادر التي ما أنزل الله بها من سلطان، هذه صور من صور الشرك، وهي تتطور مع تطور الزمن، ولكن تبقى مظلة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

معاوية بن أبي سفيان وهارون الرشيد

عن شفي الأصبجي قال: لما حضرت معاوية الوفاة كشف الستار ثم مرَّ وجهه في التراب وبكى وقال: صدق الله {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا

وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ {هود: ١٥ - ١٦}.

حضرت الوفاة هارون الرشيد الخليفة العباسي، أقوى خليفة، الخليفة الحضاري الذي قدم لخلافته وملكه ما لم يقدمه أحد من أهل عصره، والذي كان يخرج على شرفات القصر ويقول للسحابة: "أمطري أنني شئت، فإن خراجك سوف يأتيني" أي: أي مكان أمطرت فيه فهي من بلادي.

حضرت الوفاة في طوس فخرج يبكي وقال: اجمعوا لي الجيش، فجمعوا الجيش، فأشرف على الجيش ونظر إلى السماء وهو يبكي وقال: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه، فبكى الناس .

رعاية الله للإنسان وهو جنين

قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ} [الأعراف: ١٧٢] هذا هو الميثاق الغليظ، أخذه الله على الناس وهم في أصلاب آبهم آدم، فدلهم على التوحيد، من هو ربكم؟ من هو إلهكم؟ من القادر الذي يخلقكم؟ من الذي يستحق العبادة؟

تحمل أم الإنسان بالإنسان، فإذا الله يتحدث عنه وهو في بطن أمه، فتضعه على الأرض لا ضاحكاً أو صامتاً أو ساكناً أو نائماً أو مستيقظاً، إنما تضعه باكياً، ولم نسمع في تاريخ الإنسان أن رجلاً أو أنثى ولدوا وهم ساكتون، إلا عيسى بن مريم فما بكى، أما نحن جميعاً فقد بكينا يوم أن أتت بنا أمهاتنا، قال بعض الفلاسفة: بكى الإنسان لأنه خرج من السعة إلى الضيق.

وقال آخر: بكى الإنسان من هول الابتلاء، ومن عظم المشقة التي سوف يجدها من الضيق والهم والحزن.

وقال آخر: بكى الإنسان لأنه سوف يرى التكاليف أمام عينه والله أعلم، وقد قال: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا} [النحل: ٧٨].

كان أبكمأ أصم أعى، لا يأكل ولا يشرب ولا ينطق، فتولاه الله، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون.

ولدتك أمك يابن آدم باكياً والناس حولك يضحكون سرورا

فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسرورا

يقول عليه الصلاة والسلام في الصحيح: {كل مولود يولد على الفطرة} ما هي الفطرة؟ أيولد مغنياً مطبلاً؟! أيولد ماجناً ممثلاً؟! أيولد مسرحياً معربداً؟! أيولد كروياً لاهياً؟! أيولد وببده الكأس في الليالي الحمراء؟! لا.

بل يولد على لا إله إلا الله، يقع رأسه على لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، يقول سبحانه: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} [الروم: ٣٠].

لكن من بدل خلق الله؟ إنهم العملاء، إنهم الخونة، إنهم أعداء الإسلام، بدلوا الإنسان من إنسان إلى كلب، ومن مؤمن إلى خنزير، ومن عبد صالح إلى بهيمة: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٤٤] {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٧٩] كقلوب الحيوانات تماماً، يحفظون ويدرسون ويقرءون كل شيء إلا الدين، ويفهمون كل شيء إلا الإسلام، ويعرفون كل شيء إلا القرآن والسنة، قال تعالى:

{وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [الأعراف: ١٧٩] ويؤذن لهذا الطفل كما أذن عليه الصلاة والسلام، في أذن الحسن أول ما أتت به فاطمة الزهراء رضي الله عنها، لماذا؟ لينشأ على التوحيد والإيمان، أخذ أذنه الرقيقة الضعيفة فاقرب منها عليه الصلاة والسلام وقال: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر حتى أكمل الأذان ليقع الأذان في قلبه، لينشأ عبداً مصلياً وعابداً ذاكراً.

لكن لما أتت التربية المعكوسة، وولد الابن على الموسيقى الإيطالية، أصبح لا يعرف إلا المجلة الخليعة، والسهرة الماجنة، ينشأ ويشب وهو يحفظ من الأغنيات العشرات، ولا يحفظ من الآيات البينات شيئاً.

ثم يقول الله للإنسان: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار: ٦].

من الذي خدعك؟ من هذه الطغمة الفاسدة والجلساء السيئون الذين حرموك من منهج الله؟ من المسئول عنك؟

{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار: ٦- ٨] لكنه يوم شب وقوي، وكبر كاهله، ونسي القرآن، أصبح معربداً لا يعرف الله.

بشروا ولا تنفروا

أورد ابن القيم وابن كثير أن الله سبحانه وتعالى لما أنزل كلمات إلى يحيى عليه السلام ليبلغها قومه، والحديث في المسند وفي الترمذي، تأخر فما بلغها يحيى عليه السلام بني إسرائيل، فإن الله كان يبعث في بني إسرائيل في الفترة الواحدة نبين وثلاثة وأربعة وربما وجد العشرة من الأنبياء في فترة واحدة، فكان يحيى وعيسى عليهما السلام

ابني خالة، وكنا مبعوثين في بني إسرائيل فتأخر يحيى فما بلغ، فقال عيسى عليه السلام: إما أن تبلغ ما أنزل الله إليك وإلا فاتركني أبلغ أنا، قال يحيى: أبلغ، فجمع بني إسرائيل وقام فيهم خطيباً فوعظهم.

قال أهل العلم: كان يحيى عليه السلام دائم العبوس، لا يتبسم، وذلك: من حزنه، ومن تذكره للقاء الله، وكان عيسى عليه السلام كلما لقي أحداً تبسم له، ولذلك أخذ صلى الله عليه وسلم من هذا أنه يقول للصحابة إذا أرسلهم: {بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا} وأخوف الناس وأعلمهم بالله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك كان بساماً، وفي الصحيح أن جرير بن عبد الله قال: {ما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا تبسم في وجهي}.

الرجاء باب عظيم

المقصود أن الرجاء باب عظيم، وأنه مفتاح للدخول على الله عز وجل، حتى مدح ابن القيم كتاب الرجاء، وقال: هو الباب الذي يجنح بالعبد إلى الله، والعجيب أنه في رياض الصالحين أتى بكتاب الخوف فيما يقارب أربع صفحات، ثم أتى بكتاب الرجاء في ثمان صفحات ثم أتى بفضل الرجاء في ست صفحات لتأتي القلوب إلى الله عز وجل.

قال ابن القيم في مدارج السالكين: العاقل لا يبني قصراً ويهدم مصرأً.

ثم قال: هناك رجل اسمه الحارث المحاسبي ألف كتاباً اسمه الرعاية، فلما قرأه الناس تركوا المساجد، وكتاب الرعاية كتاب رقائيق وأدب وسلوك، لكنه ليس تربوياً؛ لأنه ظن أنه سوف يخوفهم، ويضرهم بسوط الخوف حتى يأتوا إلى بيوت الله، فلما دخل وتعمق، وأكثر من الخوف؛ ترك الناس المساجد وتعطلت بيوت الله عز وجل، وهذا معروف، يقول ابن الوزير في العواصم والقواصم: إن الخوف إذا كثر على

النفوس كلت وملت، فإنك لو تقوم في مجتمع صغير أو قرية فتقوم لهم كل صباح وكل مساء: مالكم لا تبكون؟! أين أنتم من كذا؟! ثم تجمع قصص الخوف لقطع قلوبهم، وقالوا: ما هي أعمالنا؟ إذا هذه الصلاة لا تنفعنا، والذكر لا ينفعنا، وقراءة القرآن، ونترك الصدقة، ونترك الإخوة، ويئسسون من رحمة الله، لكنك إذا أعدتهم إلى الله عز وجل بباب الرجاء مع لزع من الخوف لعادوا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يستغرب مستغرب أننا نكثر دائماً من أحاديث الاستغفار والرجاء؛ لأن أهل أيها أناس لا يعودون إلى الله إلا بالرجاء مع شيء من الخوف، كما يعود الجزائريون إلى الله عز وجل بالرجاء، فيقول صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل: {يا بن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي} لا أحلم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك يحلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الكافر الفاجر، تجد بعض الفجرة يقتل المسلمين ويسحقهم سحقاً، يسحق المدينة، ويقتل الأطفال والنساء، ويعذب، ويشنق، ويربط، وينصب الزنانات، ثم يلتفت المؤمن يقول: أما هناك انتقام؟! أما هناك محاكمة؟! أما يعلم الله ما يفعل هذا الفاجر؟! قال الله عز وجل في سورة إبراهيم: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} [إبراهيم: ٤٢] أي: لا تحسب أن الله غافل عنهم إنما هو وراءهم بالمرصاد، لكن: {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدُ لَهُمْ هَوَاءَ} [إبراهيم: ٤٢ - ٤٣].

حتى يقول سيد قطب رحمه الله في سورة البروج: الحياة ليست طويلة حتى ينتقم الله من أهل الفجور وأهل الظلم، لا تكفي ستون سنة ليعذب الله هذا المجرم، فيدخر الله له العذاب آلاف السنوات.

فألله عز وجل حليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف إذا كان هذا المخطئ مسلماً في الأصل، ويحب الله عز وجل، ثم عاد فحاسب نفسه وتفكر فيما فعل في شبابه، ثم عاد إلى الله عز وجل يقول صلى الله عليه وسلم: {إن الله أفرح بتوبة العبد من أحدكم ضلت منه راحلته عليها طعامه وشرابه، فبحث عنها، فلما وجدها وقد أيس منها قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك! أخطأ من شدة الفرح} فألله أفرح بالعبد إذا عاد إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هذا بناقته.

ولذلك قال أهل العلم: آيات في كتاب الله عز وجل ما نريد أن لنا بها حمر النعم.

وقال ابن مسعود رحمه الله: [آية في كتاب الله والله ما أريد أن لي الدنيا بما فيها بهذه الآية، قالوا: وما هي؟ قال: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} [النساء: ٣١]] قال بعض أهل العلم: من اجتنب الكبائر كفر الله عنه الصغائر.

ثم تأتي الكفارات وسوف أذكرها، فيقول عز من قائل في كتابه: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣] وقال جل ذكره: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَبْعٌ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦].

حديث من أذنب ذنباً ثم استغفر الله

الحديث الأول: حديث أبي بكر الصديق الإمام المعتبر رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {من أَلَمَّ بذنب -أي: من أصاب ذنباً سواء كبير

الذنب أو صغيره- فتوضأ وصلى ركعتين ثم استغفر الله من ذاك الذنب، إلا غفر الله له { روى هذا الحديث الإمام أحمد وهو حديث صحيح عند جماهير المحدثين، ولذلك يقول علي لما رفعت له البشري من أبي طالب يقول: {كان الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حدثني الحديث استحلفته يقول: احلف لي- فإن حلف صدقته، وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر { لا يستحلف أبا بكر، من يستحلف أبا بكر؟!}

قال بعض المفسرين: في قوله تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ} [الزمر: ٣٣] الذي جاء بالصدق هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، والذي صدق به هو أبو بكر، فكيف يُستحلف أبو بكر!! فقال: {وصدق أبو بكر أن العبد إذا أذنب فتوضأ وصلى ركعتين غفر الله له ذاك الذنب}.

قصة رجل من بني إسرائيل خائف من الله

في الصحيحين من حديث أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: {كان في من كان قبلكم رجلاً من بني إسرائيل أسرف على نفسه} أي: وقع في الإسراف في الذنوب، بقي معه التوحيد والإيمان، أما لو كان مشركاً فهذا خالد مخلد في النار، لن يدخله الله الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، أبداً حراماً عليه الجنة، لكن وقع في ذنوب، فلما حضرته الوفاة، وكثير من الناس كما يقول الكتبة العصريون: لا يتذكرون الله، في غفلة وسكار وفي خمار حتى يصرعون في مصرع الموت، ثم يستفيقون، ونقلنا لنا أخبار أن كثيراً من الناس لما أتاهم اليقين وأتاهم الموت، استفاقوا قبل سكرات الموت ثم أخذوا يبيكون، قالوا: مالكم؟ قالوا: فعلنا، وفعلنا، وفعلنا، فأتى الحساب، قال: الناس في سكار حتى يحضرهم الموت فيستفيقون، ولذلك يقول عبد الحق

الإشبيلي في كتابه العاقبة: المعتصم الخليفة العباسي لما حضرته الوفاة، بكى بكاءً طويلاً لا يعلمه إلا الله، فقالوا: مالك؟ قال: كم عمري؟ قالوا: عمرك ثمان وأربعون.

قال: أموت اليوم؟ وكان في سكرات الموت- قالوا: تموت.

قال: والله لو أدري أن عمري قصير ما فعلت ما فعلت؛ سفك الدماء، وفعل ما فعل وأمره عند الله، يقول: لا أدري أني سوف أموت الآن، فالناس كثير منهم لا يستفيق إلا في سكرات الموت، وهذا حدث لعبد الملك بن مروان الخليفة الأموي لما حضرته الوفاة قام يتقلب ويبكي ويقول: يا ليتني كنت غسلاً، يا ليتني ما عرفت الخلافة، يا ليتني كنت في البادية، فسمع سعيد بن المسيب -أحد الزهاد والعباد والعلماء- قال: [[الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا وقت الموت ولا نفر إليهم]].

فالمحاسبة في الدنيا ليست عند سكرات الموت، بل على الإنسان أن يراجع حسابه قبل أن يأتيه الموت؛ قال تعالى: {وَيَذُرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} [الرعد: ٢٢] ويقول سبحانه وتعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤].

{فلما حضرت هذا الرجل الوفاة استعرض أبنائه فقال: كيف أنا لكم؟ قالوا: خير الآباء} وهذا فعل بعض الناس، تجده مع أبنائه وزوجته ومع جيرانه من أحسن الناس خلقاً، ليناً، سهلاً، بشوشاً، صاحب هداية، وصدقات، وبر، ومعروف، وكرم، يعزم هذا، ويذبح لهذا، ويضيف هذا، ويخدم هذا بماله وبسيارته؛ لكنه فاجر مع الله، لا يصلي في المسجد، ولا يعرف القرآن، ولا يعرف الانصياع إلى كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، يا سبحان الله! من أولى بالإكرام؟ أهلك، وزوجتك، وجيرانك، أم الحي القيوم؟! الأولى برد الجميل الذي خلقك وأعطاك ما تتمتع به، وهذا كثير في

الناس؛ فإنهم عندهم حسن خلق لكنهم لا يعرفون المساجد، ولا الاستقامة ولا الدين، لكنك لو طلبته في شيء سكب لك دمه في إناء من الحب، أما أن تقوده إلى المسجد فكأنك تجرجه بسلسلة محمية بنار، ومقلب القلوب هو الواحد القهار، فلو أراد أن يكمل الله هذا العبد؛ لأعطاه من الإيمان ما يجعله محبوباً عنده سبحانه وتعالى وعند الناس.

فهذا الرجل لما حضرته الوفاة قال: {يا أبنائي! أيُّ أبٍ لكم؟ قالوا: من خيرة الآباء، قال: فإنني ما فعلت مع الله جميلاً -كنت أظاهر لكم وللناس بالحسن وإذا خلوت مع الله عز وجل انتهكت محارمه- فإذا أنا مت -إذا حضرني الوفاة- فاجمعوا لي خطباً، وأشعلوا لي ناراً}.

هذا في الصحيحين، وتكلم عنه ابن تيمية في الرسائل والمسائل والرد على البكري والمسائل الماردينية، وهو من أصول المعتقد، فيه مسائل لا بد أن نقف عندها.

قال: {فاجمعوا لي خطباً، فإذا جمعت لي خطباً فأشعلوه في النار، ثم أحرقوني، ثم اسحقوني، ظن أنه سوف يفوت على الحي القيوم- قال: فإذا سحقتموني فذروني في يوم فيه ريح- يعني: ليس أي يوم، لكن يوم فيه ريح قوية هوجاء تنثر جسي في كل مكان، أوقدوا له النار، واشعلوها، ثم أحرقوه حتى أصبح حمماً كاللحم، ثم سحقوه فلما سحقوه عرضوه للريح فأخذته في كل مكان -لكن الذي بدأه أول مرة، والذي إذا أراد أن يقول له: كن، فيكون، هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً* إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً* إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} [الإنسان: ١- ٣] فجمعها الله بكلمة كن، ما قال

للملائكة: اجمعوا لنا رميم هذا العبد، وأحضره بعد ساعتين، إنما قال: كن رجلاً، أي: مثلما كان فكان كما قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: ٤٠] فإذا الرجل أمامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد حاسبه وتكلم معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله يتكلم بما شاء متى شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: يا عبدي! ما حملك على ما صنعت؟ سبحان الله! يقرر الله العبد، ويحاسبه، ويكلمه، وكما جاء في الصحيحين من حديث عدي بن حاتم {ما منكم من أحدٍ إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان} سوف يكلمك الله ليس بينك وبينه ترجمان، ويقول: {أما فعلت كذا وكذا يوم كذا كذا، أما فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا} فإن كنت من أهل الستر -نسأل الله أن يسترنا وإياكم- قال الله: {لقد سترتها لك في الدنيا وغفرتها لك اليوم} وأما إن كان من المجاهرين، المتعدين، المنتهكين للحدود، المنتهكين للحرمان، فهذا أمره الله عز وجل.

{قال: يا عبدي! ما حملك على ما صنعت؟ -وسدده الله للجواب، الجواب كان سليماً جيداً- قال: يا رب! خفتك وخشيت ذنوبي.

فقال الله: يا ملائكتي! أشهدكم أنني غفرت له وأدخلته الجنة} وهذا الرجل قصته عجيبة، قال ابن تيمية: قد شك في القدرة؛ لأنه ظن أن الله لن يجمعه، لكن توبته كانت كبيرة عظيمة طغت على هذا الشك وعلى تلك الذنوب التي زحفت.

والذي نطلبه أن نعود إلى الله عز وجل عوداً حميداً، أما أن نأتي ونستعرض ذنوبنا وخطايانا فنحن في ستر الله عز وجل، ونعلن عجزنا وتقصيرنا وما منا شيء أبداً، ومن تصدق أو صلى أو صام فإنما يفعل لنفسه، ومن أعرض عن الله، فالله غني عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا هو الرجل الذي ذكره عليه الصلاة والسلام، وتلك هي المرأة التي عرضت نفسها على رسول الله عليه الصلاة والسلام.

قصة لرجل في الصحراء

أحد الناس يقول: نزلت في قفرة أنا وأهلي وانقطع عنا الماء وكنا في بادية، فذهبت لألتمس في وديانٍ أخرى فما وجدت شيئاً، فالتمسيت في مكانٍ يمنة ويسرة فما وجدت شيئاً، فعدت إلى أهلي فوجدت أطفالاً كادوا يتلفون من الظمأ، وأوشكوا على الموت، قال: فتفكرت ثم تذكرت أن الحي القيوم بيده خزائن السموات والأرض، وكان مؤمناً {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠] {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} [النمل: ٦٢] {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦] قال: فانقطعت كل الحيل التي حولي في الوديان، قال: فتيممت وصليت ركعتين ثم رفعت يدي ودمعت عيني.

قال: والذي لا إله إلا هو -وهو صادق، ويعرف الإيمان، والصدق والنضوج- في وجهه- ما غادرت مكاني إلا وغمامة فوق رأسي وما كان في السماء شيء قال: ثم مطرت على الوادي الذي أنا فيه حتى امتلأت الغدرة.

وهذا لا يحتاج إلى إثبات، والسنة والآثار والتاريخ فيها أكثر من ألف قصة {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} [النمل: ٦٢].

رجل أرسل الله له ملكاً ينقذه

ويكفي كما تعلمون أن كثيراً من أهل العلم أوردوا قصة الرجل الذي خرج في تجارة، فعرض له لص مجرم في الطريق فأخذه معه، وقال: أوصلي إلى ذاك المكان بالأجرة، فصدقه فمشى معه، فلما مشى معه؛ فإذا بهذا المجرم معه خنجر فأخرجه،

وقال: والله لأقتلنك الآن، لكن ادفع ما معك من مال؟ قال: أسألك بالله ما مع أهلي إلا أنا، قال: حلفت أن أقتلك؛ لأنه لو تركه وأخذ ماله أخبر الناس بوجود لص في الوادي، فقال: دعني أصلي ركعتين.

قال: صل واستعجل.

قال: فقامت فتوضأت في ذاك الوادي، وقامت أصلي ركعتين، قال: والله لقد نسيت كل شيء في القرآن إلا قوله تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} [النمل: ٦٢] قال: فكفرتها، فلما انتهيت من الركعتين وإذا بفارس على فرس من آخر الوادي بيده خنجر كالمشعف قال: فأطلقه على هذا اللص، فوقع في لبتة، فإذا هو يسقط على قفاه مقتولاً.

قلت: أسألك بالله من أنت؟ قال: أنا رسول {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} [النمل: ٦٢] لما دعوت الدعوة الأولى كنت في السماء السابعة، ودعوت في الثانية فكنت في الرابعة، ودعوت الثالثة فكنت في الأرض، فالله عز وجل يقول: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} [النمل: ٦٢].

الإمام يقص خبر المحنة

قال الإمام أحمد: أخذت من بيتي وسط الليل وأنا أصلي، فوضع الحديد في يدي وفي رجلي حتى كان الحديد أثقل من جسعي -القيود التي حمل فيها أثقل من وزنه هو- ووضع على فرس، قال: فلما وضعت على فرس، أتيت أتمسك فما استطعت أن أتمسك، فكدت أسقط ثلاث مرات، كل مرة أقول: اللهم احفظني! فكان يردني الله حتى أتساوى على الفرس: {احفظ الله يحفظك} وكان الجندي الذي معه يضرب الفرس على الإمام أحمد يسقط على وجهه.

قال: فلما أدخلت السجن سحبت على وجهي فنزلت، قال: فكنت أستغفر الله، فنزلت في آخر الليل، قال: فلا أدري أين القبلة؟ ولا أدري أين أنا، في ظلام وفي وحشة لا يعلمها إلا الله، فكنت أقول: {حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة: ١٢٩] قال: فمددت بيدي فإذا بماء بارد، فتوضأت منه وقمت أصلي إلى الفجر.

انظر إلى حفظ الله، حتى في الساعات الحرجة لا ينسى ربه تبارك وتعالى، لأنه العون تبارك وتعالى:

فالزم يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركانُ

قال: فلما أصبح الصباح، حملت على الفرس ثانية، وما طعمت طعاماً، وكدت أسقط من الجوع، فأدخلت على المعتصم الخليفة العسكري الثاني، صاحب عمورية بعد المأمون.

قال: فلما دخلت عليه هز السيف في وجهي، وقال: يا أحمد! والله إنني أحبك كابني هارون، فلا تعرض دمك لنا.

فقال الإمام أحمد: اتتوني بكتاب الله أو بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم!

حاول المعتصم معه ليصيب ويقول: القرآن مخلوق، فرفض، فدعا بالجلادين، ودُعي بجبار من الجبابرة؛ رأس الحرس الذي يتكون من خمسين ألفاً، يرأسه عجيف.

فقال المعتصم لعجيف: اضرب هذا الرجل -أي: الإمام أحمد- قال: فجلبده مائة وستين سوطاً حتى غشي عليه، ثم استفاق، وكان يقول: لا إله إلا الله حسبي الله ونعم الوكيل؛ لأنها أقوى الكلمات، إنها قوة هائلة! إنها قوة فتاكة! حسبي الله ونعم الوكيل!

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: [[قالها إبراهيم فنجاه الله من النار، وقالها محمد فنجاه الله من كيد الكفار]] صلى الله على رسوله وسلم تسليماً كثيراً.

ورفض أن يجيب حتى تملغ وتجلد ظهره من كثرة الجلد، فرفع على الفرس وأعيد، وبقي في السجن ثمانية وعشرين شهراً، وسرد الصيام وهو في السجن في هذه الفترة كما قال ابنه عبد الله، فما أفطر يوماً واحداً، يعرض عليه الإفطار، وكان الخليفة يحبه، يقول: لا تأتوني بالعشاء حتى تعرضوه على الإمام أحمد.

فيعرضون له المائدة ليأكل، فيقول: والله لا أكل لهم لقمة، ولا أشرب لهم شربة.

على ماذا كان يتغذى الإمام أحمد؟ كان عنده جراب فيه سويق، فإذا اقترب وقت المغرب أخرج كفاً منه، ثم وضعه على الماء وشربه، هذا غذاؤه في ثمانية وعشرين شهراً.

ثم في الأخير عرض على السيف مرات ورفض، فلما أعجزهم وأكلهم وأملهم أعادوه إلى بيته، فأنزلوه وهو جريح.

يقول ابنه عبد الله: دخل أبونا علينا في الليل بعدما أطلق من السجن، فأنزلناه من على الفرس، فوقع من التعب ومن الإعياء ومن الضعف والهزال والمرض على وجهه، قال: فبقي أياماً، ثم تولى الخلافة المتوكل فنصر السنة، وأتى بالمال والنذهب إلى الإمام

أحمد، فبكى الإمام أحمد وقال: والله إنني أخاف من فتنة النعمة أكثر من فتنة المصيبة والمحنة، فرفض وما أخذ شيئاً، وبقي على هذا الحال.

وكان يقول: يا ليتني ما عرفت الشهرة! يا ليتني في شعب من شعاب مكة لا يعرفني الناس!

التدخين

الذي أوله دلع وآخره ولع، وقد نجح الشيطان في جعل أبناء المسلمين يستبدلون السيارة بالسواك، وقد جاء في إحدى الدراسات أن المدخن إذا كان يستغرق ست دقائق لشرب سيجارة واحدة، فإنه يهدر من وقته ثمان ساعات يومياً، أي: ثلث اليوم، ومائتين وأربعين ساعة شهرياً، وألفين وثمانمائة وثمانين ساعة سنوياً، أي ما يعادل مائة وعشرين يوماً في السنة الواحدة، خلاف ما يهدر من صحته ودينه وماله ومستقبله، فكل حياته عبث بسبب سيجارة واحدة.

عقوق العلماء

فالأمة عاقبة -إلا من رحم الله- مع علمائها، ومع رواد الرأي فيها، ومع مفكرها وأدبائها، وهذا الرصيد الضخم والعملة النادرة والكبريت الأحمر يجب أن نضعه تاجاً على مفرق الأمة، أعني العلماء والأخيار والصلحاء والمفكرين والأدباء الملتزمين، نضعه على جبين الأمة، لكن الأمة لم تفعل ذلك، لقد عَقَّت هؤلاء في حقبة من حقب التاريخ، وجعلت روادها أهل الهوايات من أساطين الفن وعشاق الكرة وصُرع التسلية؛ لقد مات النمو والاختراع والابتكار في هذه الأمة؛ لأن العبقري عندها يكسر قلمه، والأحوزي يُلغى ذكاؤه، والمبدع يُشطب على عقله.

أمة هي ترى الناصح متهماً، والمخترع مهدداً، والمكتشف عميلاً، يهددها المخترع فتخافه، ومن يكتشف خيراً عدَّ عميلاً مظنوناً به السوء.

اكتشف الحمر والشقر وسائل التقدم والترفيه والتقنية لا لأنهم أذكى، ولكن لأنهم وجدوا التشجيع وإلهاب الحماس والتكريم والجوائز.

نجومهم المخترعون والمكتشفون والمبدعون ورواد الصناعة، فمن هم نجومنا اليوم في وسائل الإعلام، وعلى مستوى الرأي العام، وعلى مستوى تجمعات الناس؟ من هم نجومنا الذين نباري بهم الأمم في ثقافتنا وتقدمنا وحضارتنا؟! أتدري من هم؟! إما بطل كرة، أو مغن جماهيري شهير، أو موسيقار أو مسرحي، هؤلاء هم اللامعون في الحقبة الأخيرة من حقبة أمة محمد عليه الصلاة والسلام، فكيف لا تتخلف، وكيف لا تكون في الذيل، وكيف لا تكون تابعة لا متبوعة، ومأمورة لا أمرة، ومقودة لا قائدة؛ إننا نشكو الحال إلى الله.

الجود بالنفس

يقول ابن القيم رحمه الله: الجود والبر منازل ودرجات أعظمها الجود بالنفس.

أرأيت إنساناً يجود بنفسه لمرضاة الله، هل هناك أكرم منه؟! لا والله فيا من بخل بدرهمه وديناره! أصحاب الرسول عليهم الصلاة والسلام جادوا بنفوسهم وأرواحهم في سبيل الله.

يجود بالنفس إن ضمن البخيل بها والجود بالنفس أعلى غاية الجود

أتى الصحابة وما عندهم مال ولا عقار ولا درهم ولا دينار، فاستقبلوا القبلة متوضئين، ورفعوا سيوفهم شاهدين ظاهرين مقبلين، وقالوا: يارب لا نملك من الدنيا قليلاً ولا كثيراً، وإنما نملك نفوسنا قد أهديناها إليك فتقبلها منا، {جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} [يوسف: ٨٨].

ومن الذي باع الحياة رخيصة ورأى رضاك أعز شيء فاشترى

أم من رمى نار المجوس فأطفئت وأبان وجه الصبح أبيض نيرا

ومن الألى دكوا بعزم أكفهم باب المدينة يوم غزوة خيبرا

خالد بن الوليد باع نفسه في المعركة، وذلك جميل ومعروف لنفسه، صلاح الدين، طارق بن زياد، محمود بن سبكتكين، وأحفاد محمود من المجاهدين الأفغان، ومن أمثالهم قالوا لله بلسان حالهم: يا رب نحن فقراء ما عندنا مال ولا عقار، ما عندنا قصور ولا سيارات، ما عندنا ملابس ولا مشروبات ولا مرطبات، لكن هذه نفوسنا قدمناها لك!

أرواحنا يا رب فوق أكفنا نرجو ثوابك مغنماً وجوارا

كنا نرى الأصنام من ذهب فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا

لو كان غير المسلمين لحازها كثرأ وصاغ الحلي والدينارا

الجود بالعلم

قال ابن القيم: ومن الجود: الجود بالعلم وهو من أشرف الجود!

فيا دعاة الإسلام! يا طلبة العلم! يا حملة الدكتوراة والماجستير! يا من تفنن في أساليب التفنن العلمية والتخصصات الشرعية! الأمة ماتت جهلاً وشرراً وتخلفاً وعامية، فمن ينقذها بعد الله إلا أنتم! {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَزُّوا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: ١٨٧] اشتروا به مناصب ووظائف وتكدسوا في بيوتهم، وتركوا الأمة غارقة في الجهل وفي الخرافة والشرك، فبئس ما يشترون! والله لساعة من التعليم واحدة خير من مناصب الدنيا ومن وظائفها وأموالها.

هو العضب المهند ليس ينبو تصيب به مضارب من أردتا

وكنز لا تخاف عليه لصاً خفيف الحمل يوجد حيث كنتا

يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفاً شددتا

والله يقول: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠].

كم من القضاة في بلادنا! كم من الأساتذة! كم من العلماء! كم من الدعاة؟ ألوف مؤلفة! ومع ذلك القرى جاهلة، والبوادي تعيش الخرافات، وكثير من الناس لا يعرفون

أحكام دينهم ولا أمور شرعهم، وحولهم الماء لكن بخل أهل الماء بالماء، وفي الركاز الخمس، أرأيت البخيل إذا بخل بماله، كيف يكون ممقوتاً مذموماً مسبوياً مشتوماً من الناس! والله إن من بخل بقال الله وقال رسوله أكثر ذماً ومقتاً وبخلاً منه!

وانظر إلى أهل الباطل، كيف بذلوا علمهم الباطل وعلمهم المتخلف، ولعنهم بذلوها ووزعوها، كتبوا وتكلموا وحاضروا وأنتجوا وطلبوا وزمروا وغنوا ورقصوا، لكن أهل الحق في خجل أن يرفعوا حقهم ويوزعوه.

الجود بالمال

ومن الجود ومن منازل الكبرى: الجود بالمال، ونحن في هذه البلاد نعيش رغداً وعيشاً هنيئاً مريئاً، نحن أثرياء بالنسبة للعالم، إن متوسط دخل الواحد منا يعادل دخل كثير من تجار العالم، فهل قدمنا لأنفسنا؟ هل قدمنا للقبر؟ هل قدمنا للصراط؟ هل قدمنا ليوم الكربات يوم الفضائح؟

لقد رأينا ورأيت كثيراً من الناس يشكون العوز! مدين لا ينام الليل وأطفاله لا يجدون كسرة الخبز، لا يجدون قطعة القماش، يتقدمون بصكوك إلى أهل القصور، ويتقدمون بالدمعات الحارة إلى أهل المطاعم الشهية والملابس الوطية والمراكب الزهية، فيا أيها الناس! من فعل خيراً فإنما يفعل لنفسه، والله يقول: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦١].

الخير أبقي وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

يقول عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح: {إن لله ملكين يناديان كل صباح، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً} فمن أراد أن يخلف الله عليه وأن يبارك في رزقه وفي دخله، فلينفق على الفقراء، وعلى المجاهدين، وعلى المساكين، وفي مشاريع الخير، فهذا من باب البر.

كان الجاهليون وهم وثنيون يعبدون الأصنام والأوثان لا يرضون أن يعيش في مجتمعهم جائع ولا مسكين، كان ابن جدعان جاهلياً ما عرف لا إله إلا الله وما سجد لله، عنده صحاف تعرض كل صباح بلباب البر وبمسيل العسل، فينادي مناديه على جبل أبي قبيس في مكة: من أراد الإفطار فليأت فتمتلى صحافه من المساكين، فإذا أتى الظهر قدم صحافه لحماً وخبزاً ثريداً، وقال: من أراد الغداء فليأت! يقول أمية بن أبي الصلت في آل جدعان أهل الكرم والجود:

لا يكتون الأرض عند سؤالهم لتطلب الحاجات بالعيدانِ

بل يشرقون وجوههم فترى لها عند السؤال كأحسن الألوانِ

وإذا الغريب أقام وسط رجالهم ردوه ربَّ صواهلٍ وقيانِ

وإذا دعا الداعي ليوم كريمة سدُّوا شُعاعَ الشمس بالفرسانِ

الجود بالجاه

ومن الجود: الجود بالجاه -الجود بالوجاهة- بعض الناس آتاه الله جاهاً وواسطة وشفاعة، يعرفه المسئولون، يعرفه الأمراء والوزراء وأهل المناصب في الدولة بوجاهته وبمنصبه وبصدارته في المجتمع، والله يقول: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١١٤] ويقول سبحانه وتعالى: {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا} [النساء: ٨٥] ما هي الشفاعة الحسنة؟ يعني: يا أهل المناصب! يا أيها المسئولون في هذه البلاد وفي غيرها: أن تشفع للمحتاجين، أن ترفع حاجة المظلومين المضطهدين الأراذل العجائز، تتكلم إلى المسئول تتكلم إلى الأمير، تتكلم إلى الوزير في حاجتهم وفي مضرتهم وفيما أصابهم من ظلم وفيما أتاهم من جوع، وحينها تكون مشفوعاً لك عند الله، والجزاء من جنس العمل، يشفع لك محمد عليه الصلاة والسلام في دخول الجنة وفي الرضى الأبدي السرمدي عند الله: {وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا} [النساء: ٨٥] كما يفعل الذين انتقصت حقوقهم عند الله يسعى في إضرار المسلمين وفي التنكيد عليهم وفي تنغيص عيشهم وفي زلزلة أمرهم وفي تقديم دماءهم وأموالهم للشيخ، وهذا عنده عند الله مرصاد يتحراه: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]

الجود بالوقت

الجود بالوقت: أن تجعل وقتك للمسلمين، فتذهب إلى المريض في المستشفى أو في بيته فتواسيه، وكم تعادل زيارتك للمريض من الأجر والثوبة، إنك تدخل الأنس عليه

والفرج بعد فرج الله عليه، إنك تدخل ماء الحياة إلى قلبه، إنك تغرس شجرة الأمل في نفسه وفي روحه، وتعود مأجوراً.

ومنها أن تصل الأرامل وأن تتفقد المحتاجين: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [النحل: ٩٦] {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ} [التوبة: ١٠٩] أفمن بنى حياته ومستقبله على بر وخير وأصالة ومعروف.

{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ} [التوبة: ١٠٩] أسس قواعده على المعصية، أسس قواعده على الجريمة، على البغض للمسلمين، على تنكيد حياتهم، على تنغيص عيشهم، على التثلج بدمائهم وأموالهم {عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ} وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٠٩].

ما أحسن المعروف! وما أحسن الجميل! يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه: [[ما أحسن الجميل! والله لو كان الجميل رجلاً لكان حسناً، ما أقبح القبيح! والله لو كان القبيح واللؤم رجلاً لكان قبيحاً]].

جاءه رجل فاستحيا أن يسأل علي بن أبي طالب، فكتب حاجته في التراب فقال علي رضي الله عنه وأرضاه: أمسكت ماء وجهك وأعفيتنا من ذل سؤالك لألبين مسألتك فقال الرجل:

كسوتني حلة تبلى محاسنها لأكسونك من حسن الثنا حللاً

والثناء من أحسن ما وضعه الله للناس في الأرض.

إنما المرء حديث بعده كن حديثاً حسناً لمن وعى

حاتم الطائي نذكره اليوم وهو مشرك، حاتم نتبجح بذكره في المجالس وهو وثني، لأنه كان كريماً جواداً.

فيا عباد الله! قوا نفوسكم من نار تلظى، وقوا وجوهكم من لفح النار، بالمعروف، بالكلمة الطيبة، بالبسمة، بالصدقة، بالزيارة، بالشفاعة لما يرضيه سبحانه وتعالى، غفر الله لي ولكم، وأنقذني وإياكم من النار، وهداني وإياكم سواء السبيل، هنيئاً لكم إقبالكم على الله وتوبتكم إلى الله وثباتكم على ما يحبه الله ورسوله، وصلى الله على محمد وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

بذل الصحابة لنفوسهم في سبيل الله

أتى حمزة فترك أطفاله وأهله وداره وعقاره وأتى بثيابه الممزقة التي تستر جسمه الطاهر، فقاتل في أحد حتى قتل، فكان أسد الله في أرضه، وكان سيد الشهداء في الجنة، وأتى أنس بن النضر، فرأى الناس فروا يوم أحد، فأقبل إلى الله وشم ريح الجنة من دون أحد، فقتل وضرب بأكثر من ثمانين ضربة، وأتى خالد وسعد فباعوا أرواحهم من الحي القيوم.

هذه أعظم المنة وأعظم الصدقة والبذل: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} [التوبة: ١١١].

قصة ابن أبي حاتم

ذكر الذهبي في ترجمة ابن أبي حاتم، عبد الرحمن الإمام الورع الحبر: أنه ذهب إلى خراسان، فجلس في مجلس، فأتى قوم يقولون: نريد أن نبني مسجداً، فمن يبني لنا مسجداً؟ فقام هذا الإمام العالم، فقال: من يبني لهؤلاء الناس مسجداً فقد آذاهم الحر والبرد والمطر، فقام تاجر من التجار وقال: يا ابن أبي حاتم! أنا أبني لهم مسجداً، ولكن والله لا أبني لهم مسجداً حتى تشهد لي بمثله في الجنة، وتشهد أن لي بيتاً بمثله في الجنة، فتبسم الإمام وقال: من يتقول على الله؟ ومن يشهد على الله؟ لكن ثبت في الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: {من بنى لله مسجداً بنى له الله بيتاً في الجنة ولو كمفحص قطاة}.

قال: أما أنا فلا أبني حتى تكتب لي كتاباً أن لي مثله في الجنة، قال: الله المستعان! اللهم اعلم أنني أحسنت الظن بك فلا تخيب ظني، علي بورقة وعلي بقلم، فكتب بسم الله الرحمن الرحيم: لقد قاله: ابن أبي حاتم على الجواد الكريم الذي لا تنفذ خزائنه ولا ينتهي معروفه ولا بره أن فلان بن فلان بنى في الحياة الدنيا مسجداً، فإني أسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تبني له بيتاً في الجنة مثله، وقد شهدت على ذلك وشهد فلان بن فلان وفلان بن فلان، ثم وقع الورقة وسلمها الرجل.

قال الذهبي فنام ابن أبي حاتم تلك الليلة، وكان عابداً زاهداً ولياً لله، فرأى في المنام قائلاً يقول: أمضينا لك ما كتبت من صك ولا تعد إلى ذلك، أي نفذنا ذلك الخطاب لك ما دمت أحسنت الظن، ولكن لا تعد إلى ذلك، فإن معروف الله لا ينتهي ورحمته

وسعت كل شيء، وهل تُدخل الجنة إلا بالمعروف: {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الزخرف: ٧٢].

الحمد والشكر والفرق بينهما

قرأت في بعض الكتب أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال: يا داود! أتعلم أن النعم مني؟ قال: نعم.

علمتُ يا رب! قال: فقد شكرتني، فجمع داود آل داود! وقال: آتاكم الله النبوة والملك والعلم؛ فاشكروا الله، قالوا: وماذا نفعل؟ قال: تَجَرَّؤُوا الليل ساعات وتناوبوا، كل ساعة يصلي فيها نفر، فقال الله: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ} [سبأ: ١٣].

فمهما فعل العبد، فإنه لا يصل ولا يفي بهذه المقامات الثلاث.

ف{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] في السراء والضراء، وفي الأثر: {نعم عبدي المؤمن! أبتليه بجسده، ويقول: الحمد لله}.

وفي الإصابة لـ ابن حجر والاستيعاب لـ ابن عبد البر: أن عمران بن حصين أصيب بمرض، فمكث ثلاثين سنة، لا يرتفع عن فراشه، وكان يقول: الحمد لله رب العالمين، الحمد لله رب العالمين، الحمد لله رب العالمين، فإذا قيل له: ماذا أصابك؟ يقول: الحمد لله رب العالمين.

فإذا رضي الله سبحانه وتعالى فهذا مما يُحمد عليه في مواطن القضاء والقدر، وهي منزلة الصديقين عند الله عز وجل.

وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محمود لذاته، فليس في صفاته صفات عيب، بل صفاته صفات كمال، فهو محمود لذاته جلّ وعلا.

قال الزمخشري: الفرق بين الحمد والشكر: "أن الشكر على صنيع، والحمد بغير صنيع".

فالحمد: أعم، سواء قدم لك المحمود خيراً أو يداً أو عطية، فهو محمود، ولذلك تحمد الواحد الأحد.

وأما الشكر: فإنه لا يكون إلا على صنيع، فلا تقل للإنسان: شكراً، إلا إذا أعطاك شيئاً، أو قدم لك خدمة.

أما الله فهو محمود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لصفاته، وأفعاله.

محمود في أفعاله؛ لأن أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلها خيرة، ولذلك لا يُنسب الشر إليه، ولما قالت الجن: {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ} [الجن: ١٠]: بَنَتْهُ للمجهول، وأتت بنائب الفاعل، فما أحسن الكلام!

يقول أحد المفسرين: عجيب! حتى الجن يتذوقون اللغة! فلما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} [الجن: ١] قال: عجيب! يعرفون أن القرآن عجيب! كيف تذوقوا اللغة؟! فتعجبوا منه.

وقال إبراهيم الخليل عليه السلام في القرآن الكريم: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} [الشعراء: ٧٨] فلما بلغ إلى المرض نسب المرض إليه، وإلا فالمرض حقيقة هو الله، فقال: {وَإِذَا مَرِضْتُ} [الشعراء: ٨٠] وهذا تأدب مع الواحد الأحد.

والخليقة أقل الناس فهم من يحمد الواحد الأحد، {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣] قال ابن الجوزي: أهل الإسلام أقل أهل الأرض، وأهل السنة أقل أهل الإسلام، وأقول هنا: والمخلصون أقل أهل السنة.

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً فقد صاروا أقل من القليل

ويحكى أن عمر كان في السوق، فسمع رجلاً من الأعراب يقول: [[اللهم اجعلني من عبادك القليل، قال عمر: مَهْ؟! -أي: ما هذا الدعاء؟- قال: يا أمير المؤمنين! يقول الله: {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣] فسألتُه أن يجعلني من القليل، قال عمر: كل الناس أفقه منك يا عمر]] بل أنت الفقيه، وأنت العالم، وأنت الشيخ العظيم.

لفظ الجلالة وأقوال أهل العلم فيه

(الله) لفظ الجلالة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَبِي كَثِيرٍ مِنَ النِّحَاةِ أَنْ يَكُونَ مُشْتَقًّا، وقالوا: إنه جامد، وهو عَلِمَ عَلَى اللَّهِ.

وبعضهم قال إنه مشتق من: (أَلَه) إذا سكن، ولا تسكن القلوب إلا إلى الله، فقد جَرَّبَتِ الْقُلُوبُ أَنْ تَسْكُنَ إِلَى الْبَشَرِ فَرَفَضَتْ، جَرَّبَتْ أَنْ تَسْكُنَ إِلَى الْكَرَاسِيِّ فَأَبَتْ، جَرَّبَتْ أَنْ تَسْكُنَ إِلَى الْمَنَاصِبِ وَالسَّيَارَاتِ وَالْوُضَائِفِ وَالْوِزَارَاتِ وَالْكِيَانَاتِ وَالْأَوْسَمَةِ وَالْمُنْظَمَاتِ فَرَفَضَتْ وَعَصَفَتْ وَأَبَتْ وَفَكَّتْ قِيَادَهَا.

إلى أين تسكن؟ إلى الله {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨] {وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: ٣٦] فكل هذه الكيانات كمثل بيت العنكبوت، وبقي الله وحده تسكن إليه القلوب، فقالوا: إذاً الله من (أَلَه).

وقال بعضهم: إنه مشتق من: (وَلَهُ) أي: تحير، ففتحير وتندهش من الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته وعظمته، ولا تستطيع أن تصفه، ولذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

سيبويه في كتابه العظيم الكتاب عندما وصل إلى كلمة (الله) قال: الله عَلَمٌ لَا يحتاج إلى تعريف.

يقول ابن يعيش في ترجمته لسيبويه: رؤي في المنام، فقيل: يا سَيِّبُونَهُ! ما فعل الله بك؟ -ويطلق عليه المحذِّثون: سَيِّبُونَةُ، والنحاة: سَيِّبُونُهُ- قال: غفر لي، قيل: بماذا؟ قال: بكلامي في لفظ الجلالة.

ورأيت ابن القيم في مدارج السالكين نسب كلمات إلى شيخه ابن تيمية رحمهما الله يقول: إن الله دليلٌ على الكائنات، وليست الكائنات دليلٌ على الله.

والحقيقة: أن القول الظاهر عند أهل السنة والجماعة: أن الكائنات دليلٌ على الواحد الأحد سبحانه!

والنحلُ قُلٌّ للنحل: يا طير البوادي ما الذي بالشُّهد قد حَلَكَ

وإذا ترى الثعبان ينفت سُمَّهُ فاسأله من ذا بالسموم حشاكا

واسأله: كيف تعيش يا ثعبانُ أو تحيا وهذا السم يملأ فاك

فالحمد لله الكريم لذاته حمداً وليس لواحدٍ إلا كا

فكل الخليقة تدل على الواحد الأحد.

وهذا كتاب الكون، يقول إيليا أبو ماضي -قبحه الله- وقد أجاد في هذا البيت:

وكتابي الفضاء أقرأ فيه سوراً ما قرأتها في كتاب

ونحن نأخذها ونقول: نعم.

لأن الأمي الذي كان في الغار قيل له: {اقرأ} [العلق: ١] فأين شيخه؟ وقيل: {اقرأ} [العلق: ١] فأين أستاذه؟ وقيل له: {اقرأ} [العلق: ١] فأين سبوره وطباشيره؟ يقرأ أين؟ قيل له: اقرأ في الكون، في السماء المرتفعة، والنجوم الساطعة، والشمس اللامعة، واقرأ في الشجرة، وفي التل، والهضبة، فقرأ:

اقرأ فأنت أبو الأيتام رائده من كل جيلك كل الجيل يغترف

إن لم تصغ منك أقلام معارفها فالظلم ديدنها والزور والتلف

فقرأ وأقرأ الأمة، فأصبحت قارئة عليه الصلاة والسلام.

أثر كلمة (رب) على الخليقة

وأما {رَبِّ} [الفاتحة: ٢] فأثرها على الناس: أنه ربانا بالنعيم، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المنعم على الكافر والمؤمن: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود: ٦] وقال صلى الله عليه وسلم: {ولو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء} حديث صحيح.

ينعم عليهم ويكسوهم ويغدهم وهم يحاربونه أغدق عليهم العقول، وهم ينحتون العقول لمحاربة وتكذيب الوحي، خلق لهم أفكاراً وشعراً وأدباً ونثراً، فجعلوا الشعر والأدب والنثر محاربة لـ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥].

لفظة (العالمين) وما فيها من معان

أما (العالمين) فأنا أجتزئ الكلام، ولا أدخل في انشغاقات لغوية، مثل: (علامة).

ومن أحسن من تحدث فيها ما قاله الزمخشري، ولو أنه معتزلي غير محمود؛ لكنه داهية في اللغة، قال: والعالمون علامة على وجود الباري سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال سفيان بن عيينة في تفسير قوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام: ٣٨]: [[هذه الحيوانات تشابه الناس، والناس يشابهون الحيوانات، فما من إنسان إلا وفيه شبه من حيوان، إما حَسَنٌ أو قَبِيحٌ، وكلهم يدلون على الله، فهم عالمون]].

وأستطرد فأقول: من الناس من يشابه الخيول، وهي أجود ما تشابهه.

قال ابن القيم: وهي أجود الحيوانات.

ويقول صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: {الخيول معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة}.

فمن الناس مثل الفرس: وهو الرجل الشهم الأصيل صاحب المبادئ.

ومن الناس مثل الضأن: وقد مدحها صلى الله عليه وسلم، وفيها السكينة، والوقار، والهدوء، وذكر صلى الله عليه وسلم أنها من أحسن ما يكون من الحيوانات.

ومن الناس مثل البقر: لا يفهمون أبداً، ولا يعون، {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا} [الأعراف: ١٧٩] قال الله لبقر بني إسرائيل، وهم بقر: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً} [البقرة: ٦٧] وهذه تسمى: (عقدة البقرة) قال ابن عباس: [[لو أخذوا بقرة وذبحوها أغنت]] ولكن قالوا: كم رقمها؟ وكم سنّها؟! وما لونها؟ وهاتفها؟ فبقوا في تحديّ للواحد الأحد حتى طلسم عليهم فاشتروها بملء جلدها ذهباً، فقال تعالى على لسانهم: {وَأَنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} [البقرة: ٧٠].

روى البغوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: {والذي نفسي بيده! لو لم يقولوا: إن شاء الله ما وجدوها} ولذلك تعنتوا على الوحي.

ومن الناس مثل الطاووس: وهذا أمام {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] ظاهره جميل وليس عنده في الداخل شيء، بل كله رياء وسمعة وتبجح؛ فهذا لا يقدم ولا يؤخر.

لا بأس بالقوم من طول ومن قصرٍ جسم البغال وأحلام العصافير

ويقول سبحانه وتعالى في هذا الطراز: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ} [المنافقون: ٤].

شعراء، أدباء، ينحتون الفكر، وتصفق لهم الجماهير، ولكن -والله- أجهل عامي أقرب إلى الله منهم! وإن العامي يقدم رأسه لترتفع {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] وإن هذا الأديب والشاعر والكاتب، يهتز وينهار أمام كأس من الخمر، أو

ليلة سكر، أو موسيقى حاملة في ظلام الليل، فانظر إلى هؤلاء من جواهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب، المجدد والإمام والأصيل أنه يقول: عامي موحد يغلب ألف مُخَلِّط.

وهؤلاء المُخَلِّطون هم النخبة المثقفة صراحةً، ولا أَسْتَطِرِد فسوف يأتون في {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥]؛ لأنهم ينهارون عند {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥].

أثر (الرحمن الرحيم) على الإنسانية

الفلاسفة لهم مقالة مفادها: لماذا خلق الله الذباب؟ وهذا ابن الراوندي ألف كتاب الدامغ على القرآن -دمغ الله رأسه في نار جهنم- يسميه الذهبي: الكلب المعقّر، والناس هذا يسمونه: فيلسوف الإسلام، والإسلام منه بريء، ثوبه مشقوق، وهو صاحب الأبيات التي يقول فيها:

أيا رب تخلق أغصان رندٍ وألحاظ حورٍ وكثبان رملٍ

وتنهي عبادك أن يعشقوا أيا حاكم العدل ذا حكم عدلٍ؟

أستغفر الله! هذا الكلب المعقّر وقف على نهر دجلة وعنده قرص شعير يريد أن يأكله، فمر خادم من خدم الخليفة، وعنده خيل وجمال وبقر، فالتفت إلى السماء وكأنه يخاطب الله، وقال: أنا الفيلسوف -فيلسوف الإسلام- تعطيني كسرة خبز من شعير، وتعطي هذا العبد الخيول!! ثم رمى بالكسرة في النهر.

هذا الكلب يقول: لماذا خلق الله الذباب؟

وهذا السؤال عرضه أبو جعفر المنصور على ابن السماك، واعظ الدنيا وأبو جعفر - كما قال الإمام أحمد - يذبح الملوك كتذبيح الغنم، فقد ذبح أعمامه، وذبح أبا مسلم الخرساني، فلا يقاومه أحد إلا ذبحه بيده.

فيذكرون أن أبا جعفر كان جالساً في اجتماع، جمع فيه العلماء والوعاظ والوزراء والأمراء، وكان أبو جعفر خطيب الدنيا، فلما جلس دخل ذباب في المجلس وأزعجه فحَنَنَ عليه في ديوان القصر، فضاقت به الدنيا؛ لكن أراد الله أن يهين أبا جعفر؛ فلما هبط على أنفه، قال: يا ابن السماك! لماذا خلق الله الذباب؟! قال ابن السماك ليذل به أنوف الطغاة.

وهذا من أحسن ما يقال، وما أملحه! ولا شُلَّ لسانه ولا شُلَّت يمينه.

دعها سماوية تجري على قدر لا تفسدها برأي منك منكوس

فالمقصود: أن الله في أفعاله حكم بالغة، لا يعترض عليه سبحانه وتعالى، ولذلك قال: {لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} [الرعد: ٤١] أي: توقيعه الأخير، وحكمه النهائي، ولا أحد يُوقِّع بعده، قال سبحانه: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: ١١٥] ويقول ابن كثير في تفسيره، وهذا من أحسن ما يقال! قال: (صِدْقًا): في الأخبار، و (عَدْلًا): في الأحكام.

أما (الرحيم) فرحمته بالمؤمنين خاصة {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: ٤٣] وهذا بخلاف (الرَّحْمَن) التي تشمل الناس جميعاً.

في يوم الدين لا مال لك إلا الله

يقول أبو جهل: "يا محمد! تهددنا بالزبانية، لآتين بقريش معي" أي: يوم القيامة يخرج من القبر ومعه قريش، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٣- ٩٥] اسمع الرد الأدبي! لأنه ليس هناك حرس، ولا موكب، ولا ضباط، ولا رواد، ولا جنود، ولا استخبارات كما قال تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا} [مريم: ٩٣- ٩٤] فلا يضيع أحد بين الجماهير.

يقول بعض المؤسسين: يوم القيامة تزدحم الخلائق، إما أن نفر من هنا أو من هنا، أو نتأخر! ولم يعلم أن الله لا يغيب عنه أحد {لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٤- ٩٥] أي: وحيداً يحاسبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي الصحيح: {إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا أَخَذَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِيَدَيْهِ قَالَ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟} فلا يجيبه ملك مقرب ولا نبي مرسل، لكن يجيب نفسه بنفسه، فيقول: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أين ملوك الدنيا؟ أين ملوك الدنيا؟ أين ملوك الدنيا؟.

وفي حديث أسماء بنت يزيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: {إذا جمع الله الأولين والآخرين نادى: يأيها الناس! إني وضعتُ نَسَباً ووضعتُ أنساباً، فرفعتُ أنسابكم ووضعتُ نسبي، فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، قلتُ لكم: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣] فقلتُ: أكرمنا فلان بن فلان} انتهى الحكم لله الواحد القهار، فهو الذي يحكم سبحانه، فالصراط صراطه، والميزان ميزانه، والجنة جنته،

والنار ناره، ولا معقب لحكمه، قال جل شأنه: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣] {تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤].

شرف العبودية

أشرف شيء عبودية الباري سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله كما في المدارج: "من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية."

وقال أهل العلم: "أقرب الطرق إلى الله العبادَة."

وكتب عمر لـ سعد بن أبي وقاص: [[يا سعد! لا يغرنك قول الناس: إنك خال الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فإن الله ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، إن أقرهم عند الله أتقاهم]] {أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد} {ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه} {أعني على نفسك بكثرة السجود} {إنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة}.

القرب القرب العبادَة العبادَة، لا قرب آخر لا المال، ولا الولد، ولا المنصب، لا قرب من الواحد الأحد إلا بالعبادة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاحة: ٥].

أما شرف العبودية: فاسمع إلى الله وحين ذكر عبده في أشرف المنازل.

فيقول في الإنزال: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: ١].

ويقول في الدعوة: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن: ١٩].

ويقول في الإسراء: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى} [الإسراء: ١].

مرت عجوز كبيرة في السن، وتعريف العجوز: هي من احدودب ظهرها، ويبس بطنها، وجفَّ شعرها، واحضوضَلَّت عيناها.

تريد عجوز أن تعود فتيةً وقد يبس الجنبان واحدودب الظهر

تسير إلى العطار تبغي شبابها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟

مرت بالرسول عليه الصلاة والسلام فقالت: إنه يأكل كما يأكل العبد، ويجلس كما يجلس العبد.

فقال: {وهل هناك عبد أعبد مني} عليه الصلاة والسلام، نعم.

أنت العبد صراحةً، وأنت الذي أخرج العبيد من ظلم العبيد، إلى عبادة رب العبيد، كنا عبيدًا قبل أن نبعث، وكانت الأمة في عداد الحيوانات، ولا أقول بتلك الأمة التي أكرمها الله؛ لأنها قبل الرسالة يوم كانت مشركة كانت في عداد الهائم، حتى جاء

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَرَفَعَ رَعْوُسَهَا، فَأَصْبَحَتْ عَابِدَةً لِلَّهِ، فَأَعْتَقَهَا، فَلَمْ تَتَعَبِدْ إِلَّا لَهُ، إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لآخَرٍ.

ولذلك كان عمر بن الخطاب يرفض عبودية العبد للعبد، فعبودية العبد للعبد حرام بالإجماع.

ففي مصر: كان محمد بن عمرو بن العاص ابن أمير مصر يتسابق ذات يوم مع قبطي مصري، فسبق القبطي فرس الأمير، ويجوز عند أهل العلم أن يسبق فرس بعض الناس فرس الأمير، فسبق هذا الفرس، فنزل محمد ابن الأمير فطمم القبطي كفاً، فقال له القبطي: [[والله لأرفعنك إلى أمير المؤمنين، قال: اذهب، فذهب إلى عمر، وقال: ضربني كفاً وأريد أن تنصفي، قال عمر: مَنْ ضربك؟ قال: محمد بن عمرو، فأخبره القصة، فاستدعى عمرو بن العاص وابنه محمد، فلما قدما كان الصحابة جلوساً، قال عمر: والله لا يحول بيني وبينهما اليوم أحد، ثم أخذ الدرة، فأخذ محمداً فبطحه، ثم جاء على عمرو بن العاص فوضعه عليه، ثم ضربهما بالدرة، وقال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!]] من أين هذا؟ لماذا تُبْطَلُ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] لماذا تلغى قداسة الإنسان، وقيمته، ومعنويته، وكلمته، ودمه، ودموعه؟!

هذه مصداقية {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] في حياة عمر.

كهنوت التصوف ينهار أمام {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥].

الدروشة، واتخاذ المشايخ آلهة، ورسل من دون محمد صلى الله عليه وسلم، هذه من مذهب غلاة التصوف، وهي أن يُنصَّب شيخ، فيفرض ويسُن ويَحْلِل ويحرم من كيفه، وهذا هو الجهل الذي وقع بالأمّة، وسوف يأتي ذلك في تفسير (الضَّالِّينَ) وتأتي النخبة المثقفة العلمانية في (المَغْضُوبَ عَلَيْهِمُ).

لكن {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥] تلغي على هؤلاء أغراضهم، ولذلك لا يحب الصوفية قراءة القرآن، ولا يحرصون على علم الحديث، لكن عندهم رقص، وليلة سهر، وتصفيق، وليلة مولد، يقف منشدهم فيقول -واسمع النشيد الذي يعارض {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥]- يقول:

يا رسول الله! يا من ذكره في نهار الحشر رمزاً ومقاماً

فأقل لي عثرتي يا سيدي في اكتساب الذنب في خمسين عاماً

ويقول أحد الصوفية: نحن نأخذ علمنا من الرزاق، لا من عبد الرزاق؛ لأن أهل السنة يقولون: حدثنا عبد الرزاق.

قال ابن القيم: والله الذي لا إله إلا هو لولا عبد الرزاق وأمثال عبد الرزاق ما عرفتم الخلاق!

وقالوا: [علمكم علم الورق، وعلمنا علم الخرق] علم الضلالة والمرقعات والخفافيش.

ولا علم إلا علم محمد صلى الله عليه وسلم.

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥] تلغي عصمة الأئمة عند الضُّلَّال -الأئمة الاثني عشر- فجعلوهم كاثني عشر رسولاً، بل جعلوهم في بعض المقالات أعظم من رسل الله عز وجل.

وليس هناك رسول خاتم إلا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو خاتم الرسل، وهو المعصوم.

ف {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥] ترد عليهم.

و {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥] يقف أمامها الشهبانيون أهل الكأس، والمرأة الخليعة، والمجلة، والسهرة، والضياع، والأمانى المتساقطة، والشبهات، واللهو، يقفون أمامها حيارى، ولذلك لا يريدون {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥]؛ لأنها تلغي ما يمكن أن يقيموه من كيان، أو يقيموه لأنفسهم من شهرة.

الفرق بين الهداية العامة والهداية الخاصة

أما الهداية العامة: فهو أن الله عز وجل هدى الناس جميعاً -الكافر والمؤمن- إلى هداية عامة، وهذه الهداية مهدي بها حتى الحيوان.

فالهداية العامة أمر مشترك.

فالتبعية -ولد البقرة- إذا ولدته أمه رضع من ثديها، والطفل إذا ولدته أمه رضع من ثديها، والنحلة تذهب فتأخذ رحيق الزهر من على بُعد عشرات الأميال ومئات الكيلو متراً وتأتي إلى الخلية، وهدى النملة أن تأخذ الحب فتدخره في الصيف للشتاء، فمن

هو الهادي؟ إنه الله، ويُسمى هذا: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠] وهذا موسى عليه السلام وذلك حين سأله فرعون، وقال له: {فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى} [طه: ٤٩]؟

قال الحسن البصري: [[كان فرعون طياشاً]] لأن المجرم هو الذي بدأ بالسؤال، وإلاً فالواجب أن يترك الضيف ليتكلم؛ لأن من عادة الناس أن القادم يتكلم أولاً، أما أنك تلقي عليه الأسئلة، أو محاضرة، فهذا من السفاهة، والسخف {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى} [طه: ٤٩]؟

موسى ألهمه الله وعنده ترجمان؛ لكن أعطاه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى فصاحةً معنوية، فلو قال: ربي العالم، لقال فرعون: وأنا عالم؛ لأن العلم قدر مشترك، ولو قال: الحكيم، لقال: وأنا حكيم، ولو قال: الحليم، لقال: أنا حليم؛ ولكن قال: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠] قال الزمخشري: لله دره من جواب! كيف لكمه على وجهه!! ولذلك سكت وانتقل إلى سؤال آخر: من الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ هل يستطيع فرعون أن يقول: أنا أعطيت كل شيء خلقه ثم هديت، لا.

فهما صفتان اثنتان تختصان بالواحد الأحد لا توجد في غيره، ف{تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤] هذه في الله الواحد الأحد.

تقرأ {اهْدِنَا} [الفاتحة: ٦] في النحل حكمته، وفي النمل، والبستان، والحديقة والصحراء، والسماء والأرض.

وأما الهداية الخاصة: فهي للمؤمنين المهتدين إلى الخير خاصة.

الفرق بين هداية الدلالة وهداية التوفيق

أما هداية الدلالة: فهي للرسول عليه الصلاة والسلام.

وميزتنا أن لنا على الصراط هادٍ يهديننا، والصراط صراطان: صراط هنا في الدنيا، وصراط هناك في الآخرة.

فالصراط هنا: طوله من هنا إلى الجنة أو إلى النار، وفيه كالاليب، وكالليبه: الشهوات، والشبهات.

والصراط هناك: كما في الأثر: {طوله شهر، أحد من السيف، وأدق من الشعرة، وأحى من الجمرة، على متن جهنم، فيه كالاليب} وكالليبه: مثل شوك السعدان، فمن تخطفته كالاليب الشهوات والشبهات في صراط الدنيا تخطفته الكالليب في صراط الآخرة.

والناس على الصراط الأخروي مثلهم على الصراط الدنيوي، والله المستعان.

فإن من الناس من تخطفه الشهوات فتخطفه هناك، ومنهم من تخطفه الشبهات فتخطفه هناك، ومنهم من يسلم قليلاً فيصبح ساعياً، ومنهم من تخطفه فيجرح وينجو، ومنهم من يكردس في جهنم.

والرسول صلى الله عليه وسلم وصف الناس هناك كوصفهم هنا، فقال: {منهم من يمر على الصراط كلمح البصر، ومنهم كالبرق، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي، ومنهم من يحبو، ومنهم المخدوش الناجي، ومنهم المكرس على وجهه في النار}.

فالناس على الصراط هناك مثل ما هم على الصراط هنا.

قيل في الرسول عليه الصلاة والسلام:

في كفك الشهم من حبل الهدى طرفً على الصراط وفي أرواحنا طرفً

ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله في وصف الصراط المستقيم: أنه يحمل خمس صفات:

الأولى: قربه.

الثانية: اتساعه.

الثالثة: استقامته.

الرابعة: إيصاله للمقصود.

الخامسة: وجود الإمام في أوله.

وقصدي: أن الذي يدل على هذا الصراط محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول أحد الشعراء، يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام:

إذا نحن أدلجنا وأنت إمامنا كفى بالمطايا طيب ذكراك حاديا

أدلجنا: أي: مشينا في الليل.

فإما حياة نَظَّم الوحي سِيرَهَا وإلا فموت لا يسر الأعاديا

رضينا بك اللهم رباً وخالقاً وبالمصطفى المختار شهماً وهاديا

فالإمام -إمام الصراط- هو محمد صلى الله عليه وسلم {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢].

والله على صراط مستقيم، قال أهل العلم: يقول سبحانه وتعالى: {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٦] فهو سبحانه على صراط مستقيم، ورسوله على صراط مستقيم.

وُفِّسَرَ (الصِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ): بالقرآن، وُفِّسَرَ أيضاً: بالإسلام، وُفِّسَرَ كذلك: بمحمد صلى الله عليه وسلم.

قال أبو العالية: [[الصراط المستقيم: محمد وصحاباه]].

قال الحسن البصري: [[صَدَقَ وَنَصَحَ]].

والصحيح أن الصراط المستقيم: هو الإسلام، والقرآن، ومحمد صلى الله عليه وسلم، وهو النور كل النور.

وأما هداية التوفيق: فلا يملكها إلا الواحد الأحد.

يربى الشاب في بيت شيخ علم من علماء الدنيا، فينشأ الشاب مارداً فتاكاً لصاً مجرمًا مروج مخدرات.

وينشأ الشاب في بيت المجرم المروج للمخدرات فإذا هو ولي من أولياء الله، كأبناء الصحابة.

فمن الذي أهدى وأغوى؟ إنه الواحد الأحد {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦].

فموسى الذي رباه جبريل كافر وموسى الذي رباه فرعون مؤمن

فموسى (السامري) رباه جبريل فكفر، وموسى رباه فرعون فأصبح رسولاً.

فالهادي هو الواحد الأحد.

طرق الهداية

طرق الهداية لا تكون إلا بالشرعية والرسول عليهم الصلاة والسلام.

يقول أبو المعالي الجويني: طرق الهداية: النظر والاستدلال.

وقد ذكر هذا ابن حجر صاحب فتح الباري، فرد عليه سماحة الشيخ عبد العزيز

بن باز حفظه الله في الحاشية، فقال: لا.

لا النظر ولا الاستدلال، بل قول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين: {أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول لله}.

نَظَرُ في ماذا؟ واستدلالٌ في ماذا؟ يقصد: أن تفكر، وأحياناً قد يستغني بعض المتكلمين والمناطقية بالتفكير بالعقل، أي: أن تفكر بعقلك، فما يُقَبِّحُه العقل قَبِّحْهُ، وما يُحَسِّنُه حَسِّنْهُ.

يقول الجويني في تفسير قوله تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف: ١٥٧] يقول: ما حرَّمه العقل وقَبَّحَه حرَّمه، وما حَسَّنَه العقل واستملحه حلَّله.

وهذا خطأ، بل عليه الصلاة والسلام مُشرِّع من عند الله، لا ينطق عن الهوى.

زهـد السلف في الدنيا والتنافس على الآخرة

أتى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الناس فدعاهم إلى جنة عرضها السماوات والأرض، لم يمنهم بملك في الدنيا، أو يعدهم أنهم سوف يجدون مالاً أو نعيماً أو رغداً فيها، ولم يبن لهم قصوراً ولم يبرئ لهم دوراً أو يلبسهم لباساً، إنما يأتي أحدهم ببردته الممزقة لا يجد ما يشبع بطنه من خبز الشعير، ويأتي عليه الصلاة والسلام بحجرين يربطهما على بطنه في حفر الخندق من شدة الجوع، ولكنه يعلم الناس حب الجنة، ويصف لهم الطريق إليها، وأن هذه الدار ليست دار قرار، إنما هي دار عبور، وليست دار للمكث فيها ولا الرضا بها، ومن رضي بها واتخذها سكناً وأخلد إليها فذاك ملعون شقي مبعد عن الله.

وقف عليه الصلاة والسلام يتحدث إلى الجوعى من الصحابة الذين تركوا الدور والقصور والجيران والإخوان والخلان، وباعوا أنفسهم من الواحد الديان، وقف إليهم قبل معركة بدر، والمشركون أمامهم وسيوفهم بأيديهم، لم يخرجوا رياءً ولا سمعة، وقف يتحدث إليهم وهم الذين قال فيهم بعد ذلك: {إن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم} فيقول لهم قبل المعركة: {والله! ما بينكم وبين الجنة إلا أن يقتلكم هؤلاء فتدخلون الجنة} فيأتي عمير بن الحمام -صحابي فقير من الفقراء وزاهد من الزهاد لا يملك إلا ثوبه وسيفه- فيقول: يا رسول الله! أسألك بالله ما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء فأدخل الجنة، قال: إيه والذي نفسي بيده، ومع عمير تمرات يأكلها من الجوع- لكنه ما استصاغ أكل التمرات- فرمى التمرات وأخذ غمد سيفه فكسره على ركبته واستقبل الجنة، وقال: اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى، والله إنها لحياة طويلة إذا بقيت حتى أكل هذه التمرات ثم أخذ درعه فأنزله عن منكبيه- وهذا علامة الخطر والفداء، والشجاعة النادرة- وتقدم فقتل حتى قال عليه الصلاة والسلام: {لقي عمير بن الحمام ربه وهو يضحك إليه} ويأتي مالك بن عامر من الأنصار فيقول: يا رسول الله! وذلك في يوم أحد، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول للصحابة: نقاتل الأعداء هنا داخل المدينة، لأن من الخطأ الحربية الرائعة أن يدخل العدو في المدينة فيقصف في زقاق المدينة وفي سككها، لكن قام هذا الشاب وهو في الثانية والعشرين من عمره من الأنصار، من الذين أرادوا الله والدار الآخرة، فقال: يا رسول الله! لا تحرمني دخول الجنة، اخرج بنا إلى أحد ولا تحرمني دخول الجنة، والله لا إله إلا هو لأدخلن الجنة، فتبسم عليه الصلاة والسلام وهو على المنبر وقال: -والناس يستمعون والأبطال لبسوا دروعهم في المسجد، والمهاجرون والأنصار صامتون ساكتون يستمعون إلى الحوار الحار بين المصطفى وبين جندي من جنوده- فقال: بم

تدخل الجنة؟ قال: بخصلتين: أني أحب الله ورسوله، ولا أفر يوم الزحف، فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم وقال: إن تصدق الله يصدقك - إن كنت صادقاً فأبشر ثم أبشر - وبدأت المعركة في الصباح وأتى هذا الشاب فوضع درعه وأخذ غمد سيفه فكسره على ركبته، وقال: اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى.

يجود بالنفس إن ضن البخل بها والجود بالنفس أغلى غاية الجود

فقتل وأتى عليه الصلاة والسلام وإذا هذا الرجل وجهه معفر في التراب فمسح الغبار عن وجهه وقبله وبكى، وقال له: {صدقت الله فصدقك الله، صدقت الله فصدقك الله، صدقت الله {هؤلاء أهل الإيمان والحب والطموح شهداء في الأرض وليسوا شهداء الفن والغناء الماجن والمسرح الذي يموت على أغنية، أو ينزل من المسرح فتتكسر رقبته فيسمى شهيد المسرح، بل شهيد الكذب والرجعية، وشهيد الفكر العفن والتخلف.

يقف جعفر الطيار يوم مؤتة وهو في أرض الأردن وقد ترك زوجته وأطفاله وماله وداره وخرج إلى الله الواحد الأحد، فأتى في مؤتة والصحابة ثلاثة آلاف بينما الروم مائة وثمانون ألف، فوقف جعفر وأخذ يلتفت إلى المسلمين وهم يقولون: كيف نقاتل مائة وثمانين ألفاً ونحن ثلاثة آلاف فقال: أما أنا فقد بعث نفسي يوم أن خرجت من المدينة:

ومن الذي باع الحياة رخيصة ورأى رضاك أعز شيء فاشتري

أم من رمى نار المجوس فأطفئت وأبان وجه الصبح أبيض نيرا

ومن الألى دكوا بعزم أكفهم باب المدينة يوم غزوة خيبر

أتى جعفر وقال: [[اللهم اشهد، اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى]] الدم ليس المال ولا الدار ولا العقار، فأقبل على العدو كالأسد الهصور، فقطعت يمينه في أول النهار، فأخذ الراية في يسراه وأعلن لا إله إلا الله محمد ورسول الله صلى الله عليه وسلم، فقطعت اليسرى، فأخذ الراية بساعديه على صدره، فأقبل الروم بالرماح فدكوا الرماح في صدره حتى وقع شهيداً على الأرض، والرسول عليه الصلاة والسلام يتابع جعفر من المدينة وجعفر في مؤتة قريباً من أرض معان في الأردن وراءها مئات الأميال، فلما قتل جعفر نحب عليه الصلاة والسلام بكاءً عليه، فهذا شوق الحبيب لحبيبه، وجعفر لم يبك يوم قطعت يمينه؛ لأن العظماء لا يبكون في وقت العظمة، وإنما أخذ يتبسم ويقول:

يا حبذا الجنة واقتربها طيبة وبارد شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إن لاقيتها ضرايبها

ويأتي القائد الثالث ابن رواحة فإنه تقدم في المعركة زيد بن حارثة فقتل فتقدم جعفر فقتل فتقدم ابن رواحة، وقام عليه الصلاة والسلام يلقي خطبة تأبين وتعزية على الناس ويخبرهم بمصير القواد العظماء الثلاثة فيقول: {والذي نفسي بيده لقد عرضوا عليّ على ثلاثة أسره من ذهب وقد دخلوا الجنة، أما جعفر فكلمه الله كفاحاً بلا ترجمان} جعفر الطيار بن أبي طالب كلمه الله، وأبدله بيديه جناحين اثنين يطير بهما في الجنة حيث شاء، من شجرة إلى شجرة، ومن روضة إلى روضة، ومن قصر إلى قصر، سلام عليك يا جعفر! سلام عليك يا من بعث الحياة لأجل أن ترفع لا إله إلا الله

في الحياة، سلام عليك يوم نلتقاك ونسأل الله أن يجلسنا معك، فلسنا من الشهداء وما قدمنا وما فعلنا للإسلام شيئاً ما قمنا الليل ولا نهكت منا الأعراض، لكن يا جعفر! نحبك والمرء يحشر مع من أحب:

أحب الصالحين ولست منهم لعلني أنال بهم شفاعة

وأكره من تجارته المعاصي ولو كنا سواء في البضاعة

المكفرات العشر للذنوب والخطايا

إن الدواء من الذنوب والخطايا، والحل من السيئات والذنوب يكمن في عشرة أمور، من أدركه واحد من هذه العشرة، أنجاه الله، ورحمه وغفر له، ومن لم يدركه واحد من هذه العشرة فقد خسر الدنيا والآخرة، وقد شرد على الله، وتفلت على حدود الله، كما يتفلت الجمل الشارد على أهله، وهذه العشرة، اسمها: المكفرات العشر، أو المكفرات العشر للذنوب والخطايا، فيجب على المسلم أن يعتني بها، وأن يبادر بها، وأن يحققها، وأن يحاول أن يتشبث بواحدة منها حتى ينقذه الله، وحتى يسلمه الله، وحتى يعافيه الله من البلاء، ومن الضنى، والضنك، والردى.

أول هذه العشر: التوبة:-

فإنها واجبة على عموم الناس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

فالتوبة يا عباد الله!

وثانيها: الاستغفار:

قال ابن تيمية شيخ الإسلام في المجلد العاشر من فتاويه وكرر ذلك في الحادي عشر، وفي رسالة رفع الملام عن الأئمة الإعلام: "قد ينفع الاستغفار بلا توبة" والله قد أمر بالاستغفار، فهو العامل الثاني، وهو مطهر من الذنوب.

فأوصيكم بكثرة الاستغفار، فإنه مكفر للخطايا والذنوب.

وثالثها: دعوات المؤمنين لك:-

والتي اكتسبتها بحسن خُلُقِك، وتعاملك معهم، فدعأؤهم لك بظهر الغيب، يكفر الله به عنك الذنوب والخطايا.

ورابعها: ما تجده في الحياة الدنيا من مصائب:

من زلازل، ومحن، وكوارث، فهذه المصائب يكفر الله بها من سيئاتك، كما تحُتُّ الشجرة ورقها، حتى تخرج نقياً من الذنوب، بشرط أن تكون قائماً بفرائض الله.

وخامسها: الحسنات التي تفعلها:

من الصدقات، والنوافل، وحسن الخلق، وصلة الرحم، وحسن التعامل مع الناس، من الأذكار، من أعمال البر جملةً وتفصيلاً قال تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: ١١٤].

سادسها: ما تجده عند سكرات الموت، يوم يأتي الوعد الحق، يوم تأتي ساعة الصفر، يوم يأتي اليقين، يوم يتخلى عنك الأحباب، والأصحاب، والولد، والزوجة، والرحم والقريب، يوم لا يقف معك إلا الواحد الأحد: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧] فما يأتيك من سكرات فهي من المكفرات بإذن الله.

سابعها: ما تجده في القبر من منكر ونكير:

من فتنة الفتان أعادنا الله وإياكم من تلك الفتنة وثبتنا الله وإياكم يوم: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [إبراهيم: ٢٧].

ثامنها: ما يجده المسلم من أهوال يوم القيامة:-

من المنظر الرهيب الرعيب المهيئ، المدهش المذهل، من الصراط، ورؤية تطاير الصحف، ورؤية الشمس وقد دنت، والعرش وقد اقترب من الناس، وكثرة الخلائق، وكثرة الهلع والخوف والفرع، هذا كله مكفر للذنوب.

والمكفر التاسع: شفاعة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم:

فهذا مكفر تاسع: يدخل فيه أهل الكبائر، مَنْ شاء الله أن يرحمه من أهل الكبائر أدخله في شفاعة سيد الخلق، وَمَنْ شاء أن يعذبه منهم كَبَّه الله على وجهه في النار، لكن لا يُخَلَّد في النار إذا كان موحداً.

والعاشر: رحمة أرحم الراحمين:

يوم تنتهي التسعة الأسباب، وتتقطع الجبال، وتُوصَد الأبواب، وتنتهي هذه التسعة، يبقى السبب العاشر، تأتي رحمة أرحم الراحمين.

فنسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته، وأن يتولانا بولايته، فمن فاتته هذه العشر فلا يلومَنَّ إلا نفسه، ولا يبكي إلا على حظه ونصيبه، ولا يندم إلا على كسبه، ولا يعود باللائمة إلا على ذاته، فهو الذي أساء كل الإساءة، وفرط كل التفريط، وضيع كل الإضاعة.

سلامة الصدر

إذا أردت أن تنام وطرحت نفسك على الفراش، وأوكلت نفسك باريها، فتذكر هل تضرر للمسلمين غشاً، هل تحمل لهم حقداً أو ضغينة، إن كنت تحمل ذلك فصح إيمانك، وجدد إسلامك، فإن في قلبك غشاً وحقداً على عباد الله.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم جالس مع أصحابه في المسجد وهو مع الشبيبة الطاهرة التي حملت لا إله إلا الله إلى البشرية، فبينما هو يحدثهم قطع الحديث فجأة، وقال: {يدخل عليكم من هذا الباب رجل من أهل الجنة}.

إذا بهذا الرجل تتقاطر لحيته بماء الطهور والوضوء البارد الذي يشبه برد قلبه وبقينه، وحذاؤه في يده اليسرى، فيدخل ويصلي ركعتين ويجلس، وفي اليوم الثاني يعيد صلى الله عليه وسلم هذا الكلام ويدخل هذا الرجل، وفي اليوم الثالث يكرر الكلام ويدخل ذاكَ الرجل عجيب بم دخل الجنة؟! أبصيام وصلاة؟! أبكثرة قراءة ومحاضرات؟! أبصدقة وبذل وعطاء؟! لا.

الأمر أعظم من ذلك، إن من الناس من يدعو ولكنه حقوق، ومن الناس من يتصدق ولكنه حسود، ومن الناس من يبذل ويضحى ولكنه يبغض عباد الله، ويرصد لهم.

ولما سمع عبد الله بن عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك، حرص على معرفة سر ذلك، فلزم هذا الرجل، وأمسى عنده ثلاث ليال، انتظر ليقوم يصلي الليل فلم يقم ليصلي الليل، نظر للصدقة فليس هناك صدقة كثيرة، نظر إلى صلاته في النهار فوجده يصلي الفرائض فحسب، فودعه وقال: يا أيها الرجل! ما أمسيت عندك ثلاثاً؛ إلا لأن الرسول عليه الصلاة والسلام أخبرنا أنك من أهل الجنة ثلاث مرات، فأسألك بالله ما هو عملك الذي بلغك دخول الجنة؟ فما رأيت عندك قيام ليل ولا كثرة صلاة ولا صدقة! قال: أما وقد سألتني فوالله الذي لا إله إلا هو إنني لا أبيت وفي قلبي لأحد من المسلمين غش ولا حسد كائن من كان، لا أجد على المسلمين غلاً ولا حقداً ما أبرد قلبه!

اليهودية والنصرانية، والصهيونية العالمية، والشيوعية وأهل الحداثة، وأهل الفجور يختلفون، لكنهم في حرب المسلمين يتفقون، أما أهل الإسلام فمتفرقون على أساليب وأطروحات وحقد دفين، وغيبة في الأعراض.

حرمة المسلم

جاء في الأثر أن الرسول صلى الله عليه وسلم نظر إلى بيت الله الذي بناه إبراهيم، ثم قال: {ما أعظمك! وما أجلك! والذي نفسي بيده للمسلم أعظم حرمة عند الله منك}.

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام لنا ولكم، ولمن سلك طريق الإسلام: {المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه}.

يا أيها الذي جلس في المجلس ليغتتاب عباد الله المؤمنين! يا أيها الذي انتهك حرمت العابدين المتوجهين! أما تعرف أنك تحارب الدين الإسلامي؟! أما تعرف أنك تقوم بحرب شعواء ضد الرسالة الخالدة؟! اتق الله في نفسك اتق الله في مصيرك وتذكر أننا أمة واحدة، يقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠] فأكبر صفات المؤمنين أنهم إخوة

إن الذين يسعون إلى الفرقة بدعوتهم وأساليبهم وحقدهم، إنهم يحاربون الرسالة الخالدة التي أتى بها الرسول صلى الله عليه وسلم عجيب كيف يتحد الباطل صفاً في حربنا، ونحن شيع وأحزاب ومجالس وأساليب لا نتحد ولا نتفق ولا نتآخي؟! إنها قاصمة الظهر!!

إن كنتم لا تستطيعون أن تخدموا الرسالة الخالدة، وأن تدفعوا العدو المارد، فنسألكم بالله أن تكفوا ألسنتكم عن عباد الله.

البغضاء -يا عباد الله- شتتت الأسر في مجتمعاتنا، فقد وجد أن من الأرحام من يحقد على رحمه، ومن يتعرض له، ويكيد له المكائد، ولذلك قست القلوب، وجفت العيون، وانقطعت البركة في الأزواق بذنوبنا وخطايانا {والله لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟! أفشوا السلام بينكم}

ثلاثة تكلموا في المهد

أ- عيسى عليه السلام:

هو الذي أنطق كل شيء، فيقول عليه الصلاة والسلام: {لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة} قبل أن يتكلموا وقبل أن يفصحوا، من هم؟ قال: عيسى عليه السلام أتت به أمه مريم، وليس له أب عليه السلام، والله خلق الخلق على أصناف ثلاثة: خلق بلا أب ولا أم كآدم عليه السلام، وخلق بأم ولا أب كعيسى عليه السلام، وبقية الخلق من أم وأب، فأنتت به من النخل تحمله قال بنو إسرائيل: {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأً سَوْءً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا} [مريم: ٢٨] فلم تتكلم وأشارت إليه، فتضاحكوا، وقالوا: {كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} [مريم: ٢٩] فتكلم بإذن الله، مع أنه لم يمض عليه إلا ساعات، وقيل: ثلاثة أيام، فتكلم بلسان فصيح نصيح مليح، وقال: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} * {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا} * {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا} [مريم: ٣٠ - ٣٢] فانذهلوا.

هذا أولهم.

ب- قصة جريج:-

وثانهم الطفل في قصة جريج، كان جريج عابداً من عبّاد بني إسرائيل، في صيام وصلاة، في ذكر ودعاء، في صدقة وبذل، فقام يصلي، فلما كبر واستقبل قلبته، أتت أمه قالت: يا جريج فقال في الصلاة: يا رب أمي وصلاتي، يا رب أمي وصلاتي، يا رب أمي وصلاتي؟! أي: يا رب! هل أقطع الصلاة وأجيب أمي؟ أم أستمر في صلاتي؟ انظر إلى بر الوالدين.

الآن والداك لا يطالبانك بأن تقطع الصلاة وإنما يدعوانك إلى طلب خفيف، فتجد ممن يعق الوالدين، ويلعن الوالدين، ويقطع الوالدين، ويهجر الوالدين، وهما يقدمان له كل شيء!

وجد في مجتمعنا من الآباء من فعل بابنه العجب العجائب، بنى له بيتاً، وزوّجه، وملّكه سيارة، وأعطاه من المال، ثم تجد هذا الابن من أفجر الناس، قلبه من قلوب اليهود والنصارى، فلا يطيع أباه، بل يتنقصه في المجالس، ويستهزئ به، فهذا أفجر من أفجر فاجر في الدنيا.

فهذا الرجل العابد تحير في الصلاة لكن رأى أن طاعة الله مقدمة على ذلك، هو ما عصاها لكن ما أجابها، فغضبت عليه -وكانت عابدة- وقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات -أي لا تحكم عليه بالموت والإعدام حتى يرى وجوه الزانيات- وكان عابداً، والله يحفظ العباد.

أرأيتم إنساناً يحافظ على الصلوات الخمس ويشرب الخمر؟ لا.

هل رأيتم إنساناً والمصحف في يده يعتدي على المحرمات، أو يزني ويسرق؟ لا.

احفظ الله يحفظك: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَهُمْ صُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩] {فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [محمد: ٢١].

إنسان يحافظ على صلاة الفجر جماعة كل يوم لن يتردى في الكبائر أبداً، وهذا معروف بالاستقراء، أكثر من يدخل السجون الآن بالمخدرات الذين لا يصلون في المساجد.

لماذا؟، لأن الذي لا يعرف طريق المسجد يعرفه الله طريق السجن، والذي لا يعرف القرآن يعرفه السوط، والذي لا يعرف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم يذيقه الله السيف.

فقالت: اللهم لا تمته حتى تریه وجوه المومسات -تعني: الزانيات- فمكث فتحدث بنو إسرائيل بعبادته، وصيامه، وصلاته، فقالت امرأة فاجرة -نعوذ بالله من الفجور- والفجور انتشر في بني إسرائيل كما قال تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٣] تركوا الحجاب ثم اختلطوا، فوقعوا في الزنا فلعنهم الله ومسحهم قردهً وخنازير.

ولذلك لا يوجد أحد أظهر من موسى إلا من أمثاله من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، أتى قارون إلى امرأة زانية فأعطاه قنطاراً من ذهب، وقال: إذا اجتمعنا نحن والناس وقام موسى يدعونا إلى الله، فقومي وابكي وسط الناس -هذه الإشاعة الباطلة المفترة ضد الدعاة- قالت: ماذا أقول؟ قال: قولي: إنه صنع بك الفاحشة -سبحان الله! موسى عليه السلام- فلما اجتمع بنو إسرائيل ومعهم قارون والأغنياء والأمراء والناس؛ قامت تبكي وتضرب وجهها وتنفض شعرها، قالوا: مالك؟

فادعت أن موسى زنا بها، فقام موسى بالعصا، وقال: يا أمة الله أسألك بمن شق البحر لي، وأنزل علي التوراة هل أنا فعلت ذلك؟ قالت: لا والله، قال: اللهم خذ قارون، فخسف به وبداره، فأخذ قارون وداره فزلزل في الأرض يصيح: يا موسى! يا موسى! يا موسى! حتى اختفى صوته وماله وجسمه وداره في الأرض، وفي بعض الروايات الإسرائيلية يقول الله: "يا موسى لماذا لم ترحمه؟ لقد كدت أن أرحمه، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى!" أو كما قال الله عز وجل، وهذه من الإسرائيليات.

المقصود: أن هذه المرأة ذهبت إلى جريج، فذهبت إلى بني إسرائيل، فقالت: زنا بها جريج، فأتوا إلى جريج وكان عابداً في صومعةٍ فأنزلوه وضربوه، وهدموا صومعته، فقال: مالكم؟! قالوا: زנית بتلك المرأة، فأتوا وإذا هي حامل، وقد وضعت وطفلها معها يرضع، قال: يا أيها الطفل! أسألك بالله رب العالمين من أبوك؟ قال: أبي الراعي -راعي غنم كان يدور حول الصومعة زنى بهذه المرأة فكان ابنه هذا الولد- فرجعوا فقالوا: نبي صومعتك من ذهب، قال: أعيدوها من طين، فأعادوها من طين.

ج- الطفل الرضيع:-

والطفل الثالث: طفل كان مع أمه يرضع ثديها، فمر بها رجل جميل عليه ثياب حسنة على فرس، فقالت: يا رب أسألك أن تجعل ابني مثل هذا الرجل الفارس، فترك الطفل الثدي، وقال: اللهم لا تجعلني مثل هذا الرجل، فانذهلت فقالت: يا عجباً ابني يتكلم! وبعد قليل مروا بجارية يضربونها ويشتمونها، فقالت المرأة: اللهم لا تجعل ابني كهذه الأمة، فترك الثدي ورفع طرفه إلى السماء، وقال: اللهم اجعلني كهذه الجارية، فانذهلت، فسألت ابنها: مالك؟! قال: أما الرجل الأول، فإنه رجل فاجر ملعون في السماء، وفي الأرض، وأما هذه الأمة الجارية؛ فمظلومة، يقول لها أهلها: زنت وسرقت، وما زنت ولا سرقت، وفي بعض الروايات: وهي من أهل الجنة.

وشاهد هذه القصة الاعتماد على العمل، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم} وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {احتجت الجنة والنار، فقالت النار: مالي لا يدخلني إلا المتكبرون والمتجبرون؟ وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا الضعفاء والمساكين، فأوحى الله إليهما فقال للنار: أما أنت فعذابي أعذب بك من أشياء، وقال للجنة: أما أنت فرحمتي أرحم بك من أشياء} أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

والشاهد من هذه القصص: أن الاعتماد لا يكون إلا على العمل، فزكوا أعمالكم، وانظروا إلى قلوبكم، وأصلحوا أرواحكم، فو الله لا يجدي إلا ما أسلفته من عمل، وما قدمته من تقوى، وما أعددته بين يديك من صلاح.

أويس القرني وبر الوالدين

وفي المسند يقول عليه الصلاة والسلام للصحابه: {سوف يأتيكم وفد من أهل اليمن فيهم رجل صالح له أم هو بها بار، علامته أنه أبرصاً؛ فشافاه الله فبقي في بطنه كالدرهم من البرص اسمه أويس بن عامر القرني، فإذا قدم فمن أدركه منكم فليسأله أن يدعو له، ويستغفر له} فكان أبو بكر كلما قدم وفد من وفود الحجاج من أهل اليمن يسألهم: أفيكم أويس القرني؟ فيقولون: لا.

حتى مات أبو بكر، فلما تولى عمر أخذ يسأل وفود اليمن: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتت حجة، فأتى وفد اليمن يسلمون على عمر رضي الله عنه وأرضاه، فقال: أفيكم أويس بن عامر؟ قالوا: من هذا أويس بن عامر؟ فأخبرهم بوصفه.

قالوا: معنا رجل يرعى لنا الغنم في واد من وديان المدينة تركناه -يعني لعدم النظر إليه، وعدم الاعتداد به، وعدم التهيو له، تركوه يرعى الغنم- قال: أله والدة؟ قالوا: نعم.

قال: أصابه برص؟ قالوا: نعم، وشافاه الله.

قال عمر لـ علي بن أبي طالب: قم بنا إلى أويس فركب عمر حماراً، نعم عمر الذي هز دول الدنيا، عمر الذي وفدت كتائبه إلى المحيط الأطلسي، عمر الذي سجل كتب النصر بدماء الشهداء، وهز كسرى وقيصر على منبر الضلالة والعمالة حتى ولاه الله الدنيا، فقام وذهب الصحابة حوله وهو على الحمار، فوصل إلى الوادي وأتى إلى أويس، وإذا أويس يرعى الإبل والغنم وهو يصلي الضحوات، متصل بالله، لا يعرفه إلا الله، لا مال ولا ولد.

نزل عمر فرآه فعانقه، وقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: يقولون ذلك -يريد أن يتواضع-.

قال: ألك والدة؟ قال: نعم، قال: اكشف عن بطنك فكشف عن بطنه، فرأى عمر كالدهرم من البرص، فقَبَّل بطنه، قال: استغفر لي، قال: من أنت؟ قال: أنا عمر بن الخطاب، قال: لا إله إلا الله، أستغفر لك وأنت عمر، وعمر أفضل منه بلا شك، وعمر أرفع منه، وعمر أمكن منه، لكن هذا لصاحبه طلب منه الدعاء.

قال: استغفر لي، قال: إني أستغفر للمسلمين مع كل صلاة، قال: خصني بدعوة؛ فاستغفر لـ عمر، قال عمر: تعال معي الحياة حياتي، والموت موتي، قال: أسألك بالله أن تتركني أدخل في غمار الناس أجوع وأشبع ولا يعرفني أحد، فتركه عمر، فلما أمسى في الليل ذهب وترك الإبل والغنم، فأخذوا يلتمسونه فما وجدوه، وبعد سنوات وجدوه في خراب من خراب الكوفة وهو يعبد الله ويقرأ القرآن.

وإن أويساً هذا يشفع كما في الحديث وهو حديث حسن؛ يشفع يوم القيامة لمثل قبائل مضر يدخلهم الله الجنة باستغفار هذا وبصاحبه.

هؤلاء هم الصالحاء، وهؤلاء هم الأخفيا، وهؤلاء هم الأغنياء، وهؤلاء هم المقربون من الواحد الأحد.

من أنوار النبي صلى الله عليه وسلم

في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، في ليلته العطرة المباركة يوم بات مع خالته ميمونة رضي الله عنها وأرضاها، قال: {نمت في عرض الوسادة، فدخل صلى الله عليه وسلم، فنظر إلي، قال: نام الغليم؟ قالت: نعم نام} ظننت أنه نام ولكنه ما نام، لماذا أتى؟ أتى ليبري الرسول عليه الصلاة والسلام، ليبري سيرته في الليل، وصلاته ودعائه وبكائه وخشيته، ليستفيد منه في الليل.

نامت الأعين إلا مقلّة تذرف الدمع وترعى مضجعك

فقام عليه الصلاة والسلام، فأتى إلى فراشه، فقرأ، ودعا، وهلل، وكبر وذكر الله، ثم نام، وعند البخاري: حتى سمعت خطيطه، وهو صوت يحدثه النائم من كثرة نومه أو استغراقه في النوم، لكن تنام عيناه ولا ينام قلبه، عليه الصلاة والسلام، فاستفاق من الليل يعرف النوم من عينيه، ويقول: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

ثم قام عليه الصلاة والسلام فذهب لحاجته، فأتى ابن عباس فوضع له ماءً عند الباب، وهذا من الفقه في الدين، يدري أنه إذا انتهى يحتاج ماءً، فوصل عليه الصلاة

والسلام، وقال يسأل نفسه: من وضع لي هذا الماء؟ ثم قال: {اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل} فكانت من أعظم الليالي في حياة ابن عباس، بل ميلاده وتاريخه بدأ من تلك الليلة.

فقام يتوضأ ووقف عن ميسرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم يده إلى أذن ابن عباس ففركها في الصلاة؛ لأنه وقف خطأ، وموقف المأموم الواحد عن يمين الإمام، فأعاده عن يمينه، وكان ابن عباس يحفظ الحركات والسكنات والكلمات تلك الليلة.

كانت من كلماته عليه الصلاة والسلام، وهو شاهدنا هذه الليلة: {اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن} انظر نص الكلام، كلام يصل إلى القلوب.

{اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد -وفي لفظ: أنت إله السماوات والأرض ومن فيهن- ولك الحمد أنت الحق، ووعدك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت}.

ثم خرج إلى الصلاة صلى الله عليه وسلم في الفجر، فكان يقول: {اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن فوقني نوراً، ومن تحتي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً} وعند البخاري: {واجعل

في شعري نوراً، وفي عظمي نوراً، وفي مخي نوراً، وفي عصبي نوراً، وأعظم لي نوراً { إنه نور الله الذي ينزله في قلب من يشاء من عباده.

كيف نفرق بين كرامات الأولياء وشعوذة المشعوذين؟

هنا وليٌّ من أولياء الله تأتيه كرامة، مثل أن يرى نوراً في بيته، مثل أن يطوي الله له الأرض، مثل أن يأتي الأسد له فيطأطئ الأسد رأسه له، ويأخذ الأسد ويمسكه، أو يمسك الثعبان فلا يؤذيه الثعبان، وبين مشعوذ يأتي إلينا فيأخذ الثعبان فإذا هو عصا، ويأخذ العصا فإذا هي ثعبان.

أحد الناس قال: رأيت مشعوذاً أخذ فنجاناً فحوّله إلى بيضة دجاجة، وأخذ براداً فحوّله إلى حمامة، وهذا من المشعوذين، فكيف نفرق بين هذا وبين هذا؟

قال ابن تيمية: نفرق بين الكرامة والشعوذة بفارقين اثنين، وهذا من الفرقان الذي يجعله الله لأهل النور: {نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ} [النور: ٣٥].

الفارق الأول: أن الكرامة لا تجري إلا على يد رجل صالح عامل بالكتاب والسنة، فإذا رأيت الرجل الفاجر تجري على يديه خوارق للعادات فالعنه والعن خارقته ولا تقبل منه كلمة، رجل فاجر يصلي بجنابة، رجل يأوي الزبالات، ولذلك كثير من السحرة والكهنة -كما نقل إلينا برجال ثقات- يبيتون في المزابل والرماد والمذابح والحمامات، لأن الجن لا تأتيهم ولا تسخر لهم إلا في هذه الأماكن، ولذلك إذا دخلنا الحمام قلنا: نعوذ بالله من الخبث والخبائث، فهؤلاء إذا أتى علي أيديهم شيء فنكفر بهم ونكفر بما أتى على أيديهم.

ليست كرامة، بل هي ندامة، ولعنة، وخزي، ودمار، وعار في الدنيا والآخرة، ومن أتاهم وصدقهم فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ولا كلاماً، ولا يزيه ولا ينظر إليه، وله عذاب أليم، وقد كفر بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام.

فالمضابط أن الكرامة لا تأتي إلا على يد رجل صالح، عامل بالكتاب والسنة، صاحب سنة واستقامة، يعتقد اعتقاد السلف الصالح، فهذه كرامة أتت علي يده، وإذا أتت على يد النجس الآخر القذر المشعوذ الكاهن، فهي خيبة وندامة ولعنة وابتلاء من الله.

الفارق الثاني: ألا يستخدم الكرامة إلا فيما يرضي الله وينصر بها دين الله، مثلما فعل الصالحون، فالصحابية أكرمهم الله بكرامات فكانت في سبيل الله، مثل الطفيل بن عمرو الدوسي أكرمه الله بنور جعله في جبينه، فسأل الله أن يحوله في عصاه، فكان إكرامه بجعل النور في العصا آية في الدعوة.

الإسلام لا يعرف البطالة

كان هناك رجل عابد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: {من ينفق عليه؟ قالوا: أخوه، قال: أخوه خير منه}.

وورد في بعض الآثار أن الرسول صلى الله عليه وسلم صافح رجلاً فوجد يده خشنة من العمل، قال: {إن هذه يد يحياها الله} هذه اليد الخشنة التي تأخذ وتزاول وتفعل يحياها الله، ومن المصائب أن الأمة الآن تعيش في بطالة، وكثير من الناس حتى الشباب الآن تجده ملتزماً مستقيماً لكن فيه بطالة، ويأتيه الشيطان ويترك الدراسة، والوظيفة، والعمل، وإذا قيل له: أتشتغل في البندر؟ قال: هذا عيب في سوبر ماركت؟ قال: عيب أنا فلان أتنازل إلى هذا!! إذاً في مزرعة، قال: عيب، إذاً في مكتبة؟ قال: عيب،

إذاً في التسجيلات؟ قال: عيب، وهكذا تأتيه الأنفة حتى يكون بلا عمل، وليس كل ذلك بعيب إنما العيب في البطالة، والعيب أن يجلس الإنسان عاطلاً وكلاً على أبيه مثل: الحجر الأدرن، لا تبني به ولا يتدحرج.

ولذلك تجد بعضهم عندهم تصوف هندوكي، وتخيلات في الحياة، يجلس في البيت حتى تأتيه الوسوسة.

لماذا لا تدرس؟ قال: الدراسة في الكليات ليس فيها بركة، ولماذا لا تعمل؟ قال: ما وجدت عملاً يناسبني، قال: ماذا تريد؟ قال: إن شاء الله أتزوج فيما بعد وأبحث عن عمل مناسب، ودائماً يتدين من الناس، ولو أدركه عمر بن الخطاب لمرغه في التراب.

كان في عهد عمر شباب دخلوا المسجد يعبدون الله عز وجل، وظنوا أنها سوف تنطلي هذه البطالة على عمر؛ لأن عمر يقوم على الدولة الإسلامية، التي أقيمت على {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] وكان يلاحظ كل ما يجري، ويلاحظ كل منحي، ويسأل عن الداخل والخارج، وعن أمور الشباب والعلم، والقصاصين، والوعاظ، وعن كل دقيقة وجليلة يحاسب الناس، دخل المسجد وإذا مجموعة في الضحى، والناس في المزارع يشتغلون، والأنصار العباد الذين قدموا أنفسهم في بدر وحنين يسقون النخل، وهذا يجر الدلو من البئر ويصب، وهذا نجار، وهذا خشاب، وهذا يبيع السمن، وهذا يبيع العسل، وهذا يبيع الغنم، وعمر بنفسه يبيع ويشترى في السوق، إلا هذه المجموعة في المسجد!! قال عمر: [من أنتم؟ قالوا: عبّاد.

قال: سبحان الله! -كأن: عمر ليس بعباد؛ لأنه جاء من خارج المسجد! - قال: فمن يأتي لكم بطعامكم؟ قالوا: جيراننا -أي أنهم يبقون في المسجد وقت الغداء، فإذا

حانت الساعة الثانية أتى الأكل - انظروا العبادة كيف تكون!! قال عمر: انتظروا قليلاً - ظنوا أنه على العادة أنه سيأتي بأكل فذهب فأتى بالدرة- وتعرفون ما الدرة؟ وهذه درة عند عمر تخرج الشياطين من الرؤوس، وهذه الدرة ما ضرب بها إنسان إلا خرج سليماً بإذن الله، وزاد عقله ورشده، وأصبح يعرف طريقه! فأخذ الدرة، وأغلق أبواب المسجد وأتى يضربهم ضرباً حتى يبطحهم فلما أدماهم، قال: اخرجوا إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، فأخرجهم من المسجد، وأغلق أبواب المسجد]] أي أن الإسلام لا يقر الإنسان أن يبقى عالة وأيضاً متى كانت هذه الأعمال عيباً، متى كانت النجارة والخشابة، والبنشر عيباً؟! العيب: هو ترك هذه الأمور، أما هذا فهو شرف في الحياة، فقد عمل عليه الصلاة والسلام، وعمل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وقال صلى الله عليه وسلم: {لأن يأخذ أحدكم أحبله فيذهب إلى جبل من الجبال، فيحتطب على ظهره فيبيع ويشترى خيراً له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه}.

تقوى الله هي ميزان التفاضل بين الناس

قوله عليه الصلاة والسلام: {ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه} المعنى: إن من اعتمد على نسبه، ولم يعتن بعمله فإنه لا ينفعه ذلك عند الله شيئاً، وأن صاحب النسب العظيم والعمل الحقير لا ينتفع بنسبه، ولا ينفعه عند الله إنما ينفعه العمل.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول في الصحيح: {يا بني هاشم! لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم} لأن بعض الناس الآن يعتمد على نسبه، ودائماً في كل مجلس يذكر سلالته، وأنه ابن فلان، وأن أباه فعل وصنع، وجده كذلك، وهذا كما في الأدب المفرد للبخاري بسند حسن: {من افتخر بتسعة آباء في الجاهلية فهو عاشرهم في النار} فبعض الناس دائماً يفتخر على حساب الآخرين بسلالته ونسبه وبأصالته

وبإقليمه وبمنطقته وببلده، وهذا التمييز العنصري الذي قسم العالم الإسلامي وجزأه ما أنزل الله به من سلطان.

أنزل الله عز وجل نسباً عظيماً للأمة وهو: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٣] رفع بلالاً وجعله أكرم من أبي جهل المخزومي، ومن الوليد بن المغيرة، ومن أمية بن خلف.

وجعل سلمان الفارسي من أهل البيت، ورفع صهيباً وخباباً وابن مسعود، لكن بعض الناس لعدم تصويره لهذا الدين، ولعدم انشراح صدره لهذه الرسالة؛ لا يزال يحمل في رأسه التمييز العنصري على الأجناس والأشخاص، والدول، والأقاليم -أقصد المسلمين- العالم الإسلامي، فتجده يتميز وينحاز، ويظهر التفاخر على الناس؛ لأنه من إقليم كذا، أو من أسرة كذا، أو من قبيلة كذا، وهذا خطأ ومخالف للكتاب والسنة.

لهذا يقول صلى الله عليه وسلم: {يا بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار لا أغني عنكم من الله شيئاً} والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: {خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا} فالنسب الطيب مع الإيمان، خير على خير، أما أن يكون النسب مصدر إزعاج للآخرين وتعالى وتكبر وتفاخر فهذا هو الويل والدمار:

إذا فخرت بآباء لهم شرف نعم صدقت ولكن بئسما ولدوا

إن الفتى من يقول: هأنذا ليس الفتى من يقول: كان أبي

وقال الآخر:

خذ بحد السيف واترك نصله واعتبر حسن الفتى دون الحلل

إلى آخر ما قال.

وأما مجتمع المسلمين الآن فهم بعيدون عن: {من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه} فإن بين الناس أموراً تعارض السنة من ضمنها -وهذه لم يستطع لها أعلم العلماء وأعظم الدعاة حلاً- وهي مسألة النسب، وهذا قبيلي وهذا غير قبيلي، وعدم التزاوج من الصنفين، وهذا الأمر يخالف الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم.

فبعض الأسر جعلت تتناهى أن تتزوج من أسرٍ أخرى أقل نسباً منها، ولو عدنا إلى أصل السند ورأس الشجرة وصلنا كلنا إلى آدم وحواء، فكل هذا العالم -الأحمر والأسود والأشقر- يرجع إلى آدم وحواء {كلكم من آدم وآدم من تراب}.

فهذا الذي يفتخر على الناس يرجع إلى التراب، وما على الإنسان إلا أن يعرف أن الفضل في الإسلام إنما هو بتقوى الله، وليس بغير، وأن من قدم أموراً أخرى كالنسب والمال والجاه والمنصب، إنما هو من قلة فقهه في دين الله عز وجل، ولعدم معرفته بشرعه وتبارك وتعالى.

العمل بالعلم

يا شباب الإسلام هذا القرآن وهذه السنة، وهذه الجامعات والمعاهد والمدارس، ما أقيمت إلا لتقودكم إلى جنة عرضها السموات والأرض، فالخواتم يتعلمون للدنيا،

قال تعالى: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧] وينتهي علمهم إلى المادة، ولكن ما وراء عالم الشهادة يخفقون فيه، قال تعالى: {بَلْ إِذَا رَأَىٰ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ} [النمل: ٦٦] وقال: {وَأَوَّلُ عَلَمِهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦] هذا مثل لعالمِ السوء، ولطالب العلم الفاسق الفاجر.

رجل من بني إسرائيل اسمه "بلعام بن باعوراء" تعلم العلم، فأراد الله أن يرفعه بالعلم لكنه ما ارتفع؛ لأنه خسيس، جعل مكان التلاوة أغنية ماجنة، وجعل مكان المصحف مجلة خليعة، وجعل مكان الدروس وحلقات العلم رفقة السوء في المقاهي والملاهي، والليالي الحمراء، وليالي السوء في تاريخ الإنسان؛ فما اهتدى ولا ارتفع، قال سبحانه وتعالى: {وَأَوَّلُ عَلَمِهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا} [الأعراف: ١٧٥] يريد الله أن يكرم الإنسان فيأبى الإنسان، ويريد أن يلبسه ثوب الستر فيخلع ثوب الستر، ويريد أن يرفعه من الطين والرذيلة والفاحشة فيرفض!! فمثله كمثل الكلب، إذا أدخلته الظل أخرج لسانه ولهث واطرد نفسه، وإن أخرجته في الشمس لهث وأخرج لسانه، فالظل والشمس سيان عند الكلب، ولذلك بعض الناس يتعلم ويسمع المواعظ والخطب والنصائح مما غيرت في حياته ذرة.

{وَأَوَّلُ عَلَمِهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الأعراف: ١٧٥] فهو أغوى الناس، لأنهم يقولون: هذا خريج كلية الشريعة وأصول الدين، وهو فاسق! فيمكن أن يكون عنده دليل على جواز الفسوق والفجور! فقد أضل الناس، (وزلة العالم زلة عالم) والعالم إذا زل زل به فئام كثيرة من الناس، قال تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا} لو علم الله منه صدقاً لرفعه ولكنه ما ارتفع.

فيا أيها الأساتذة أروا الله من أنفسكم الصدق! ويا طلاب المسلمين! أروا الله من أنفسكم النصح، وطلب العلم لوجهه، والقوة في التحصيل.

إن هذه الدعوة تقام على علم، وإن من يهون من شأن العلم، أو يقلل من شأن الحلقات والدروس والتحصيل معناه أنه يضرب في صميم الإسلام، ويهدم بمعوله حصن الإسلام، ويدوس كرامة الإسلام.

الإسلام ما بني إلا على علم، وما نشر إلا بقال الله وقال رسوله؛ فبماذا ندعو الناس؟ أنصف لهم كلمات؟! أنجعل لهم خطباً إنشائية رنانة طنانة لا علم فيها ولا توجيه ولا نصوص ولا أدلة؟!

الاستهزاء في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

جلس الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في المسجد يعلمهم ويربهم ويزكهم، وانطلق من الجلوس شاب صغير في السادسة عشرة من عمره، اسمه عمير بن سعد، ملئ حكمة وإيماناً، ودخل على عمه وهو شيخ كبير في الستين من عمره، ولكن النفاق في قلبه كالجبال، يصلي مع الناس في المسجد، ولكنه مكذب بالرسالة والرسول.

قال له عمير بن سعد: يا عماه! سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يخبرنا عن الساعة حتى كأني أراها رأي العين.

فقال الجلاس بن سويد -وهو عمه-: يا عمير! والله إن كان محمد صادقاً فنحن شر من الحمير.

فامتقع وجه عمير بن سعد، واهتز جسمه وانتفض كيانه؛ فقال: يا عم! ووالله إنك كنت عندي من أحب الناس، ووالله لقد أصبحت اليوم من أبغضهم إلى قلبي، يا عم! أنا بين اثنتين: إما أن أخون الله ورسوله فلا أخبر الرسول، وإما أن أقطع علاقتي بك وليكن ما يكن، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قلت.

ما معنى هذه الكلمة؟ معناها الكفر بلا إله إلا الله، والاعتراض على رسول الله عليه الصلاة والسلام.

قال الجلاس بن سويد: أنت طفل غرّ لا يصدقك الناس فقل ما شئت.

فذهب عمير وجلس أمام الرسول عليه الصلاة والسلام، وقال: يا رسول الله! إن عمي الجلاس بن سويد خان الله ورسوله، وقد تبرأت إلى الله ثم إليك منه، فلا علاقة لي به.

قال: ماذا قال؟ قال: يقول: إن كنت أنت صادقاً فهم شر من الحمير.

فجمع الرسول عليه الصلاة والسلام الصحابة واستشارهم في هذا الكلام، فقالوا: يا رسول الله! إن هذا طفل لا تصدقه، وليس بواع، وهو ينقل الكلام وشاية، والجلاس بن سويد يصلي معنا، وهو شيخ كبير وعافل.

فسكت عليه الصلاة والسلام ولم يصدق هذا الشاب.

وسالت دموع الشاب، وانتفض جسمه، والتفت إلى السماء حيث القدرة وعلم الغيب، وحيث الذي يعلم السر وأخفى، وقال: اللهم إن كنت صادقاً فصدقني، وإن كنت كاذباً فكذبني.

فوالله ما غادر مجلسه وما قام من المسجد إلا وجبريل يهبط من فوق سبع سموات بالوحي المقدس {يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [التوبة: ٧٤]

واستدعى الرسول صلى الله عليه وسلم الجلاس، وسأله عن الكلمة فحلف بالله ما قالها، فقال عليه الصلاة والسلام: {يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ} [التوبة: ٧٤] أما أنت يا جلاس فقد كفرت بالله، فاستأنف توبتك؛ لأن الله يقول: {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ} [التوبة: ٧٤] واستدعى الرسول صلى الله عليه وسلم عمير بن سعد وفرك أذنه وقال: مرحباً بالذي صدقه ربه.

ماذا يستفاد من هذا؟ يستفاد أن هناك معسكراً يستمر مع الصالحين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يلغ هذا المعسكر في أعراض الصالحين كما تلغ الكلاب في الماء، ولا بد: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} [الفرقان: ٣١].

يقول المتنبي:

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان عن ملأ هم الثريا وذان الشيب والهزم

ومعنى ذلك: أن المستقيمين على أمر الله، والطائعين لله، والخائفين منه من شباب الصحو ودعاتها وعلماء الأمة وصالحها، والذين يحملون سنته عليه الصلاة والسلام يواجهون بحرب دعائية مفتعلة لا هوادة فيها، فهم يوصفون بالتطرف والتزمّت، وقلة العقل، والتشديد والتنفير والتحريم، وتكليف الناس بما لا يطاق، إلى غير ذلك من العبارات، {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} [الكهف:٥].

إن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام لم يسرقوا أراضي الناس بالغصب والقوة إن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام لم يضايقوا الناس في أرزاقهم إن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام لم يعطلوا مصالح الناس، ولم يستهزئوا بالفقراء، ولم يقفوا حجر عثرة في طريق المستضعفين: إنهم هم الذين يبينون الظلم ويكشفون أوراقه، ويقولون للظالم: اتق الله يا ظالم، ويقفون مع الفقراء والمستضعفين والمستذلين حتى يأخذوا حقهم الشرعي الذي أحقه الله لهم.

ولكن مع هذا كله! هناك صنف لا يعجبه هذا، يلحق الوشاية بحملة الشريعة، من القضاة، وأهل التمييز، والعلماء، وديوان المظالم، وكتاب العدل، ونجوم الدعوة، وحملة السنة، وأساتذة الجامعات والمربين كل هؤلاء يريد أولئك أن تسقط عدالتهم في الأمة؛ لأنهم يحمون دين الرسول عليه الصلاة والسلام، ويبلغونه غضباً طرياً للأمة.

فحذار من أولئك، وحذار من الإنصات إليهم.

وقد كشف الله أوراقهم، فما رأيناهم إلا لاغين، لاهين، طريين، عابثين، مسرفين، أسرفوا في الأموال وضيعوها، ولعبوا بالأوقات وأنفقوها، وتهتكوا في الأعراض ومزقوها، فكلما نصحتهم وصفوك بأنك عنيد جاف غليظ متمزمت.

حملة الشريعة يقومون في الثلث الأخير من الليل، ويحفظون كتاب الله في حين تجد أولئك يسهرون على اللعب المحرمة، وعلى الأعراض المشوهة، يمزقون أعراض المسلمين، فدخلهم حرام، وكلامهم حرام، وليلهم حرام، ونهارهم حرام، ومع ذلك لا يحرص أحدهم على أن يتعلم سنة محمد عليه الصلاة والسلام، فتجده في واد والسنة في واد آخر.

قام نفر في عهده عليه الصلاة والسلام في تبوك فاتهموا الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه بأنهم جبناء لا يستطيعون المواجهة، وأنهم يأكلون كثيراً، فاستدعاهم عليه الصلاة والسلام في صباح اليوم التالي، فسألهم وحجهم، فقالوا: يا رسول الله! معذرة، إنما كنا نخوض ونلعب.

فأنزل الله: {وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ}.

لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ {التوبة: ٦٦} والمعنى: أنهم خرجوا من الملة بكلمة واحدة قالوها في عرض الرسول عليه الصلاة والسلام وفي عرض أصحابه.

واجب الأمة تجاه الشائعات

أما أهل العلم فقررُوا أموراً:

أولاً: لا يعلم الغيب إلا الله {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [النمل: ٦٥] {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام: ٥٩] فلا يعلم متى تقوم الساعة، ولا متى تأتي القيامة إلا الله، ولا يعلم متى ستنتهي الدنيا إلا الله، فليس لأحد من الناس أن يعلم شيئاً من علم الغيب إلا من أطلعه الله على علم الغيب من رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وليس لأحد أن يصدق هؤلاء الكذبة الأفاكين المارقين.

الأمر الثاني: من هدي الإسلام أنه إذا شاعت شائعة أن يعودوا إلى أهل العلم والدعوة فيسألونهم مباشرة، قال سبحانه وتعالى عن المرجفين والمروجين للشائعات، والمحبين لإشاعة الشائعات والفواحش: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣] فالواجب الرد إلى أهل العلم وسؤالهم مباشرة عن الكائنة إذا كانت، وعن الشائعة إذا شاعت.

الثالث: عجباً لهذه الأمة! لا تتوب إلا إذا سمعت شائعة، ولا تعود إلى الله إلا إذا هددت ببركان أو زلزال، فكم أصابتنا من السياطر؟! وكم لدغتنا من اللوادر ونحن نراوح في حالنا وفي مكاننا لا نتعداه؟! {أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ} [التوبة: ١٢٦].

التوبة واجبة في الشدة والرخاء

الناس في الرخاء يضحكون على أنفسهم، وإذا اشتدت بهم الفتن والكوارث والمحن أعلنوا عهداً جديداً لله أن يفوا معه، ثم يخونون ربهم، يتوبون الآن من شائعة قالها مروج كذاب على لسان طفل ما قال ولا تكلم ولا نطق، فيعلنون أنهم سوف يحضرون صلاة الجماعة، ويحافظون على قراءة القرآن، وينتهون عن الكبائر والمخالفات، فإذا بردت الشائعة رُدوا لما كانوا عليه وعادوا إلى حالهم الأول، وهو فعل الذين خالفوا أمر الله ونسوا موعوده.

أيها الناس! إن الواجب علينا أن نتوب إلى الله توبة نصوحاً، وأن نستعد للقاءه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه قد يموت الواحد منا قبل الوقت المؤجل الذي حُدد في الشائعة المذكورة، ومن يدري؟ ومن يعلم؟ لعله أن يموت اليوم، فليتهيأ وليتجهز.

فتوبة نصوحاً أيها الناس، وعودة إلى الله، وتصديقاً بالوحي، وإقراراً مع الفقه في الدين وسؤال أهل العلم.

كفران النعم سبب لعذاب الله

ضرب الله مثلاً في القرآن للأمم والشعوب، يوم تنحرف عن منهج الله عز وجل، وتترك طرق المساجد، وتميل إلى الخمارات.

يوم تترك سماع كتاب الله عز وجل، وتميل إلى سماع الغناء.

يوم تنحرف عن منهجه صلى الله عليه وسلم وسنته المطهرة، وتميل إلى كتب الشياطين؛ شياطين الإنس والجن، ويوم تعكف وتسهر على الأفلام، والأغاني الماجنة، ويوم ترخص قيمها ومبادئها ودينها وأخلاقها، وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، ماذا

يصنع الله بها؟ يدمر شبابها، ويبعد سُبحانَهُ وَتَعَالَى علماءها، ويبتلي إناثها ونساءها، فتبقى أمة مظلومة مهضومة متأخرة، يبتليها الله عز وجل بالخوف والجوع.

يقول عز من قائل: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: ١١٢].

قال أهل العلم: لا تزال كل قرية في أمن الله ما أقامت فروضه، وما نهت عن المعاصي التي تغضبه، فإذا انحرفت أخذها الله كما يأخذ الظالم ثم لا يفلتها أبداً، قال تعالى: {وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا} [الطلاق: ٨ - ٩].

أعد الله لهم عذاباً شديداً في الآخرة، ما كفاها عذاب الدنيا، بل أعد الله سُبحانَهُ وَتَعَالَى لها الخزي والعار والدمار والنار؛ لأنها انحرفت عن منهج الله.

فتشوا واسألوا كل مدينة وكل قرية أخذها الله في هذا العصر، أو قبل هذا العصر، واسألوا جيراننا، ومن حولنا ومن دوننا: ما لهم ابتلوا بالحروب والمنكرات والفواحش والبعد عن الله؟! إنما ابتلوا بذلك لأنهم عصوا أمر الله، وخرجوا عن طاعته سُبحانَهُ وَتَعَالَى، ويوم أن يعود الشخص إلى الله ولو ببصيص من نور؛ ينصره سُبحانَهُ وَتَعَالَى ويؤيده، ويسدده ويهديه.

وقد جربنا وجرب غيرنا، وسمعنا وسمع غيرنا، أن أناساً كثيرين وقفوا في وجه الطغيان، في وجه اليهود، فما استطاعوا أن يقفوا أمامه؛ لأنهم أهل معاصي؛ ولأنهم

خرجوا عن لا إله إلا الله، حتى أتى في هذا العصر حفنة قليلة من الناس في أفغانستان، تسجد لله، وتعتز به، وتتحاكم إلى شرعه، فوقفت في وجه أكبر قوة من قوى الأرض.

فلما رجعوا إلى الله أراهم سبحانه وتعالى نصره، ورفع لهم كلمة لا إله إلا الله، وثبت أقدامهم.

فكيف لو رجعت الأمة كلها إلى الله عز وجل؟! والله لو رجعنا إلى الله لما كان في الدنيا يهود يسيطرون على بلاد الله، وعلى عبادته، ويمتهنون شرائعه.

والله لو رجعنا إلى الله عز وجل لما كان هناك جوع ولا خوف، ولا دمار ولا نار، ولا عار ولا شناعة، لكننا لما تخاذلنا عن أن نجتمع في بيوت الله، وأن نتناصح بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصبنا بهذا.

قال عز من قائل: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْوَادِيَّ الْفَرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [سبأ: ١٥ - ١٩].

قرية كانت منفلتة في اليمن، كانت غائصة في الحداثق والبساتين وأنواع الثمرات من بين يديها ومن خلفها، لهم سد عظيم يختزن آلاف آلاف البراميل من المياه، أغدق الله عليهم النعم، فسمأؤهم مليئة بالغيوم، لا شمس لديهم تحرقهم، وثمارهم يانعة يقطفونها، حتى قال الأئمة من أمثال ابن كثير: تمر المرأة بزنبيلها فيمتلئ مما يتساقط من الأشجار.

يشربون ماءً بارداً، ويتظللون في ظل وارف، ويتعاونون في معيشة هادئة ساكنة.

فأرسل الله إليهم الرسل ليقولوا: لا إله إلا الله، وليؤدوا شكر نعمة الله، وليسجدوا له، ولينهاها عما يغضبه، فماذا فعلوا؟ كفروا، وجحدوا، وأنكروا، وتمردوا على الله، شأن الشاب الذي لا يعرف بيوت الله، جسمه كجسم البغل، يتهد على الأرض من كثرة النعم، ومن كثرة المشروبات والمطعومات والملبوسات، فإذا سمع الأذان كأن في أذنيه قرأ، لا يعرف طريق المسجد، إنما يعرف طريق المعصية والانحراف، فهذا مثل هذه القرية.

فأتهم رسلم وفاضتهم على لا إله إلا الله، وفاضتهم إلى الرجوع إلى الله عز وجل، وأخذتهم بالتي هي أحسن ليعودوا إلى الحي القيوم، فكفروا وقالوا: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} [سبأ: ١٩] معنى ذلك: أنهم رفضوا حتى أداء الزكاة من هذه الأموال والصدقة، وقالوا: اجعل بيننا وبين هذه القرى مسافات؛ حتى لا يأتينا فقير ولا مسكين، ولا يأتينا طالب حاجة.

فماذا فعل الله بهم؟ هل حاربهم بطائرات أو بجيوش جرارة، أو بدبابات مصفحة؟ لا والله- أتى بفأر صغير فنحت في هذا السد، وهو سد مأرب العظيم، ثم دخل الماء وسقط السد، وذهبت دنياهم وآخرتهم، لقد اجتاحتهم ماء السد، فدمر قراهم بعضها

على بعض، وبيوتهم بعضها على بعض، واجتاح أشجارهم وأعنائهم ونخيلهم ومزارعهم، فصاروا حدثاً بعد عين لكل معتبر.

قال تعالى: {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنها بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً} [الفرقان: ٤٠] فأوقع الله بهم ما هم له أهل، فذهبوا وتفرقوا حتى صاروا مثلاً، فتقول العرب: تفرقوا أيدي سباً.

وخرجوا من بلادهم على وجوههم وهم يتباكون، الحبيب فقد حبيبه، والوالد فقد ولده، والأخ فقد أخاه، والزوجة فقدت زوجها؛ لأنهم عصوا الله عز وجل.

ولذلك قيل لرجل من البرامكة الوزراء لما سجنوا في عهد هارون الرشيد: لم سجنتم وذهبت دنياكم؟ لم أخذت قصوركم؟ ولم جلدت ظهوركم؟ فدمعت عينا خالد البرمكي وقال: بغينا، وطغينا، ونسينا الله، وسرت دعوة مظلوم في جنح الليل فسمعها الله والناس عنها هجوع.

ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: {دعوة المظلوم يرفعها الله عز وجل على الغمام، ويقول: وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين}.

ومروا برجل مقعد -كما في السير- قد نهشته الأمراض، وأصابته الأوصاب، وهو في حالة مزرية، لا يستطيع حراكاً ولا قواماً، ولا يستطيع أن يمد يده، فقالوا: مالك؟ قال: كنت في صحة وعافية، وفي قوة لا يعلمها إلا الله، وكنت إذا سمعت نداء الله أتباطأ، فيقال لي: اتق الله عز وجل، وتعال إلى بيوته، وأقم فرائضه، فكنت أقول لهؤلاء: وماذا يصيبني إذا لم أفعل؟ فابتلاني الله بهذا المرض.

كيفية الشكر

الشكر يكون بثلاثة أمور؛ فما أتاك من نعمة فواجبك أن تشكرها بثلاثة أشياء، أو بثلاثة مقاصد:

أولها: أن تردد على لسانك: "الحمد لله"، فإنها تملأ الميزان، وإن سبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماوات والأرض، ويعجب ربك إلى العبد إذا قال: الحمد لله.

وأول من يدخل الجنة الحامدون الذين يحمدون الله في السراء والضراء، فقد ضاع فرسٌ لجعفر الصادق، فقال: والله لئن ظفرت بفرسي لأحمدنه سبحانه وتعالى بمحامد ما حمدها به إلا أولياؤه وأحباؤه، فلما وجد الفرس، قال: الحمد لله، فقال له أبناؤه: أين المحامد؟ قال: وهل أبقت الحمد لله محامد بعدها؟! ولذلك قال عز من قائل: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: ١].

فواجبك أن تردد دائماً الحمد على لسانك؛ ليبقي الله عليك النعمة، البس ثوبك إن كنت مسلماً وقل: الحمد لله، وكل طعامك وقل: الحمد لله، واشرب شرابك وقل: الحمد لله، وقم من نومك وقل: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور.

وكلما لمع لك لأمع من النعمة، أو لمح لك لامح من الجميل فقل: الحمد لله، ليبقي الله عليك النعمة.

ثانيها: أن تعقدها بقلبك، وأن تتصور أن ما أتاك من النعيم إنما هو من الله لا من الناس، وما صرف عنك من العذاب ومن المصائب، إنما صُرف عنك من الله عز وجل.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه، في كلام ما معناه: [[إن من النكران أن ينعم الله عليك بنعيم فتقول: هذا بسبب فلان، أو يصرف الله عنك سوءاً، فتقول: هذا بسبب فلان، والله ما أتى من نعيم، ولا صُرف من عذاب إلا بتقدير الله ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]].

أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام فقال له داود في أثناء الكلام: يارب! بأي لسان أشكرك؟ أنعمت علينا بنعم ظاهرة وباطنة فبأي لسان أشكرك؟ قال الله عز وجل: يا داود! أتدري أن هذه النعم مني؟ قال: نعم يارب! قال: إن علمت ذلك فقد شكرتني.

قال: يارب! إنني أريد أن أشكرك بالعمل، قال: يا داود! تقرب إلي بما استطعت من عمل.

وفي كتب التفسير أن داود عليه السلام جمع آل داود، وكان عددهم ما يقارب ثلاثين ألفاً، وهم الملوك في بني إسرائيل، فيهم المملكة كائناً عن كابر، ومنهم سليمان بن داود، فجمعهم أعماماً وأخوالاً وأبناءً وأقارب، حتى ملئوا الشرفات في بيت المقدس، فقال داود عليه السلام وهو يبكي: يا آل داود! إن الله أنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فعليكم بطاعته، فوالله إن لم تطيعوه ليسلبها الله منكم.

قالوا: ماذا نفعل؟ قال: قسموا ساعات الليل والنهار، فليكن منكم في كل ساعة من ليل أو نهار مصلون وصائمون وذاكرون ومستغفرون، فقسم عليهم الساعات في الليل والنهار، فكان قوم منهم يسبحون، وقوم يستغفرون، وقوم يصلون، وقوم يصومون، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣] وقليل من الناس من يشكر الله.

فالأمر الثاني: أن تعتقد أنها من عند الله، وأن ما ساق الله لك من نعيم، إنما هو بقضائه وقدره، ولم يسقه لك أحد من الناس، فو الله {لو اجتمع الناس على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف} فالقضاء والقدر من عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثالثها: أن تظهر آثار النعمة عليك، بالعمل وبالتجمل، فإذا أنعم الله عليك بنعمة، فإنه يحب أن يرى أثرها عليك، فإذا أنعم عليك بمال فالبس من الجمال ما يري الناس أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أنعم عليك بنعيم، ولا تزري بربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا تشكوه بثيابك، أو بملبسك، أو بمسكنك، أو بمركبك، فكأنك تقول: لم يعطي الله شيئاً.

والله يقول: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: ١١] أي: بلسانك وبفعلك.

ولذلك صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {إن الله إذا أنعم على عبد أحب أن يرى أثر نعمته عليه} والواجب عليك أن تستغل هذه النعمة في مرضاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

حقيقة الموت

الموت مخلوق من مخلوقات الله عز وجل، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [الملئ: ١- ٢] ولكن إلى الآن ما اكتشف ما هو الموت، وصل العالم المادي إلى

الذروة لكن ما اكتشف حقيقة الموت، لا يدرون ما هو، ولا كيف يموت الإنسان، ومتى يموت، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اِخْتَصَ بعلمه.

وقد توعد الله أعداءه بالموت فقال سبحانه: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة: ٨].

يقول الحسن البصري رحمه الله: [[فضح الموت الدنيا، فلم يدع لذي لبٍ فرحاً]] والمعنى: أن كل من انبسط وارتاح وسر بما عنده من مال وولد، وما عنده من منصبٍ ووظيفة، إذا ذكر الموت تكدر، إلا الحمقى والبلداء، فالله عز وجل جعل هذا الموت منغصاً.

دخل أحد الفضلاء على خليفة من الخلفاء العباسيين فقال له الخليفة: "أما ترى القصر؟ قال: رأيتَه.

قال: أما تراني؟ قال: رأيتك.

قال: أرايت جيشي؟ قال: رأيتَه.

قال: ماذا تقول؟ قال:

أنت نعم الخليل لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسانِ

والله عز وجل لام الذين غرُّوا، ولهوا بمتاعهم ولعبيهم، فقال: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [إبراهيم: ٤٥ - ٤٦].

يقول عدي بن زيد؛ وهو شاعر جاهلي، خرج مع النعمان بن المنذر قبل الإسلام، وكان عدي بن زيد رجلاً عاقلاً، أقسم ألا يشرب الخمر أبداً وهو في الجاهلية، فلما جلس مع السلطان الملك النعمان، أخذ السلطان يشرب الخمر، فقال له عدي بن زيد: "أبيت اللعنة -هذه كلمة تقال للملوك، ومعناها: أستأذنك في الكلام لا تغضب عليّ- قال: قل، قال: أتدري ماذا تقول هذا الشجرة؟ وهي لا تتكلم، لكن أراد هذا الشاعر أن يدخل بموعظة إلى السلطان قال: لا أدري ماذا تقول.

قال: تقول الشجرة:

رب ركبٍ قد أناخوا حولنا يخلطون الخمر بالعذب الزلال

قد مضوا حيناً وساروا زمناً ثم صاروا جثثاً تحت الرمال

يقول: ألا تعتبر بأجدادك وقد أصبحوا جثثاً وأنت تشرب الخمر!! ألا تتفكر وتأمل!!

ويا أيها الإخوة: موضوع الموت، وما بعد الموت، والاستعداد للموت هو حديث الساعة؛ لأن كثيراً من الناس بعد الأحداث أصبح في هلعٍ ورعبٍ من الموت، ولا يخاف من الموت إلا اليهود، قال الله عنهم: {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ} [البقرة: ٩٦] لأنهم ليس لهم آخرة ولا جنة عند الله، أما المسلم فالآخرة خيرٌ له من الدنيا، وأبقى وأحسن، يوم يكون مؤمناً بالله.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد أخبر رسوله عليه الصلاة والسلام بالموت وأنه كتبه على جميع الكائنات: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} [الزمر: ٣٠] وقال: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ

خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤] والخلد في الدنيا من المستحيلات ولا يخلد من البشر أحد، وهو قول واحد بإجماع العقلاء من الناس قاطبة، قال سبحانه وتعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ} [الأنبياء: ٣٤] ولكن ما هو أعظم زادٍ نتقدم به إلى الله؟ إنه الإيمان.

فضل الحب في الله

رفعهم الله، لأن محبتهم في الواحد الأحد، وصح عنه عليه الصلاة والسلام: {أن رجلاً زار أخاً له في قرية، فأرصد الله في طريق هذا الزائر ملكاً من الملائكة، فوقف للزائر، قال: أين تريد؟ قال: أريد فلان بن فلان، قال: ماذا تريد منه؟ قال: أحبه في الله، فأريد زيارته في الله، قال: أمالك من نعمة عنده ترجها؟ - أي: تردها بقاءها؟ - قال: لا.

والله الذي لا إله إلا هو، ما زرته إلا في الله، قال: فأنا ملك أرسلني ربي أخبرك أن الله غفر لك ولصاحبك}.

وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: {إذا التقى المسلمان فتصافحا، تحاتت خطاياهما كما تحت الشجرة ورقها}.

الإسلام يبني على الحب، والحب شجرة الإسلام، ولا يمكن أن تكون ولياً لله حتى تحب أولياء الله، فمن هم أولياء الله؟

هم أهل المسجد والمصحف والحديث والاستقامة والخير للمسلمين، قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ

رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ { [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

معرفة صاحبك وجليستك

قال رجل لـ ابن المبارك: مع من تنصحي أن أجلس؟ قال: اسمع مني، قال: نعم قال:

من كان ملتتمساً جليساً صالحاً فليأت حلقة مسعر بن كدام

فيها السكينة والوقار وأهلها أهل العفاف وعلية الأقوام

في الناس مجالس تقرب من النار والعار في الدنيا والآخرة، فهناك مجالس في المجتمع من مجالس جهنم، من مجالس إبليس يدار في بعض مجالس اللاهين العابثين الاستهزاء بالله ورسوله وبالجنة والنار ولقاء الله، وبعضهم يستهزئ بالدعاة والعلماء وطلبة العلم، فالجلوس مع مثل هؤلاء قطعة من النار والعار والدمار والشنار في الدنيا والآخرة إلا أن يعظهم وينصحهم، وإن من الناس من حبه بُعدٌ من الله عز وجل.

قال جعفر الصادق لابنه: [[يا بني! لا تصاحب ثلاثة، فقد غضب الله عليهم: لا تصاحب عاق الوالدين فإن الله قد تبرأ منه، ولا تصاحب الكذاب فإنه يقرب لك البعيد ويبعد عليك القريب، ولا تصاحب البخيل فإنه يبيعك بأدنى سبب]].

إذا علم هذا فليعرف العبد من يجالس، ومن يؤاكل، ومن يحب، قال صلى الله عليه وسلم في حديث حسن: {لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي} ولما حضرت عمر سكرات الموت قال: [[ما آسى على الحياة إلا على ثلاث وذكر منهم: رفقة أجلس معهم ينتقون أطايب الكلام كما ينتقون أطايب التمر]].

وهؤلاء أولياء الله إمامهم محمد عليه الصلاة والسلام، ودستورهم القرآن، وبيوتهم المساجد.

وفي صحيح مسلم يقول عليه الصلاة والسلام: {يقول الله يوم القيامة: أين المتحابون في جلالي؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي}.

الفرق بين الشجاع والجبان

قال المتنبي:

أرى كلنا يبغي الحياة بجهده حريصاً عليها مستهماً بها صبا

فحب الجبان النفس أورده البقا وحب الشجاع الحق أورده الحربا

يقول: إن الجبان يحب الحياة وكذلك الشجاع، ولكن الفرق بينهما أن هذا يحيا سعيداً مكيناً مرفوع الرأس، وذاك يحيا خائفاً جباناً فاتراً متخلفاً، ويقول الله عز وجل عن شجاعة أهل الإيمان وإقدامهم، وعن فرضهم لرأيهم الحق، وعن كفاحهم ومدافعهم عن آرائهم وأقوالهم ومبادئهم: {قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا} [التوبة: ٥٢] أي: قل يا محمد أنت وأصحابك وجيلك للكفرة والعملاء والزنادقة والمارقين والمرتدين: إنكم تتربصون بنا إحدى الحسينين؛ إما أن نعيش أعزة نحمل المبادئ ونحن أقوياء، أو أن نموت في سبيل الله شهداء وهذا مكسب عظيم، ويقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: {فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: ٣٤].

فبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ الْأَجَلَ بِيَدِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَدَخَّلُ أَحَدٌ فِي تَقْدِيمِ سَاعَةٍ أَوْ تَأْخِيرِهَا سَاعَةً، وَلَا يَمْلِكُ النَّفُوسَ إِلَّا اللَّهُ.

وتهدد الله اليهود الجبناء بالموت فقال: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة: ٨] فأخبر أنهم جناء يحبون الحياة، وقال تعالى: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ} [البقرة: ٩٦] قال أهل العلم: إنما نكَّرها لِتَعَمُّ فمعناها حياة، لكنها أي حياة، حياة الهائم، وحياة الوحوش والزواحف وحياة القردة والخنازير، أي حياة ولو كانت بِلَطَمِ الوجوه، ولو كانت بكشف البال.

قال الله: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْضِيهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ٩٦] ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلصَّحَابَةِ وَلَمَنْ سَارَ عَلَىٰ مَنَازِلِهِمْ مِنْ أَمْثَالِكُمْ مِمَّنْ يَتَوَضَّأُ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَيَحْمِلُ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاطحة: ٥] فِي قَلْبِهِ: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: ١٤٠] يقول: إِنْ تَعَبْتُمْ أَوْ أَرَهَنْتُمْ أَوْ خَفْتُمْ؛ فَإِنَّ الْعَدُوَّ الْكَافِرَ الْمُنَافِقَ يَنَالُهُ مِثْلَمَا يَنَالُكُمْ.

وهذا صحيح، فإنكم تعلمون أن كثيراً من المخطئين الضالين، من البعثيين والماركسيين والعلمانيين والحدائيين، والدجالين الماكرين وشربة الخمر والزناة يجلسون ويجلدون ويقتلون، ومع ذلك تجد الواحد يصامد ويجالد من أجل فاحشته ومنكره ومبدئه الخاطئ.

ولكن يقول الله: {وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ} [النساء: ١٠٤] يقول: اصبروا قليلاً
كما صبروا، مع العلم أنه ينالهم الأذى والقرح، وأنتم كذلك ينالكم الأذى والقرح،
ولكن النتيجة مختلفة.

وهذا كما قال النابغة الجعدي لما وفد على الرسول عليه الصلاة والسلام واستهل
قصيدته يمدح قبيلته:

تذكرت والذكرى تهيج على الفقى ومن عادة المحزون أن يتذكرا
فلما قرعنا النبع بالنبع لم تكن على البعد في عيدانه أن تكسرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ولكننا كنا على الموت أصبرا
يقول: ما أتوا إلينا وهم نساء، أتوا ومعهم سيوف تقطع الرؤوس ومعنا سيوف،
فسقيناهم الموت وسقونا الموت بها، وصبرنا قليلاً فانتصرنا.

وننكر يوم الروع ألوان خيلنا من الضرب حتى نحسب الجو أشقرا
إلى أن يقول في نهاية قصيدته:

بلغنا السما جوداً وجداً وسؤداً وإننا لنرجو فوق ذلك مظهرا
قال عليه الصلاة والسلام وهو يهتز متبسماً: إلى أين يا أبا ليلى؟ قال: إلى الجنة.
قال: لا فض فوك، فعاش مائة سنة ما سقط له سن ولا ضرس والشاهد هنا أن
المسلم يناله الضر لكن النتيجة مختلفة.

المؤمن شجاع والكافر جبان

قال عمر بن الخطاب: [[اللهم إني أعوذ بك من عجز الثقة وجلد المنافق]] فكون الفاجر شجاعاً والمؤمن جبناً؛ هذه مصيبة وداهية لا تتصور، ولذلك انظر إلى أبناء البعث الآن الذين رباهم الخونة والعملاء مثل: ميشيل عفلق وأحمد حسن البكر وصدام حسين "تجد الواحد ينطلق ويتفجر تحت الدبابة، ويقف أمام المدفع، ويطلق العيارات النارية وكأنه يزغرد في أهبة العيد، وتجد الماركسيين يدخلون أفغانستان وتنفجر بهم الدبابات وتشدخ رؤوسهم على الجبال، وكأنهم يغنون ويطلبون ويرقصون، وتجد بعض الناس من المؤمنين ممن يصلي الصلوات الخمس إذا هبت الريح من الباب أغمي عليه ورش بالماء، فيقول عمر: [[اللهم إني أعوذ بك من عجز الثقة، وجلد المنافق]] وسوف تأتي أخبار لهؤلاء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} [آل عمران: ١٤٥] فهل سمعتم أن أحداً مات بغير إذن الله؟ لا.

لأن الله غالب على أمره، ولأن الأوامر من عنده؛ ولا يسبق أحد أجله، فإذا أذن الله فالموت، وإذا لم يأذن فلو اجتمع أهل الأرض على أن تموت فلن تموت أبداً.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَلَيْنُ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [آل عمران: ١٥٧] يقول: اتقوا الله واعملوا صالحاً، وقولوا الحق، وقدموا الرأي الصائب، فإن قتلتم فإلى جنة عرضها السماوات والأرض، وإن عشتُم فإلى خير، أما الجبان فإنه يموت حقيراً ويعيش حقيراً.

وقال تعالى عن أوليائه: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ} [الأحزاب: ٣٩] فهم يبلغون الرسالة ويظهرون مبدأهم ويقولون رأيهم، ويقولون

لصاحب المنكر: خف الله واتق الله، ويمنعون المنكر في الأرض، ومع ذلك لا يخافون إلا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم مدح الله أوليائه فقال: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣].

دخل طلحة وعليه ثياب خضر، وقد رد بيده عن المصطفى في أحد كل سيف ورمح وسهم، فدخل المسجد والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣] ونظر إلى طلحة فقال: {هذا ممن قضى نحبه} هذا من الجيل الصادق الذين قدموا رءوسهم في المعركة.

ومتهم عمير بن الحمام يأكل التمر يوم بدر، قال عليه الصلاة والسلام: {يا أهل بدر إن الله اطلع عليكم فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، يا أهل بدر، والله ما بينكم وبين الجنة إلا أن يقتلكم هؤلاء فتدخلون الجنة، فألقى عمير التمرات من يده وقال: بخ بخ، إذا بقيت إلى أن أكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة} ثم أخذ غمد السيف وكسره على ركبتيه -وهذه ساعة الصفر عند العرب- ثم أخذ السيف وقاتل حتى قتل وهو ينشد:

فليس على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

يقول: أحسن الحياة أن أتقدم قبل أن أقتل وأنا مهزوم، فهي خيبة في الدنيا وخبية في الآخرة.

يقول السموءل، وهو يهودي كان يسكن خيبر، وقد أقر له الناس بالشجاعة، وقد يوجد في اليهود شجعان، والجبن صفة عامة فيهم، لكن النادر لا حكم له، فقد يخرج منهم اليوم شجاع، وبالأمس شجاع مثل مرحب والسموئل، فهو يقول:

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

وإننا ل نقوم لا نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

وعامر وسلول جارتاه من القبائل، ترى الموت سبة أما نحن فنراه مدحاً.

مواجهة المؤمنين الموت لأجل مبادئهم

قُتل مصعب بن الزبير في العراق، فقال أخوه عبد الله في مكة: [[والله الذي لا إله إلا هو لا نموت نحن آل الزبير حبطاً ولا حبجاً كما يموت بنو مروان، إنا نموت تحت ضرب السيوف وقصع الرماح]] وقد صدق؛ فقد قتل الزبير وأبناؤه وعائلته كلهم في سبيل الله، بل عبد الله بن الزبير تطيب وتحنط ولبس أكفانه وأتى إلى أمه أسماء ذات النطاقين الطاهرة الصادقة، فقال: يا أماه! الحجاج قد أغلق علي الحرم ومعه اثنا عشر ألفاً وما عندي إلا خمسمائة، فماذا أفعل هل أسلم نفسي؟

قالت: لا.

اتق الله لا تسلم نفسك، قاتل حتى تقتل.

قال: والله ما أخاف القتل ولكن أخشى أن يمثل بي إذا قتلني -يعني يقطع أنفي ويقرر بطني - قالت: لا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها - لله درها - فصمد وصمد حتى قتل، فصلبه الحجاج ومررت به وسلمت عليه وهو مصلوب، فقالت: السلام عليك أما أن لهذا المصلوب أن يترجل وللفراس أن ينزل.

وفي مثله يقال:

علو في الحياة وفي الممات بحق أنت إحدى المعجزات
لعظمتك في النفوس تبيت ترعى بحراس وحفاظ ثقات

الخوف من الله هو الحق

الجبنة يخافون من البشر أكثر مما يخافون رب البشر، وأنا أقولها كلمة صادقة لا أكذب فيها بإذن الله: والله العظيم لو أن كثيراً من الناس خافوا من الله كما يخافون من البشر لصلحت أمورهم في الدنيا والآخرة.

ووالله إنا نعلم من أنفسنا ومن كثير من الناس أننا قد نغتاب أو ننم أو نعصي الله، ولكن عند الناس نراعي أفاضلنا ونراعي كتبنا ومحاضراتنا، كل هذا خشية من لفت النظر، أفلا خشينا من لفت نظر الباري سبحانه وتعالى، الذي يعلم السر وأخفى، والذي كل الأمور بيده، والذي لا ينفع ولا يضر أحد إلا بإذنه!

وكيف لو أن هذه التقوى والمراعاة والحرص والتأني كانت في جانب العبادة؟ وكيف لو أن هذا الهدوء والانضباط والتعقل والحكمة كانت في جانب الدين؟ كيف لو

أن هذا الرشد والنضوج العقلي كان مع الله عز وجل؟ لصلحت الأمور، وارتاح الناس في دنياهم وأخراهم، وكفل الله لهم النصر ما داموا على قيد الحياة والأجر والمثوبة من عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال علي بن أبي طالب -وهي كلمة متينة نفيسة عظيمة:- [[الأجل درع حصينة]] يعني: أجلك درع لك، فلن تموت إلا بأجل.

خرج يوم صفين فخلع الدرع، قال ابنه: كيف تخلع الدرع يا أبتاه وهو يقيق، قال:

أي يومي من الموت أفر يوم لا قدر أم يوم قدر

يوم لا قدر لا أرهبه ومن المقدور لا ينجو الحذر

سبحان الله! يقول: لماذا أخاف من القدر؟

إن كان كتب الله عليَّ الموت فسوف أموت، ولا تغني الدروع {وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٨] وإن كان الله كتب لي الحياة فلن يصلني موت، وهذه عقيدة علي بن أبي طالب الذي قدم رأسه في كل معركة، ثم قتل في المسجد رضي الله عنه.

خالد بن الوليد يطلب الموت والشهادة في كل مكان، وكلما حضر معركة سأل الله الشهادة، وقد خاض في الجاهلية والإسلام مائة معركة، كان قائدها وموجهها وأستاذها.

تسعون معركة مرت محجلة من بعد عشر بنان الفتح يحصمها

وخالد في سبيل الله مشعلها وخالد في سبيل الله مذكيها

ما نازل الفرس إلا خاب نازلهم ولا رمى الروم إلا طاش رامها

وللعلم فإنه مات على الفراش، لأن الله كتب له أنه يموت على الفراش، وقال:
[[لقد طلبت الشهادة في أكثر من مائة معركة، وما في جسسي موضع شبر إلا وفيه ضربة
بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا
نامت أعين الجبناء]] رضي الله عن خالد، أخرجوه في الجنازة من حمص، فقامت أخته
فاطمة من داخل البيت وجنازته يمر بها الأبطال على رؤوسهم، فتقول:

أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كبت وجوه الرجال

ومهين النفس العزيزة للذكر إذا ما التفت صدور العوالي

من أجبن العرب

من أجبن العرب، أبو حية النميري، كان جباناً يضرب به المثل، أخذ سيفاً من
خشب، فكانت قبيلته إذا قاتلت أخذ السيف من الخشب وجلس في آخرهم، فإن
انتصروا ضارب معهم وإن هزموا فر، وكان يسمى سيفه (ملاعب الأسنة) وكان يعرض
سيفه من الخشب أمامه ويقول: يا سيف، كم من نفس أهدرتها ومن دم أسلته!!

قال عنه ابن قتيبة في عيون الأخبار وصاحب العقد الفريد: دخل كلب في ظلام
الليل بيته، فخرج هو وزوجته وتناول السيف -سيف ملاعب الأسنة- وخرج خارج
المتزل وأخذ يقول: الله أكبر وعد الله حق.

فاجتمع أهل الحي -وأظنه عاش في الإسلام في القرن الأول، وقالوا: مالك؟ قال:
عدو محارب انتهك عرضي ودخل عليّ في البيت وهو الآن في البيت.

ثم قال: يا أيها الرجل اخرج إن كنت تريد مبارزة فأنا أبو المبارزة، وإن كنت تريد
قتلاً فأنا أم القتل كل القتل، وإن كنت تريد المسالمة فأنا عندك في مسالمة.

فبقي يتراود ويضرب الباب بالسيف وينادي، فلما أحس الكلب بجلية الناس خرج
من بينهم، فألقى السيف من الخوف وقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفانا حرباً.

ومنهم أيضاً: قائد مشهور أخذ القيادة بغير كفاية وجدارة وقدرة، يسمونه: ابن
عبد ربه، ويسميه المؤرخون: ضرطة الجمل، أخذ أبناء المسلمين وذهب بهم إلى فارس،
وكان يمضي في الليل وينام في النهار شهراً، حتى استعد أهل فارس وتترسوا وقبوا
كتائبهم، ثم بدأ الهجوم فكان هو أول من انهزم، ودخل المدينة على بغلته وترك أبناء
المسلمين يقاتلون أهل فارس، يقول الشاعر في قصيدة طويلة:

تركت أبناءنا تدمى كلومهم وجئت منهزماً يا ضرطة الجمل

يقول: فررت أول المعركة وتركت أبناءنا يذبحون.

يقول فيه قتيبة بن مسلم: والله لا أوليه ولو على شاة، أي: لا يقود شاه، فقد
جربوه مرة واحدة، والطعن في الميت حرام.

شجاعة الأنبياء

وكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شجعاناً، فإن إبراهيم عليه السلام لم يحمل التوحيد متكاسلاً متوانياً في بيته، بل قام على الأصنام بالفأس فكسرها ووسها: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ} [الصافات: ٩٣] قال أهل العلم: لإبراهيم عليه السلام روغتان: روغة شجاعة وروغة كرم، راغ إلى الأصنام فكسرها، وراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين.

فالذي يريد أن يروغ يروغ كإبراهيم عليه السلام لكن في حدود الأدب، فلا تأخذوا من قصة إبراهيم أن للداعية تغيير المنكر باليد أو بالكسر، فإني أخشى أن تكون العواقب أعظم والفساد أكبر والمنكر أشنع، لكن عليه أن يسلك الطريق الأمثل في إنكار المنكر: كأن يقول كلمة الحق أو يهدي نصيحته في قالب من الأدب، وقبل أن نكون مؤدبين ومعززين للناس، يجب أن نكون محبين إليهم، ثم يرفع إلى أهل الحل والعقد وإلى القضاة والمسئولين بأمر هذا المنكر حتى يتلافى.

أيضاً موسى عليه السلام بارز في الميدان بقوة الحجة ومعه العصا، يقول لفرعون اللعين والله يأمره: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٤] قال كلمة اللين، قال له: يا أبا مرة، لكن لما أتت المصارحة يقول له فرعون: {فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا} [الإسراء: ١٠١] قال له موسى: يا مجرم.

{قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء: ١٠٢].

فالقول بقوة وإبداء الرأي بشجاعة مطلوب من المسلم.

أيضاً محمد صلى الله عليه وسلم ما علمت أشجع منه على مر التاريخ.

ينام في بيت واحد ويطوق بخمسين مقاتل ويخرج عليهم ويحثو عليهم بالتراب:
{وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [يس:٩].

ينام في الغار ويقول: {لا تحزن إن الله معنا} ويحضر الحروب بنفسه صلى الله عليه وسلم، ويدمر الأعداء ويعيش صلى الله عليه وسلم شجاعة، وبيتسم في المعركة وهو أنيس القلب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

شجاعة الصحابة والصالحين

في حرب الردة وقف أبو بكر الصديق على المنبر يعلن الحرب على الردة، فيعترض بعض الصحابة عليه فيقول: [[والذي نفسي بيده لو منعوني عقلاً أو عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلهم عليها]] ثم جند الجنود، وقال في رواية أخرى: [[والذي نفسي بيده لو أتت الكلاب فأخذتني بأعقابي -لأنهم يقولون اترك الصحابة يحرسون المدينة - ما خلفت جيشاً عن الغزوة في سبيل الله]] فهذا هو الرأي؛ أن تقدم رأيك وتثبت عليه بشجاعة وبتفان أيضاً.

وهذا ابن تيمية في مصاولة الباطل؛ فإنه بلغ مبلغاً عظيماً، كان يخطب وحوله السيوف تلمع والسياط والجنود، وكان يتكلم بشجاعة، فيقول له السلطان: كأنك تريد ملكاً يا ابن تيمية قال: "ما ملكك ولا ملك آبائك عندي يساوي فلساً، إني أريد جنة عرضها السماوات والأرض".

وكان يتكلم أمام الناس بقوة ويعلن الحق ويبينه لأن الله أخذ الميثاق: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران: ١٨٧] جعلوه قراطيس أي: جعلوا هذا القرآن قراطيس في الجيوب يخرج وقت الحاجة ويتلف وقت الحاجة، فلا بد أن تعرض فكرتك

بأدب ووضوح وأن تطالب بحقك ونصرة الإسلام، ولا بد أن تطالب بالحق أن يكون حقاً والباطل باطلاً، مثل مطالبة أهل الباطل بالباطل.

أيضاً: الثوري؛ فإنه كان ينصح ويقف للظلمة في وجوههم، وينكر عليهم وقد قال لـ أبي جعفر -وهو ظالم-: اتق الله يا أبا جعفر! ودخل طاوس على أبي جعفر، فقال له: ناولني الدواة يا طاوس قال: لا والله إن كنت تكتب باطلاً فلا أعينك على الباطل، وإن كنت تكتب حقاً فلست بخادم لك.

وأتى الخليفة المهدي فدخل مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، فقام له الناس، إلا ابن أبي ذئب المحدث، فقال: لماذا لم تقم يا ابن أبي ذئب؟ قال: أردت أن أقوم لك، فتذكرت قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين: ٦] فتركت القيام لذلك اليوم، فقال له: اجلس، فوالله ما تركت شعرة في رأسي إلا قامت.

ومنهاً أيضاً: الأوزاعي؛ فإنه أنكر على عبد الله بن علي عم أبي جعفر، فيما قتل في دمشق وما فعله بالمسلمين والسيوف تقطر حوله دماً، حتى يقول بعض الوزراء: كنت أجمع ثيابي خوفاً من دم الأوزاعي، وكان الأوزاعي ينصحه ويزجره ويحذره مما فعل بصوت يجلجل كصوت الأسد.

ومنهاً: سيد قطب رحمه الله.

فإنه بلغ أمام حكومة ضباط التحرير أو التدمير مبلغاً عظيماً، وأعلن التمرد عليهم، وأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله، وأرسل قذيفة معالم في الطريق ذاك الكتاب الذي وزع تصويراً في موسكو بعد سنة من كتابته، حتى حذرت موسكو حكومة

الضباط بأن ينتهبوا لهذا المجرم -أي: سيد قطب - فأخذوه وسجنوه عشر سنوات لا يرى النور، يقول: والله إن الشمس كانت تدخل علينا من ثقب من السجن، وكنا نتداول في السجن على الشمس بالدور ما رأى الشمس عشر سنوات.

ومع ذلك يقوم الليل ويكتب في ظلال القرآن، ويرسله من السجن كتاب كأنه يكتبه بدمه.

جاء الوزراء والضباط وجاءته الحاشية وقالوا له: اكتب لنا ورقة تنازل واعتذار.

قال: إن أصبغى التي أعلنت الوجدانية لله في كل يوم خمس مرات، ترفض أن تكتب كلمة استجداء، إن كنت حبست بباطل فأنا أكبر من أن أستجدي الباطل، وإن كنت حبست بحق فأنا أصغر من أن أعترض على الحق.

قالوا: إنه سيققتلك.

قال: لا إله إلا الله، أنا أبحث منذ أربعين سنة عن هذا.

يقول: أنا أبحث عن القتل.

فماذا فعل به؟ لقد شنقه أعداء الله.

وقد حرر سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى رسالة لجمال عبد الناصر قال فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد العزيز بن عبد الله بن باز إلى الرئيس جمال عبد الناصر: السلام على من اتبع الهدى، قال الله تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَنَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)

[النساء: ٩٣] ثم أتى الشيخ بالآيات والأحاديث، وقد تلوتها في ترجمة الشيخ، وهي محفوظة في ملف الشيخ وفي ذكرياته التي كتبها طلابه عنه، وهي من أعظم البرقيات.

ولما أتوا بسيد إلى المشنقة تبسم، حتى يقول أحد الشعراء في سيد:

يا شهيداً رفع الله به جبهة الحق على طول المدى

سوف تبقى في الحنايا علماً قائداً للجيل رمزاً للفدا

ما بكينا أنت قد علمتنا بسمه المؤمن في وجه الردى

رحمه الله وجمعنا به.

ومنهم الأستاذ العلامة: أبو الأعلى المودودي - رحمه الله وأثابه - سجن تسع سنوات، سجنه خان وما قبل الشفاعات فيه إلا بشرط أن يكتب ورقة اعتذار، قال: ولو كتب لي قدر كفه ورقة اعتذار لقبلت منه، فقال: أنا أكبر من أن أكتب له ورقة اعتذار، فقالوا له: إذا كتبها تخرج من السجن.

فقال: لا أخرج.

يقول فيه العطار:

نفسي فدتك أبا الأعلى وهل بقيت نفسي لأفديك من أهل ومن صحب

أما استحي السجن من شيخ ومفرقه نور لغير طلاب الحق لم يشب

ثم مات رحمه الله، ودوى العالم الإسلامي بموته، مع أنه يموت في اليوم عشرات العلماء والمفكرين، والأدباء، لكن الذين يحملون الحق بجدارة قليل، والذين يقدمون التضحيات قليل، والذين يصطفهم الله عز وجل مثل ابن تيمية وأحمد والعز بن عبد السلام وسيد وأبو الأعلى المودودي هم أيضاً قليل.

سارة بنت هاران

سارة بنت هاران، زوجة إبراهيم عليه السلام، كانت عابدة لله منيبة مخبئة، أسلمت قلبها للواحد الأحد فعصمها وحماها من الفواحش، ذهب إبراهيم عليه السلام مع زوجته سارة إلى مصر وكان على مصر ملك، طاغية من الطغاة، وفاجر من الفجار، وجبار من الجبابرة، كان يغتصب النساء غصباً، فاغتصب سارة من إبراهيم، فلما أدخلت عليه توضأت وصليت ركعتين وأسلمت قلبها إلى الله، وسألت الواحد الأحد أن يعصمها من هذا الفاجر، فأقبل منها الملك فركضت رجله ورُفست وخُسفت في الأرض، فرفع عنها، ثم أقبل منها فاستعازت بالله، فانحدرت رجله في الأرض وأخذت به قشعريرة، ثم رفع عنها، ثم رجع ثالثة فاستعازت بالله، فحماها وخُسفت رجله في الأرض قال: إنما قربتم لي شيطانة، خذوها -وهو الشيطان- فذهبت، فأعطاهما جارية فقالت لإبراهيم: "كفانا الله الفاجر وأخدمنا جارية".

قصة هاجر وابنها

امرأة إبراهيم عليه السلام أيضاً أم إسماعيل، موحدة منيبة قانتة عابدة، خرجت مع إبراهيم إلى مكة، وإد قاحل، صحراء، جبال سود، لا شجر ولا حدائق، لا بساتين ولا أنهار، فتركها إبراهيم، وأوحى الله إليه أن اترك هاجر وولدها، واذهب إلى الأرض، قيل: إلى العراق وقيل: إلى فلسطين.

فذهب فقالت: "إلى من تكلنا يا إبراهيم؟ قال: إلى الله، ومن اكتفى به كفاه ومن احتجى به حماه، ومن التجأ إليه آواه، قالت: أمرك الله؟ قال: نعم.

قالت: إذاً لا يضيعنا الله، ترك جواباً من تمر، لا ماء ولا طعام لكن شيء من تمر، ثم التفت، فلما اختفى إبراهيم خلف الجبل دمعت عيناه، إمام التوحيد، وأستاذ العقيدة، وحامل لا إله إلا الله، اختفى عن العيون فدمعت عيناه فقال: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: ٣٧] ما أحسن الكلام! أحسن كلام في تاريخ الإنسان، وبالفعل رزقهم الله الثمرات، ففي مكة الحجاج لا يموتون من الجوع، يموتون من الشمس أما الجوع فلا، ثمرات الأرض تأتي إلى مكة، وتهوي قلوب الملايين المملئنة إلى مكة، يقول ابن القيم: "عجيب تتقطع الأحذية في الطريق إلى مكة، والبغال، والخيول، والجمال، وهدير الطائرات، ومخارات السفن، وجلجلة السيارات كلها تهوي إلى مكة بالملايين، مسلمو الصين ومسلمو اليابان ومسلمو السودان، كلهم يقولون: لبيك اللهم لبيك، أليس دعاء؟

تركهم، فلما ظمئ ولدها، قامت تبحث عن الماء، سبعة أشواط وهي تبحث في الوادي، فرفس برجله، فخرج الماء فأخذت تحول الماء وتقول: زمزم زمزم، قال صلى الله عليه وسلم رسولنا حبيبنا يعلق على القصة- قال: {رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت وادياً معيناً أو نهراً جارياً لكنها حفته فأصبح بئراً} عليها صلاة الله وسلامه، وعلى رسولنا صلاة الله وسلامه، وفيها درس للمرأة المسلمة أن تعود وأن تلتجئ إلى الله.

شبَّ هذا الغلام وكبر، وتزوج بزوجة لكنها قليلة التوكل على الله، لا تلتجئ إلى الله، فقيرة القلب -مثل بعض النساء- لو جمعت لها ملاذ الدنيا، وزهوها وفضتها وثياها، تجدها دائماً فقيرة تنشأ، وتقول: ليس عندنا شيء، نحن نعيش في فقر، ليتنا في حالة غير هذه الحالة، ماذا جمعني بك؟

متى يتبدل هذا الحال؟

البؤس دائماً في وجهها والفقر في قفاها، تدخل، وتدبر وتولي، وتقوم وتقعده وهي شاكية باكية، ولاجة خراجة- فأتى إبراهيم عليه السلام يزور ابنه من أرض العراق كان يجوب الدنيا ينشر التوحيد، فلما وصل إلى مكة وجد إسماعيل قد خرج للصيد في أرض نعمان فوق عرفات.

ألا أيها الركب اليمانون عرجوا علينا فقد أضى هوانا يمانيا

نسائلكم هل سال نعمان بعدنا وخب إلينا بطن نعمان وادياً

خرج هناك يصطاد بقوسه وأسهمه، فأتى إبراهيم فطرق الباب فخرجت هذه المرأة.

قال إبراهيم: أين زوجك؟ -لا تعرف هذا الشيخ الجليل، أعظم شيخ بعد محمد صلى الله عليه وسلم في تاريخ الإنسان، ولذلك هو أول من يكسى يوم القيامة، وهذه تزكية من الله، وليست من يحي بن معين ولا من أحمد بن حنبل ولا من البخاري، لا قال فيه: ثقة، ولا ثبت، ولا علامة، إنما الله يزكيه من فوق سبع سماوات {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ} [النحل: ١٢٠ - ١٢١] أتى هذا الشيخ ولحيته بيضاء؛ لأنهم يقولون وهذا استطراد: أنه رأى المرأة فقال: يا رب! ما هذا البياض يقصد الشيب؟

قال: وقار يا إبراهيم.

قال: اللهم زدني وقاراً- فأتى بعصاه وضرب الباب فخرجت هذه الزوجة، قالت: من؟

قال: أين زوجك؟

قالت: يصطاد.

قال: كيف حالكم؟

قالت: في بؤس وفقر، ومسكنة وضحك وضنى، جائعون، ليس عندنا شيء.

قال: إذا أتى زوجك فأقرئيه السلام-والسلام لا يعرفه إلا الموحدون؛ لأن الجاهلية حوله- وقولي له أن يغير عتبة الباب، ثم ذهب إبراهيم عليه السلام، وأتى في المساء إسماعيل قال: هل أتاكم أحد؟

قالت: أتانا شيخ كبير يتوكأ على عصا، وسألني عنك فأخبرته عن حالنا، فقال: أقرئيه السلام، ويقول: غيّر عتبة الباب، قال: هذا والدي إبراهيم وهو يعرف السلام، ويأمرني أن أغير عتبة الباب، وأنت عتبة الباب: الحقي بأهلك- لأنه في الحديث: {إن كان الشؤم في شيء ففي ثلاثة: المرأة، والفرس، والدار} بعض الدور ونحن لا نتشاءم بل نتفاءل- إذا دخلتها أتاك من البؤس والضحك والضحنى ما الله به عليم، وبعض النساء، وبعض الخيول أيضاً- فقال: الحقي بأهلك، فذهبت وتزوج غيرها.

وأتى إبراهيم بعد وقت، فأتى إلى باب ابنه فطرق الباب فخرجت المرأة الصالحة المنية الذاكرة التي ترى كل شيء كأنها ترى الحياة، التي تقدم لها الخبز اليابس والماء كأنك قدمت لها مائدة كسرى أنوشروان، تكون في عيش ما أحسن منه، تقول: أثابك الله.

يخبرنا بعض الفضلاء أنه عاش في ضنك وضنى وهو كبير السن، وفي فقر مدقع، فكان لا يجد الخبز إلا في بعض الأيام، فإذا أتى بالخبز قبّلت زوجته يده وقالت: جزاك الله من خير صالحاً، والآن سوف أنقل لكم حقائق عن بعض نساء هذا العصر- فطرق الباب، فخرجت، فقال: كيف حالكم؟

قالت: في أحسن حال، وفي أرغد عيش، في سعة من الله، وفي نعمة ومنه، قال: إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له يثبت عتبة البيت، فأتى الزوج فسألها فأخبرته، قالت يقرئك السلام، ويقول لك: ثبت عتبة البيت، قال: أنت عتبة البيت وأمرني بإمساكك.

هذه قصة إبراهيم مع إسماعيل، وهم يعيشون حياة المرأة ودورها، وقسم في منزلة بين امرأتين: امرأة لم تتكل على الله ولم ترض بقضائه وقدره، ولم تشكر نعمته، وامرأة انصرفت إلى منهج الله وأحبته، وتوكلت عليه.

تضحيات حبيب بن زيد

يوم أتى مسيلمة الكذاب، ورفع راية الإلحاد في أرض اليمامة فوصمه الله بوصمة الكذاب، فهو كذاب إلى يوم الدين، انتدب له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاباً ليبلغه دعوة الله؟ فكم كان عمره؟ حبيب بن زيد في الثانية والعشرين من عمره، قال صلى الله عليه وسلم للناس: {من يذهب إلى مسيلمة الكذاب وأستودعه الله الذي لا تضيع ودائعه؟

أي: أنه لن يعود في الحياة أبداً، معناها: القتل والإبادة، لأن ذلك لن يسلم رسول رسول الهدى صلى الله عليه وسلم، فقال حبيب بن زيد: أنا يا رسول الله! فمر بأمه -وكان أبوه ميتاً- فأخبرها بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما من أمر رسوله بد! فاذهب إلى سبيلك؛ فوالله إنك رضيي ووحيد الذي تموت نفسي قبل أن يموت {وودعته والدموع تسيل على خديها وذهب، فاستودعه الله من شهيد.

وصل إلى مسيلمة وقلبه يتوهج بلا إله إلا الله

ومن الذي باع الحياة رخيصة ورأى رضاك أعز شيء فاشترى

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} [التوبة: ١١١] لا أحد.

فوصل ودخل سرادق مسيلمة، فقال مسيلمة: من أنت؟

قال: أنا رسول رسول الهدى صلى الله عليه وسلم.

قال: أتؤمن أنه رسول؟

قال: إي والله.

قال: أتؤمن أني رسول؟

قال: لا أسمع شيئاً، فأعاد عليه الكلام فأعاد عليه حبيب بن زيد الجواب، فأمر أحد جلاديه أن يتقدم إليه بالرمح فضربه بالرمح، فقطع منه قطعة في الأرض، فأعاد عليه الكلام، وقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟

قال: إي والله، قال: أتشهد أني رسول الله؟

قال: لا أسمع شيئاً، فلما قال له هذا الكلام أمر جلاديه وجنوده أن يتقدموا من ذاك الشهيد، فتقدموا فهذبوه بالسيوف، فكان يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، ما زاده هذا الموقف إلا إيماناً وتسليماً، وثقة برسالة لا إله إلا الله، ثم قال: السلام عليك يا رسول الله!

اللهم أبلغ رسولك ماذا فعل بي الغداة.

وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخذ يقول: {عليك السلام يا حبيب بن زيد! عليك السلام يا حبيب بن زيد، عليك السلام يا حبيب بن زيد}.

قتل حبيب بن عدي في سبيل الله

وقف على مشنقة الموت في ساحة الإعدام وجميع مشركي مكة مطوقوه، نساءً وأطفالاً وشيوخاً، ينظرون إلى، مثلة الإعدام، اعتداء الباطل على جثمان الحق وهو صابر محتسب، ما أراهم خنوعاً ولا خضوعاً، يتبسم تبسم المستعلي بإيمانه، المستظهر بقيينه، حتى يقول أبو سفيان وهو يستهزئ به: يا حبيب! أتريد أن محمداً مكانك؟

قال: والله الذي لا إله إلا هو ما أريد أني في أهلي ومالي، وأن رسول الهدى صلى الله عليه وسلم تصيبه شوكة، فرفعه، وقبل أن يرفعه، قال: ائذنوا لي أن أصلي ركعتين،

فتركوه، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم التفت إليهم وقال: والذي لا إله إلا هو لولا أنني أخاف أن تقولوا: أطلت الصلاة جزءاً من الموت لأطلتها، فرفعوه وتقدمت إليه السيوف، وقال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، اللهم أبلغ رسولك ماذا لقيت الغداة -يعني أبلغه هذا اليوم ماذا يفعل بي- ثم قال: السلام عليك يا رسول الله.

هذا في سيرة موسى بن عقبة، قال موسى بن عقبة: وصح أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال في تلك اللحظة: {عليك السلام يا خبيب! عليك السلام يا خبيب، عليك السلام يا خبيب} وقبل أن تنتهي نفسه؛ قال أغنية المعركة الخالدة:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

التربية الحقة عند ابن تيمية

ابن تيمية يدخل وعمره عشرون سنة على ابن قطلوبغا فيقول السلطان ابن قطلوبغا: يا بن تيمية! ماذا تريد؟

نسمع أنك تريد ملكنا -يريد وهو في العشرين من عمره- فيضحك ابن تيمية، ويقول: ملكك! والله ما ملكك وملك آبائك وأجدادك يساوي عندي فلساً.

وذلك لأنه عرف الله، وعرف لماذا يعيش، وعرف ما هو مصيره، ولذلك يقول وهو يدخل السجن، وهو يلتفت إلى البواب، ويضحك ضحك المؤمن القوي يوم غرس في نفسه لا إله إلا الله، يقول لما أغلقوا عليه الباب: {فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد: ١٢] ثم يقول: ماذا يفعل أعدائي بي؟ أنا

جنّتي وبستاني في صدري أتى سرت فهي معي، أنا قتلي شهادة، وإخراجي من بلدي
سياحة، وسجني خلوة.

فيا سبحان الله! كيف عمّر الله تلك القلوب باليقين والتوحيد، فجعلها نوراً تمشي
على الأرض؟!

قال تعالى: {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي
الظُّلُمَاتِ} [الأنعام: ١٢٢] هذا زرع محمد عليه الصلاة والسلام، وهذه تربية محمد
عليه الصلاة والسلام.

التربية الحقّة عند معاذ رضي الله عنه

يأتيه أهل اليمن؛ فيقولون: يا رسول الله! أرسل لنا من أصحابك رسولاً يعلمنا
ويفقهنا في الدين، فمن يرسل يا ترى؟

هل يختار الذين بلغوا في السن عتياً، يتلفت فإذا أصحابه شباب، فتقع عينه على
معاذ رضي الله عنه وهو في الثامنة عشرة من عمره، فيرسله معلماً إلى اليمن.

يقول الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة معاذ: لما ودعه رسول الهدى عليه
الصلاة والسلام بكى معاذ بكاء عظيماً، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: {ما لك يا
معاذ؟ قال: والله يا رسول الله! ما أبكي على الدنيا، ولكني أبكي خوفاً من ألا أراك بعد
هذا اليوم إلا يوم القيامة، قال: لا تجزع يا معاذ فإن البكاء من الشيطان} فودعه صلى
الله عليه وسلم، ثم قال له: {اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق
الناس بخلق حسن، يا معاذ أذكر الله عند كل حجر وشجر ومدر} فذهب رضي الله
عنه وأرضاه، فأصبح سراجاً وهاجاً ينشر لا إله إلا الله في بلاد اليمن، وفي جبال وأرض

اليمن ينشر مبادئ الدين الخالد وعمره (١٨) سنة، ووجد في الأمة من بلغ من العمر عتياً وهو لا يفهم لا إله إلا الله، ولا يحسن أن يتوضأ ولا يصلي.

يعرف كل شيء في حياته إلا الدين، يجيد قيادة سيارته وهندستها وإخراجها وإنتاجها، وثوبه ولبسه وطعامه وشرابه ومسكنه ومدخله ومخرجه، ولكنه أصم أغلف عن الدين، والله له حكمة بالغة؛ ولكنه يقول: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].

أصناف الناس والأزمات التي يواجهونها إجمالاً

الذين قدموا وحاولوا أن يفهموا فهمهم الله، والذين يريدون أن يفقهوا الدين ففهمهم الله، والذين يريدون الله والدار الآخرة اجتباهم الله، وهذا مصداق لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث القدسي عن ربه عَزَّ وَجَلَّ: {من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بأحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها الحديث}.

ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يشرح هذا الحديث في المجلد الحادي عشر وما قبله: هذا الحديث يقسم الأمة إلى ثلاثة أقسام: وقد أغفل قسماً ثالثاً وهو: الظالم لنفسه، وذكر: المقتصد والسابق بالخيرات، لذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [فاطر: ٣٢] فقسمهم الله عز وجل هذا التقسيم.

فالظالم لنفسه يقع مسلماً في هذه الأمة، لا يخرج منه من الإسلام إلا الخوارج، يفعل الكبائر ويتبرك بعض الفرائض غير الصلاة، أو يقتصر كثيراً من حدود الله عز وجل، لكنه لا يزال مسلماً.

والمقصد: يفعل الفرائض ويجتنب الكبائر؛ لكنه يترك المستحبات ويفعل بعض المكروهات.

والسابق بالخيرات -نسأل الله من فضله، وأن يحبب إلينا السابقين وأن نحشر في زمريهم، وإلا فأين الثرى من الثريا- هو الذي يفعل الفرائض والنوافل والمستحبات، ويتبرك الكبائر والمحرمات والمكروهات: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١].

أزمات تواجه الشباب المسلم في هذا العصر وفي كل عصر، لكنها تختلف بالبقاء والأزمة والأمكنة والهيئات والأشخاص:

أولها: مرض الشهوات.

وثانيها: مرض الشهوات.

وثالثها: أزمة جلساء السوء.

ورابعها: الفراغ وإضاعة الوقت.

وخامسها: البيت وانحرافه يوم ينحرف عن لا إله إلا الله.

وسادسها: الضغينة والبغضاء بين شباب الإسلام.

العمل الصالح

من أسباب السعادة: العمل الصالح:

فعمل الصالحات هو من أكبر الأمور التي تحصل لك السعادة، وهي قرة العين، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر قال: {أرحنا بالصلاة يا بلال!} وكان يقول: {وجعلت قرة عيني في الصلاة} يقول سبحانه وتعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥] قال سيد قطب رحمه الله: إذا انتهى مدد الصبر وطاقته الصبر أتت الصلاة لتكون معيناً وطاقهً وزاداً، فالصبر ينتهي، ولكن تزيده الصلاة.

وفي ترجمة الحافظ ابن حجر أنه خرج للنزهة، فطوقه لصوص يريدون سلبه وقتله، فتوضأ وقام يصلي، فتبدد اللصوص وخافوا وهربوا، فلما سلم قال له تلاميذه: مالك هربت إلى الصلاة.

فقال: يقول سبحانه وتعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥].

ولذلك كان عباد الله يفرعون إلى الصلاة، ويفرون إلى طاعة الله إذا حزبه أمر.

ومن أعظم ما يسهل خاطر، ويزيل الهموم والغموم عمل الصالحات -كما قلت- ومن أجليها: الصدقة، وجرب ذلك.

مَرَضَ كثير من الصالحين فتصدقوا، فكشف الله مرضهم؛ وأصابهم كرب فتصدقوا، فأزاح الله كربهم؛ ولذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {مثل البخيل والمتصدق مثل رجلين عليهما جبتان من حديد، قد اضطرت أيديهما إلى تراقبهما، فكلما هم المتصدق بصدقته اتسعت عليه حتى تعفي أثره، وكلما هم البخيل بالصدقة انقبضت كل حلقة إلى صاحبها، وتقلصت عليه وانضمت يده إلى تراقيه، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: فيجتهد أن يوسعها فلا تتسع}.

والبخيل بالمال، والبخيل بالجاه، والبخيل بالبسمة والكلمة الطيبة من أضيق الناس نفساً، ومن أسوأهم خلقاً، ومن أقلقهم حياة؛ لأنه ما عرف سبيل السعة.

ولذلك كان الكرماء أوسع الناس صدوراً، وجرب ذلك! فإنك لا تفعل خيراً للمسلمين إلا ويرزقك سُبحَانَهُ وَتَعَالَى سَعَةً في الصدر، فإنه غفور شكور -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- غفور يغفر الذنب، وشكور يشكر على الحسنات في الدنيا والآخرة.

الرضا بالقدر

ومن أسبابها كذلك الرضا بالقضاء والقدر:

ذكر عن ابن قتيبة أنه قال: ما كان يتسلى الجاهليون في جاهليتهم وأهل الشرك في شركهم إلا بالقضاء والقدر، تموت ناقة المشرك فيقول: قضاء وقدر، يموت ابنه فيقول: قضاء وقدر.

قال بعض العلماء: من يؤمن بالقضاء والقدر يتسلى بأجر! وقد قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ

ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ [الحديد: ٢٢ - ٢٣].

وهذا عروة بن الزبير وكان عابداً زاهداً من العلماء والفقهاء السبعة، فقررُوا قطع رجله من الفخذ، فقالوا: نسقيك كأساً من الخمر علَّ عقلك أن يذهب، فقال: والله لا أذهب عقلاً منحيه الله، ولكن إذا توضأت ودخلت في صلاتي وناجيت ربي؛ فاقطعوا رجلي فلما دخل في الصلاة، أخذوا المناشير فبتروا رجله، فإذا هو مغمى عليه! وبقي يوماً كاملاً، فلما استفاق، قالوا له: أحسن الله عزاءك في رجلك، وأحسن الله عزاءك في ابنك؛ فقد رفسته دابة من دواب الخليفة فمات فرفع طرفه وقال: اللهم لك الحمد! إن كنت أخذت فقد أعطيت، وإن كنت ابتليت فقد عافيت أعطيتني أربعة أبناء وأخذت ابناً واحداً، وأعطيتني أربعة أطراف، وأخذت طرفاً واحداً، فلك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

يقول وهو يتمثل:

لعمرك ما مديت كفى لريبةٍ وما حملتني نحو فاحشةٍ رجلي

ولا دلي فكري ولا نظري لها ولا قادني سمعي إليها ولا عقلي

وأعلم أني لم تصبني مصيبةٌ من الله إلا قد أصابت فتى قبلي

ومرض عمران بن حصين أحد الصحابة الأخيار ثلاثين سنة، فما شكى ولا بكى ولا تذر، حتى كانت الملائكة تصافحه عند السحر بأيمانها وهذا في الإصابة لابن حجر.

ومرض أبو قلابة حتى قطعوا أطرافه الأربعة، أصابه مرض الأكلة في أطرافه -في رجله ويديه- حتى قطعوها، وكان يتبسم حمداً لله وشكراً!

قال ابن الجوزي في "صفة الصفوة" مروا بمولى أسود وهو مريض، وهو في زقاق من زقاق المدينة المنورة، وهو يتبسم، فقال له الناس: نمر عليك وأنت تذكر الله وتبسم وأنت في مرض وفي حالة لا يعلمها إلا الله، فقال: أنا في سعادة، وكلما أصابني قليل بجانب الإيمان الذي أعطانيه الله عز وجل والعمل الصالح.

وذكروا عن أيوب عليه السلام أنه لما ابتلي بالمرض في جسمه قال: اللهم أبق علي قلبي ولساني، قلبي أشكرك به، ولساني أذكرك به فكل شيء دخل فيه المرض إلا لسانه وقلبه، فما كان لسانه يفتّر من ذكر الله، وما كان قلبه يفتّر من شكر الله.

الرضا بالقضاء والقدر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

قال ابن عباس رضي الله عنه: [[هو العبد تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم؛ فيهدي الله قلبه]].

النظر في الدنيا إلى من هو أدنى

ومن أسبابها: النظر إلى من هو دونه في الحظوظ الدنيوية؛ لأن الحياة قليلة وزهيدة.

قالوا: "الحياة قصيرة، فلا تقصرها بالهموم والغموم".

قال: هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي، لأحد أصحابه: ما رأيك نعد الأيام التي سعدنا فيها، ولم يأتنا أمر مكدر فعد الأيام -وكان عمره ما يقارب ستين سنة- فما وجد فيها إلا ثلاثة عشر يوماً ذكر ذلك الذهبي، قالوا: عدوا أيامه في حياته التي سلم فيها من الهم والغم والكدر؛ فما وجدوها إلا ثلاثة عشر يوماً، وأما البقية فكانت همماً وغماً وكدرًا فالحياة قصيرة، فلا تقصرها بالهم والغم والكدر.

فمن أسباب السعادة النظر إلى من هو دونك في الحظوظ الدنيوية فلا في الحظوظ الدنيوية، لا تنظر إلى من هو دونك في الدين والاستقامة، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، والعلم، والتحصيل، والذكر، والصيام، بل ينبغي أن تنظر إلى من هو فوقك؛ لكن انظر إلى من هو دونك في الرزق والمال والصحة والسكن والمعيشة، لتري نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْكَ وَلَا تَزِدْهَا.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا) [الإسراء: ٢٠ - ٢١].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: ١٥ - ١٦].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكئونَ *}

وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ { [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

السعادة في طاعة الله

استدعى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه سعيد بن عامر أحد الصحابة الفقراء الشباب المجاهدين العباد، وما كان له من المال شيئاً كان له صحيفة يأكل ويغسل منه ثوبه؛ وعنده إبريق يغتسل فيه، ويتوضأ فيه؛ وعنده عصا، وعنده شملة يفتريشها؛ فاستدعاه عمر وسعيد بن عامر هذا من المهاجرين الكبار، قائم ليل صائم للنهار، فاستدعاه عمر، وقال له: [يا سعيد بن عامر: إني فكرت في أمر حمص وحمص بلد في الشام في سوريا، وفكرت من أولي عليها أميراً، فما وجدت إلا أنت، فقد أرسلتك عليها أميراً].

قال: يا أمير المؤمنين اعفني، لن أتولى، فدمعت عين عمر، قال: تجعلون الخلافة في عنقي، ثم تتركوني، وتتركوها لي، والله لتعينني عليها قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأرسله أميراً، ثم أعطاه عطاءه - لا أدري ثلاثة آلاف درهم، أو ثلاثة آلاف دينار - فأخذ هذا العطاء، وجمع بعض المال معه، وقال لزوجته: ما رأيك في هذا المال نعطيه شريكاً يعطينا، في الدرهم عشرة دراهم وزيادة، فقالت: وهل تجد من يعطيك هذا، قال: نعم، قالت: هذا مالي مع مالك وتاجر فيه ما دام أنه يعطينا ضعفه؛ فأخذه فأنفقه في سبيل الله مرة واحدة، ثم ذهب بصحفته وشملته وإبريقه وعصاه، ووصل إلى أهل حمص ودخل عليهم في نسك وخشوع لا يعلمه إلا الله، فلما رأوه قالوا: من أين أتيت؟ قال: من المدينة، مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام، قالوا: هل رأيت أميراً، أرسله عمر سمعنا أنه سوف يصل، قال: هو أنا، قالوا: لست أنت أميرنا، وما هيئتك أنك أمير! قال: إن شئتم أن أدخل دخلت المدينة، وإن شئتم أن أخرج خرجت، قالوا: ادخل؛ فدخل،

فاستمر في إمرته فما مرت الأيام حتى جلس عمر بن الخطاب يتتبع أخبار الأمراء، وكان يحاسبهم كل سنة والعصا بيده.

فكان يجمع عوام الناس وأعيان الناس وأعيانهم وعلمائهم وكبراءهم، ويجمع الأمراء، فلما سأل عن سعيد قال: ماذا تنقمون عليه، وماذا ينقم عليكم؟! فقالوا: يا أمير المؤمنين والله ما أخذنا عليه شيئاً، فقد كان من أحسن الناس سيرة وجهداً وعبادة، إلا أربعة أمور، قال: ما هي؟ وقال عمر في نفسه: اللهم لا تخيب ظني فيه، فإني ما علمته إلا من خيرة أصحاب رسولك صلى الله عليه وسلم، قالوا: أما الأمر الأول فما يخرج إلينا حتى يتعالى النهار فيجلس إلينا أي ما يخرج إلينا إلا ضحى.

وأما الأمر الثاني: فإن له يوماً في الأسبوع لا نراه ولا يرانا.

وأما الأمر الثالث: فإنه يغى عليه أحياناً فيصرع في مجالسنا.

وأما الأمر الرابع: فلا يخرج إلينا في الليل مهما طرقتنا.

فقال عمر: أجب عن نفسك يا سعيد! قال: اعفني يا أمير المؤمنين! -لا يريد أن عمله وأوراقه تعلن أمام الناس - قال: والله لتجيبن قال: اللهم إنك تعلم أنني ما قمت رياءً أما قولهم: إني لا أخرج حتى يتعالى النهار، فأنا رجلٌ امرأتي مريضة منذ سنوات، فأنا أصلح طعامي، وأجهزه وأهيئه، ثم أفطر، ثم أكنس البيت، ثم أخرج إليهم.

قال: هذه واحدة -ودموع عمر تسيل على لحيته - قال: والثانية؟ قال: أما قولهم: لا أخرج ليل فقد جعلت النهار لهم، والليل لربي، فما أصلي العشاء، إلا وأقوم وأتفضل

حتى صلاة الفجر، قال: واليوم الذي لا تخرج فيه؟ قال: وأما اليوم الذي لا أخرج فيه؛ فليس لي خادم وامراتي مريضة، فأنا أغسل ثيابي وثياب أهلي يوماً في الأسبوع.

قال: وما لك تصرع ويغمي عليك في المجلس؟ قال: يا أمير المؤمنين! إنني حضرت قتل خبيب بن عدي في مكة، وأنا مشرك يوم قتل خبيب بن عدي فحضرت قتله، فلما رفع التفت إلينا جميعاً، وقال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، فما ذكرت ذاك الموقف لأنني ما نصرته إلا أغمي عليّ، فبكى عمر حتى كاد يغمي عليه، وقال: [[الحمد لله الذي لم يخيب ظني فيك]].

ذاك الطراز الرفيع الذي أخرجه عليه الصلاة والسلام، من مثل هذا الرجل فرضي الله عنهم، وأرضاهم، وألحقنا بهم في دار كرامته.

السعادة ليست بالمال

دخلوا على أبي ذر وهو في سكرات الموت، وهو يبكي، فقالوا: مالك؟ قال: أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن وراءنا عقبةً كئوداً، وأنه لا يتجاوزها إلا المخف وقد جمعت الدنيا فالتفتوا فما رأوا إلا قعباً وصحفةً وشملهً في بيته.

يقول سبحانه وتعالى: {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} [الفجر: ١٥] ومعنى الآية أن بعض الناس إذا أراد الله أن يبتليهم ويمتحنهم أغدق عليهم المال فقال هذا الإنسان -من جهله بالله- أكرمني بكرامتي عنده، وهذا ليس بصحيح! فقد يكون من أفجر الناس، ومن أخبث الناس؛ ولكن يعطيه الله المال فتنة.

وبعض الناس يبتليه الله بالفقر، فيقول من قلة قيمتي واعتباري عند الله؛ ابتلاني بالفقر، وهذا ليس بصحيح! فقد قد يكون المرء من أتقى الناس، وأعظمهم وأرفعهم، ولكن ابتلاه الله بالفقر ليرى سُبحَانَهُ وَتَعَالَى صبره.

يقول المتنبي:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده

ولكن قلباً بين جنبي ما له سوى المجد مجد الأكرمين يحده

يحاول أن يكسى ثياباً ترفه فيختار أن يكسى دروعاً تهده

وتعالوا إلى المتنبي هذا الذي طنطن ودندن وأشغل الناس بهذه الهمة العالية.

يقول ابن الجوزي: عجبت للمتنبي هذا الذي يقول: أنا مطامحي عظيمة وأنا أريد شيئاً وحتى يقول:

وكل ما خلق الله وما لم يخلق مستصغرٌ في همتي كشعرٍ في مفرق

أو كما قال!

أي أن البشرية كلها شعرة في مفرقة، وكان يقول:

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

فما هو مطلبه؟ المطلوب هو الإمارة، حتى يقول لكافور:

ليعلم قوم خالفوني وشرقوا وغربت أني قد ظفرت وخابوا

قال ابن الجوزي: خاب وخسر! والله إنها من أخس المطالب في الحياة، وإن الذي لا يطلب رضا الله فليس له من همّة في الحياة أبداً، وعجيب أن يطلب هذا الهمّة ثم يقع فيما وقع عليه.

السعادة ليست في القوة والسلطان

أبو مسلم الخرساني قتل ألف ألف -مليوناً من المسلمين- حتى تولى السلطان، ثم ما أمهله الله، فما بقي إلا سنوات فأخذه أبو جعفر المنصور، فذبحه كما تذبح الشاه.

وذهب الحجاج بن يوسف فقتل مائة ألف، وقتل العلماء، وأهان الصحابة، ثم ابتلاه الله بمرض، فكان يخور كما يخور الثور.

وأتى الوليد بن يزيد الفاسق فأخذ المصحف -وهو خليفة أموي كما يقول ابن كثير- فأخذ يضرب المصحف ويهجوّه، ويتكلم فيه، فطورد حتى أدرك، فأخذوا جلد حمار فأحرقوه في جلد الحمار: (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرُهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) [إبراهيم: ٤٥ - ٤٦] وحضرت الوفاة الخليفة المعتصم وهو العسكري الكبير وهو من أشجع الخلفاء فاتح عمورية الذي يقول فيه عمر أبي ريشة:

رب وا معتصماه انطلقت ملء أفواه الصبايا اليتيم

لامست أسماعهم لكنها لم تلامس نخوة المعتصم

أدركته الوفاة وهو فوق الأربعين، وظن أنه سوف يبقى إلى الثمانين؛ فلما حضرته الوفاة وكان العلماء بجانبه قال: أموت اليوم؟ قالوا: نعم تموت فقال للطبيب: انظر إليّ -ذكر ذلك عبد الحق الأنشيلي في تذكّره.

كأنه يقول: غير معقول هذا! أنا شاب، فقالوا: ولو كنت شاباً فأخذ يبكي، ويتخبط بالأرض، ويقول: والله لو كنت أعلم أنني أموت في شبابي؛ ما فعلت الفعل الذي كنت أفعله سبحانه الله! يكون الناس في غفلة، فإذا ماتوا انتبهوا.

يبقى الإنسان في سكار وفي غفلة، وفي إعراض؛ فإذا نزل به الموت؛ انتبه كأنه قام من النوم ولذلك كثير من الشباب -إلا من رحم الله- يرى أنه لا يموت، لماذا؟ لأنه شاب، فكيف يموت وهو شاب؟!

وكثير من الأغنياء من السلاطين لا يرى أنه سيموت -نسأل الله العافية والسلامة- وهذا هو الغرور.

وهذا هارون الرشيد أدركته الوفاة وهو في طوس وقيل طرطوس، فلما أدركته الوفاة؛ نزل في غدير، فرأى سمكة كأنها خنجر فمد يده؛ فتسمم جسمه، فقال: أخرجوني للجيش، فأخرجوا الجيش له، وهو في سكرات الموت، فبكى حتى بكى الناس، وقال: يا من! لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه.

وهارون هذا هو ابن المهدي بن أبي جعفر المنصور، وكان يخرج في الشرفات، فإذا رأى السحاب تحداها وقال: أمطري حيث شئتِ فإن خراجك سوف يأتي.

يقول: سيّري حيث أردتِ في أي أرض هطلتِ، فإن تلك الأرض أنا أحكمها، لأنه يحكم إلى مشارف أسبانيا، وإلى السند وإلى طاجكستان.

فبنى هارون الرشيد قصراً فأدخل عليه الناس يهنئونه العلماء، والوزراء، والأمراء،
والشعراء، فدخلوا جميعاً، يهنئونه ويمدحونه فهو الخليفة، ودخل في آخرهم أبو
العتاهية، -وهو شاعر الزهد والحكمة- فوقف أمامه، فقال هارون الرشيد: ماذا تقول
فيّ وفي القصر يا أبا العتاهية؟ قال:

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور

قال: ثم ماذا؟

قال:

يجري عليك بما أردت مع الرواح أو البكور

يعني تأتي عليك الأمنيات والمسررات، مع الرواح مع البكور، قال ثم ماذا؟ فرفع أبو
العتاهية صوته يبكي وقال:

فإذا النفوس تغرغرت بزفير حشرة الصدور

فهناك تعلم موقناً ما كنت إلا في غرور

فبكي حتى نزل من على سريرته.

نور الدين محمود زكي من أعدل الحكام في الإسلام.

يقول ابن كثير عنه في البداية والنهاية: "رحم الله تلك العظام! أمر جنوده إذا
انتصف الليل أن يضربوا له بالصولجان، فيقوم هو وذريته وأزواجه وبناته، فيصلون

حتى الفجر، وكان كثير الصيام وكان متجهاً إلى الله من أعدل العدول في الأرض، وقد ذكروا في ترجمته أنه رأى في المنام أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: أنقذني يا محمود! فقام فزعاً من الليل، فتوضأ وصلى ركعتين، ثم عاد فنام، قال: فرأى الرسول عليه الصلاة والسلام في صورته يقول: أنقذني يا محمود! فتوضأ وصلى، ثم عاد فنام، فرآه عليه الصلاة والسلام يقول: أنقذني يا محمود! وإذا برجلين عليهما من الشعرة والهيئة كلبس المغاربة.

فقام في الصباح، فجمع العلماء وسألهم، فقالوا: كأن قبر الرسول صلى الله عليه وسلم يؤدي، أو كأنه يحفر حوله، وكأنه يؤدي في روضته عليه الصلاة والسلام، فأدرك الروضة.

فاستنفر الجيش من دمشق، جيشاً عرمرماً وكان هو قائد الجيش، وجعل القواد على الميامن والمياسر في الكتائب، ودلف حتى وصل إلى المدينة، وطوق المدينة، ثم عمل مأدبة عظيمة لأهل المدينة، وقال لا يتخلف عنها أحد، ومن تخلف عنها ضربت رأسه.

فذهب الجنود يحضرون الناس من بيوتهم للمأدبة خارج المدينة، وبسطت السفر، ومدت بالأطعمة؛ فلما أصبح الغداء، سأل جنوده: هل تخلف أحد؟ قالوا: ولا أحد، قال: ولا أحد! قالوا: ما تخلف إلا رجلان في المسجد النبوي، يذكران الله يقولان: لا يريدان الحضور، ولا يريدان الطعام فقد سئماه فخشينا من إحضارهما وإحراجهما، فتركناهما قال: عليّ بهما.

فأتي بهما، وإذا هما اللذان رأى في المنام، فجلدهما على رؤوسهما وقال: ماذا فعلتما بقبر المصطفى صلى الله عليه وسلم فاعترفا، فقالا: نحن نصارى أتينا من عكا، وركبنا

القوارب إلى جدة وقد أعطانا ملك عكا -وكان نصرانياً تابعاً لملك فرنسا الذي زحف بالزحوف الهائلة- وأعطانا مالاً هائلاً لحمل الجثمان إلى القارب في جدة، ثم أخذه إلى عكا.

قال: وهل حفرتم؟ قالوا: نعم نمد البساط في النهار ونجلس عليه ونحفر في الليل، وقد قاربنا القبر فأمر بهما فضربت رؤوسهما على مداخل ثنية الوداع في الميمنة والميسرة، وعلقا بأرجلهما وتقدم ورأى القبر قد قارب؛ فصبه قيل برصاص وقيل بفضة رضي الله عنه ورحم الله تلك العظام.

نور الدين هذا كان في حفل عسكري يتهياً لفتح بعض البلاد، فأعجبته نفسه، كانت الخيول تمر آلافاً مؤلفة وكانت القادات والأعلام أمامها، فأتى أحد العلماء فلبس لباساً، من لباس الزهد، ودخل بيته وتوضأ وصلى ركعتين وقال: اللهم افتح لي قلب هذا الملك، ثم أتى ووقف أمامه بالعصا، وقال: عندي كلمات يا نور الدين محمود! قال: تكلم، قال:

مثل لنفسك أيها المغرور يوم القيامة والسماء تمور

إن قيل نور الدين جاء مسلماً فاحذر بأن تأتي ومالك نور

حرمت كاسات المدام تأففاً وعليك كاسات الحرام تدور

إلى أن يقول:

يوماً يشيب لهوله الولدان من خوفٍ ويأكل عظمه المجبور

هذا بلا ذنبٍ يخاف لهوله كيف المصّر على الذنوب دهور

فسقط مغشياً عليه على الأرض من البكاء، ثم أمر بقطع هذا المهرجان، وكان هذا هو الدخول إلى القلوب التي ما وعت إلا بهذه الحكم، وهذه الاستطرادات من الوعظ من نثر وشعر.

قصر الأمل

ويعلق على هذا دايل كارنيجي (يومك يومك) فيقول: "لا تعيش إلا في حدود يومك" لكن أغنانا الله بما عندنا عن بضاعتهم؛ وبضاعتهم مزجاة ومبرائنا يغنيننا ويغني غيرنا.

هو يقول: يومك يومك، عش في حدود يومك، قال محمد الغزالي في كتاب جدد حياتك: يغني عن هذا قوله عليه الصلاة والسلام -رفع هذا الحديث مرة ووقف عن ابن عمر- {إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح}.

وفي بعض الآثار: {صلوا صلاة مودع} ونحن لو عشنا في حدود اليوم، لكثرت أعمالنا، ولعظمت موازيننا عند الله عز وجل ولجدينا واجتهدنا في أعمالنا إذا عرفنا أننا سوف نموت.

قال السعدي في الوسائل المفيدة للحياة السعيدة:

الاشتغال بالماضي حمق وجنون، والاشتغال بالمستقبل من السخف، نحن نجني للمستقبل، لكن نشغل بالماضي فتجد بعض الناس حزيناً، دائماً حزين، تقول له: مالك؟ قال: أخطأت قبل شهر، تكلمت مع فلان في كلمة فأخطأنا فيها؛ قضى الله واستغفر! وتجد الآخر ذاته حزيناً، مالك؟ قال: ماتت ناقتي قبل ثلاث سنوات.

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

قال أهل التربية: "الاشتغال بالماضي تفويت للحاضر الحاضر" وأكثر ما هد الشباب هذه الهواجس والخواطر، حتى تبلغ إلى درجة الجنون.

ولذلك يقول كارنيجي: المستشفيات في أمريكا وجد أن أكثر من نسبة (٨٠%) من الهواجس لا حقيقة لها وأنها أوهام.

ولذلك لما قل الإيمان، وقلت تلاوة القرآن عند كثير من الشباب، وقل الاستغفار، والذكر، وقيام الليل؛ أتت هذه الهواجس والخطرات حتى وصلت إلى درجة الجنون، ولا يمكن التخلص منها إلا بأن نعود إلى الكتاب والسنة، ثم نأتي إلى قصر الأمل فنعيش في حدود اليوم.

{إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح}.

وقد ذكر الذهبي أن ثلاثة من السلف كانوا يوصفون بقصر الأمل، قيل لأحدهم: ما بلغ من قصر أملك؟ قال: والله ما دخلت في صلاة إلا ظننت أنني لا أصلي الصلاة الأخرى، قال له صاحبه وهما يحاورانه: أنت طويل الأمل، قالوا للثاني: وأنت، قال: والله ما رفعت لقمة إلا ظننت أنها لا تبلغ في حتى أموت، قال: طويل الأمل.

وأنت أيها الثالث قال: ما خرج نفس من أنفاسي إلا ظننت أنه لا يعود إلا وقد توفيت.

وهؤلاء بلغوا في قصر الأمل مبلغاً عظيماً، وهو الذي مدحه عليه الصلاة والسلام.

قيل للإمام أحمد: كيف يُحصل على قصر الأمل؟ قال: "هو توفيق من الله" أي ما يوفِّق إليه إلا الله؛ ولذلك تجد بعض الناس طموحاته أكثر من عمره بكثير، ولو تيقن أحدنا أنه لا يعيش إلا سنتين وسوف يموت بعدها قطعاً لرأيت من اجتهاده وعبادته وأذكاره وسموه وأخلاقه ما الله به عليم.

فاستحضر أنك سوف تموت لا محالة.

الإسلام سبب الرفة

من هم العرب بغير لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ ماذا يساوي العرب بغير الإسلام؟ لا يساؤون شيئاً.

فالعرب بغير لا إله إلا الله استذلهم إسرائيل ذلة ما سمع التاريخ بمثلها، وعاشوا وأنوفهم في التراب، وأصبحت عجوز تسمى جولدا مائير تهجمهم وتحترقهم لأنهم فقدوا لا إله إلا الله.

إذاً العروبة بدون لا إله إلا الله محمد رسول الله عروبة خاطئة لا تساوي شيئاً، فأريد أن أقول للذين قد يغترون بهذه الكتابات، وأنا سمعت حتى من بعض الملتزمين يقولون: تاريخ العرب، وأمة العرب.

يقول سبحانه وتعالى: {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: ٨٩] إذا ترك العرب لا إله إلا الله محمد رسول الله، أعطاه الله الأكراد، وإذا

تركها الأكراد أعطاهم الأتراك، وإذا تركها الأتراك أعطاهم الهنود، وإذا تركها الهنود أعطاهم الأفغان، هذا هو التاريخ.

من الذي فتح بيت المقدس؟ من الذي أخذه من الصليبية؟

إنه صلاح الدين.

أهو عربي؟

لا.

بل هو كردي من الأكراد، لكن يعرف لا إله إلا الله محمد رسول الله، يعرف الصلوات الخمس جماعة، ويخاف الله.

صلاح الدين ونور الدين - رضي الله عنهما - ورحم الله تلك العظام.

محمد الفاتح تركي، وإقبال هندي، وبلال حبشي، وسلمان فارسي، وصهيب رومي، قال تعالى: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٣] أقول: نهوا المسلمين ألا يغتروا بهذه الصيحات، كـ (وحدة العرب، وعلاقة العرب، وإخاء العرب) ما العرب إلا أمة من الأمم، إذا تركت لا إله إلا الله محمد رسول الله لا تساوي شيئاً؛ بل نحن العرب إذا وازنا أمورنا بمستوى الحضارة والفن ليس لنا قبل الإسلام شيء، فليس عندنا حضارة ولا فن ولا معارك، وإذا نظرنا في الأمم الأخرى نجد عند اليابانيين فنون، وعند الصينيين فنون، وعند الإنجليز فنون، إلا العرب، فنوننا وحضارتنا لا إله إلا الله، وثقافتنا لا إله إلا الله.

تاريخنا من رسول الله مبدؤه وما عاداه فلا ذكر ولا شان

فهذا هو واقع الأمة.

عمر يفتح القدس

خرج عمر من المدينة -ورضي الله عن عمر، عمر العدل، والجهاد، والصدق- خرج ليأخذ مفاتيح بيت المقدس، كان بإمكانه أن يرسل نائباً، أو مستشاراً، أو مندوباً، لكن المهمة خطيرة إنه بيت المقدس أولى القبلتين، وخرج بنفسه، فهل خرج بسلاح؟

لا.

وهل خرج بعتاد؟

لا.

وهل خرج بحرس؟

لا.

أخذ ناقة وأخذ مولاه وذهب معه في ثيابه القديمة وعصاه، وقال لمولاه: تركب مرة وأنا مرة، فكان المولى يقود الجمل وعمر يركب، فإذا انتهت مدة عمر، نزل عمر فقاد الناقة وركب مولاه، واقترب عمر من بيت المقدس {وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الأنبياء: ٩٧] خرج النصراني وخرج الأطفال وخرجت النساء ينظرون إلى عمر، هذا الذي ملأ سمع الدنيا، والذي دوخ رأس المعمورة، وداس الأكاسرة والقياصرة وذبحهم ذبح الشياه، والذي بلغت جيوشه جورجان وأذربيجان والسند وطشقند والهند، يريدون أن يروا عمر أمن لحم ودم أم من حديد؟

ما هو لباسه؟

كيف تاجه؟

كيف جيشه؟

كيف حرسه؟

كيفت كتائبه؟

وكانت جيوشه هناك على مشارف بيت المقدس، لأن الجيوش لما فتحت جاء القائد الأعلى ليأخذ المفاتيح، فأتى عمرو بن العاص واقترب من عمر وقال: فضحتنا يا أمير المؤمنين! قال: ولم؟ قال: أتيت في ثيابك هذه وناقتك ومولاك! أما أخذت قوة ترهب الأعداء؟

فلقد خرج الناس، فانظر إلى الألوف قد جاءوا لاستقبالك، فدمعت عينا عمر، وقال: [[نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله]].

واقترب عمر من بيت المقدس داخلاً المدينة، وقد امتلأت السكك بالرجال والنساء والأطفال ينظرون إلى هذا العلم البارز، فكان عادياً، ثيابه مرقعة، لكن إيمانه كالجبال الراسية، صنع الله الذي أتقن كل شيء، فلما اقترب وإذا الطين وبلل الطين في سكك بيت المقدس، فأتت نوبة المولى ليركب على الجمل، قال: يا أمير المؤمنين! وصلنا والعقبة عقبتي لكن أتنازل بها لك لتركب، لأننا أصبحنا أمام النصارى، قال عمر: لا.

والله لا يركب إلا أنت، فركب المولى، وأتى عمر يقود الجمل ويرفع ثيابه عن الطين.

فماذا فعل النصارى؟

بكوا وارتفع البكاء على أسطح المنازل، وفي السكك منظر غريب، أهذا عمر في
الطين؟!

أعمر يقود الجمل ومولاه على الجمل!

أعمر بهذه العصا وهذه الثياب الممزقة، وقد خفناه شهراً كاملاً!

نصرت بالرعب شهراً قبل موقعة كأن خصمك قبل القتل في حلم

إذا رأوا طَفَلاً في الجو أذهلهم ظنوك بين جنود الجيش والحشم

فبكى النصارى، وقالوا: بهذا الفعل فتحتم الدنيا، وتقدم وسلم على الصحابة،
وقبل أن يجلس في بيت المقدس أخذ المفاتيح، فكانت مراسيم هائلة وبكى الصحابة
بنصر الله وبمثل نصر الله يبكي فرحاً المؤمنون.

طفح السرور علي حتى إنني من عظم ما قد سرنى أبكاني

وحانت صلاة الظهر، وقال عمر: [[يا بلال! قم فأذن، قال بلال: يا أمير المؤمنين!
قد حلفت ألا أؤذن لأحد بعد الرسول عليه الصلاة والسلام -لأن بلالاً لما مات عليه
الصلاة والسلام اعتزل الأذان وأقسم بالله لا يؤذن لأحد بعد المصطفى صلى الله عليه
وسلم- فقال عمر: عزمت عليك أن تكفر، وأن تؤذن، فقام وأذن]] ليرفع صوت الحق
لأول مرة: الله أكبر، الله أكبر.

الله أكبر، الله أكبر.

فكان عمر أول من بكى من الناس، ثم ارتفع البكاء لمسألتين عظيمتين:

الأولى: ذكرهم بالحبيب عليه الصلاة والسلام، وذكرهم بالأيام الخالدة وبالعهد الأول.

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى فهبج أشواق الفؤاد وما يدري

دعا باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري

والثانية: فتح من الله، ونصر عظيم لهذه الأمة، أن تسترد بيت المقدس، وأن تصلي فيه، وأن تعيش فيه.

ومات عمر واستمر بيت المقدس مع المسلمين، فلما تخاذل المسلمون عن لا إله إلا الله وقاطعوا المساجد، وهجروا المصحف، واشتغلوا بالأغنية، وبالعود والكوبة، وبالورقة وجمع الطوابع، وبالمراسلة وبالزهدات؛ ضاع بيت المقدس من المسلمين، وانهار العالم الإسلامي، ولكن أراد الله أن يعيد لنا بيت المقدس في القرن السادس على يد من؟

أعلى يد العرب؟

لا يشترط أن يكون العرب هم الذين يؤيدون هذا الدين {فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: ٨٩].

إذا كفر العرب، ففي الترك مسلمون.

وإذا أعرض العرب، ففي الهند مؤمنون.

وإذا نكس العرب، ففي الأفغان مجاهدون.

الدين هذا ليس حجراً للعرب، الدين هذا ليس لصنعاء، أو بغداد، أو الرياض، أو جدة، أو مكة، أو تونس، أو الجزائر، الدين هذا للعالم، للكرة الأرضية، من اتقى الله فهو حبيب الله ولو كان مولى، ومن عادى الله فهو عدو الله، ولو كان سيداً قرشياً.

صلاح الدين يحرر القدس

أتى الله بصلاح الدين وصلاح الدين كردي من الأكراد، وليس بعربي، لكنه مؤمن يصوم النهار ويقوم الليل.

صلاح الدين ولي من أولياء الله، تعلم في مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام، كان شاباً لا يضحك ولا يتبسم، قال له الناس: لا نراك تضحك ولا تتبسم!، قال: سبحان الله! أضحك والمسجد الأقصى مأسور، أتبسم والمسجد الأقصى بيد الأعداء، لا والله.

وعاش صلاح الدين، فلما اكتمل نموه واشتد ساعده، حمل السيف، وقال: لا إله إلا الله، والعرب والعجم إذا سمعوا لا إله إلا الله تحركت الفطرة في قلوبهم، وتحرك الإيمان في أرواحهم، كما قال تعالى: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ} [الروم: ٣٠] فقال: لا إله إلا الله وكبر في المعصرة، فأتى المسلمون وعادوا إليه مهللين ومكبرين، وتابوا من المعاصي، وتركوا الخمارات والبارات، وهجروا الغناء؛ كسروا الأعواد وسبحوا وتوضئوا، وحملوا السيوف.

رفيق صلاح الدين هل لك عودة فإن جيوش الروم تنهى وتأمّر

رفاقتك في الأغوار شدوا سروجهم وجيشك في حطين صلوا وكبروا

نساء فلسطين تكحلن بالأسى وفي بيت لحم قاصرات وقصر

وليمون يافا يابس في أصوله وهل شجر في قبضة الظلم يثمر؟!

يبس ليمون يافا، وبكت نساء فلسطين يوم أصبح الجهاد قرارات لـهيئة الأمم
الظالمة الملحدة التي عليها كل صهيوني وعميل.

والأفغان كفروا بهيئة الأمم، فنصرهم الله، وما قدموا عريضة ولا شكوى، إنما
أخذوا الرشاش، وأخذوا السلاح، وذبحوا الروس كذبح الدجاج وداسوهم في الأرض
على التراب، وقالوا: لا نعرف هيئة الأمم ولا جنيف ولا مجلس الأمن، وهل هو من عند
الله؟!!

{إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ} [آل عمران: ١٦٠] أربعون سنة والعرب يشكون
على مجلس الأمن، فإذا قتل قتيل مجرم في ناحية قامت الدنيا وقعدت بأسرها،
وشعب فلسطين يذبحون بالآلاف، وأطفال فلسطين يكسسون مع القمامات، وشيوخ
فلسطين يجرجرون على وجوههم في التراب، ثم لا شكوى ولا اعتراض ولا استنفار، إلى
متى؟

فخرج صلاح الدين يوم الجمعة، يوم وقف الخطباء على منابر العالم الإسلامي
وأرسل لهم أن ادعوا لنا.

فاليوم يوم التصفية، والملحمة والفرقان، اليوم يشفي الله قلوب المؤمنين وأرواح
المضطهدين، ووقف صلاح الدين وصنف الكتائب، وأعد الجيوش، والتقى بالنصارى
الصلبيين أعداء الله، وبدأت المعركة مع أذان الجمعة الثاني، وصدق صلاح الدين مع

الله، وطلب النصر من الله، وكان صلاح الدين في المعركة يجول ويذبح ويقتل، ثم يعود ويستقبل القبلة ويسجد ويبكي ويمرغ وجهه في التراب، ويقول: نصرك اللهم، نصرك اللهم، ومع الغروب وإذا بأعداء الله يزحفون على الرمال، وإذا بسيوف الله تأخذ في أكتاف أعداء الله وتسحقهم سحقاً، وتفنيهم فناءً، وتبيدهم إبادة، وفي اليوم الثاني يدخل صلاح الدين بيت المقدس، ويؤذن المؤذن مرة ثانية بأذان الظهر، وترتفع الخطبة التي يلقيها أحد العلماء، خطبة ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية ما سمع الدهر بمثلها، وما بقي أحد إلا بكى، ولو كانت الشجر لها مقلتان لبكت من فرح النصر ومن عظمة الدين.

ومات صلاح الدين وعادت الأمة إلى ما كانت عليه، أمة لاهية، أموالها في البنوك الربوية، وشبابها في المنتزهات، وسهراتها مع الورقة والباصرة، وتلاوتها الأغنية الماجنة، ومصحفها المجلة الخليعة، وهوايتها جمع الطوابع والمراسلة، تصفيق وزفير، وشهيق وضياح، وسفر وأغنية ومجون، فضاعت القدس.

مليون يهودي جاءوا من فرسنگ وبولندا وهولندا.

ومن أطراف الأرض، فأرغموا مليار مسلم على التخلي عن القدس وأخذوا فلسطين، بل هددوا العالم الإسلامي، وأصبح يسميهم بعض العرب إرهابيين فخفنا منهم وتصورنا خوفهم في الماء، والله يقول: {وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةَ وَالْمُسْكَنَةَ} [البقرة: ٦١] لعنهم الله ونحن نقول: شجعان إرهابيون، خفنا وتبددنا، ولكن هل من عودة إلى الله؟ هل من رجوع إلى الله؟

فقضية القدس قضية المسلمين، ولا بد أن تجعلها من أول اهتماماتك في الحياة، دعاءً وبذلاً، وجهاداً وتضحيةً وتوعيةً في الناس.

الله قريب من عباده

سبحان الله! ما أجل الله! إذا مرضت شفاك، وإذا طلبت أعطاك، وإذا دعوت أجابك، ليس بينك وبين الله حجاب أبداً فاتصل به مباشرة، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ} [البقرة: ١٨٦] وإذا سألك المريض أين الطبيب؟ فهو قريب، وإذا سألك المديون أين الذي يسد الرmq والحاجة؟ فهو قريب، وإذا سألك المهزم المهزأ أين العضد والنصير؟ فهو قريب، وإذا سألك الفقير البائس أين المغني؟ فهو قريب، وإذا سألك الضعيف أين القوي؟ فهو قريب، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦].

سبحانك ما أعظمك! لقد أساءت الأمة، يوم لطخت وجه التوحيد وأساءت إلى هذا الوجه الجميل، يوم عرضت الإسلام للعالم مشوهاً حتى يقول عبدة الكأس والمرأة الداعرة وعبدة الأصنام وأهل الكنائس التي تحولت إلى دور دعاة: الإسلام خزعبلات، والإسلام إرهاب، وهمجية، وبربرية والإسلام براء من ذلك، والإسلام جميل، لكن شوهه بعض أبنائه الذين ما فهموه وما عرفوه حق المعرفة.

أيها المسلمون! حذار حذار من هذه الأمور، فإنها نقض لعقيدة أهل السنة، وضرب للتوحيد وتشويه للإسلام، ومعناها: أن نفقد ديننا وأخلاقنا وسيرتنا.

أيها المسلمون! أنكروا هذا المنكر وانهوا عنه، ومن وجد منكم مثل هذه الأمور، فليرفعها إلى السلطان وإلى القضاة وإلى ولاة الأمر، وليأخذ على يد هؤلاء السفهاء وليعزّزهم وليفضحهم أمام الناس، فإن هؤلاء أعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام،

هؤلاء كهنة، وهم حرب على الإسلام، يوم أتى هؤلاء أتى الجفاف في الأرض والنهب والسلب والقطيعة وقسوة القلوب وفساد الأبناء نسأل الله أن يطهر البلاد منهم.

لقد كان عمر رضي الله عنه وأرضاه إذا سمع بساحر، استدعاه ثم قطع رأسه، ففصل الرأس عن الجسد، ليبقى منار التوحيد ونور الإسلام.

قصة قوم سبأ في القرآن الكريم

عباد الله: إن الله يذكر لنا ما فعل بالقرى يوم كفرت بأنعم الله، ويوم عطلت حدوده، وتنكرت لشرعه! اسمع إلى قول الله تبارك وتعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًَّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [سبأ: ١٥ - ١٩] سبأ: قبيلة تسكن في اليمن، معهم سدٌ عظيم، يملؤه الله كل سنة بالماء، أنبت لهم أنواع الثمرات؛ مثل ما أنبت لنا اليوم أنواع الخيرات.

سل العالم كيف نعيش من رغد، سلوا الدنيا أي بلد أسعد من بلادنا؛ أمنٌ ورخاء، سهولةٌ ويسر، فواكه الدنيا، وثمراتها، وملابسها، وأدواتها: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: ٣٧].

عاشوا في سبأ كما عشنا {جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ} [سبأ:١٥] لكل رجلٍ من أهل سبأ بستانان عظيمان عن اليمين وعن الشمال، ذكر المفسرون أن عذق النخلة في سبأ كان لا يحمله إلا فرسان اثنان، النخلة تثمر في السنة مرتين، وكان الماء ينهمر كالسلسال تحت أرجلهم، وظلل الله عليهم الغمام، فلا يرون الشمس إلا نزهة، والمرأة تأخذ المكتل، وتضعه على رأسها، وتذهب من تحت الشجر فيمتلئ المكتل من كثرة ما يتساقط فيه، والطيور التي ترفرف على الرءوس، والعليل مع النسيم، والرخاء مع السعد.

لكن ماذا فعلوا؟ عطّلوا أمر الله، الله يقول: آمنوا بالله، فيقولون: كفرنا، يقول: واسمعوا، قالوا: سمعنا وعصينا؛ كما يفعل بعض الناس، له بيت فخم، وسيارة فاخرة، ومنصب مرتفع، ومالٌ وشيكات، وأولاد، جار للمسجد لا يصلي في المسجد، طبع الله على قلبه، مجرم، بل يعين على فساد قلبه بقلبه:

يقال له: استمع القرآن، فيقول: لا، بل أستمع إلى شريط غنائي.

يقال له: انظر إلى آيات الله في الكون، يقول: لا، بل انظر إلى الأفلام المجانية.

يقال له: استمع التلاوة؟ يقول: بل أستمع إلى أغنية ماجنة.

يقال له: اقرأ في كتب الإسلام، يقول: بل أقرأ في مجلة هابطة.

سبحان الله! لأنه لا يرى إلا بعينه التي يرى بها الحيوان، {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٤٤] قال الله: آمنوا، قالوا: كفرنا، فماذا أرسل الله عليهم؟ أرسل عليهم جيشاً من السماء؟ لا، هم أقل وأذل من ذلك، ماذا فعل الله بهم؟ أرسل عليهم فأرة.

يقول المفسرون: أراد الله أن يخوف قوم فرعون؛ فأرسل عليهم قملاً وظيفادع
وجراداً.

وأراد أن يهلك نمرود بن كنعان فأرسل عليه بعوضة فدخلت في دماغه فقتلته.
وأراد أن يهلك سبأ فأرسل عليهم فأرة، ثم قال سبحانه: {وَإِنْ يَسْأَلُكُمُ الدُّبَابُ شَيْئاً
لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ {الحج: ٧٣ - ٧٤}
نخرت الفأرة سدهم، وفي الصباح تدكدك السد، واجتاح الماء الهائل بأمواج كالجبال
مزارعهم وبيوتهم، ومطارحهم وأشجارهم، وأصبحوا يولولون ويبكون في رؤوس الجبال،
لماذا؟ {فَأَعْرِضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ} [سبأ: ١٦] ويقول سبحانه: {فَقَالُوا رَبَّنَا
بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ} [سبأ: ١٩].

جواز الحلف بدون استحلاف

لك أن تحلف إذا تكلمت في قصة أو حديث ولو لم يستحلفك أحد، قال جل
ذكره: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ
عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [التغابن: ٧] مع أنهم لم يستحلفوه هنا، ويقول جل ذكره: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ
أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي} [يونس: ٥٣] وهم أيضاً لم يستحلفوه، ولكن الله أمره أن يحلف
في ثلاثة مواطن، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: لا ومقلب القلوب.

وهو لم يستحلف، فلك أن تحلف للحاجة ليتأكد حالك، ولتقوم حجتك ودليلك،
ولو لم يطلب منك أحد أن تحلف.

الإخبار عن حال الضر ليس لأجل التشكي

فلك أن تخبر عن أيامك السالفة في الجوع والمشقة، ولك أن تخبر عما أصابك من أمراض، لا على أن تشكو الرحمن الرحيم إلى الناس، فإنك إذا شكوت الرحمن الرحيم كأنك تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم.

ولا تشيم إلى شخص لتشمته شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

فالذي يشكو إلى العباد كالجريح الذي يشكو إلى الغربان والرخم، يقول: أنا جريح فانظروا إلى جرحي.

فهذا الأمر جائز إذا لم يكن على وجه التشكي، وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم، أن الرسول صلى الله عليه وسلم زار بقيع الغرقد، ثم عصب رأسه عليه الصلاة والسلام، فقالت عائشة رضي الله عنها: وأرأساه -كان بها صداع ذلك اليوم- قال: بل أنا وأرأساه، والله لقد هممت أن أدعو أباك وأخاك فأكتب لهم كتاباً لأنه مرض الموت، فشكا عليها لأنها شكوى، ولكن أخبرها إخباراً عليه الصلاة والسلام، لا على وجه التسخط والتذمر لكن على وجه الإياحة.

ولا بد من شكوى على ذي قرابة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

فهذا جائز، ولذلك أخبر الصالحون عن أحوالهم، وللعبد أن يخبر بما مر به من نكد عيش وفقر؛ ليقمعه هذا وليرده عن الكبر والعجب، ولأن بعض الناس إذا ترأس أو اغتنى أو كان له أولاد أو أملاك نسي ما قدم في الأيام؛ فأخذه الجموح والغلو ونسي ما عند الله وما أعد وما كان فيه، ولذلك يقول ابن عمر رضي الله عنه: [[جمع أبي الناس -

يعني عمر - فنصبنا له منبراً فجلس عليه، فقال: أيها الناس! من أنا؟ قالوا: أنت أمير المؤمنين.

قال: أنا عمر بن الخطاب، كنت أدعى في الجاهلية عمير، كنت أرى الغنم لابن أبي معيط على حفنة من تمر.

قال: فلما انتهى المجلس قلت: يا أبتاه! ما حملك على ما صنعت؟ قال: زهتني نفسي وأعجبني فأردت أن أكسرهما أمام الناس]] فهذا هو الأدب، وهذه هي التربية، وهذا هو الوصول والاتصال بالحي القيوم.

وسعد رضي الله عنه سوف يتحدث وسوف نسمع كلامه بعد قليل عن نفسه وعن حاله، وعلي كذلك وغيرهم من الصحابة الأخيار، لكن هناك مسألة استثنائها أهل العلم وهي: من كان في معاصي وفي سيئات فتاب الله عليه، فليس له أن يتحدث للناس بمعاصيه ولا بماضيه الغابر، بل عليه أن يتوب إلى الله ويستغفر، وأن يستر ما بينه وبين الله عز وجل، فإن الله يستر على العبد في الدنيا إذا ستر على نفسه، ويغفر له في الآخرة، وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: {حدثنا صلى الله عليه وسلم عن النجوى.

قيل له: كيف حدثكم عن النجوى؟ قال: يدني الله عز وجل عبده يوم القيامة حتى يضع كنفه على كنفه، ثم يقول: يا عبدي! أما فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا؟ قال: بلى يا رب.

قال: أما فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا؟ قال: بلى يا رب، قال: فإني سترتها عليك في الدنيا وغفرتها لك اليوم} فليس للعبد أن يقوم أمام الناس أو في المجالس ويقول: فعلت كذا وكذا في الجاهلية، وفعلت كذا وكذا في وقت الجهل، وفعلت كذا وكذا في شبابي.

بل عليه أن يستتر بستر الله، وإذا ابتلي العبد بشيء من الفضائح فليستتر، فإن الله يغفر الذنب ويتجاوز عن السيئات ويعلم ما تفعلون، والله ستير حيي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما قال عليه الصلاة والسلام لما سئل عن الغسل والإنسان متكشف قال: {إن الله حيي يحب من عبده أن يتستر} أو كما قال عليه الصلاة والسلام، وفي حديث سلمان عند الترمذي: {إن الله عز وجل حيي يستحي من أحدكم إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً}.

إذا علم هذا فليس للإنسان أن يتحدث بالأخطاء ولا بالمعاصي ولا بالذنوب، لكن يأتي بوابل من الاستغفار، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: في الدنيا ثلاثة أنهار، فمن لم تطهره ثلاثة أنهار أو واحد منها فسوف يدخل يتطهر في كير جهنم ثم يخرج إلى الجنة.

ثلاثة أنهار في الدنيا لا بد للعبد أن يحرص أن يتطهر فيها، لأننا كلنا أهل سيئات وخطايا، فمن لم يتطهر بنهر من الأنهار الثلاثة فلا بد له من كير جهنم يتطهر فيها ثم يخرج ويدخل الجنة، النهر الأول: نهر التوبة، وهو أعظم الأنهار، والله عز وجل ما أغلق باب التوبة ولن يغلقه حتى تطلع الشمس من مغربها، ولا يزال الله يتوب على العبد مهما اقترب من السيئات والخطايا إذا تاب وأناب وصحت التوبة.

النهر الثاني: الحسنات الماحية، فإن بعض الناس كثير الإساءة، ثم يأتي بأعمالٍ صالحةٍ من قراءة وذكر وصيام ونوافل ودعوة إلى الله وعمل صالح، فتغمر هذه الأنهار جبال السيئات وتمحوها فلا تبقى لها أثراً ولا عيناً.

والنهر الثالث: المصائب المكفرة، فإن بعض الناس يبتلى بالسيئات والخطايا فيسلط الله عليه المصائب والمحق، ويسلط عليه الفتن والمحن والهموم والغموم، حتى يلقي الله وهو طيب مطيب، طاهر مطهر.

الاستدلال بالعلامات

فإن بعض الناس لما رزقهم الله من الفطنة والفهم يعرفون بالعلامات والإشارات، فإن إبراهيم عليه السلام قرب الأكل للملائكة فما اقتربوا للأكل {فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} [هود: ٧٠] يقول: لماذا لا يأكلون طعامي؟ لابد أن فيهم شيئاً، ثم خاف منهم؛ لأنهم إما أعداء فالعدو لا يأكل طعامك، وإما أنهم ملأ آخر خلقهم الله عز وجل ليس من حقهم الطعام.

فعلم أنهم ملائكة، فأخبروه في الأخير أنا لا نأكل الطعام؛ لأنهم جسم نوراني، لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب.

وهكذا خلق الله سبحانه وتعالى خلقه وتصرف فيهم، فنحن خلقنا من الطين، نمشي على الطين، ثم ندس في الطين، وقوم خلقهم من النار، فهم دائماً في نار أحرقوا العالم ودمروا المعمورة وهم الشياطين، وقوم خلقهم من نور، فكلامهم نور، ويأتون بالنور، ويذهبون بالنور، ويسجلون النور، ويشهدون على أهل النور، وهم الملائكة، فله سبحانه وتعالى في خلقه شئون.

كتمان الحاجة أولى من إظهارها

يقول تعالى: {لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [البقرة: ٢٧٣] فتكتم حاجتك بينك وبين الله، تفتقر فلا يشعر الناس أنك افتقرت، وتمرض فلا يشعر الناس أنك مرضت.

ذكر أهل القصص أن أبا بكر رضي الله عنه أصابه وجع في ضرسه حتى اسود جانبه، ما كان هناك مستشفيات ولا أطباء ولا خدمات، وإنما عاشوا في تلك الفترة يوجهون البشرية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وأراد الله من حكمته أن يعيشوا في تلك الفترة، لئلا يشتغلوا بهذه المشغلات والملهيات، والأمور التي جدت؛ ليتفرغوا لإبلاغ الوحي إلى الناس، فلما مرض زاره الصحابة وقد أسند ظهره على الفراش، فقالوا: يا خليفة رسول الله! نراك وجع.

قال: الحمد لله.

قالوا: ألا ندعوا لك طبيباً؟ قال: الطبيب قد رأي.

قالوا: ماذا قال لك؟ قال: إني فعال لما أريد.

كيف أشكو إلى طبيبي ما بيا والذي قد أصابني من طبيبيا

قال أحد الصالحين -لما حضرته الوفاة- لابنه: يا بني! لا تشكو على أحد مصابك إلا على الله، فوالله لقد فقدت عيني هذه منذ أربعين سنة ما أبصر بها وما أخبرت بها أحداً إلا الآن.

ذكر صاحب طبقات الحنابلة وغيره من أهل العلم عن الوزير ابن هبيرة الحنبلي الكبير، صاحب كتاب الإفصاح، وهو قد تولى الوزارة في عهد الخلافة العباسية وكان من الصلحاء الأخيار عند الله عز وجل، وعظ وهو جالس على منبره فسقط على وجهه من كثرة البكاء وحج بالناس هو وجعل نفقات الحجاج من بغداد على حسابه وتركته، فلما وصل إلى منى عطش الحجاج وأصابهم من الظمأ ما لا يعلمه إلا الله، فتوضأ وصلى ركعتين وقال: اللهم ارحمنا، اللهم اسقنا.

قالوا: فوالله ما نزع من مكانه حتى تساقط الثلج والماء على الناس، فبكى، فقالوا: مالك؟ قال: يا ليتني دعوت الله بالمغفرة.

قال أحد أهل العلم: كنت جالساً مع ابن هبيرة في ديوانه، وبينما أنا جالس إذا برجل فقير دخل عليه، فقام ابن هبيرة فاستقبل الفقير هذا، وهو وزير، دولة الإسلام كلها في وزارته، بل هو من أعظم الناس، كان يملي الحديث وهو وزير، يملي صحيح البخاري وصحيح مسلم.

قال: فلما دخل هذا الفقير عليه قام له وحياء وأجلسه ثم أعطاه حلةً، وأعطاه شيئاً من المال وقام ومسح على رأسه، ثم خرج الفقير، فقال له الناس وهم في ديوانه جالسين: مالك -أطال الله بقاءك- مسحت على رأسه؟ قال: أتدرون ما قصتي وهذا الرجل؟ لقد عرفته وما عرفني.

قالوا: كيف؟ قال: كنت أنا وإياه شباب فضربني على رأسي فأبطل عيني هذه، فما أرى بها منذ ثلاثين سنة، فلما دخل عليّ الآن تذكرته وعرفته فمسحت على رأسه وعفوت عنه؛ ليعفي الله عني يوم يجمع الله الأولين والآخرين، فتباكي الناس، وهذا من كتمان المصائب والبلايا.

ودخلوا على شيخ الإسلام وهو مريض فقالوا: ماذا أصابك؟ قال:

تموت النفوس بأوصابها ولم يدر عوادها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها إلى غير أحبابها

فالشكوى إلى الله سبحانه وتعالى.

ولذلك كان الأنبياء والرسل إذا بلغ الحزام الضبيين، والسيل منتهاه، وانتهى الأمر إليه، فوضوا الأمر إلى الله، قال إبراهيم: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في حالة -يوم أحد- لا يعلمها إلا الله، وقد قتل سبعون من أقاربه وأعمامه وأصحابه، وبعدها يأتي يهودي استؤجر بشعير فيقول: إن الناس قد جمعوا لكم، فرد الرسول صلى الله عليه وسلم رشده ودعواه والتجاء إلى الله وقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فكان ماذا؟ {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دَارِهِمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هُمْ يُرِيدُونَ} [آل عمران: ١٧٤].

وقال يعقوب وقد بكى حتى -كما في بعض التفاسير- كان يوصيه جبريل بالصبر على يوسف فما يستطيع أن يصبر، فيجعل كفه على فمه ويقول: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف: ٨٦] ولذلك قالوا في ترجمة أبي بكر رضي الله عنه أنه كان إذا وصل إلى هذا المقطع في صلاة الفجر خار من البكاء: {إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يوسف: ٨٦] ويقول قبلها: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ} [يوسف: ١٨] فمن أصابه شيء أو ضرر فليلتجئ إلى الحي القيوم، فإنه هو الرزاق، والنافع والضرار، وإن مقاليد الأمور بيده سبحانه وتعالى، لا يتصرف في ذرة متصرف إلا بأمره وقدرته تبارك وتعالى.

كرم النبي صلى الله عليه وسلم

لن تجد في الأمة أكرم من الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد جاء في مسند أحمد عن جابر بسند جيد قال: {ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا إلا مرة، سأله أعرابي شيئاً فقال: لا. وأستغفر الله} أي: أستغفر الله من كلمة (لا) فالمؤمن إذا كان في موجوده شيء فلا يقل: لا؛ لأن الله ذم الذين يمنعون الماعون، وهم الذين يمنعون القدر عاريةً، أو الإبرة أو الخيل أو الخيط أو الخدمة، حتى ذكر أهل العلم أن من يمنع البسمة عن الناس فهو من أبخل الناس.

والناس عيال لله عز وجل أحبهم إلى الله عز وجل أنفعهم لعياله، والله عز وجل جعل أسباب بعض الناس ببعض، فإنه هو الغني، والله قادر أن يغني كل أحد عن أحد، لكنه جعل هذا ليبتلّي به هذا {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} [الفرقان: ٢٠] قيل: (جعلنا بعضهم لبعض فتنة) ابتلى الغني بالفقر، وابتلى الصحيح بالسقيم، وابتلى هذا بهذا؛ ليرى الله من الذي يؤدي حقوقه تعالى.

وفي حديث ابن عباس الصحيح: {يقول الله يوم القيامة للعبد: يا ابن آدم! مرضت فلم تعدني.

قال: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته وجدت ذلك عندي.

يا ابن آدم! جعت فلم تطعمني.

قال: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً جاع فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته وجدت ذلك عندي {الحديث.

فالرسول عليه الصلاة والسلام كان من أكرم الناس، يجود بكل ما ملك، ولو استغنى عن قميصه لجاد به، بل حدث -كما في صحيح البخاري- أنه جاد بقميصه الذي عليه، يقول سهل بن سعد في الصحيح: {أتت امرأة النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله! خذ هذا الكساء، فقد نسجته لك بيدي بأبي أنت وأمي، فأخذه عليه الصلاة والسلام ولبسه محتاجاً إليه، فلما لبسه تعرض له رجل من الناس، فقال: يا رسول الله! بأبي أنت وأمي أعطني هذا الكساء.

قال: انتظر قليلاً، فدخل بيته عليه الصلاة والسلام وتأزر بأزره وخلع له الكساء وأعطاه إياه.

فقال الصحابة: بئس ما صنعت، لبسه صلى الله عليه وسلم محتاجاً إليه ثم سألته وتعلم أنه لا يرد أحداً.

قال: والله! ما أخذته إلا ليكون كفناً لي بعد أن لامس جسم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال سهل بن سعد: فوالذي نفسي بيده لقد كان كفنه ودفن فيه.

ولذلك قال ابن المبارك: أرى أن يكفن المسلم في ثيابه التي كان يكثر فيها الصلاة وقيام الليل؛ لأن الله يقول: {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس: ١٢] أي: الآثار التي كانت عليهم، وممشاهم وقعودهم، والله يقول في محكم كتابه: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} [الدخان: ٢٩] قالوا لـ ابن عباس: [[أتبكي السماء على الصالح؟ قال: نعم.

والذي نفسي بيده إنه ليبيكي ما يماثله من السماء، ويبكي عليه مصلاه ويبكي ممشاه إلى المسجد]] والله أعلم كيف الحالة، فهو الذي خلق وتصرف، فنحيلها على علمه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالرسول صلى الله عليه وسلم من أجود الناس.

وفي صحيح البخاري أنه صلى الله عليه وسلم كان أجود بالخير من الريح المرسلة، ما يمسك شيئاً، فإذا دخل رمضان دارسه جبريل القرآن فيكون صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة، ولذلك ذكر أبو نعيم وابن كثير والذهبي في ترجمة زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً

قال تعالى: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٣٤] علي بن الحسين سمي زين العابدين؛ لأنه كان يصلي حتى أخذ السجود في أنفه وجهته وسمة، فإذا خرج إلى الناس ورأوا وجهه تذكروا الله عز وجل، فقالوا: لا إله إلا الله.

ولما حضرته الوفاة أتوا يغسلونه -كما يقول أبو نعيم الأصفهاني والذهبي وابن كثير- فوجدوا في كتفه أثر الحبل، كأنه حبل أثر في كتفه، فسألوا أهله فقالوا: والله إن هذا وسم ما كان يحمل للفقراء، كان يصلي فإذا أظلم الليل قام فأخذ حمول التمر والزبيب والحب وحمله إلى فقراء المدينة حتى يأتي الفجر.

فهذا هو علي بن الحسين الذي يقول فيه الفرزدق:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

لما رآه داخلاً الحرم وقد ازدحم الناس، وما استطاع هشام بن عبد الملك أن يطوف، فتأخر إلى زمزم وجلس على كرسي وهو خليفة، فلما رأوا علي بن الحسين وأقبل بوجهه كأنه فلقة قمر وبيده خيزران وعليه ثيابه، فلما رأوه انقشعوا عن وجهه وأخذوا يفسحون له الطريق ويدعون له ويسلمون عليه، فأخذ يطوف فقال أهل الشام له هشام بن عبد الملك: من هذا ما عرفناه؟ قال: ما عرفته.

مع أنه يعرفه، لكنه حدسه وغمط حقه، فقام الفرزدق، فقال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا

إلى أن قال:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم

يقول: أنه ما يعرف (لا) إلا في لا إله إلا الله، أما في غيرها فلا يعرفها.

ضيق الحال عند الصحابة

فقد كان الصحابة في أول الإسلام في ضيق حالٍ حتى آخر خلافة عمر رضي الله عنه، فكانوا لا يشبعون في غالب الأوقات من التمر، حتى وقف عمر رضي الله عنه في

آخر خلافته فجلس على المنبر وبكى ثم رفع رأسه وقال: أيها الناس! أما يُغدى على أحدكم بجفنة مكللة بالثريد، ويراح بجفنة مكللة بالثريد؟ قالوا: بلى.

قال: والله الذي لا إله إلا هو لقد كنا نتلوى في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجد أحدنا ما يملأ بطنه من رديء التمر.

وكان يمتنع عن الملاذ رضي الله عنه؛ لأنه عاش في شظف عيش.

فلما أطل عصر عثمان أقبلت الدنيا والموائد والمطاعم والمشارب، وتوسع الناس، وبقي أهل العهد على عهدهم، ومنهم من توسع وأراد بتوسعه وجه الله عز وجل، ولذلك ذكروا في سيرة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأرضاه: أنه ذهب يعتمر، فلما أصبح في عسفان قدم له إفطاره، وكان إفطاره طير مشوي وشيء من اللحم، فلما قدموه قال: يا سبحان الله! يقتل حمزة ولا يلقى ما يكفن به، ويقتل مصعب ولا يلقى ما يكفن به، وأفطر على هذا! ثم بكى حتى رفع إفطاره ولم يفطر.

ويقول سعد رضي الله عنه وأرضاه، وهذا في صحيح البخاري في كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتخلّهم عن الدنيا) قال سعد: [[والله الذي لا إله إلا هو لقد مر بي زمن يوم أسلمت ما كان لي من طعام إلا ورق الشجر، وإن أحدنا ليأكل ثم يضع كما تضع الشاة ماله خلط، ثم أصبح بنو أسد يعزروني على الإسلام، خبت إذن وخسرت]].

يقول: أسلمت وأكلت أوراق الشجر، وأنا صابر محتسب على الإسلام، وأدخلت الناس من هذه القبيلة في الإسلام بهذا السيف، ثم يأتي أهل هذه القبيلة الذين أدخلتهم في الإسلام ويقولون: أني لا أحسن أصلي.

والسبب في ذلك: أن أهل الكوفة -بني أسد- ذهبوا إلى عمر فقالوا: نشكو إليك سعداً.

كلما ولي عليهم عمر والياً شكوه، ما يبقى فهم إلا أسبوعاً ويقدمون فيه شكوى.

فقال عمر: ماذا حدث؟ قالوا: ما يحسن يصلي.

قال عمر: سبحان الله! أبو إسحاق ما يحسن يصلي! قالوا: نعم.

لا يحسن يصلي.

فدعمر رضي الله عنه ما استخدم ظنه، وإنما أراد أن يتبين بالدلائل والحقائق والعلم، فأتى بسعد وأجلسهم أمامه وقال: إنهم شكوك في كل شيء حتى في الصلاة، فكيف تصلي؟ قال سعد: يا سبحان الله! والله لقد مر بي زمن ما كان لي من طعام إلا ورق الشجر، والله لقد كنت ربع الإسلام -أي: رابع أربعة في الإسلام- والله لقد أدخلتهم -بني أسد- في الإسلام بسيفي هذا، ثم يعيرونني أني لا أحسن أصلي، أما أنا فأركد في الأوليين -أي: في الركعة الأولى والثانية- وأحذف في الآخرين.

فقال عمر: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق! ثم قام أهل العراق فقالوا: أرسل معنا من تسأله عنا وعن سعد -والقصة لا بأس بإيرادها- فأرسل معهم محمد بن مسلمة، فلما وصل ما ترك مسجداً من مساجدهم إلا ويسألهم عن سعد، فيثنون عليه خيراً ويدعون له، حتى وصل إلى رجل معثر شقي في مسجد من مساجد بني عبس في طرف

الكوفة فسأله، فقال: إن سألتُمونا فوالله! إن سعداً لا يمشي مع السرية، ولا يعدل في القضية، ولا يقسم بالسوية.

فرفع سعد يديه واستقبل القبلة وقال: اللهم إن كان قام رياءً وسمعةً كاذباً علي فأطل عمره وعرضه للفتن.

وفي روايةٍ عند عبد الملك -أحد الرواة- وأكثر ماله وولده وعرضه للفتن.

فطال عمر هذا الرجل حتى سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وأخذ يتعرض للجواري في سكك الكوفة يغمزهن بيديه، ويقول: شيخ مفتون أصابني دعوة سعد.

لأن الله علم أن سعداً صادق وأنه يريد، وأن دعوته مستجابة، فكان سعد على هذه الحالة، وغيره من الصحابة كثير يتحدثون عن هذا.

يقول أبو موسى رضي الله عنه: [[والله لقد رافقت رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع فكنت أَلْفَ القماش على قدمي حتى تساقطت أظفاري في الأرض]] ثم ترك هذا الحديث في آخر عمره فما أصبح يحدث به، وخاف أن يكشف للناس عملاً يريد أن يكون بينه وبين الله عز وجل.

إذن فالصحابة إلى آخر عهد عمر رضي الله عنه كان غالب وقتهم الشظف في العيش والخشونة والفقر، ولكن يغنيهم الله عز وجل من خزائنه لما أعد لهم من ثواب وأجر عميم عنده سبحانه وتعالى.

حماية الله لبيته

أعلن أبرهة القدوم إلى الكعبة، فلما أصبح في وادي محسر قال للجيش: وجهوا الفيل "محمود" إلى الكعبة، فكلما وجهوه رد رأسه إلى غير الكعبة، فيضربونه فيلزم مكانه، فيوجهونه يمنة ويسرة وخلفاً فيعود ويمشي، فإذا وجهوه إلى البيت العتيق برك مكانه، ضربه ووخزه بالسيف والرمح فأبى، لأن الله أنزل في خلقه أن هذا البيت بيته، وأن هذه كعبته لا يمكن أن يتجرأ عليها معتدٍ أو يهجم عليها غاشم، سبحانه الله!

وبينما هم يحاولون مع الفيل في وادي محسر في المغمس وإذا بالله عز وجل من فوق سبع سموات لم يقاتل أبرهة بجنود ولا بملائكة؛ فأبرهة أقل وأذل وأضل من أن يقاتل بجنود، ولم يرسل عليه طوفاناً فهو ذليل خسيس حقير، ولم يأمر الجبال أن تصطدم عليه فهو حقيرٌ وصغيرٌ، ولم يزلزل عليه الأرض لأن سنة الله في الجبابرة والكفار أن يحاربهم بأصغر الحشرات، فقد حارب فرعون بالجراد والقمل والضفادع، وحارب النمرود بالبعوض، وأما أبرهة فأمر الله طيراً أتت من البحر كالخطاطيف واحدها أبيل، وهي طيور كثيرة خرجت من صباح ذلك اليوم الذي أعلن فيه أبرهة الهجوم على بيت الله، وأخذت ترسم طلعات على سماء مكة لتري مواقع العدو الفاجر وأعداء الله الخاسرين، وعادت لتقصف مواقع الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

قال ابن عباس: [[كانت طيراً خضراً يحمل كل طائر ثلاثة من الحجارة: حجرين في أرجلها وحجر في منقارها، فإذا أصبح فوق الجيش أطلق وصاح بصوت له أزيز في السماء فتقع الحجارة وعليها أسماء جنود أبرهة لئلا يأخذ أحد غير نصيبه]] كل بقسطه وحظه وجائزته التي ألحقت به العار والشنار واللعنة والمقت، وأخذت الطير من البحر تقف كالخطاطيف، وأهل مكة يصيحون مذهولين مما رأوا من العجب

العجاب! وأخذت الطيور تغطي الشمس عن الناس حتى أصبحت كالسحب المتكاثفة أو كالغمام، وأما الحجارة فأخذت تنزل بعمق.

يقول مجاهد: [[لا تنزل في رأس الكافر إلا نزلت من دبره، ولا تأتي من جنبه إلا نزلت من الجنب الآخر]].

سبحان الله! ما أعظم الله وما أجله يا أهل الجزيرة! كيف منعكم وحماكم؟ كيف أعلى بيتكم ورد المعتدي على الكعبة فلماذا لا تشكرونه؟

أبعد هذه المننة من منة؟! لا والله.

وقتل الجيش وأصبح بعضه على بعض كالعصيف وهو الزرع إذا عصف وأكل وديس بالأرجل - أما أبرهة الأشرم فعاد وأصبح يتقطع في الطريق إصبعاً إصبعاً وقطعةً قطعةً حتى ما وصل اليمن إلا وهو كفرخ الطائر، ولما وصل صنعاء أخذ المرض ينخر قلبه حتى مات وهو كالعصفور.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: ١] ألم تر قوة الله وعظمته؟

ألم تر يا محمد! ويا كل مكلف مسلم! ماذا فعل الله بالأعداء؟ كيف دمرهم وقطع دابرهم؟

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: ١] ولم يقل: أصحاب أبرهة، ف أبرهة حقير لا يذكر في مثل هذه المواطن، إنما جعلوا رئيسهم الفيل فهو صاحبهم وقائدهم، وقد ضل من كان قائده فيله وحماره وثوره؟ {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ [الفيل: ١ - ٢] في تباب وضلال وخسار

{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}
[الفيل: ٤ - ٥].

هذه قصة من قصص التاريخ التي أثبتها القرآن وذكر الله بها المسلمين وأهل الجزيرة، وكأن الله يقول لهم: "الله هو الذي بنى لكم البيت، ورد عنكم المستعمر، وقتل الأجنبي الكافر، فلماذا لا تعبدونه؟! ولماذا لا توحّدونه؟! ولماذا لا تشكرونه؟!

فيا أهل البيت العتيق! ويا خدمة بيوت الله! ويا من عاش في مهبط الوحي! ويا جيرة بيت الله! اتقوا الله في أنفسكم، واذكروا نعم الله عليكم ولا تخافوا على هذه المقدسات فالله يحميها، لكن احموا أنفسكم بالطاعة، ووحّدوا الله واشكروه فلا خوف على بيوت الله، فإنه يحميها، لكن الخوف عليكم أنتم من معاصيكم وتعديكم لحدود الله، واقترافكم لمحرمات الله.

الإعجاب بحضارة الكفر

اجلس مع المسمومين فكرياً المنهزمين روحياً، وقل حدثني عن أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا، أتريد أن يحدثك عن الانفصام الأسري الذي يعيشه الغرب؟! الانفصام الأسري الذي تحدث عنه سيد قطب وأبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي في ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ أتظن أنه سوف يتحدث لك عن قيمة رخص الإنسان هناك وعن ارتفاع قيمة الكلب؟

أصبح الكلب يغسل ويطيب وتعلق السلاسل في عنقه ويجلس مع السائق في السيارة! يحدثك عن المسارح التي أصبحت المرأة فيها أقل من الحذاء، وأرخص من الصفر، وأصبحت زانية عاهرة في كل مكان؟ يحدثك عن الانتحار؟ قرأت وما أزال أقرأ، وأنا معجب بذلك الكتاب، وعسى الله أن يعينني أو بعض طلبة العلم على أن

أنسج على منواله، مذكرة وهو كتاب دع القلق وابدأ الحياة الذي ألفه دايل كارنيجي اللماح الذكي، فهو كتاب أعجب من العجب، بيع منه ثمانية ملايين نسخة، وطبع ست عشرة طبعة، ويتحدث عن المأساة التي يعيشها الغرب هناك وعن حالات الانتحار، أظنه يقول: في كم ثانية تحصل حالة انتحار في أمريكا، وعد في ولاية تكساس كم عدد الذين ينتحرون، وبإمكانكم أن تراجعوا هذا الكتاب، وهو يدعو إلى الإيمان، لكن على طريقة المسيحيين.

ومحمد الغزالي المفكر العصري له كتاب اسمه جدد حياتك حاول أن ينسج على منواله وللشيخ عبد الرحمن السعدي العلامة الكبير -رحمه الله- كتاب اسمه الوسائل المفيدة للحياة السعيدة.

وفي نظري أن كتاب دع القلق، يحتاج هذا إلى أن تؤخذ الأحكام التي فيه والقواعد والتجارب التي أتى بها علماء الغرب مثل وليم جيمس وألكسس كارل، وغيرهم وتوضع مع الأحاديث النبوية والقصص والآيات ثم تقدم في كتاب، وإن شاء الله يحصل هذا.

ومقصودي من هذا: أن هؤلاء لا يتحدثون عن الانتحار، أو الزنا، أو الفحش، أو التدمير الذي بلغه أولئك، لكن يحدثونك عن ناطحات السحاب.

يقول: في تكساس عمارة ارتفاعها مائة وستة وخمسون دوراً، وهناك في الأرض ممرات أرضية، وضغطنا لأحد الأزارار فنقلنا مرة واحدة أربعين دوراً، وننزل في عربية وتحملنا إلى القطار، وهناك الطائرة لا تحجز من قبل، تأخذ أنت كأنك في سيارة تذكرة وتركب.

وحضاراتهم من أكثر من مائتي سنة، ويذيع أنهم تطوروا تطوراً عجيبيّاً.

لكن لماذا يعجب بحضارة الكافر المادية، ولا يخبرنا بما بلغوا إليه من التبردي في الروح؟ يقول الله: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧] والله يقول عنهم: {بَلِ ادَّارِكُ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا هُمْ عَنْهَا مُخِطَرُونَ} [النمل: ٦٦] ويقول سبحانه عن حضارتهم: {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَنَكَّبُونَ} * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

خذوا كل دنياكم واتركوا فؤادي حرّاً طليقاً غريباً

فإني أعظمكم ثروة وإن خلتُموني وحيداً سليباً

يعجبون بحضارة الكافر، والله يقول: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ} [التوبة: ٥٥]؟! أتعجب من إنسان ما عرف مصيره؟! يعملون هم لستين سنة فقط لكن عالم الغيب لا يعرفونه، فهم محجوبون عنه تماماً، فأني حضارة تنبني على كفر وإلحاد لا خير فيهما.

ومن أحسن الكتب التي ألفت في هذا الباب كتاب أبي الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين فهو من أروع ما كتب! على يد رجل جرب الثقافة الغربية وعرفها، ومن أحسن من يتحدث عنها رجلان: أديب شاعر ومفكر كاتب؛ أما المفكر الكاتب فسيد قطب في الظلال، وأما الأديب الشاعر فمحمد إقبال، وكلا الرجلين

توافقاً حتى يقول سيد قطب: ربما توافقنا حتى في الألفاظ، وكلا الرجلين سافر إلى الغرب ودرس هناك وحضر شهادته من هناك، ولكنه عاد بقضية أن الإسلام هو دين الله الحق في الأرض، وأنه لا سعادة للإنسان إلا بالإسلام.

أخبرنا بعض الأساتذة الدعاة الكبار أن رجلاً إنجليزياً من بريطانيا كلف بأن يبحث بحثاً للدكتوراة في كتب التفسير، وأخذوا عليه موثقاً ألا يقرأ الظلال لـ سيد قطب، يقولون اقرأ التفاسير كلها: تفسير الخازن وفتح القدير لـ الشوكاني وتفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير وتفسير الطبري، لكن احذر الظلال فهو ليس من مهمتك، وأحب شيء إلى الإنسان ما منع منه، فأنت إذا منعت الطالب أن ينظر إلى النافذة في وسط الحصة جلس دائماً ينظر إلى النافذة كلما غفلت عنه، اترك طفلك في الغرفة، ولا تقل له: لا تخرج فسوف يبقى، لكن قل له: لا تخرج، ولئن خرجت لأضربك فسوف يخرج.

يقول علي بن أبي طالب: [[لو منع الناس من فت البعر لفتوه]] يعني: لو أتيت الناس تخطب يوم الجمعة تقول: لا تفتوا البعر فهذا حرام؛ لخرجوا من المسجد وفتوه، وقالوا: ماذا فيه؟ أي أن الإنسان مغرم بالمخالفة فأتى هذا الرجل، فقال: لماذا منعوني من سيد قطب في الظلال وذهب إلى القاهرة، وأتى أول ما أتى المكتبة قال: أين الظلال لـ سيد قطب؟ قالوا: هذا هو، وكان يجيد اللغة العربية فقرأ لرجل يستفيض إلهامات، فقد درس سيد قطب ثقافة موسكو بل جلس فيها فترة، وفي دنفر فترة، وفي أوروبا فترة، فتكلم معه وحاوره في الكتاب -وسيد قطب قتل كما تعرفون- وبعد ما وصل سورة الأنفال أعلن هذا الرجل إسلامه، وألغى رسالته، وأنا أدلكم أن تقرأوا هذا الكتاب كثيراً.

تحريم الظلم

عن أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: {يقول الله عز وجل: يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي! كلكم ضالٌّ إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي! كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي! إنكم تذبذبون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحدٍ منكم؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسأله؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي! إنما هي أعمالكم أوفيها لكم ثم أجزيكم بها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه} رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه.

وهذا حديث شريف، وهو أشرف حديث لأهل الشام وأهل سوريا، وهذا الحديث قاعدة من قواعد الإسلام وأصل من أصول الدين، وكان التابعون إذا حدثوا به جلسوا على ركبهم من عظمه.

وأكبر قضية في هذا الحديث أن الله عز وجل حرم الظلم على نفسه وجعله بين الناس محرماً، فقال عز من قائل: {وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ} [آل عمران: ١٠٨] وقال تبارك وتعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [فصلت: ٤٦].

فالظلم حرمه سبحانه على نفسه، فلا يظلم ولا يهضم، والظلم أن يزيد في سيئات من لم يسيئ، والهضم أن ينقص من حسنات من أحسن، قال عز من قائل: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [طه: ١١٢] والظلم من شيم العبد.

والله عز وجل حذر العباد من الظلم، فأظلم الظالمين هو العبد الذي يشرك بالله، قال الله: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ٨٢] قال الصحابة: يا رسول الله! كلفنا من الأعمال ما نطيق، فأينا لم يظلم نفسه؟! قال: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] وعلم الله عز وجل لقمان أن يقول لابنه: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] ووصف الله العبد بأنه ظالم، فقال: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢] فالعبد ظالم مع الله وظالم مع نفسه وظالم مع الناس.

أما مع الله فصح من الحديث القدسي أن الله سبحانه وتعالى قال: {عجبا لك يا بن آدم ما أنصفتني! -أي ما عدلت بيني وبينك- خلقتك وتعبد غيري، ورزقتك وتشكر سواي، أتحب إليك بالنعم وأنا غني عنك، وتتبغض إليّ بالمعاصي وأنت فقير إليّ، خيري إليك نازل وشرك إليّ صاعد} وصح في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {يقول الله تبارك وتعالى: يسبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، ويشتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، أما سبه إياي فيدعي أن لي صاحبة وولدا وما اتخذت صاحبة ولا ولداً، وأما شتمه إياي فإنه يشتم الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار كيف أشاء}.

وحذر صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح من الظلم بين الناس فقال صلى الله عليه وسلم: {من اغتصب مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان، قالوا: ولو كان

شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: ولو كان قضيباً من أراك {أي ولو كان سواك} وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {من ظلم من الأرض قيد شبر طوقه يوم القيامة من سبع أرضين}.

ابن تيمية والزهد في السلطة

مسكين من عاش لغير الله، فقير من لا يعرف السجود لله، فقير من لم يغنه الله عز وجل بتقواه.

ابن تيمية شيخ الإسلام -رحم الله تلك العظام- دخل على أحد السلاطين، ابن قطلوبغا فقال له ابن قطلوبغا: يا بن تيمية يزعم الناس أنك تريد ملكنا، فتبسم ابن تيمية، وقال: سبحان الله، ملكك؟! قال: نعم، يزعم الناس أنك تريد ملكنا، قال: والله الذي لا إله إلا هو ما ملكك وملك أبيك وجدك يساوي عندي فلساً واحداً.

ابن تيمية يريد جنة عرضها السماوات والأرض، يريد النظر إلى وجه الأحد الواحد، ويريد النعيم المقيم، أما دنيا البطون والسيارات، ودنيا المظاهر الكاذبة، والشهرة الآثمة، فلا يريدوها: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {هود: ١٥ - ١٦}.

عبد الملك بن مروان عند الموت

ذكر الذهبي في ترجمة عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، أنه لما تولى الخلافة، وكان عبد الملك عالماً من العلماء، بل كانوا يعدونه من الفقهاء السبعة في بعض الروايات، فكان فقيهاً، عالماً، عابداً، فلما تولى الخلافة سل السيف وسفك دماء الأمة، يقولون: أول ما بويع بالخلافة أخذ كتاب الله عز وجل ثم نشره، ثم قرأ فيه قليلاً ثم

طبقه، وقال: هذا آخر العهد بك، قال الذهبي معلقاً: اللهم لا تمكر بنا، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، فأدركه الخذلان -والعياذ بالله- لما مكنه الله في الأرض.

ولذلك لما أتته سكرات الموت بكى طويلاً ونزل من على سرير الملك، ونزل إلى الأرض، فمرغ وجهه في التراب، وبكى وقال: يا ليت أُمي لم تلدني! يا ليتني ما عرفت الحياة! يا ليتني ما توليت الخلافة! فسمع وهو في سكرات الموت؛ غسلاً يغسل الملابس، لا يحمل هم الأمة، ولا أي هم، ولا خاف من الظلم ولا الإجحاف، فكان يغني؛ لأن أسعد الناس أهل المهن الحرفية، تجد أحدهم كأنه يملك الدنيا بين يديه، فأنت إذا رأيت الخباز وهو على الفرن يترنم كأنه المتنبي:

أنا الذي نظر الأعشى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

الخيال والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فهو يتغنى لأنه ليس على ظهره هموم، مشغلتة في يده، فسمع الغسال يترنم، فقال عبد الملك: يا ليتني ما عرفت الحياة! يا ليتني كنت غسلاً! قال سعيد بن المسيب -أحد علماء التابعين- لما سمع هذا الكلام: [[الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا وقت الممات، ولا نفر إليهم]].

وإنما يتذكر قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} [فاطر: ٣٧] لمن عقل وفهم عن الله عز وجل، أما الذي غلبه هواه فهذا لا يسمع الآيات، ولا يستفيد من المواعظ، ولو أسمعته خطب ومواعظ ومحاضرات الدنيا لا يستفيق أبداً.

قصة سليمان عليه السلام والفلاح

ذكر ابن القيم في كتاب الفوائد أن سليمان عليه السلام، قال: "تعلمنا مما تعلم الناس ومما لم يتعلموا فما وجدنا كتقوى الله".

وقال عون بن عبد الله لزملائه وهو يودعهم: أوصيكم بوصية: عليكم بتقوى الله فإن المتقي لا وحشة عليه.

ولذلك فإن القليل من العمل الصالح يعادل جبلاً من جبال ونعيم الدنيا لو كانت في ميزان الحسنات.

ونذكر هنا قصة سليمان عليه السلام مع الفلاح: كان سليمان عليه السلام كان عنده مُلكُ الدنيا خيولها، ووحوشها، وطيورها فسخرها الله له، عمل مهرجاناً ذات يوم فاستعرض الدنيا، وخيولها، ووحوشها، وطيورها، ثم مرت به الخيل فأشغلته عن صلاة العصر، قال بعض العلماء: فأخذ السيف فقتل الخيل جميعاً، وتصدق بلحومها؛ لأن لحوم الخيل يجوز أكلها.

وقالوا: بل مسح مسحاً -مر بيده- على أكتافها وأذناها وأعتقها أو تصدق بها في سبيل الله، فعوضه الله عز وجل -لما علم حرصه على صلاة العصر- بالريح بدل الخيل، فسخرها له، فكان إذا أراد أن ينتقل من مكان إلى مكان قال للريح: يا ريح! أريد تلك الأرض فانقليني إليها، ومهما بلغت الصناعات أو التقدم العلمي فإنه لا يصل إلى هذا المستوى، فكان يقول للريح: تعالي.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {غُدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ} [سبأ: ١٢] أي: أن مسيرها في الصباح تقطع مسافة شهر، وإذا عادت فإنها تعود مسيرة شهر.

ومرة من المرات أراد بلاد الهند وكان مقيماً في فلسطين، فقال للريح: أريد الهند، فأتت: {فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} [ص:٣٦] معنى رخاء حيث أصاب، أي: أنه إذا أراد أرضاً فلا تنزله بسرعة فتحطمه، بل تقلل من سرعتها (رخاء) رويداً رويداً (حيث أصاب) حيث أراد.

وقال أهل العلم في قوله: (حيث أصاب) حيث أراد، فهو إذا أراد هذه البقعة فلا تنزله في البقعة الأخرى، فإذا أراد الطائف فلا تنزله في جدة، وإذا أراد الرياض فلا تنزله في الدمام.

(حيث أصاب) أي: حيث أراد بنيته، فهي ريح بكاء صماء، لكن الله سخرها له.

فقال: أريد الهند، فنقلته ومعه حاشيته وأمرأوه ووزراؤه، فلما أصبح بين الأرض والسماء، قالوا: لاح له ثوبه، وكان عليه ثوبٌ جميل فالتفت إليه، فأرادت نفسه أن تعجبه، فأوحى الله إليه: يا سليمان! وعزتي وجلالي لو أعجبتك نفسك لأمرت الريح أن تحطمك في الأرض.

والأنبياء معصومون لكن هذا إنذار من الله عزوجل.

فلما مر حجب الشمس عن فلاح، وهو فلاح في الأرض معه مسحة يزرع بها، ولا يعلم عن هذا الملك العظيم ولا عن الريح، فهو فلاح في الأرض لكنه موصول القلب بالله عزوجل، ويعرف الله عزوجل.

وتقدم الحياة والقلب هو بمعرفتك بالله الواحد الأحد، وانطماس وظلمة القلب هو ألا تعرف الله ولو كنت في ناطحات السحاب: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: ٤٤] ويقول سبحانه وتعالى عن الكفار الذين ملكوا الدنيا: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩] وقال سبحانه وتعالى عن قوة الكافر، وجماله وديناه: {وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتَهُمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَزُخْرُفٌ * وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٣٣- ٣٥] مر سليمان عليه السلام فحجب الشمس عن الفلاح، فنظر الفلاح فرأى سليمان على بساط الريح، وكانت الريح تعمل بنفسها بساطاً، فقال الفلاح: سبحان الله! لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، فذهبت الكلمة؛ لأن هذه الكلمة -سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر- لا تنزل في الأرض بل تصعد في السماء، والدليل على أنها تصعد هو قوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠].

الكلمات الطيبة تتجه إلى الله الواحد الأحد، أما الكلمات الخبيثة: اللعن الشتم البذاء الغيبة النميمة الزور، فإلى سجين وهي محسوبة على العبد، أما الكلمات الطيبة، فقال سبحانه وتعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: ١٠].

ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام: {إن لتسبيح العبد المسلم دوي كدوي النحل حول العرش} وهذا الحديث في سننه نظر، وورد في حديث آخر يورده أهل العلم في فضل القرآن: {أن القرآن في آخر الزمان يعود من قلوب الناس فيكون له دوي كدوي النحل، فيقول الله: عد إلى صدور الناس، قال: يا رب! كيف أعود إلى أناس هجروني

بالنهار بالعمل، وهجروني في الليل، وتوسدونني عند رءوسهم، فيقبضه الله من قلوب العباد} وهو من علامات الساعة، وهذا الحديث ولو أن سنده لا يقوم، لكن دلائل وقواعد الإسلام تؤيده فهو من علامات الساعة.

قال الفلاح: سبحان الله! لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، فسمع سليمان الكلمة فقال للفلاح -وقد هبط عند الفلاح-: ماذا قلت؟ قال: مررت بي فرأيت ملكك فأعجبني ملكك، فقلت: سبحان الله! لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً.

فقال سليمان: والذي نفسي بيده! لقولك: سبحان الله خير مما أوتي آل داود.

ويؤيد ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس}.

فلذلك رفع الله إدريس عليه السلام مكاناً علياً.

وقد كان إدريس عليه السلام خياطاً يخييط بالإبرة ويبيع على الناس وهو نبي مرسل، وزكريا عليه السلام كان نجاراً، وداود عليه السلام كان حداداً، فلما علم الله تواضعهم رفعهم سبحانه، أما إدريس فقال الله عز وجل: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً} [مريم: ٥٧] يقولون: كان عندما يدخل الإبرة ويخرجها يقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ثم يخرج الإبرة، فأوحى الله إليه: يا إدريس! وعزتي وجلالي لأرفعنك مكاناً علياً، قال: يا رب! بماذا وأنا مذنب؟! -أي: معترف بالتقصير- قال: إنه يُرفع عملك مع عمل أهل الدنيا، فيعادل عملك نصف عمل أهل الدنيا بالتسبيح والتلهيل.

كرامة وقعت للعلاء الحضرمي

خرج العلاء الحضرمي؛ أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولما أصبح في الربع الخالي؛ توسط بجيشه يريد البحرين، لكنه ضل وأضاع الطريق، ذهب يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً وفي الأخير ضاع، وأتاهم من الظمأ ما لا يعلمه إلا الله، فقال له أصحابه: [[يا علاء! إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعَدْنَا خَيْراً في أمة محمد، ولا يمكن أن نهلك]] سبحانه الله! أهلكهم ضمأ فمَنْ يُشْرِبْ إذن؟ ومهلكون جوعاً، فمَنْ يشبع إذن؟ ويضيعون إذاً فمَنْ يحفظ إذن؟

فقالوا: [[ادع الله عز وجل، فتوجه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كلمات مختصرة، يقول: يا حكيم يا عليم! يا علي يا عظيم! اللهم أغثنا، قالوا: فوالله، ما انتهى من كلامه إلا وجاءت سحابة مباشرة فتوسطت الجيش، وغطت سماء الجيش، ثم أرعدت وأمطرت، حتى سقوا، وشربوا، وغسلوا، وتوضئوا ثم ارتفعت]] انظروا إلى هذه الكرامة العظيمة التي ما بعدها كرامة! ولورأها أهل موسكو لأسلموا ولآمنوا ولصلوا صلاة الضحى ذاك اليوم، لكن حكمة بالغة وقدرة عظيمة، قال تعالى: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان: ٤٣].

سعد بن أبي وقاص يتجاوز النهر بالخيول

يقولون: إن سعداً رضي الله عنه حال نهر بين جيشه وجيش فارس، وأراد رضي الله عنه أن يدخل جيش فارس ويتجاوز الجسور، فقطعوا الجسور، فاضطرب رضي الله عنه هل تتوقف المعركة أو لا؟! وفي الأخير ألهمه الله عز وجل وقال: [[يا خيل الله! اركبي]] وسمع الخيول سعد بن أبي وقاص، والخيول لا تفهم كلام الناس، لكن لما جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم من البركة، ولما وهب لهم من الكرامة، أسمع الخيول صوت سعد؛ فتوجهت الخيول وكأنها مأمورة تفتحهم بأصحابها النهر، وجمد الله النهر فلا هو بالثلج

فتقع من عليه، ولا هو بالماء فتغرق فيه، ولكن جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كالتراب تمشي بحكمة بالغة حتى نفذ الجيش إلى الجهة الأخرى، ولما انتهوا إلى الناحية الأخرى قال الرجل منهم: أتفتقدون شيئاً؟ قال رجل: أفقد المخلاة؛ يعني: المخلاة أظن فيها خبز كثير، قال: عد إليها، فعاد إليها فإذا هي متعلقة بشجرة في داخل النهر، فأخذها وعاد، هذه كلها من رعاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحسن توفيقه لأوليائه.

حياة وميلاد المؤمن بتقوى الله

كثير من الناس يظن أن معنى الحياة أن يأكل ويشرب، ويتمتع ويركب، ويسكن ويتكلم، وينام ويقوم، إنَّ حصر مفهوم الحياة في هذه الأمور يعني الحياة الهيمية - فالكافر وهو كافر يأكل ويشرب ويتمتع، ويركب ويسكن ويقوم وينام، لكنه كافر - لأن معنى الحياة أن تخرج من الضلالة إلى النور، ومن الغواية إلى الهداية، وأن تنقذ نفسك بتقوى الله من غضب الله، ولذلك يقول عز من قائل: {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} [الأنعام: ١٢٢] أو من كان ميتاً في شهوته، وفي ضلالته، وفي عمايته، وفي غوايته - يتبع كل ناعق - كمن أحياه الله بالإيمان وبلا إله إلا الله، وشرح صدره لهذا الدين، وجعل له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نوراً وبَصَرَهُ، وعَلَّمَهُ كيف يعيش ولماذا يعيش، وإلى أين يسير.

ولذلك يقول ابن تيمية رحمه الله: "من اعتقد أنه سوف يهتدي بغير هدى الله الذي أنزل في كتابه، وأرسل به رسوله صلى الله عليه وسلم، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً" لأن المؤمن يعيش مرتين، أو يولد مرتين، والكافر يموت مرتين، فميلاد المؤمن يوم أتت به أمه يوم عرف الحياة، يوم نزل وأول ما وصل رأسه إلى الأرض، فأتى يبكي من ظلم الحياة ومن غوايتها ومما سوف

يواجهه من مصاعب ومن مشاكل، ولذلك يذكر ابن كثير في ترجمة زكريا عليه السلام في البداية:

ولدتك أمك يابن آدم باكياً والناس حولك يضحكون سرورا

فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

ولدتك أمك باكياً والناس حولك يضحكون سروراً لمجيئك، فأنقذ نفسك قبل أن تأتيك سكرات الموت وقبل أن يأتيك وعد الله واليوم الموعود وتشتد عليك السكرات، فأنقذ نفسك لتبتسم في تلك الساعة، ولذلك يقول الله عز وجل في هذه الساعة: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧] ويقول عز من قائل: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَوْنَ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ} * نَزَّلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ [فصلت: ٣٠ - ٣٢] فالحياة كل الحياة أن تحيا بالقرآن وبالإيمان فهذه هي الحياة الثانية أو المولد الثاني.

تعريف الصحابة للتقوى

قيل: يا بن مسعود! ما هو حق تقاة الله؟ قال: [[أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر]] أن يطاع الله فلا يعصى، هذا حق تقواه عز وجل، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، فمن كفر نعمة الله فما اتقى الله، ومن عصى الله فما اتقاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن نسيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أنساه الله نفسه، ومستقبله، وولده، وبيته، وأسرته، ومكتبه، ومنصبه في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولذلك يقول عز

من قائل: {وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٨١].

وقف أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، وهو -كما يقول ابن كثير - في عهده (بعد موت عثمان) أزهى الناس، وأخشى الناس، وأعلم الناس؛ لأنه تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقف على منبر الكوفة، فسئل عن التقوى؟ قال: [[هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل]] اسمع لكلمات النور وحرارة الإيمان التي بعثها جيل محمد صلى الله عليه وسلم في قلوب الناس، هي الخوف من الجليل، والجليل هو الله، والعمل بالتنزيل، فالذي يتقي الله ثم لا يعرف ماذا يتقي ولا تكون تقواه على بصيرة من الكتاب والسنة ما اتقى الله.

والرضا بالقليل، ألا تكون الدنيا أكبر همك، بل ترضى منها ما يكفيك؛ كالمسافر إذا أراد سفراً، والاستعداد ليوم الرحيل، هذا هو تعريفها عند علي رضي الله عنه وأرضاه.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يسأل عن التقوى، وقبل أن نأتي لسؤال عمر نقف مع عمر وقفة قصيرة:

عمر أحياء الله عز وجل وولد مرة ثانية في الحياة الدنيا، لأنه -كما أسلفت- أن مولد الكافر مولداً واحداً، لكن موته مرتين، فعمر عاش رضي الله عنه قبل أن يسلم في الجاهلية لم يكن يعرف إلى أين يتجه ولماذا يعيش؟ كما يعيش كثير من الناس اليوم.

كثير من الناس اليوم يعيشون على الطعام والشراب، وعلى المنام والكلام، ولكنهم لا يعرفون معنى الحياة، يظنون أنها كأس، ومتعة، ولهو، وغناء، وطرب، وبعد عن الله عز وجل.

فلما أراد الله أن يحيي قلب عمر رضي الله عنه.

أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك القول العظيم بكتاب الله الكريم، فسمع عمر رضي الله عنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: ١- ٢] فاهتز لهذه الكلمات وسقطت كل ذرة من ذرات الشرك من جسمه، وأتى إيماناً كاملاً من أخصص قدميه إلى مشاش رأسه، فذهب ليبياع الرسول صلى الله عليه وسلم، وانضم إلى هذا الموكب الكريم الذي يتصل أول سنده بنوح عليه السلام، وآخر السند بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى آخر مؤمن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

مع سعد بن أبي وقاص

لما اتقى الله وكان قائد جيش المسلمين في مواجهة كسرى، جاء كسرى بثلاثمائة ألف مقاتل، وجاء سعد بثلاثين ألفاً.

ثلاثون ألفاً مقابل ثلاثمائة ألف، فلما تلاقى الجمعان، أرسل سعد أحد شباب الإسلام، ألا وهو ربيعي بن عامر، ذلك الشاب في الثلاثين من عمره، لا يملك من الدنيا شيئاً إلا ثوبه الذي عليه والرمح الذي بيده، والفرس التي يركبها، لكنه يملك أكبر طاقة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، طاقة لا إله إلا الله، وطاقة أنه يعرف الله، ويريد وجه الله، فدخل ربيعي على رستم، فلما رآه رستم ضحك وضحك وزراء رستم الكافر الذي ما عرف الله طرفة عين.

فقال لربي: أجتتم تفتتحون الدنيا بهذا الفرس المعقور، وبهذا الرمح المثلث، وبهذه الثياب الممزقة، فرفع ربي رأسه الذي رفعه محمد صلى الله عليه وسلم

فقال ربي: [[نعم، ابتعثنا الله، لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام]] وكانت الواقعة، ونصر الله جنوده الذين كانوا يسجدون له، ويركعون له ويسبحون بحمده، وهزم الله أعداءه الكفرة الملاحدة الفجرة.

ودخل سعد رضي الله عنه وقد فر كسرى صاحب الإمبراطورية العاتية، الذي ظن أنها لا تهزم أبد الدهر، فلما دخل سعد ورأى إيوان كسرى، إيوان العدوان، والظلم، والبغي، والفجور، قال سعد: الله أكبر، فانصدع الإيوان، انصدع كما يقول أهل السير، فدمعت عينا سعد فرحاً بموعد الله، وقال: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} [الدخان: ٢٥ - ٢٩].

لما اتقينا الله رفع الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- رءوسنا في القرون المفضلة، ونصرنا ومهد لنا الدنيا، وأعلى ذكرنا ورفع شامتنا، فلما داخلتنا المعاصي، داخلتنا الذلة، وأصبحنا منزوين مستضعفين مستذلين، أصبح هم الواحد منا -إلا من رحم الله- أن يملأ بطنه، وأن يقضي شهوة فرجه، وأن يسكن بيتاً وارفاً، وأن يركب سيارة فاخرة، أهذه أمنيات المسلم؟!

أهذا هو الطموح الذي يريده الله ويريد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! لا والله!!

مع عبد الله بن عمرو الأنصاري

كان يأتي الصحابي من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم قبل المعركة يقول لأهله: أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، لن أعود إليكم بعد اليوم، فعل ذلك كثير منهم، ومنهم: عبد الله بن عمرو الأنصاري، أحد الشباب الأخيار في المعركة الفاصلة بين الكفر والإيمان، التي شحذ لها أبو سفيان ثلاثة آلاف مقاتل، فلما التقوا في أحد في المدينة خرج أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وخرج معهم عبد الله بن عمرو الأنصاري واغتسل في صباح ذلك اليوم، وتطيب ولبس أكفانه، وأخذ سيفه، وقال لبناته: [[استودعكن الله الذي لا تضيع ودائعه، لا لقاء معكم إلا في جنة عرضها السماوات والأرض]] فلما أتى موعود الله وعلم الله عز وجل أن هؤلاء النفر يريدون وجهه، رزق الله هذا الرجل الشهادة في سبيله، قال ابنه جابر: {رأيت أبي وقد قُطِعَ أمام الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة أحد قال جابر: فجعلت أكشف عن وجهه وأبكي فقال لي رسول الله: تبكيه أو لا تبكيه ما زالت الملائكة تظلله بأجنحتها حتى رفعتموه} وفي تفسير ابن كثير بسند صحيح: {أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَلَمُ هَؤُلَاءِ النفر الشهداء - عبد الله بن عمرو وغيره من الشهداء- وقال: تمنوا علي -يقول: كلمهم الله بلا ترجمان مباشرة، قال: تمنوا علي- قالوا: نتمنى أن تعيدنا إلى الدنيا فنقتل فيك ثانية؟! لما وجدوا من طعم الشهادة ورفعتها وأجرها ومثوبتها- قال: إني كتبتُ على نفسي أنهم إلها لا يرجعون فتمنوا!! قالوا: نتمنى أن ترضى عنا فإننا قد رضىنا عنك، قال: فإنني قد أحللت رضاي عليكم فلا أسخط عليكم أبداً، قال الراوي: (قال صلى الله عليه وسلم: فأخذ الله أرواحهم، فجعلها في حواصل طيور خضر، ترد مياه الجنة فتشرب من أنهارها، وتأكُل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، حتى يرث الله الأرض ومن عليها).

يا لتلك التقوى التي عاشها أولئك النفر الصالح البار الراشد، الذي رباه محمد صلى الله عليه وسلم على سمع وبصر.

استجابة الله لدعاء المتقين

في صحيح البخاري في كتاب الصلاة أن أهل الكوفة وكان هو أميرهم، اشتكوه إلى عمر، اشتكوا سعداً إلى عمر الخليفة، شكوه حتى في الصلاة، قالوا: لا يحسن أن يصلي بنا، فيقول سعد مندهشاً متعجباً من هذا الأمر: يا عجباً لبني أسد يعيرونني حتى في الصلاة وأنا أدخلتهم في الإسلام بسيفي هذا!! وصدق رضي الله عنه فإنه هو وأمثاله من دعاة الحق الذين أدخل الله بهم كثيراً من الأمم في الإسلام، فلما وصلت الشكوى إلى عمر، أرسل عمر بعض الصحابة يستقصون الحقائق في العراق، فمروا بمسجد الكوفة مسجداً مسجداً، كلما سألوهم عن سعد أثنوا عليه خيراً ودعوا له بالخير، إلا مسجداً واحداً، مسجد بني عبس قام رجل اسمه أبو سعدة، فقال: "أما إن سألتمونا عن سعد فوالله إنه لا يعدل في القضية، ولا يحكم بالسوية، ولا يسير مع السرية" وقد ظلم سعداً في هذا الكلام، فقام سعد وقال: [[اللهم إن كان هذا الرجل قام كاذباً ورياءً وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن]] فاستجاب الله دعوة الصادق سعد رضي الله عنه، لما علم صدقه وإخلاصه وإنابته لله سبحانه وتعالى، فأطال عمر هذا الرجل.

يقول أحد الرواة اسمه عبد الملك: والله لقد رأيت هذا الرجل بعيني وقد طال عمره، حتى أصبح شيخاً كبيراً سقط حاجباه من الهرم على عينيه، وأصبح يتعرض للجواري في سكك الكوفة يغمزن ويقول: شيخ مفتون أصابتني دعوة سعد.

وفي سير أعلام النبلاء أن سعداً رضي الله عنه صلى بالناس في الكوفة فلما خرج من المسجد رأى أناساً مجتمعين على رجل، قال: من هذا الرجل؟ قالوا: هذا الرجل

يسب علياً بعد أن توفي علي، [[قال سعد رضي الله عنه: لا تسب أخي علي بن أبي طالب، قال: والله لأسببته، فقال سعد: اللهم أكفناه بما شئت، قال أحد التابعين: والله ما فارقنا المكان إلا وقد ند بعير -جمل- فأقبل إلى الناس فتنحى الناس عنه فاقترب من هذا الرجل فضربه البعير بيده فأرداه قتيلاً في الأرض ونحن ننظر]] لأنهم صدقوا الله وعرفوا تقوى الله، والتمسوا رضا الله، فأجاب الله دعاءهم -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وأعطاهم ما تمنوا في الدنيا والآخرة.

نصرهم على أعدائهم وثبت الإيمان في قلوبهم، وكتب حبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أرواحهم، وجعلهم خيرة الناس؛ لأنهم يتقونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: [[خرجنا مع العلاء بن الحضرمي في سرية أرسلنا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحنا وضعنا في الصحراء، فانتهى طعمانا ونفذ ماؤنا، فاستيقنا بالموت، حتى حفر بعضنا قبورهم، وجلسنا ننتظر الموت، ثم التفتنا إلى العلاء بن الحضرمي فقلنا: يا علاء! ادع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا، فإن الله يجيب دعاءك، فرفع العلاء بن الحضرمي يديه وقال: يا عليّ يا عظيم! يا حليم يا عليم! أغثنا، فقال أبو هريرة: فوالله ما كأنه انتهى من دعائه إلا وإذا بسحابة تغطي مخيمنا، وتهطل علينا، فتوضأنا وشربنا واستيقنا واغتسلنا]].

هذا لأنهم عرفوا الله عز وجل فلبى الله لهم ما سألوا، فتقوى الله عز وجل تكون في المطعم الحلال أن يتقي الله الإنسان فيما يدخل بطنه فلا يدخل بطنه إلا كل حلال طيب؛ ليقبل الله منه أحسن ما يعمل ويتجاوز عن سيئاته {فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [الأحقاف: ١٦].

وتقوى الله عز وجل تكون في السمع والبصر، ولذلك يقول الإمام الشافعي:

لسانك لا تذكر بها عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك معائباً لقوم فقل يا عين للناس أعين

مراقبة الله عز وجل

وذلك بأن تجعل الله رقيباً عليك في سرّك وعلايتك، فإنه سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية، وهو معك أينما كنت.

فهو مع الكافر والفاجر، معية إحاطة وإدراك، وهو مع المؤمن معية نصرة وتأييد وحفظ، ولذلك اتق الله الذي هو معك {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ} [الشعراء: ٢١٨ - ٢١٩].

فاجعل منه رقيباً سبحانه وتعالى، اعبدك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذا تعريف الإحسان الذي عرفه به محمد صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل الطويل.

واعلم أن المراقبة من أعظم ما يمكن التقوى في القلب خاصة في السر؛ لأن كثيراً من الناس يراقبون الله في العلانية، وإذا خلوا في السر تهتكوا بحرمات الله ولعبوا بحدود الله، فويلهم من الله.

جاء في سنن ابن ماجه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ليأتين أقوام يوم القيامة بحسنات كجبال تهامة، يجعلها الله هباءً منثوراً، قالوا: يا رسول الله! أليسوا بمسلمين هؤلاء، قال: بلى مسلمون، يصلون كما تصلون ويصومون

كما تصومون، ولهم حظ في الليل ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها {فهؤلاء يجعل الله أعمالهم يوم القيامة هباءً منثوراً، ويورد لهم موارد الظالمين نعوذ بالله من ذلك.

كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: [[الله الله في السرائر! اللواتي هن خفيات على الناس، وهن عند الله بوادي]] أو كما قال.

يقول الأندلسي يوصي ابنه:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان

فاستحي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

التفكر موصل للخشية

في كل شيء لله آية، يقول: تدبروا، وتفكروا في آيات الله، وفكر لا يرزق خوفاً من الله فليس بفكر، ولذلك كان أعظم مراقي التوحيد، وأعظم مقامات العبودية هو: الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَكَانَ أخوف الناس من الله هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

كل شيء اقتربت منه أمنت به إلا الله، فكلما تعرفت عليه خفته: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

يقول إبراهيم عليه السلام: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [الشعراء: ٨٢] بعد إخباره إلى الله، وإنابته إلى الحي القيوم يقول من مقام الخوف: أطمع طمعاً شديداً من الله أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين، ولا يجزم جزماً.

ويقول يوسف عليه السلام، بعد أن ملك مصر، وبعد أن جمع مالها وكنوزها، قال وهو يبكي في آخر عمره: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١] أقصى أمانيه وأعظم ما يرجو أن يلحقه الله إلحاقاً بالصالحين.

واستعرض سليمان عليه السلام قواته وجيوشه من الجن والبشر، ومن الطيور والزواحف، فلما رآها ملأت البر؛ سجد وبكى وقال: {قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} [النمل: ٤٠].

فالشاهد: أن تفكيراً وتدبراً لا يهديك إلى الخوف من الله، فليس بنافع ولا مفيد، وقد كان صلى الله عليه وسلم من أخوف الناس لله، يقول أبو ذر رضي الله عنه: {نمت عنده صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي، فقام يقرأ، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم بكى، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم بكى، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم ارتفع صوته، وقال: ويل لمن لم يرحمه الله}.

ويقول عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: {دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء} والمرجل: القدر إذا استجمع غلياناً- وهو يبكي من معرفته لله تبارك وتعالى، وكان يحدث الناس عن الله -دائماً- وآياته، ويناديهم بالتزود والقدوم على الله، ويخبرهم أنهم مراقبون من الله، فالله معنا دائماً، وهو فوقنا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يسجل حسناتنا وسيئاتنا: {مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ} [المجادلة: ٧].

حضرت الوفاة أبا بكر رضي الله عنه، فدخلت عليه ابنته عائشة رضي الله عنها وأرضاها، فقالت: يا أبتاه! صدق الشاعر:

لعمرك ما يغني النزاء عن الفقى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فغضب، ونظر إليها، وقال: [[بل كذب الشاعر، وصدق الله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} [ق: ١٨ - ٢١]].

فهذا أبو بكر الذي قدم للإسلام كل شيء، فالإسلام كأنه أبو بكر، وكأن أبا بكر هو الإسلام، وكما روى الإمام أحمد في كتاب الزهد: دخل مع الصحابة، ليتنزهوا في بستان من بساتين المدينة، فرأى طائراً على نخلة، فبكي، فقال الصحابة: مالك يا خليفة رسول الله؟ قال: أبكي لهذا الطائر، يأكل من الشجر، ويرد الماء، ويموت، ولا حساب ولا عذاب، فبكوا رضوان الله عليهم.

قام هارون الرشيد فحلى قصوره، وزين دوره، وجمع الناس في مهرجان، ثم أدخل عليه الناس أفواجاً أفواجاً، فأتى أبو العتاهية الشاعر الزاهد، فقال له هارون: أمدحت هذا اليوم المشهود؟ قال: نعم.

مدحته، قال: وماذا قلت فيه؟ قال: قلت:

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور

قال: ثم ماذا؟ قال:

يجري عليك بما أردت مع العشية والبكور

قال: ثم ماذا؟ قال:

فإذا النفوس تغرغرت بزفير حشرجة الصدور

قال: ثم ماذا؟ قال:

فهناك تعلم موقناً ما كنت إلا في غرور

فبكى هارون الرشيد حتى أغمى عليه، وأمر بالزينة أن تخلع.

فيا عباد الله: أعظم المقامات: التفكير في أسماء الله وصفاته، وفي آياته وأيامه، وفي دلائل وحدانيته في الكون، ثم الخوف منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وما ارتفع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا بتدبر آيات الله، والتفكير في دلائل وحدانية الله، والخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول علي رضي الله عنه: [[لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه]] وكانوا رضي الله عنهم دائماً يشعرون برقابة الله، ووحدانيته، ويخافونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول: أسلم مولى عمر: [[خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، بعد أن انتصف الليل، فقال لي: يا أسلم! الحقني فأني أتفقد الناس]] هذا في عام المجاعة -

عام الرمادة- يوم أن جاع الناس فجاع عمر معهم، ويوم أن تعب الناس تعب عمر معهم، ويوم أن سهر الناس وسهر عمر معهم.

لما اشتهدت زوجه الحلوى فقال لها من أين لي ثمن الحلوى، فأشهرها؟

خرج رضي الله عنه عام الرمادة، يوم أن وقف يوم الجمعة على الناس، فبكى وأبكى، وسمع قرقرة بطنه، فقال: [[قرقر، أو لا تقرر، والله لا تشبع حتى يشبع أطفال المسلمين]].

أيها المسلمون: عباد الله! انظروا إلى اليهود، وهم أنصار القردة والخنازير، كيف يهاجرون إلى فلسطين! متعاونين متساعدين، متآخين على حرب المسلمين، وانظروا إلى الشيعيين وأذناهم، كيف يقومون جبهة واحدة ضد المسلمين، من أفريقيا وآسيا، وروسيا جبهة متآخين لصدد زحف الإسلام المقدس، ونحن شيع وأحزاب، أفكار وآراء، الجار يحقد على جاره، والمسلم يغتاب أخاه المسلم، والأعراض تنتهك في المجالس.

قصة سبأ آيات لكل صبار شكور

يقول الله تبارك وتعالى في محكم كتابه العظيم: {الْقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ * وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًَّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [سبأ: ١٥ - ١٩].

ينتقل بنا القرآن الكريم إلى مدينةٍ من مدن اليمن، قريبة من صنعاء ليتحدث لنا عن أهلها وما كانوا فيه من نعيم، فقد كانوا في رغدٍ من العيش كما نحن اليوم نكون، وكانوا في بسط وفي أمن وسكينة، وفي راحة وطمأنينة.

وكان لهم سد أرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِم الأمطار الغزيرة ليمتلئ بها هذا السد فيختزن كميات هائلةٍ من الأمطار يصرفونها عن طريق الري والصرف في مزارعهم، وأنبت الله لهم من كل زوجٍ بهيج: من الأشجار اليانعة والأعشاب والنخيل والحبوب، حتى قال أهل التفسير: كانت المرأة من نسائهم تذهب بالمكتل على رأسها فتتمر من تحت تلك الأشجار المثمرة فيمتلئ هذا المكتل من كثرة ما يتساقط فيه من الثمار، وكان عذق النخلة لا يحمله إلا الفَرَسَان من عظمتها ومن كثرة ما فيه من الثمار، وكانت المياه صافية، وكان الأمن والسكينة الرغد، وكانت بحبوحة العيش كما نعيش فيه نحن الآن.

لكن أهل هذه القرية وسكانها أعرضوا عن أمر الله، وكفروا نعمته، فقابلوا الجميل بالقبيح، وفعلوا المعاصي، وفشا فيهم المنكر فما نهوا عنه ولم يأمروا بالمعروف، وسكت الجميع على الفعل القبيح، وتمردوا على رسالة الله، فسلط الله عليهم حشرة من أضعف حشراتهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأراً واحداً فنقب هذا السد المنيع الهائل المتين، وأتى الماء مع هذا النقب وانهدم هذا السد وفي الأخير بُدِّلوا بعد النعمة نكدًا، وبعد الرخاء ضيقًا، وبعد الخصب والمطر والسكينة والأمن فقرًا وسخطًا ولعنة، فتفرق أهالي سبأ: {وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ} [سبأ: ١٩] خرج الغساسنة إلى الشام، والمناذرة إلى العراق، والمزد إلى عمان، والأوس والخزرج إلى المدينة، وخزاعة إلى مكة: لأنهم لم يشكروا نعمة الله، واسمعوا السياق وعيشوا مع الآيات.

يقول جل ذكره:

{لَقَدْ كَانَ لِسَيِّئٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ} [سبأ: ١٥] آيةٌ على أن هناك إلهاً، وأن هناك رباً يجب أن يعبد: {آيَةٌ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ} [سبأ: ١٥] كان لكل إنسانٍ منهم عند بيته جنة -بستانٌ عظيم عن يمين بيته وعن شماله- يقطف الثمار ويأخذ المحصول في أمنٍ وراحةٍ وسكينةٍ وطمأنينةٍ.

ثم قال لهم الله: {كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ} [سبأ: ١٥] فالنتيجة لهذا الرزق هي الشكر وإظهار النعمة لمسديها سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، واستعمالها فيما يقرب العبد من الله تبارك وتعالى، لا أن نقابلها بالكفر والجحود، والمعصية والجريمة والتبجح على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وعلى شرعه: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤١].

الذين إن مكناهم بالمال والتأييد، وبالصحة والأمن، وبرغد العيش، وبالسكينة والطمأنينة في بلادهم وأوطانهم وأجسامهم وأولادهم وبيوتهم ماذا يفعلون يا ترى؟ هل يرقصون ويغنون ويطلبون؟ هل يعصون ويقترفون المعاصي ويخرجون على حدود الله؟ لا.

قال تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤١].

وانظر إلى التعقيب في آخر الآية بقوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤١] إليه يرد العمل فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.

{كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ} [سبأ: ١٥].

بلدة ذات رخاء، مساكن كثيرة وأمطار غزيرة، وأرزاق وفيرة.

بلدة طيبة، تأتي إليها الثمرات من كل مكان، كما تأتي الثمرات إلينا وإلى بلادنا في هذا الزمان من كل دولة من دول الأرض، اشكروا لله ولا تكفروا نعمة الله، ولا ترضوا بالمعصية بينكم، ولا تتعدوا حدود الله، وتنتهكوا حرماته.

رب غفور: يغفر السيئة ويقبل التوبة، ويستر الخطيئة، ويرضى بالقليل، ما أحسن هذا النعيم الذي نعيشه كما عاشه، أهل سبأ! بلدة طيبة: من أرغد شعوب الأرض ومن آمن بلاد الأرض.

ورب غفور: يدعوننا صباح مساء لأن نستغفر ونتوب، يدعوننا كل يوم أن نشكر.

وهذا على الإيهام والتهويل والإجمال أعرضوا هكذا، فهم أعرضوا عن شريعة الله، كما أعرض كثير من اليوم! أعرضوا عن رسالة التوحيد، كما أعرض كثير من اليوم!

أعرضوا عن كتاب الله كما أعرض كثير من اليوم!

فتجد الكثير -إلا من رحم الله- أعرض عن كتاب الله إلى المجلات الخليعة السافرة الداعرة، والكتب المتلوثة بالأفكار السيئة، وأعرض عن بيوت الله إلى مجالس اللغو ومجالس التهلكة والجريمة، وأعرض عن منهج الله إلى منهج الشياطين ودعاة الإلحاد، وأعرض عن سماع ذكر الله إلى سماع الأغاني الرخيصة الماجنة.

{فَأَعْرَضُوا} [سبأ: ١٦] ثم سكت الخطاب فقال: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ} [سبأ: ١٦] هذا هو التأديب لمن لم يتأدب، وهذا هو الجزاء لمن لم يشكر النعمة، وهذا

هو النكال، وينوع تبارك وتعالى في التأديب، يقول عز وجل: {فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت: ٤٠].

أرسل الله عليهم السيل فدمر سدھم، وأهلك محصولهم، وعاث ببساتينهم وحدائقهم، فتفرقوا في الأرض.

بكى الأطفال وهم يسافرون ويرون الرحيل من بلادهم الآمنة، وبكت النساء وهنّ ينظرن إلى الخراب والإبادة والتدمير التي حلت بأوطانهم وكأن الخطاب يعيننا نحن على لسان القائل:

إياك أعني واسمعي يا جارة.

وما فائدة هذا الخطاب إن لم نتدبر ونتعظ وقد ذهب أهل الخطاب.

انظروا إلى جيراننا الذين أعرضوا عن منهج الله ورسالته، كيف سلط الله عليهم التدمير والإبادة، ينامون على أصوات الصواريخ، ويستيقظون على صيحات المدافع، تتساقط قصورهم على رؤوسهم، وتتباكي نساؤهم في شوارعهم، ويموت أطفالهم أمام عيونهم لأنهم تلبسوا بالجريمة، ولأنهم لم يشكروا النعمة، ولأنهم ما عرفوا الله، فلقنهم الله دروساً قاسية لا ينسونها مرةً ثانية، يعيشون الخراب والدمار، ويعيشون العذاب والويل، ويعيشون الجوع والتمزق.

{فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ} [سبأ: ١٦] {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا} [سبأ: ١٧] هم الذين أساءوا وما أسأنا نحن، وهم الذين ردوا على الجميل بالقبيح، وهم الذين كفروا

النعمة، وهم الذين تسببوا في هذا التدمير والإبادة، فأعرضوا {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ} [سبأ:١٧].

ثم عاد سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لِيذكرنا بصورٍ من صور النعمة التي عاشوها: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً} [سبأ:١٨] حتى أن أسلوب المواصلات كان ميسراً في عهدهم، يتصلون بمدنهم وقراهم في أيسر وقت وأسهل، في أمانٍ وطمأنينة كما نتصل نحن اليوم بأسباب المواصلات في أمنٍ ورغدٍ من العيش:

{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِирُوا فِيهَا لَيَالِيًَّ وَأَيَّاماً آمِنِينَ} [سبأ:١٨] لا تخافون، دماؤكم محقونة، ومساكنكم مأمونة، وأموالكم محفوظة، كما نعيش اليوم:

{فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} [سبأ:١٩] كأنهم بأفعالهم دعوا على أنفسهم، وإذا رأيت العاصي والمجرم ينتهك حدود الله فكأنه يقول لله: يا رب! نكل بي، ويا رب! عذبني، ويا رب! أبعدني عن ساحتك! قال تعالى: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [سبأ:١٩] ما ظلمهم الله، وما اقتترف الله بحقهم نكالاً ولا ظلماً، ولكنهم ظلموا أنفسهم بما كسبت أيديهم: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا} [الإسراء:٧] {وُظَلِّمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ} [سبأ:١٩] هل نرى لهم ركزاً؟ هل نسمع منهم من أحد؟ هل نرى بسايتهم وحدثهم؟ لا.

إنما بقي حديث السمر من أخبارهم، عظةً وذكرى {وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} في هذا الأسلوب الغريب الرهيب، مزقناهم كل ممزق: ففرقنا بين الوالد وولده، وبين الزوج وزوجته، وبين الأخ وأخيه، جزاء ما فعلوا، ثم قال تبارك وتعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [سبأ:١٩] هذا هو الشاهد من القصة ووجه الاستشهاد: أن تدبروا، يا

أمة محمد صلى الله عليه وسلم! تدبروا في مصارع الغابرين، وانظروا كيف فعل الله بالمجرمين، لتأخذوا حذرکم:

مصائب قوم عند قوم فوائد

وإن لم تنتهوا فسوف تقعون في ما وقعوا فيه، من التمزق والتدمير والإبادة والجوع، ومن المقت والنقمة والغضب والسخط وسوء المنقلب إلى الله.

موقف مصر في عام الرمادة

أصاب المسلمين في عهد عمر رضي الله عنه قحطٌ أكل الأخضر واليابس (عام الرمادة) وقال عمر: [[والله لا أكل سمناً ولا سميناً حتى يكشف الله الغمة عن المسلمين]] وبقي مهموماً هماً يتأوه منه ليلاً ونهاراً، نزل الأعراب حوله في العاصمة الإسلامية المدينة المنورة بخيامهم، كان يبكي على المنبر عام الرمادة، وينظر إلى الأطفال وهم يتضورون جوعاً أمامه، وود أن جسمه خبزاً يقدمه للأطفال.

وأخذ يقول: [[يا ليت أم عمر لم تلد عمر يا ليتني ما عرفت الحياة أه يا عمر كم قتلت من أطفال المسلمين]] لأنه يرى أنه هو المسئول الأول عن الأكباد الحرى، والبطون الجائعة، وفي الأخير تذكر عمر أن له في مصر إخواناً في الله، وأن مصر بلداً معطاءً، سوف يدفع الغالي والرخيص لإنقاذ العاصمة الإسلامية، وكان والي مصر عمرو بن العاص الداهية العملاق، كتب له عمر رسالة، وهذا نصها:

[[بسم الله الرحمن الرحيم، من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، إلى عمرو بن العاص

أَمَّا بَعْدُ:

فوا غوثاه وا غوثاه والسلام]].

وأخذها عمرو بن العاص، وجمع المصريين ليقرأ الرسالة المحترقة الملتهبة الباكية المؤثرة أمامهم؛ ولما قرأها عمرو: أجاب عمر على الهواء مباشرة، وقال: [[لا جرم! والله لأرسلن لك قافلة من الطعام أولها عندك في المدينة وآخرها عندي في مصر]] وجاد المصريون بأموالهم كما يجود الصادقون مع ربهم، وبذلوا الطعام، وحملوا الجمال وذهبت القافلة تزحف كالسيل، وتسير كالليل، تحمل النماء والحياة والخير والزرق والعطاء لعاصمة الإسلام.

ودعا لهم عمر، وحفظها التاريخ لهم حفظاً لا ينساه أبد الدهر.

جهاد مصر للتتار

دخل التتار العالم الإسلامي فدمروه هدموا المساجد، ومزقوا المصاحف، وذبحوا الشيوخ، وقتلوا الأطفال، وعبثوا بالأعراض، بل دمروا عاصمة الدنيا بغداد، وزحفوا إلى مصر ليحتلوها، وخرج المصريون وراء الملك المسلم قطز الذي يحمل لافتة: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكانت عين جالوت.

والذي حث الناس على الجهاد هو العالم سلطان العلماء العز بن عبد السلام.

والتقى التتار الأمة البربرية البشعة، التي لم يعلم في تاريخ الإنسان أمة أشرس ولا أقوى ولا أشجع منها، التقوا بالمسلمين المصريين؛ بجيل محمد عليه الصلاة والسلام، ولما حضرت المعركة والتقى الجمعان، قام قطز فألقى لأمته من على رأسه، وأخذ يهتف في المعركة: وا إسلاماه وا إسلاماه وا إسلاماه

فقدموا المهج رخيصة، وسكبوا الدماء هادرة معطاء طاهرة، وانتصر الإسلام وسحق التتار، ومنىوا بهزيمة لم يسمع بمثلها في التاريخ.

إنها بطولات أريد منها أن أصل إلى كلمة واحدة؛ أن أقول للمحسن: أحسنت، وللمسيء: أسأت؛ وأن أعلم الجهلة التاريخ، وألا ينشئوا مرة ثانية على عرق جاهلي جنسي لا يتصل بلا إله إلا الله محمد رسول الله.

أهمية الأخوة الإسلامية والحث عليها

جلس الصحابة في مجلس يتشاورون في الجهاد، فتكلم بلال على خالد، فرد عليه خالد بكلمة قاسية يعيره بلونه، فقال بلال: والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن الصحيح أن صاحب القصة أبو ذر، وهي في البخاري، بخلاف ما يذكره أهل التاريخ فذهب بلال وشكاه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، فاستدعى الرسول عليه الصلاة والسلام أبا ذر، ودخل عليه، قال: فسلمت عليه فلم أدر من الغضب هل رد علي السلام أم لا؟ وقال لي: {أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية} {إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم}.

والذي يحمل هذه الأفكار المنتنة؛ أفكار اللون، والتمييز العنصري، والتمييز بالنسب، وبالبلد جاهل بالشريعة الإسلامية جاهل بالإسلام، وبالأدب، والكرم وواجب علينا أن نؤدبه، وأن نوقفه عند حده، وأن نقول له في نفسه قولاً بليغاً؛ ليعلم أن هذا الدين أوسع من عقليته الضيقة، وأن هذا الإسلام أرحب من صدره الضيق الأسود المظلم.

هذه فكرة! ولعلها أن تنشأ في الجامعات وتدرس، وتعلم في المدارس، لأنه مر على العالم الإسلامي فكرة القومية، التي أنشدها الطلاب في المدارس، وبثتها الصحف، وحفظها بعض الناس، وكتبوا فيها مذكرات؛ لفصل وتمزيق هذا الجسم الواحد {المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى}.

وأقول: إذا رُد على رجل من أي بلد أو على مفكر أساء، أو على شاعر أخطأ، أو على مؤلف أساء الأدب؛ لا يعني ذلك أن ننسى حسنات هذه الشعوب، وإنني أقول كما قال الشاعر العربي:

بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقميتين وبالفسطاط جيران

وأينما ذكر اسم الله في بلد عدت ذاك الحمى من صلب أوطاني

فأي: بلد يسجد فيه لله فهو بلدي، وأي ناطق يقول: لا إله إلا الله، فهو أخي، وأي ساجد لله فهو حبيبي، قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ

الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

عطاء وبذل عبد الرحمن بن عوف

وقف عندها عبد الرحمن بن عوف؛ أحد العشرة المبشرين بالجنة -رضي الله عنهم وأرضاهم، وحشرنا في زمرة يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه - فقدمت قافلته رافدةً وافدة، تجوب المدينة، سبعمئة جملٍ محملةً بالزبيب والحبوب والطعام والثياب، فاجتمع عليها التجار، وأرادوا نهبها بالشراء، فقال: [[كم تعطوني في الدرهم الواحد؟ قالوا: نعطيك في الدرهم درهماً.

قال: وجدت من زادني، قالوا: نعطيك درهمن، قال: وجدت من زادني.

قالوا: نعطيك ثلاثة.

قال: وجدت من زادني.

فقالوا: نحن تجار المدينة ولا يزيدك على ما زدناك أحد.

قال: لا والذي نفسي بيده! قد زادني رب العالمين إلى سبعمئة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، فقال: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦١] أشهدكم، وأشهد الله وملائكته؛ أنها في فقراء المدينة، وفي مساكن المدينة فقسمت في غداة واحدة، وتوزع الناس يقولون: سقى الله ابن عوف من سلسبيل الجنة]].

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٢ - ٢٦٣] ثم يقول عز من قائل بعدها بثلاث آيات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦٧ - ٢٦٨].

فهنيئاً لمن أعتق نفسه من النار بالدرهم والدينار، وهنيئاً لمن وسع قبره بالبذل والعطاء، فإن الله لا يستقل شيئاً، والبخل إنما هو من شيمة العبد يوم ينسى الله ولقاءه: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا} [الإسراء: ١٠٠].

وأتى عليه الصلاة والسلام بالآيات البينات التي تدعو إلى الإنفاق؛ والتي نادى الله فيها العالمين قاطبةً إلى البذل والعطاء، فقال جل ذكره: {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ} [إبراهيم: ٣١] وقال جل ذكره: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٥٤].

ويستعرض صلى الله عليه وسلم في الصحيح فضل الصدقة، فيقول في حديث عدي بن حاتم: {ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربه يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة} وفي رواية: {فمن لم يجد فبكلمة طيبة} وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {كل أحدٍ يوم القيامة في ظل صدقته

حتى يقضى بين الناس، فمنهم من يأتي وصدقته كالجبل، ومنهم من يأتي وصدقته كالشجرة العظيمة، ومنهم من يأتي وصدقته كالكف على رأسه { فانظر لنفسك كيف تنزل نفسك تلك المنازل، فوالله! لا يبقى للإنسان إلا ما قدم في الدنيا لوجهه تبارك وتعالى.

عثمان بن عفان يجهز جيش العسرة

يقف عليه الصلاة والسلام على المنبر، وحر الشمس يتوقد، والناس في عسر ومشقة، وهو يجهز جيش العسرة إلى تبوك، فيقول: {من يجهز هذا الجيش وأضمن له الجنة} فيتلکأ الناس؛ لأنها ميزانية ضخمة، ومال باهظ عظيم، فيقول: {من يجهز هذا الجيش وأضمن له الجنة} وهو أصدق الصادقين، وهو الضمين الذي لا يخلف، وهو الكفيل الذي لا يكذب، فيقوم عثمان بين الناس - عثمان البذل والعطاء، عثمان الصدقات والأعطيات - فيقول: يا رسول الله! أشهد الله وملائكته، وأشهدك أني أجهزها في سبيل الله، أرجو ذخرها وبرها عند الله، بخ بخ، غفر الله لعثمان ما تقدم من ذنبه وما تأخر: {اللهم ارض عن عثمان} ثم أخذ صلى الله عليه وسلم يقول: {ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم} وكيف يضره ما عمل؟! وهو أعتق نفسه من النار والعار والدمار، واشترى نفسه من الله.

عامر بن ثابت يفتدي نفسه أربع مرات من الله

حضر عامر بن ثابت بن عبد الله بن الزبير المقابر، فبكى حتى أغمي عليه، وكان من تجار المدينة، فلما حمل إلى بيته واستفاق، وزن ديتة أربع مرات، ثم أنفقها في سبيل الله، ثم قال: اللهم إني اشتريت نفسي منك أربع مرات، اللهم لا تخزني يوم لا تخزي نبيك وأصحابه، ثم قال: اللهم إني أسألك الميعة الحسنة.

قيل له: وما هي الميتة الحسنة؟ قال: أن يتوفاني ربي وأنا ساجد، فحضرتة سكرات الموت وأذان المغرب يرتفع حياً على هواء التوحيد، فنودي للصلاة، فقال له أبنائه: صلّ في بيتك فإن الله قد عذرك.

قال: لا والله، أسمع حي على الصلاة حي على الفلاح وأصلي في بيتي؟! فحمل إلى المسجد، فلما صلى وأصبح في السجدة الأخيرة قبض الله روحه، وهذه هي الميتة الحسنة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {مرت سحابة فسمع أحد الناس صوتاً في السحابة يقول: اسق مزرعة فلان، اسق مزرعة فلان، فتتبع السحابة فهطلت على مزرعة رجل، فأتى إلى الرجل وهو يعدل الماء بمسحاته، فقال: يا عبد الله! ما اسمك؟ قال: أنا فلان -بالاسم الذي سمعه في السحابة- قال: أسألك بالله، بأي خير نلت هذا، فأني سمعت صوتاً في السحابة ينادي باسمك، يقول: اسق مزرعة فلان؟ فقال له: أما وقد سألتني، فإن كل ما خرج من أرضي: أقسمه ثلاثة أقسام: قسم أتصدق به لمرضاة الله، وقسم أدخره لأهلي، وقسم أردّه في هذه الأرض { أولئك الذين عرفوا طريق المال من أين يأتي وإلى أين يذهب.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ما تصدق عبدٌ بعدلٍ بتمرّة من كسب طيب -ولا يقبل الله إلا طيباً- إلا تقبلها الله بيمينه -انظر ما أحسن التعبير! -فرباها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تصبح كالجبل العظيم} هذه هي الصدقة، يوم يخلص العبد في دفعها ولا يرجو برها وثوابها إلا من الحي القيوم، جل الله تبارك وتعالى.

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {يقول الله تبارك وتعالى: يا بن آدم! أنفق أنفق عليك} فإن خزائن الله لا تتبدل ولا تتغير ولا تنقص.

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة لابن آدم -يوم يستوقفه ويحاسبه ويجازيه، يوم يكلمه كفاحاً، يوم لا يكون بينه وبينه ترجمان- يا بن آدم! جعتُ ولم تطعمني -وفي لفظ: يا بن آدم! استطعمتك فلم تطعمني- قال: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته وجدت ذلك عندي.

يا بن آدم! استكسيتك فلم تكسني.

قال: كيف أكسوك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلان بن فلان، استكساك فلم تكسه، أما علمت أنك لو كسوته وجدت ذلك عندي.

يا بن آدم! مرضت فلم تعدني.

قال: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلان بن فلان، مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته وجدت ذلك عندي؟! {حينها يتلهمف العبد، ويود أنه أنفق كل شيء، وأنه قدم لنفسه، وأنه مهد للعمل الصالح.

قصة توضيح علم اليهود بصحة الرسالة

كان اليهود يعلمون أن رسول الله مرسل من عند الله، يقول أحد الأنصار: كان في المدينة شيخ كبير من اليهود قد بلغ من الكبر عتياً، يقوم فينا صباح مساء فيحدثنا عن

أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما أتى صلى الله عليه وسلم رأينا الوصف والعلامات كما كان يحدثنا، فأسلمنا وكفرنا ذلك الشيخ، وصدقنا وكذبنا ذلك الشيخ اليهودي، فذهبنا إليه وقلنا: هذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ليس هو، فأنزل الله تبارك وتعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٨٩].

كان عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأرضاه من اليهود وقد أسلم؛ لأنه قرأ أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، قال: {انجفل الناس من المدينة، فأنجفلت معهم إلى رجل، فإذا هو متوسط الناس، وقد ازدحموا عليه، فأسرفت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونظرت وإذا وجهه كالقمر ليلة البدر، فقلت في نفسي: والله ما هذا الوجه بوجه كذاب، فقلت: يا رسول الله! بم جئت؟ قال: جئت بلا إله إلا الله وأنني رسول الله، ثم قال صلى الله عليه وسلم: يا أيها الناس! أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام، فقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه وأرضاه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، وجدناك مكتوباً عندنا في التوراة، فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم، ثم قال عبد الله بن سلام: يا رسول الله! اليهود قوم بهت -أهل زور وكذب وخداع- فاسألهم عني ولا تخبرهم أنني أسلمت، فخبأه صلى الله عليه وسلم في مكان، واستدعى اليهود، وقال: كيف عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، وفقمنا وابن فقمنا، قال: فإنه قد أسلم، قالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج عليهم ابن سلام، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قالوا: شرنا وابن شرنا، وخبثنا وابن خبيثنا، وجاهلنا وابن جاهلنا! فعندها كانوا يفترون المفتريات، ولما ولد ابن الزبير رضي الله عنه، كان رداً حاسماً عليهم.

قصة شرب ابن الزبير لدم النبي صلى الله عليه وسلم

دخل ابن الزبير وعمره عشر سنوات على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجد الرسول صلى الله عليه وسلم يحتجم -كما صح في ذلك الحديث- فناوله صلى الله عليه وسلم دم الحجامة، وقال: {يا عبد الله! اذهب بهذا الدم واجعله في مكان لا يراه أحد، فأخذ ابن الزبير دم رسول الله صلى الله عليه وسلم -دم الحجامة، الدم المبارك الطاهر، الدم الذي عاش في ذاك الجسم الشريف، عليه أفضل الصلاة والسلام- وذهب به في إناء، فلما اختفى وراء بيوت المدينة شرب ذاك الدم الطاهر، حتى انتهى من الشرب، ثم لعق ما بقي في الصحن وعاد، فلما رآه صلى الله عليه وسلم تبسم، وعرف سر المسألة عليه أفضل الصلاة والسلام، وقال: يا عبد الله! أين وضعت الدم؟ قال: وضعت في مكان لا يراه فيه أحد، فقال عليه الصلاة والسلام: ويل لك من الناس وويل للناس منك، لا تمسك النار! وبدأ رضي الله عنه وأرضاه، يزداد قوة إلى قوته، لأن دم الرسول صلى الله عليه وسلم أصبح في جسمه فوصل إلى عروقه وشرائينه.

وأما قوله: ويل لك من الناس، وويل للناس منك، فويل لك من الناس: سوف تجد ما وجدت من الناس من إعراض وتكذيب وشتيم وغيبة، ومن حروب، وسوف يجد الناس منك قوة شخصية وشجاعة كما يجدونها مني أنا، وأما قوله: فلا تمسك النار، فكيف تمس النار جسماً أصبح دم الرسول صلى الله عليه وسلم في شرايينه؟!

قال أهل العلم: اكتسب بذلك الدم قوة في جسمه رضي الله عنه وأرضاه، يقول الذهبي في سير أعلام النبلاء: فكان يصوم سبعة أيام متواصلة ليل نهار -يفطر في اليوم الثامن، لقوة جسمه رضي الله عنه وأرضاه، وكان أعبد الناس، والعبادة أشرف

مقام في الإسلام؛ فجسم يمنحك الله إياه أو قوة يعطيك الله إياها، ثم لا تستخدمها في مرضاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنك سوف تحاسب عليها يوم القيامة.

ووقت تمضيهِ في غير طاعة الله تسأل عنه يوم القيامة.

{جاء شباب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله! أعطنا مما أعطاك الله، فأعطاهم من اللباس والمال إلا شاباً واحداً قال: لا أريد اللباس ولا أريد المال، فقال صلى الله عليه وسلم: فماذا تريد إذا؟ قال: أريد مرافقتك في الجنة، فقال صلى الله عليه وسلم: أو غير ذلك؟ قال: لا والله يا رسول الله! قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود، فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة}.

وقد كان ابن الزبير ساجداً دائماً، يقول ابن أبي مليكة: والله، لقد رأيته قضى ليلة من الليالي راکعاً حتى أصبح، وليلة ساجداً حتى أصبح، وكان إذا وقف في صلاته كأنه سارية لا يتحرك، فيأتي الحمام والعصافير فتقف على رأسه ثم تطير: {الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون: ٢] هذا هو الاتصال بالحي القيوم، وهذه هي عظمة المسلم، وهذا هو الباقي عند الله تبارك وتعالى.

وحدث في يوم من الأيام أن اقتحم سيل عارم الحرم المكي -بيت الله العتيق- حتى أصبح السيل عند مقام إبراهيم عليه السلام، فخرج أهل مكة ليكون خائفين على الكعبة أن تهدم، أما هو فخلع ثيابه وانتزرت ونزل يطوف سبعة أشواط وهو يسبح في السيل، قال أهل العلم: ليس لنا أحد طاف بالسيل سابحاً إلا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وأرضاه.

وبينما هو شاب خرج عمر بن الخطاب في خلافته فلما رآه الشباب فروا؛ لأن عمر رضي الله عنه كان مهاباً، كان يخاف منه الناس، لقوة إيمانه وشكيمته رضي الله عنه، ففر الشباب إلا ابن الزبير رضي الله عنه، فقد استمر واقفاً في مكانه، فرآه عمر فتبسم، وأراد أن يستجلي الخبر، فقال: ما وراءك يا ابن الزبير؟ لماذا لم تفر مع الناس؟ قال: ليس الطريق ضيقاً فأوسع لك، وما فعلت ذنباً فأخافك، فقبّله عمر رضي الله عنه، ودعاه له، وحيا هذه البطولة، النادرة، والصرامة الفائقة، التي تعلن الرأي في حرية، وتقول الكلمة في صراحة، وتثبت مكانها ولو أزيحت الرؤوس عن أكتافها.

لا إله إلا الله في طريق الهجرة

خرج من الغار ولحقه سراقاة على فرسه، لأن قريش قالت: من يأتي بمحمد عليه الصلاة والسلام حياً أوميتاً فله مائة ناقة، هذه مخاطرة وموت، لكن الشجاع يريد أن يبلغ دينه إلى القارات الست.

اليوم في موسكو عاصمة روسيا، يرتفع الله أكبر، حج منها هذه السنة أكثر من ألفي حاج، لأن محمداً عليه الصلاة والسلام صمد لتدخل لا إله إلا الله موسكو وبكين ولندن وواشنطن، لا بد أن تدخل لا إله إلا الله الدنيا.

لحقه سراقاة لينال مائة ناقة، ولكن ظن سراقاة أن الأمر سهل، وقد كان أبو بكر مرة يمشي عن يمين الرسول عليه الصلاة والسلام ومرة عن يساره ومرة من أمامه ومرة من خلفه، سلمك الله يا أبا بكر! رفع الله منزلتك يا أبا بكر! فيتبسم عليه الصلاة والسلام، وقال: مالك يا أبا بكر! قال: يا رسول الله! أخاف أن يرصدوا لك فأتقدم أمامك لموت قبلك، وأخشى أن يلاحقوك فأتخلف، وأخشى أن يأتوا من على الميمنة فأرصد الميمنة، وأخشى أن يأتوا من على الميسرة فأحميك من على الميسرة، قال: {غفر الله لك يا أبا بكر} ما أحسنها من كلمة، ووقف صلى الله عليه وسلم ما عنده إلا إدواة

فمها قليل من الماء، وهو يقرأ: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [يس:٩] ولحق بهم سراقه، قال أبو بكر: يا رسول الله! انظر إلى سراقه، فنظر إليه، وهو مقبل معه سيف فيه الموت، فدعى عليه فساخت أقدام فرسه ووقع على وجهه في الأرض، فقال لفرسه صه: -يعني: قم- فقام وأخذ السيف فهو من شجعان العرب.

والرسول عليه الصلاة والسلام ليس معه سيف، ولكن معه ما هو أقوى من السيف، معه لا إله إلا الله، معه قوة أقوى من كل قوة على وجه الأرض، ووقف سراقه ثانية وعدا ليقتله فقال عليه الصلاة والسلام: {اللهم اكفنيه بما شئت} فساخ فرسه ووقع على وجهه، ونهض فقال: يا محمد! أسألك الأمان، اكتب لي أماناً؛ خاف من الموت.

فتبسم عليه الصلاة والسلام، يتبسم من هذا المسكين، أتى ليذبحه، فأتى يطلب الأمان اليوم من الذبح، وأتى يأخذ صكاً أن لا يقتل، قال عليه الصلاة والسلام: {ويلك يا سراقه! كيف بك إذا سورك الله بسواري كسرى وقصير} ملك فارس وملك الروم.

طريد من مكة ترك بناته وداره وعقاره وأهله وجيرانه وهم يلاحقونه في الصحراء، ومع ذلك يقول يا سراقه! سوف نتصر على الباطل وعلى دولة كسرى وقصير، وسوف يأخذون أساورتهم ويجعلونها في يديك، وضحك سراقه من هذا الكلام؟ أهذا كلام؟ هذا يفر في الصحراء ويمينا بسواري كسرى وقصير، ولكن بعد عشرين سنة، خرج أبطاله عليه الصلاة والسلام من المدينة، خرجوا يحملون لا إله إلا الله، خرجوا يوزعون لا إله إلا الله على البشرية، مع سعد بن أبي وقاص.

ووصلوا إلى هناك وفتحوا القادسية، وأتوا بكسرى وقيصر مبرطين في الحبال، لأنهم كفروا بلا إله إلا الله، ولأنهم جحدوا لا إله إلا الله، ولأنهم ما استمعوا فعصوا لا إله إلا الله، وأخذوا السوارين وجعلوها في يدي سراقاة، الذي أتى بالفرس وبكى، قالوا: مالك تبكي؟ قال: حبيبي وعدني بذلك وصدق حبيبي: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} [محمد: ١٩] واسغفر لذنبيك يوم تذنب، وإذا علمت أنه لا إله إلا الله، فما الذي يضرك.

يونس مع لا إله إلا الله

خرج يونس بن متى عليه الصلاة والسلام مغاضباً من قومه، فذهب في سفينة، ما استأذن الله، ولا بد له أن يستأذن الله لكن هكذا كتب الله، فخرج في السفينة في البحر في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، فالليل إذا أظلم لا ينوره إلا لا إله إلا الله، يقول عليه الصلاة والسلام فيما يروى عنه لـ أبي ذر: {صل ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبور، وتصدق بصدقة على المسكين لهول يوم النشور} ظلمة الليل لا ينورها إلا صلاة الليل وهي نور في القبر.

خرج يونس عليه الصلاة والسلام في السفينة في ظلمة الليل، فلما أصبح في السفينة أرسل الله عليها ريحاً كادت أن تقلبها مرتين أو ثلاثاً، قال ربانها أوقائدها: معنا رجل عصى الله نريد أن نخرجه من السفينة، قال الله: {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} [الصافات: ١٤١].

انظر ما أحسن الأسلوب، وما أحسن العبارة، وما أجمل روعة وإبداع وأسلوب القرآن، (فساهم) أي: اقترع معهم بقرعة، فكان من المدحضين، أي أنه فشل بالقرعة، أتت عليه القرعة أول مرة فقال: (أنا بريء) قالوا: نعيدها، فأنت عليه ثانية، قال:

أعيدوها، فأعادوها ثالثة، فأنت عليه فأخذه بيديه وسط البحر، لا أهل ولا ولد ولا زوجة ولا مال ولا قبيلة ولا عشيرة، لكن.

فالزم يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركان

فأخرجوه فألقوا به في ظلمات ثلاث، فليت اليم والليل كفيها، لكن تلقته سمكة عظيمة فأدخلته بين أضلاعها تماماً ثم أطبقت عليه، فأصبح بين أضلاع الحوت وبين حشاه، في ظلمة الليل وظلمة البحر فمن يتذكر؟ ولمن يعود؟ وعلى من يشتكي؟ وإلى من يلتجئ؟ إلى الله.

يقول لقمان لابنه وهو يوصيه بالعقيدة والتوحيد والإخلاص: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ} [لقمان: ١٦] لو كانت الضائعة أو الضالة حبة خردل -سمسم- وكانت في صخرة مقفلة أتى بها الله، فالله يقول عن قدرته: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ} [الأنعام: ٥٩].

يقول: أما مفاتيحكم وكنوزكم وبركم وشعيركم وذهبكم وفضتكم فعندكم مفاتيحها، الذهب والفضة والبر والشعير عندنا مفاتيحها نحن، لكن: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩].

وقع عليه السلام هناك، ولما وقع قال وهو في ظلمات بطن الحوت: ((لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٨٧] فجمع بين التوحيد والاستغفار، ما أحسنها من كلمة، يقول عليه الصلاة والسلام: {من أصابه هم أو غم فقال: لا إله إلا

أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً.

قال: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٨٧] إلى أين ترتفع هذه الكلمة؟ إلى أين تذهب؟ أتذهب إلى الأهل والأطفال؟ أتذهب إلى القبيلة والعشيرة؟ يقول الله: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [فاطر: ١٠] وكذلك نعود إلى أسلوب القرآن وروعته حيث قال: إليه يصعد، ولم يقل: يرتفع لأن يصعد أعظم، قال: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} [فاطر: ١٠] ارتفعت إلى الله، ومرت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) بالملائكة فبكت الملائكة، فقد سمعت صوت يونس بن متى، كان دائماً يذكر الله ويسبح الله ويكبر الله ويهلل الله.

حتى يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤] لكن كان يسبح لنا ويصلي ويزكي ويعرف الله في الرخاء، فعرفه الله في الشدة، فبكت الملائكة وقالت: يارب! صوت معروف من عبد معروف أين هو؟ نريد أن ننقذه، الملائكة يريدون أن ينقذوا يونس، لكن لا يدرون أين هو؟ قال الله: أعرف أين عبدي فسوف أنقذه، فأخرجه الله وأنبت عليه شجرة من يقطين لأنه خرج عارياً مثلما ولدته أمه، فأنبت الله عليه شجرة الدباء فأكل منها وظللتها، وإنما اختار شجرة من يقطين لأن الذباب والبعوض لا يأيتها: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [الصافات: ١٤٧ - ١٤٨].

سليمان مع لا إله إلا الله

خرج سليمان عليه الصلاة والسلام على الريح، وكان قد سخر الله له الريح: {غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ} [سبأ: ١٢] إذا أراد أن يسافر ركب الريح يأمرها بأمر الله،

يقول: أريد الهند فتأتي فتكون كالبساط تحته فترتفع به مع الأمراء والوزراء والحاشية وتذهب به وهو في السماء، وإذا أراد أن يهبط قال: اهبطي هنا، ويقول: بعض المفسرين: إن الله قال: {رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ} [ص:٣٦] لئلا يتوهم متوهم أنها سوف تنزل نزولاً صعودياً مظلياً فتصدم به في الأرض قال: لا: {رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ} [ص:٣٦] يعني: تتدرج به إذا أراد أن ينزل، فلا تنزل دفعة واحدة، إنما تنزل رويداً رويداً، حتى يهبط.

سليمان أتاه الله ملكاً عظيماً يقول: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [ص:٣٥] وقدم المغفرة لأن الملك بلا مغفرة لا يساوي شيئاً، والمنصب بلا مغفرة لعنة، والدنيا بلا مغفرة غضب، قال: رب اغفر لي.

ركب مرة إلى الهند فلما أصبح على بساط الريح إذا بالفلاح يحرق الأرض، فحجب سليمان -عليه السلام- الشمس ببساطه فالتفت الفلاح ظن أنها غيمة وسحابة، فإذا سليمان ومعه الحاشية والأسرة الحاكمة والجنود، قال الفلاح: سبحان الله! لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، فارتفعت سبحان الله! إلى الهي القيوم، ومرت على أذن سليمان فسمعها، فقال للريح اهبطي هنا عند الفلاح فهبطت، قال للفلاح ماذا قلت؟ قال: رأيته ورأيت ملكك فقلت سبحان الله لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، قال: سليمان والذي نفسي بيده قولك: سبحان الله، أعظم مما أوتي آل داود.

مهما عمرت في الدنيا فإنك راحل

يقول سبحانه للإنسان: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [الانشقاق:٦] ومعنى ذلك: يا أيها الإنسان! منذ أن وضعتك أمك وأنت في شدة وكرب وامتحان ومسئولية، وأنت سائر إما إلى طريق الخير، أو إلى طريق الشر، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار:٦] ماذا خدعك؟ من غرك بالله؟ من الذي صرفك عن المسجد إلى المقهى وإلى الجلسة اللاهية؟ من الذي صرفك

عن القرآن إلى الأغنية؟ وعن الجلوس مع الصالحين إلى الجلوس مع الأشرار من هذا؟
{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} [الانفطار:٦].

إخوة الإسلام! إخوة الإيمان! يا حملة لا إله إلا الله! يا من جرت دماؤهم بلا إله إلا الله! إن من معاني لا إله إلا الله، أن تعيش حياتك بلا إله إلا الله، فالحياة ليست بشيء إنما هي غرور ولحظات لهو.

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثان

يقول الله للناس يوم القيامة: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ} [المؤمنون:١١٢] كم مكثتم في الأرض؟ كم لكم في الحياة؟ فيا من عاش مائة سنة! ويا من سكن القصور وعمر الدور، ووسع البساتين وأجرى الأنهار، ولبس الجديد وتمتع بالأولاد، وضحك وشبع، كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟

اسمع الرد: {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ} [المؤمنون:١١٣] حياتنا يوم أو نصف يوم، ما زدنا على يوم أو نصف يوم، عشنا من الصباح إلى المساء، وربما ما أكملنا يوماً من الصباح إلى الظهر فاسأل العادين، اسأل الملائكة، فنحن قد ذهبنا ودهشنا فما ندري، إما يوم أو بعض يوم، لا نريد أن نكذب إنما هو يوم أو أقل، فاسأل العادين، فالله لا يسأل العادين، لأنه هو الذي يعد على العادين، يقول: {لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ} [الرعد:٤١] ما معنا هذا؟ قال المفسرون: إذا أمضى على الشيء لا يمضي بعده أحد -الإمضاء التوقيع- وإذا أنهى سبحانه وتعالى أي شيء من معاملة العبد، كان توقيعه الأخير.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩] لا معقب لحكمه، فلا يأتي أحد يعقب على حكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فتوقيعه الأخير: {قَالَ إِنَّ لِبَيْتِكُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [المؤمنون: ١١٤] فيقول لهم: لقد كانت حياتكم قليلة وسهلة ويسيرة ولكنكم ما جلعتموها في طاعة الله.

دنياك تزهو لا تدري بما فيها إياك إياك لا تأمن عوادها

تحلو الحياة لأجيال فتنعشهم ويدرك الموت أجيالاً فيفنها

يا مسلون! يقول الله: {قَالَ إِنَّ لِبَيْتِكُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [المؤمنون: ١١٤] ما أقل العمر.

الإمام أحمد بن حنبل، إمام أهل السنة والجماعة، نظر وهو شاب إلى المرأة فإذا شبيهه ملء لحيته، فبكى، وقال: والله كأن الشباب شيء سقط من يدي.

كأنه شيء رفعته فسقط من يدك.

فيا شباب الإسلام! انظروا إلى آبائكم الذين شابت لحاهم، من الذي شبيهم؟ هو الذي أفنى القرون السالفة، وهو الذي أخذ الأجداد والآباء وسوف يأخذ الأولاد والأحفاد.

من أسرار لا إله إلا الله

إن من أسرار لا إله إلا الله أن نصرف أعمارنا في مرضاة الله.

سعيد بن المسيب وهو سيد التابعين، الذي بكى من خشية الله حتى ذهب عينه اليمنى، وقالوا له: اخرج إلى وادي العقيق في المدينة لترى الخضرة والماء، علَّ بصرك أن يعود، قال: لا أخرج من المسجد، كيف تفوتني صلاة في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وهي بألف صلاة فيما سواه، ولما حضرته سكرات الموت، بكت ابنته، فقال: [[لا تبكي علي والله ما أذن المؤذن من أربعين سنة، إلا وأنا في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام]] هذا هو العمل الصالح، هذا هو الحسن والمؤهلات، يوم لا يجدي المال ولا المنصب ولا الوظيفة.

والأعمش حضرته الوفاة فبكى أبناؤه وقال: [[لا تبكوا علي فوالله ما فاتتني تكبيرة الإحرام في الجماعة خمسين سنة]] طوبى لهم

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريير المجمع

الهم فاجمعنا بهم في دار الكرامة: {فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} [القمر: ٥٥].

أيها المسلمون! ومن أسرار لا إله إلا الله، شكر النعم، فلا إله إلا الله ما تستقيم في الأرض إلا أن تشكر الله على السمع والبصر وعلى الفؤاد، وعلى الإيمان والأمن والستر والعافية، وعلى رغد العيش في الأوطان.

ليس الفضل عند الله بالأشكال والأنساب

جاء عبد الله بن أم مكتوم الأعمى الضعيف الفقير المسكين، ولكنه مسلم مؤمن، قائم الليل صائم النهار، جاء إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام يسأله مسألة فرعية فقهية، والرسول صلى الله عليه وسلم مشغول بكفار قريش وساداتهم يريد أن يهديهم

إلى صراط الله المستقيم، فلما دخل عليه، قال: يا رسول الله! أريد كذا وكذا، فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يريد أن تفوته الفرصة مع هؤلاء الكبار.

فعاتبه ربه من فوق سبع سموات، عاتبه في هذا الأعمى المسكين الضعيف المحتاج في خطاب يلذع القلوب، يقول الله له: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} [عبس: ١] وخاطبه بخطاب الغيبة، ولم يقل: عبست، وإنما يقول: عبس أي: تغير وجهه واكفر، عبس هذا الرسول النبي، عبس هذا الداعية في وجه هذا الرجل الصالح، عبس وتولى وأعرض عنه: {أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} [عبس: ٢] أي: كيف تعبس وهو أعمى ولا تستقبله؟ مسلم في قلبه قلعة من قلاع التوحيد، في قلبه جامعة من أكبر جامعات الدنيا من الإخلاص والصدق والتعامل: {أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} [عبس: ٢] أما ترق للأعمى؟! أما تحلم عليه؟! أما تعطف عليه؟! ولم يسمه باسمه وإنما علمه بسمته.

ثم قال الله له: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي} [عبس: ٣] من أخبرك أن هذا أراد أن يتطهر بالعلم النافع؟! فقد أراد منك أن تفقهه في الدين، وأراد منك أن تقوده إلى رب العالمين: {أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى} * {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى} [عبس: ٤ - ٥] أما الكافر الذي استغنى عن الرسالة والرسول، وعن القرآن والسنة، وعن الهداية والنور: {فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى} [عبس: ٦] تستقبله وتهش وتبش في وجهه، وتلين له في الخطاب، تستقبل هؤلاء الجبابرة الذين أتوك، وأما هذا الأعمى تعرض عنه!

{وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي} [عبس: ٧] ليس عليك حساب أن يتطهر هؤلاء، ذرهم يموتون بكفرهم، ورجسهم وعنادهم وجبروتهم فالنار مثواهم: {وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى} * {وَهُوَ يَخْشَى} * {فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: ٨ - ١٠] فلا تفعل ذلك.

{فأتى عبد الله بن أم مكتوم مرة ثانية، فقام له صلى الله عليه وسلم، وعانقه وفرش له رداءه، وقال له: مرحباً بالذي عاتبني فيه ربي} وبالفعل كانت النتيجة أن مات هؤلاء الأشراف السادة على الكفر ودخلوا ناراً تلظى، وأما عبد الله بن أم مكتوم فأسلم واستمر في الإسلام، ولما أتى داعي الهداية، والكفاح، والجهاد، وارتفعت راية الإسلام بيد عمر رضي الله عنه وأرضاه، ونادى بالنفير إلى القادسية، إلى معركة فاصلة مع آل كسرى وآل رستم؛ كان من المجاهدين عبد الله بن أم مكتوم، قال له الصحابة: أنت أعمى، قال: لا والله، يقول الله تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة: ٤١] فلما حضر المعركة، سلموه الراية، فوقف مكانه حتى قتل، فكان قبره تحت قدميه.

سلام على ذاك الصديق المخلص، و سلام على ذاك المنيب الذي عرف الله.

والمقصود: أنه تشرّف بالإسلام، فكان قلعة من قلاع الحق استقبلت نور السماء وفوزته على البشرية، والرسول عليه الصلاة والسلام كما قالت عائشة رضي الله عنها وأرضاها: [لا يعجبه شيء في الدنيا إلا التقى] وعبد الرحمن بن عوف يقول: [والله ما رأيت متقياً لله إلا وددت أني في مسلاخه]].

فأنت ترى المتقي فيحبه قلبك إن كنت مسلماً، وتظهر عليه علائم النصح والقبول والرضا، وترى الفاجر ولو كان وسيماً جميلاً فعليه آيات السخط، والغضب، وعليه سمات الإعراض عن الله، وقال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ} [المنافقون: ٤] أما الأجسام فطويلة، وأما البشرة فجميلة، ولكن القلوب قلوب ضلالة وجهالة وعمالة.

العلم يرفع الناس

دخل سليمان بن عبد الملك -ال خليفة الأموي- الحرم ومعه الوزراء والأمراء والهاشمية والجيش، فقال: من عالم مكة؟ قالوا: عالم مكة عطاء بن أبي رباح، قال: أروني عطاء هذا؟ فأشرف عليه فوجده عبداً كأن رأسه زبيبة سوداء، مشلولاً نصفه، أزرق العينين، مفلفل الشعر، لا يملك من الدنيا درهماً ولا ديناراً، فقال سليمان: أنت عطاء بن أبي رباح الذي طوق ذكرك الدنيا؟ قال: يقولون ذلك.

قال: بماذا حصلت على هذا العلم؟ قال: بترك فراشي في المسجد الحرام ثلاثين سنة ما خرجت منه حتى تعلمت العلم، قال سليمان: يا أيها الحجاج! لا يفتي في المناسك إلا عطاء.

فلما اختلف سليمان هو وأبناؤه في مسألة من مسائل الحج، قال: دلوني على عطاء بن أبي رباح، فأخذوه إلى عطاء، وهو في طرف الحرم والناس عليه كالغمامة، فأراد أن يجتاز الصفوف ويتقدم إليه -وهو خليفة- فقال عطاء: يا أمير المؤمنين! خذ مكانك ولا تتقدم الناس، فإن الناس سبقوك إلى هذا المكان، فلما أتى دوره سأله مسألة فأجابه، فقال سليمان لأبنائه: "يا أبنائي! عليكم بتقوى الله والتفقه في الدين، فوالله، ما ذلت في حياتي إلا لهذا العبد"؛ لأن الله يرفع من يشاء، ويهدي من يشاء، ويجعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قِيَمَةُ من يشاء في تقواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وجاء هشام بن عبد الملك الخليفة أخو سليمان، فحج البيت الحرام، وفي الطواف رأى سالم بن عبد الله الزاهد العابد العالم ابن عبد الله بن عمر، وهو يطوف وحذاؤه في يديه، وعليه عمامة وثياب ودجلة لا تساوي ثلاثة عشر درهماً، فقال له هشام: يا سالم! أتريد حاجة أقضيها لك هذا اليوم؟، قال سالم: أما تستحي من الله؟!

تعرض علي الحوائج وأنا في بيت من لا يحوجني إلى غيره، فاحمر وجه الخليفة، فلما خرج من الحرم، قال: أتريد شيئاً؟ قال: أمن حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قال: أما حوائج الآخرة فلا أملكها، لكن من حوائج الدنيا، قال سالم: والله الذي لا إله إلا هو، ما سألت حوائج الدنيا من الذي يملكها تبارك وتعالى، فكيف أسألها منك؟!

إنهم عظماء، إنهم عاشوا في مدرسة رسول الهدى صلى الله عليه وسلم!

أخرج خير أمة للناس يرون الذهب والفضة مع الكفار فيهدمونها ويطنون عليها بالأقدام، فيقول لهم المستعمر والكافر: خذوا هذا الذهب واتركوا بلادنا، قالوا: لا والله، دارنا وبلادنا جنة عرضها السماوات والأرض.

العزة بهذا الدين

يخرج عمر رضي الله عنه وأرضاه لاستلام مفاتيح بيت المقدس، فيخرج له الناس ويستعرض الجيش المسلم بقيادة الأمراء الأربعة تحت راية أبي عبيدة المقدم الهمام، يستعرضون له بالجابية، فلما أشرف عليهم، قال: لا إله إلا الله! ثم قال: [[نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله]] ثم أمر الكتائب والجيش أن تتفرق ليدخل في مسكنة ودعة وهدوء، فلما اقترب الأمراء منه، قال: تفرقوا عني، أين أخي أبو عبيدة عامر بن الجراح؟ فتقدم أبو عبيدة فتعانقا وبكيا طويلاً، فقال عمر: يا أبا عبيدة! كيف بنا إذا سألنا الله يوم القيامة ماذا فعلنا بعد رسولنا صلى الله عليه وسلم؟

قال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! تعال نتباكي ولا يرانا الناس، فانحرفا عن الطريق إلى شجرة، والجيش تنظر إليهم، والأمراء، والقساوسة، والرهبان، والنصارى، ثم وقفا

يبكيان طويلاً، رضي الله عنكم أيها السلف الصالح يوم عرفتم أن الستين والسبعين السنة ينبغي ويجب أن تصرف في مرضاة الله تبارك وتعالى.

يقول رستم قائد فارس -وتحت يديه مائتان وثمانون ألفاً من الجنود الكفرة- لـ سعد بن أبي وقاص القائد المسلم: أرسل إليّ من جنودك رسولاً أكلمه، فأرسل له سعد رضي الله عنه وأرضاه ربيعي بن عامر، وعمره ثلاثون سنة من فقراء الصحابة قال له سعد: [[أذهب ولا تغير من مظهرك شيئاً، لأننا قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله]] فخرج ربيعي بفرسه الهزيل ورمحه المثلث.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وجاء بثيابه الممزقة، فلما سمع رستم أن وافد المسلمين سوف يدخل عليه، جمع آل أنوشروان الحاكمة والوزراء والجنود، ولبسوا التيجان ولبسوا الإذربيجي واستعدوا؛ ليرهبوا هذا الوافد عله أن يتلعثم فلا يحسن الكلام، فلما جلس رستم، قال: أدخلوه علي، فدخل يقود فرسه ويعتمد برمحه على فرش رستم ليظهر له أن الدنيا حقيرة ورخيصة وأنها لا تساوي عند الله شيئاً، ومن علامات رخصتها وحقارتها أن أعطاه هذا الكافر وجعل سعد بن أبي وقاص ينام على الثرى، فلما وقف أمامه، قال: اجلس، قال ربيعي: ما أتيتك ضيفاً وإنما أتيتك وافداً، فقال رستم -والترجمان بينهما-: ما لكم أيها العرب -وأقسم بآلهته- ما علمنا قوماً أذل ولا أقل منكم! فللرومان حضارة، وللفارس حضارة، ولل يونان حضارة، وللهند حضارة، أما أنتم فأهل جعلان تطاردون الأغنام والإبل في الصحراء، فماذا أتى بكم؟!

قال ربيعي: نعم.

أيها الملك كنا كما قلت وزيادة، كنا أهل فحشاء نعبد الأصنام، ويقتل القريب قربه على مورد الشاة، لا نعرف نظاماً ولا مبدءاً ولا حضارة، ثم انتخى ورفع صوته كأنه الصاعقة في مجلسه فقال: [[ولكن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام]] فغضب رستم، وقال: والله! لا تخرج حتى تحمل تراباً من بساطي، فحمله على رأسه، وقال رباعي: هذه الغنيمة الباردة إن شاء الله، تسليم أرضك وديارك: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٤٥] فلما أشرف على سعد، قال: ماذا على رأسك يا رباعي؟ قال: تراب من تراب أرض رستم وكسرى، فكبر المسلمون حتى اهتز مخيمهم، وقال: هو النصر، هذا تسليم أرضهم بإذن الله.

وفي الصباح الباكر يوم أطلقت الشمس أشعتها على الدنيا كان سعد رضي الله عنه وأرضاه في أول الصفوف، والتقى الجمعان، وبرزت الفتتان، وتبدى الرحمن لحربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي ثلاثة أيام تُسْحَقُ كَتَائِبُ الضلالة والعمالة، وتُداس الجماجم التي ما عرفت لا إله إلا الله، وتُضْرَبُ الرؤوس التي ما دخل فيها نور لا إله إلا الله، ويدخل سعد في اليوم الرابع على إيوان كسرى الذي حكم الدنيا ألف سنة، فيراه مموهاً بالذهب، ويرى سلاسل الزبرجد والمرجان، فيبكي سعد ويقول: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} [الدخان: ٢٥ - ٢٩] .

حال الصحابة بين أقوالهم وأفعالهم

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٢] وسببها أن بعض الصحابة قالوا: [[يا ليتنا ندري أي العمل أفضل فنعمله]] فأُنزل الله الجهاد فخافوا وكن كثير منهم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا

تَفْعَلُونَ* كَبِيرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٢- ٣] لكن وجد من الناس من قال وفعل، كالصحابه رضوان الله عليهم وعلى الأخص الشهداء منهم.

كان البراء بن مالك فارساً عجيباً- يقول عمر للقواد: لا تولوه الجيش؛ لأنه لو تولى الجيش حطم نفسه وحطم الجيش ودخل به في مضيق لا يخرج منه أبداً، عمر يريد قائداً يريد الحياة نسبياً، يريد أن ينجو بالناس، لكن البراء يريد أن يدخل بالجيش فيدمره، قال: لا تولوه قيادة الجيش، كان إذا أراد أن يصارع في المعركة أتاه إغماء، ثم يقوم من الإغماء بعد أن يرش بالماء، فيأخذ سيفه فلا يزال يقاتل في الأعداء حتى ينكسر سيفه أو ينهزم الذي أمامه، هو من أشجع الناس، دخل عليه أخوه أنس وهو يرتجز -أي: ينشد نشيداً إسلامياً ويرفع صوته- وكان صوته جميلاً والصوت الجميل بالشعر المباح لا بأس به، قال له أنس: أتندشد وأنت من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، قال: اسكت فوالله الذي لا إله إلا هو لا أموت إلا قتلاً.

يحلف؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: {رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك} لو حلف على الله لأنفذ الله يمينه؛ لأنه بلغ في الولاية مبلغاً عجيباً، فحلف أن يموت شهيداً.

وسبب هذا الحديث: أن أخت البراء نزع ثنية امرأة، فأتت المرأة تشتكي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قال: نقتص من أحتك يا براء، قال: أختي تقتصون منها، قال: نعم، قال: بم تقتصون؟ قال: ننزع ثنيتهما، قال: والله لا تنزع ثنيتهما أبداً -والرسول صلى الله عليه وسلم هو الحاكم- فقال صلى الله عليه وسلم: اذهبوا إلى أهلها فإن رضوا بالأرث فلا بأس، فذهبوا إليهم فرضوا، فتبسم عليه الصلاة والسلام، وقال: {رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره} أشعث: رأسه ليس مُسَرَّحاً، لا يعرف الدهن ولا الزيت؛ لأنه فقير ثيابه مغبرة، ينام على الرصيف، ويأكل على الرصيف،

ويلقي المحاضرة على الرصيف، ولم ير قصراً إلا بعينه، ومعنى: ذي طمرين أي: ذي ثوبين ممزقين.

ألا رب ذي طمرين محفوفة له غدت روضه منسوجة ونمارقه

إلى آخر ما قال {لو أقسم على الله لأبره} إنما المقصود أقسم أن يموت شهيداً، ويقول عنه أهل السير: إنه قتل مائة فارس مبارزة من غير ما قتل في المعارك.

وأتى وعد الله الحق، وكان إذا حضر المعركة نظروا إلى البراء ماذا يفعل فأتاه الإغماء:

لما حضرنا كشفنا عن جماجمنا ليعلموا أننا بكر فينصرفوا

قالوا البقية والهندي يحصدهم ولا بقية إلا السيف فانكشفوا

أتى في الإمامة هو والأنصار، فلما رأى المسلمين فروا في أول المعركة، ورأى الكفار أقبلوا؛ قال البراء: [[بئس ما عودتم أقرانكم، والله ما كنا نفر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم]] ثم أخذ غمد السيف وكسره على ركبته، ومعنى كسر السيف أنه لن يعود إلى مكانه، فضرب به حتى نصر الله المسلمين.

وأنت معركة تستر وقائدها أبو موسى الأشعري فرأى أبو موسى الجيش الأجنبي الكافر وإذا هو كالجبال، وجيش المسلمين قليل، فالتفت إلى البراء بن مالك الأشعث الأغبر ذي الطمرين، قال: [[يا براء أسألك بالله أن تقسم اليوم على ربك أن ينصرنا، قال: انتظرني قليلاً]] فانتظره قليلاً فذهب واغتسل ولبس أكفانه وتحنط: {وَلَا تَحْسَبَنَّ

الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ {آل عمران: ١٦٩ - ١٧١}:

إذا ما فررنا كان أسوأ فرارنا صدود الخدود وازورار المناكب

صدود الخدود والقنا متشاجر ولا تبرج الأقدام عند التضارب

أتى والمسلمون صف والمشركون صف، وقال: [[اللهم إني أقسم عليك اليوم أن تنصرنا وتجعلني أول شهيد]] ودارت رحى المعركة وكان أول شهيد في المعركة، وانهمزم الأعداء ولحقهم المسلمون يضربون فيهم ضرباً عنيفاً حتى هزموهم {فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [محمد: ٢١] {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].

كان سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة إذا أتى في المجلس والرسول صلى الله عليه وسلم معه علماء وكبار وشهداء الصحابة يقول: {هذا خالي فليرني كل خاله} أي: من كان عنده خال فليرني مثل هذا الخال.

فأتى سعد رضي الله عنه فقال: [[لما حضرنا معركة أحد أتى عبد الله بن جحش وهو شاب في الثلاثين قال: يا سعد تعال ندعو الله وراء هذه الصخرات، قال: فملت معه وراء الصخرات، قلت: ادع أنت، قال: فدعوت الله بالنصر للإسلام والمسلمين وللرسول عليه الصلاة والسلام - قبل المعركة بدقائق - فأما عبد الله بن جحش

فاستقبل القبلة وقال: اللهم إنك تعلم أنني أحبك، اللهم لاقي بيني وبين كافر هذا اليوم شديد حرجه قوي بأسه فيقتلني فيك، فيبقر بطني ويجدع أنفي، ويفقأ عيني، ويقطع أذني، فإذا لقيتك يوم القيامة في هذه الصورة تقول لي: لم فعل بك هذا؟ فأقول: فيك يارب، قال سعد: والله الذي لا إله إلا هو ما انتهت المعركة إلا ورأيت مبقور البطن، مجدوع الأنف، مفقوء العينين، مقطوع الأذنين، فقلت: أسأل الله أن يلبي له ما سألت [[فقد قدم أول المؤهلات، وهي قوله: (إنك تعلم أنني أحبك) وهذه من رواية سعيد بن المسيب.

ولذلك قالوا فصدقوا، ونووا فأعطاهم الله أحسن ما تمنوا، فيالله كيف كانوا من جيل! ولا إله إلا الله كم بنى صلى الله عليه وسلم من صرح! وكم ترك من فئة عبدت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَسْست كياناً خالداً في الأرض لا يمحي أبد الدهر! {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤].

تفسير قوله تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة: ٤٥] هنا في هذه الآية الكريمة عدة مسائل:

أولاً: أن هناك إشكالاً وهو أنه كيف يكون هذا الخطاب لبني إسرائيل وهم لا يصلون؟ وقد أجاب على ذلك بعض العلماء بأنه لعلمهم أن يتوبوا وغير ذلك من الأجوبة.

والسؤال الذي أثاره الرازي وغيره كيف يأمرهم الله بالصلاة وهي لم تفرض عليهم كهيئة الصلاة هذه؟ قالوا: الصلاة تشمل الذكر والخشوع والإنابة، فيمكن أن يكون لهم صلاة مختلفة الهيئة عن صلاتنا، إذ أقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ} [البقرة: ٤٥] كيف يستعينون بالصبر ويصبرون؟

والصبر هذا من أحسن ما يوصى به المؤمن، قال الإمام أحمد: عجيب أمر الصبر تدبرته في القرآن فوجدته في أكثر من تسعين موضعاً.

سئل عمر: [[بم أدركتم هذه المنازل؟ قال: بالصبر أدركنا ما تمنينا]] والصبر لو كان رجلاً لكان جميلاً، ولو كان جبلاً لكان راسياً، ولو كان شجرة لكانت فواحة معطاة، والصبر كالصبر وهو دواء مر علقم يحرق، فالصبر مثله ولكنه في الأخير من أحسن ما يكون:

صابر الصبر فاستجار به الصبر فقال الصبور للصبر صبراً

ومعنى هذا الكلام، أي: الرجل العظيم صابر الصبر، وتوافق هو والصبر في منزلة حتى يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠] قالوا: اصبروا على الأعمال، ثم طاولوا في الصبر ومدوا أنفاسكم واثبتوا على مكان الصبر، واتقوا الله لعلكم تفلحون.

فقال الشاعر: هذا الرجل فيه من الصبر أنه صابر الصبر (فاستجار به الصبر) أي حتى قال الصبر: أعوذ بالله منك، فاستعاذ الصبر بالله من هذا الرجل من شدته وقوته، (فقال الصبور) أي الرجل للصبر: صبراً.

وبات أبو وردي المحدث الشاعر الكبير يقول:

تسترت من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
 فلو تسأل الأيام عني ما درت وأين مكاني ما عرفن مكاني
 ثم يقول في قصيدة أخرى:

وبات يريني الدهر كيف اقتداره وبت أريه الصبر كيف يكون

قيل: كيف يذاق الصبر؟

قالوا: "من لم يعرف الصبر ما ذاقه".

العقل البشري يتكون من أربعة أقسام

كتب بحث: أن علماء أمريكيان توصلوا إلى علم دقيق في آخر علومهم؛ هذا العلم يتحدث عن الدماغ الذي خلقه الله في رأس الإنسان، واكتشفوا أنه يتكون من أربعة أقسام، أو أربع غرف:

أما القسم الأعلى الأيمن: فهو مكانٌ للتفكير؛ خصصه الله وأوجده ليفكر به الإنسان، فهو قسم خاص مكون من خلايا تأخذ المعلومة فتحضمها، وتتأملها، وتتفكر فيها، وتدرسها دراسة مستفيضة، وقد سموا هذا القسم بقسم الدراسة.

وأما القسم الأعلى الأيسر: فهو قسم النطق والكلام؛ وهذا القسم عبارة عن غرفة من الخلايا تجمع كلام الإنسان، وماذا يريد أن يتحدث به، وترتب كلامه، وحروفه،

حتى ينطق بما يريد التكلم به، فإذا أراد أن يقول: محمداً فلا يقول: علياً، وإذا أراد أن يقول: (ب) فلا يقول: (ر) وهذا دليلٌ على ألوهية وقدرة الواحد الأحد.

أما القسم الأسفل الأيمن: فهو قسم خاصٌ بعواطف الإنسان، وأمزجته؛ من حبٍ، وبغضٍ، وسخطٍ، وانسراحٍ، وميلٍ، فإذا أحب الإنسان شيئاً انطلق هذا الجهاز يسلط حبه على هذا الشيء، وإذا أبغض شيئاً انطلق هذا الجهاز يرسم له بغض هذا الشيء.

وأما القسم الأسفل الأيسر: فهو قسم التحكم، قالوا: وهو جهازٌ إداريٌّ عصبي، يتحكم في المعلومات، والحروف، والنطق.

وقالوا: فإذا اختلَّ جهاز التفكير؛ اضطرب الإنسان فأصبح مجنوناً، أو معتوهاً.

وإذا اختلَّ جهاز النطق القسم الأعلى الأيسر؛ أصبح الإنسان ثرثاراً لا يتحكم في كلامه.

وإذا اختلَّ جهاز العواطف الجانب الأيمن الأسفل؛ فمعنى ذلك: أن يصبح الإنسان إما قاسياً بارداً، وإما ملتهباً حاراً، والمتوسط من توسط مزاجه.

وإذا اختلَّ جهاز التحكم الأيسر الأسفل؛ فمعنى ذلك: أن الإنسان ينهار فلا يتحكم في طاقته، ويصاب بشلل.

حينها عرضوها للعالم؛ ليشهدوا على أنفسهم بالكفر، ويشهدوا بأن لا إله إلا الله، فأسلم بعضهم بمثل هذه النظريات وكفر بعضهم.

ونحن نقول لأنفسنا: أما نزل علينا قرآنٌ يقول: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى
جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

قوة الله هي العظمى

سفينة تضررت بعدما أبحرت في المحيط الأطلنطي، فأصبح أهلها في ظلام الليل
واليم، وفي شباك الموت، وفجأة انقطع الجهاز المرسل -الهوائي- عن السفينة المبحرة
الأخرى التي أتت لإسعافهم؛ فانقطعوا من البر، والبحر، والجو، والجبال، والوهادج،
وانقطعوا من كل شيء، ولم يبق إلا إرسال الله.

يقول راوي القصة وهو أمريكي، كان معهم وهو مكتشف ومخترع وذكيٌّ من أذكىاء
العالم قال: فلما أبحرنا أظلمت بنا الدنيا، فحاولنا الاتصال فأخفقنا وفشلنا، فانقطع
اتصال الهوائي، وفي الأخير اتصلت قلوبنا بالله؛ يقول الله عن كفار قريش، وعن كل
مشرِك: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [العنكبوت: ٦٥] إذا هاجت
الريح، وتلاعبت بالسفينة الأمواج، وانقطعت اتصالاتهم بالناس اتصلوا بالله، وهذا
كفعل يونس بن متى عليه السلام؛ عندما انقطع البشر عنه، وانقطع اتصاله بالناس،
وأصبح في ظلماتٍ ثلاث: ظلمة اليم، وظلمة الحوت، وظلمة الليل، فقال في الظلمات:
{لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٨٧] فأنجاه الله.

قال الأمريكي: فأخذنا ننادي -يعني: بلغتهم- الله الله! يعني: انتهت كل الاتصالات فلم
يبق أمامهم إلا الله، وانتهت قوى الأرض العظمى ولم يبق إلا الله؛ فنجاهم الله إلى البر،
وفي الأخير أعلنوا إسلامهم، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وآخر النظريات التي اكتشفها سوخاروف، وهو عالم روسي في موسكو: اكتشف أن للنبات ذبذبات يطلقها على النبات الآخر وللحشرات، وهذا دليل على قوة عظمى ليست بقوة بشر، قلنا له: يا ملحد! إنها قوة رب البشر، لا إله إلا الله: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: ٢١] {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} [الغاشية: ١٧ - ٢٠] سبحان الله! كيف أعطى دواب وحيوانات القطبين جلوداً من فراء، وأعطى حيوانات الصحراء أربع أرجل، وأعطى الطير في السماء أجنحة، وأعطى السمك في الماء مجاديف، فما أحكمه! وما أعظمه! وما أقدره! وهذا الشعور ينبغي أن يتحول إلى إيمان لا إلى مجرد علم فحسب، فلا يكفي إن لم يتحول إلى عمل، وقد قال الله عن أهل الكفر: {يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧].

قصة جذع النخلة ودلالاتها

جاء في صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه وأرضاه، قال: قال عليه الصلاة والسلام لامرأة من الأنصار: {مري غلامك النجار أن يصنع لي منبراً أخطب الناس عليه.

فصنع ذاك الغلام له صلى الله عليه وسلم منبراً، فأتى عليه الصلاة والسلام، وهجر الجذع الذي كان يخطب عليه سابقاً -جذع نخلة- وأخذ هذا المنبر، فلما رقى على هذا المنبر وصعد عليه، وترك ذاك الجذع؛ حنَّ ذاك الجذع وبكى، قال جابر: والله لقد سمعنا له صوتاً كصوت العشار -أي: النوق- وقال أنس: والله لقد سمعنا له بكاءً كبكاء الأطفال في المسجد -شهد هذه القصة أكثر من ألف من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم- ثم نزل عليه الصلاة والسلام من على منبره، وقطع خطبته، وأتى إلى الجذع فوضع يده عليه يقرأ عليه، ويسمي عليه، ويدهده عليه كما يدهده على الأطفال حتى سكنت}

قال الحسن البصري: [[يا عجباً لكم! جذعٌ من نخلة يحن لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم لا تحنون لسنة]].

إن واجبنا في الرجوع إلى الله في هذه الأيام -وفي عودة المسلمين- أن نأتي بحرارة إلى كتب السنة بعد القرآن، ونترك تلك الثقافات الدخيلة التي شوشت قلوبنا، ولعبت بعقولنا، وضيعت أوقاتنا الثقافات التي صدرها نابليون في حملاته، وكانت وديكارت؛ فأخرجت جيلاً ليسوا بجيل كجيل الصحابة، وثقافات مشوهة فلا بد أن نعود إلى المنبع العذب الصافي؛ منبع محمد صلى الله عليه وسلم.

الحجاب في الإسلام

المرأة في الإسلام درة وشمس، ووردة مكنونة لا تهان ولا تداس، محترمة فمن هذا المبدأ ننفذ إلى قضية الحجاب، فالحجاب ستر أراد الله للمرأة، وسنة سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعنى خروج المرأة عن الحجاب أنها تغضب المولى وتستحق اللعنة -أعوذ بالله من اللعنة- ولذلك في أثر أن المرأة إذا تطيبت وخرجت من بيت زوجها بدون إذنه لعنتها الملائكة حتى تعود.

فيا أخواتي المسلمات! أما رأيتم إلى الصور الخليعة من صور النساء الأجنبية، المعارضات، المنحرفات، فيوم تركت المرأة دينها وعقلها وإيمانها ومراقبة ربها، وخرجت على الحجاب، ضلت سواء السبيل، وخلعت جلباب الحياء، فلذلك تحمل كثير من المجلات صورة المرأة الداعرة، وصورة المرأة التي تعرض نفسها على الأجانب، والتي ما عرفت السجود لله، ولا عرفت الوضوء ولا المصحف، ولا عرفت الاستغفار والتوبة.

ولذلك عانت كثير من الأسر العار والمسبة والدمار وقلّة المروءة بسبب امرأة تهتك ونزعت الحجاب.

إن الحجاب سنة وفريضة، وله كيفية في دين الله عز وجل، الحجاب هو ستر جمال المرأة لئلا تراها العيون، وأما من نادى بأن الوجه والكفين لا يدخله الحجاب فقد أخطأ خطأ بيناً، وغلط غلطاً فاحشاً، لا والله؛ بل الوجه يُستر ويبقى محجباً، وجه الجمال والروعة والحسن، ويوم يهتك الحجاب عن الوجه، فلا يبقى هناك حجاب ولا يسمى حجاباً، ويسمى هذا معارضة لشرع الله تبارك وتعالى.

الخلوة بالأجنبي

وجد من النساء من تخرج مع السائق في خلوة ليس معها محرم، تجوب به المدينة، وتدخل به الأسواق، وتخترق به صفوف المسلمين، وتجرح مشاعر المؤمنين، وتخبب أمل أمتها فيها، ثم تحدث أمور الله أعلم بها في ظلام الليل، لكن الذي خلق الليل يعلم ما حدث فيه، والذي ستر المذنبين يعلم ما يفعلون.

فامرأة تخرج بسائقها إلى السوق وتضيع عن أهلها ساعات طويلة لا يدري أين ذهبت، وامرأة تسافر مراحل مع الأجانب، وامرأة تذهب إلى الخياط الأجنبي الذي ليس عنده من الوازع الديني، ولا من الإيمان، ولا من مراقبة الواحد الأحد ولو ذرة، امرأة تذهب إلى الخياط تحمل فستانها وجلبابها ولباسها فتبيع دينها وعرضها، امرأة تذهب فتكلم ذاك وهذا.

ولذلك أنعى إلى أخواتي المسلمات مسألة الهاتف، وما أحدث عند اللواتي لم يحملن إيماناً ولا مراقبة من شر مستطير، وهناك كتيب سوف يصدر قريباً لإحدى المسلمات المؤمنات اسمه أيتها المسلمة احذري التلفون الهاتف ورأيت من بعض التقارير والاستقراءات مما أحدث هذا الجهاز من مضرة، وما هتك من أعراض، وما

ضيع من حشم ما الله به عليم، فنسأل الله أن يصلح الحال، ولكن حذار حذار من الخلوة بالأجنبي.

ومن الفقه الأعوج، ومن السفه أن وجد عشرات بل مئات من النساء يحضرن صلاة التراويح يردن الأجر والمثوبة، لكن تركب مع السائق الأجنبي في الخلوة فيجوب بها الشوارع ويذهب بها إلى المسجد، فأى طاعة وأى قربة وأى حسنات وأى درجات هذه، عصت الله في أول الطريق حتى وصلت إلى المسجد وأغضبت المولى تبارك وتعالى حتى وصلت إلى بيت الله تعالى متعطرة متطيبة مع سائق أجنبي في خلوة محرمة ثم دخلت المسجد لتؤدي نافلة.

والله لجلوسها في بيتها أرفع وأولى، ولمقعدها في عقر دارها أحسن عند الله مثوبة وأجراً، إنها هتكت جلباب الحياء، وأفسدت أكثر مما أصلحت، وعادت من المسجد مأزورة لا مأجورة، ومدحورة لا مشكورة، لأنها عرضت نفسها للفتن، وكم تفتن القلوب وكم تحدث في النفوس من فتنة عارمة إذا شم أحد الناس الفاسقين الطيب الذي يفوح من جلباب هذه المرأة، إذا نظر إليها أو خلا بها، فإلى الله نشكو حالنا، وإلى أخواتي المسلمات أنادي نداء حاراً أن اتقين الله في هذه الأمة؛ في مستقبلها وفي أبناء الجيل، وفي بيوت المسلمين والمسلمات.

أعظم لباس هو لباس التقوى

أعظم لباس {وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف: ٢٦]

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً وإن كان كاسياً

فمن استتر بستر الله من الطاعات والعبادات والأخلاق الجميلة، ستره الله في الدنيا والآخرة، ولو كان في قلة من الثياب، ومن تكشف أمره بالمعاصي والذنوب والخطايا لا يستره الله ولو لبس ما في الدنيا من ثياب {وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف: ٢٦] فأحسن لباس -يا عباد الله- لباس التقوى، وإني أدعو نفسي وإياكم إلى التلبس بهذا اللباس بالأخلاق الجميلة بالتواضع بالصدق مع الله والإخلاص، لعل الله أن يلبسنا وإياكم التقوى في الدنيا والآخرة، فإن من ألبسه الله التقوى نجح في الدنيا والآخرة، ولا يخاف ظلاماً ولا هضماً.

قال البخاري: وعن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة}.

قال أبو بكر: يا رسول الله! إن أحد شقي إزاري يسترني إلا أن أتعاهد ذلك منه.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لست ممن يصنعه خيلاء {مر هذا معنا وأن بعض الناس يقول: إن ثوبي طويل، وأنا لا أفعل ذلك خيلاء، فنقول: الإزار غير الثوب، فالإزار هو ما يلف بشيء، أو يربط، أو يعقد عند الأزر، فهو يرتخي بالطبع}.

أما الذي يذهب إلى الخياط، فيقول: أسبله في الأرض، فهو الذي تعمد، وهو الذي أتى بهذا الخطأ وهذا الذنب، ولا يقل فيما بعد: الخياط هو الذي فعل كذا، وكثير من الناس إذا قيل له: ارفع إزارك، قال: حسبنا الله على الخياط.

سبحان الله! هذا الخياط كيف تعرض للمسلمين دائماً في تطويل ثيابهم، وإذا قيل له: ربِّ لحيتك، قال: حسبنا الله على الحلاق.

أصبح الخياط، والحلاق، والفران، والخباز، والغسال، المسئولين عن عقائد الناس، وعن عباداتهم وآدابهم، ومتى كانوا كذلك؟ إنما هم يفعلون ما يؤمرون، لا يعصون أبداً، فأنت إذا اتقيت الله عز وجل لا يصيبك لوم.

وعلى المسلم ألا يستنكف عن السنة، حتى إن بعضهم يقول: العصر لا يناسب أن نجعل ثيابنا فوق الكعب.

نحن لا نقول: يرفعها كثيراً، لكن فوق الكعب، وسوف يجملك الله عز وجل ولو فوق الكعب، أما أن تسحبها سحباً فإنك لست مسئولاً عن كنس الشوارع ولا الأحياء، فقد تولاهما غيرك، فأنت ببارك الله فيك- لباس التقوى هذا هو لباس عباد الله الصالحين، ولباس المصطفى عليه الصلاة والسلام.

عمر رضي الله عنه طعن وهو في سكرات الموت، وأتى شابٌ يجر إزاره، فقال له: [[يا بن أخي، ارفع إزارك فإنه أتقى لربك وأنقى لثوبك]] وفي بعض السير [[أنقى وأنقى وأبقى]] فهو أبقى للثوب، وأتقى لله، وأنقى للثوب من النجاسات، وهل تدلك الشريعة إلا على ما فيه خير لك في الدنيا والآخرة، وكلما علم الله أنك تريد التقيد بشرعه كلما زادك من الخير والفضل والحسن في الدنيا والآخرة، وهذه الشريعة لا يستنكف ولا يتكبر عليها.

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: {خسفت الشمس ونحن عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقام يجر ثوبه مستعجلاً حتى أتى المسجد، وثاب الناس فصلي ركعتين، فجلي

عنها -أي: عن الشمس- ثم أقبل علينا وقال: إن الشمس والقمر آيتين من آيات الله، فإذا رأيتم منها شيئاً فصلوا وادعوا حتى يكشفها} أي: يكشفها الله عز وجل.

وهذا الحديث له قصة: مات ابن الرسول عليه الصلاة والسلام إبراهيم، وعمره ما يقارب السنتين، فلما مات كان من قضاء الله وقدره أن يكسف بالشمس في ذلك اليوم، لا لموت ابنه، فلما كسفت الشمس في ذلك اليوم قام عليه الصلاة والسلام من مجلسه، يجر إزاره، وفي بعض الألفاظ سقطت عمامته في الأرض خائفاً أن الساعة قامت؛ لأنه أول مرة في حياته تكسف، وما كان يعرف صلى الله عليه وسلم أن هذا سوف يقع، فقام إلى المسجد وقام الناس وراءه، وتباكى النساء والأطفال، وثوب بالصلاة ودخل يصلي، والبكاء يقطع صوته صلى الله عليه وسلم، فقرأ سورة البقرة، وفي أثناء الصلاة تأخر قليلاً وتقدم قليلاً، فلما سلم قام فألقى خطبة عظيمة، لأنه سمع الناس يقولون: كسفت الشمس لموت إبراهيم فقال: {إن الشمس والقمر لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته، إنما هما آية من آيات الله يخوف الله بهما عباده قالوا: يا رسول الله! نراك تقدمت؟! قال عليه الصلاة والسلام: عرض علي عنقود من عناقيد الجنة، ولو أخذته لأكلته ما بقيت الدنيا، ثم رفع العنقود.

قالوا: ورأيك تأخرت؟! قال: رأيت عمرو بن لحي الخزاعي الذي سيب السوائب يجر قصبه في النار.

وفي لفظ: عرضت لي النار كعرض هذا الحائط، وعرضت لي الجنة فلم أر كالحير والشر اليوم} فما أحسن الخير وما أشد الشر! هذا مناسبة الحديث.

فهو صلى الله عليه وسلم لم يجر إزاره متعمداً، وإنما للخوف وللخشية نسي من نفسه صلى الله عليه وسلم، فارتخى الإزار فقام يزحف إلى المسجد ليصلي بالناس.

إذا: فالرسول لم يجر الإزار متعمداً، وليس فيه دليل لمن جر ثوبه أو إزاره، بل هذا حدث على خلاف المراد والمقصود.

رحمة الرجل لأهل بيته

من الرحمة التي يريدها سُبحَانَهُ وَتَعَالَى في الناس: أن يرحم الرجل أهل بيته، وأول ما يرحمهم به أن يقودهم إلى الإسلام، فوالله لرحمتك لأهل بيتك بقيادتهم إلى الإسلام أعظم من تقديم الطعام والشراب إليهم، يظن بعض الناس أن الرحمة لأهل البيت أن يشبعهم ويكسوهم ويسكنهم ويسدل عليهم الخير؛ وهذا من الرحمة، لكن أعظمها أن تقودهم إلى الجنة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦].

معاملة عمر لرعيته

فهذا عمر يطوف في المدينة! وهو رجل الأمة الأول، وهكذا يعنون له الفضلاء، ينام الناس في العاصمة ولا ينام، ويشبعون ولا يشبع، ويرتاحون ولا يرتاح.

إذا هدأت العيون ونامت وتلألأت النجوم، أخذ درته وجاب سكك المدينة يتفقد، هل من مريض؟

هل من أرملة؟

هل من مجرم يؤدبه؟

وفي ليلةٍ من الليالي: سمع امرأة في خيمة وهي في النفاس، فسمعها تصرخ من ألم الولادة فبكى، وذهب إلى بيت المال وحمل شحماً وزيتاً وزبيباً وبراً على كتفه فقال أسلم مولاه: أنا يا أمير المؤمنين! أحمل هذا، قال: لا.

إنك لا تحمل أوزاري يوم القيامة، ودخل الخيمة وصنع الطعام وقدم العشاء للمرأة، فقالت: والله إنك خيرٌ من عمر بن الخطاب، وهو عمر بشحمه ودمه وإيمانه وإخلاصه.

ذهب عمرو بن العاص إلى مصر أميراً فاتحاً، فتسابق ابنه محمد ومصريٌّ على فرسين، فسبق المصري محمد بن عمرو بن العاص وهو ابن الأمير، فنزل ابن عمرو، فضرب المصري على وجهه، لماذا؟ أهذا نهج الإسلام؟! أهذه العدالة المنشودة التي أتت من فوق سبع سماوات؟! أهذا ميثاق: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] أن يمتن الإنسان ويضطهد؟!!

فذهب المصري إلى عمر فأخبره، فدعى عمر عمرو بن العاص وابنه محمداً، والجماهير من الأمة ملء الأرض، فلما قدم عمرو وهو لا يدري ما الخبر وبيده ابنه محمد، وقبل أن يسلم على عمر، قام عمر بالدرة التي إذا ضرب بها أحداً من الناس؛ أخرج وساوس الشيطان من رأسه! قال للناس: والله لا يحول بيني وبين عمرو وابنه أحد، ثم أخذ عمرًا فبطحه أرضاً.

كل بطّاحٍ من الناس له يومٌ بطوحُ

ثم أتى بابنه محمد فنكسه عليه، وأخذ يضربهم ضرباً مبرحاً، فيقول عمرو: الله الله يا أمير المؤمنين في! الله الله في! فيقول عمر: [[متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!]].

متى كانوا عبيداً؟

متى كان هذا الإرهاق والاضطهاد والتبعية؟!

ما فائدة الإسلام في الأرض إذا؟!

فما نفع الميزان والكتاب والسنة؟

وتمشي المسيرة، ويأتي عام الرمادة، عام ثمانية عشر للهجرة، فتأخذ الأخضر واليابس، ويموت الناس جوعاً، فيكتب عمر للأقاليم، أن يحضروا عنده في المدينة، فنصب لهم خياماً، وقال: [[إن حييت، فالحياة حياتي، وإن متُّ ماتوا معي]] كان يأخذ الطعام في الصباح في الصحاف على رأسه ورءوس أبنائه ويوزعه في الخيام، كان يجلس فيبكي ويقول: [[الله يا عمر كم قتلت من نفس!]] لماذا قتلت؟ من قتلت؟ وأنت تحيي النفوس ولا تقتلها!

وفي عام الرمادة، حلف ألا يأكل سميناً ولا ينبل في سمن، حتى يرفع الله الضائقة عن المسلمين، وقف على المنبر يوم الجمعة، ببرده المرقع -طيلة الخلافة- ليس معه إلا هو، والله! لو أراد أن يبني بيته من الذهب الخالص لاستطاع، والله! لو أراد أن يمشي من بيته إلى المسجد على الحرير والاستبرق لاستطاع، والله! لو أراد أن يجعل أسوار المدينة من الزبرجد الذي كسبه من كسرى وقيصر لاستطاع.

يقف في أثناء الخطبة، فتقرقر بطنه وأمعاؤه تلهب من الجوع، رجل لا يأكل ثلاثة أيام إلا كسرة خبز من شعير! فيقول لبطنه: [[قرقر أو لا تقرقر، والله لا تشبع حتى يشبع أطفال المسلمين]]

هل لنا تاريخ غير عمر؟

هل معنا تاريخ غير تاريخ عمر؟

وبماذا نتكلم مع الأمم؟

وبماذا نفتخر؟

وبماذا نتصدى للهجمات البشعة على الإسلام إلا بمثل عمر؟!

أذعن له الكفار قبل المؤمنين.

يقول مايكل هارف الدكتور الأمريكي: في كتابه الأوائل، (ص: ١٦٤): "هذا وكان لعمر بعد محمد -عليه الصلاة والسلام- أعظم الأثر في فتوحات الإسلام، فلولاه -هكذا يقول: ونحن نقول: لولا الله- لما انتشر الإسلام هذا الانتشار الفظيع السريع في الأرض".

يصلي عمر بالناس صلاة الاستسقاء، فلا يدرون ماذا يقول من البكاء، وهو يسأل الله ألا يجعل هلاك الأمة في ولايته، فينهل الغيث وهو في المصلى!! ويسير الماء غدقاً تحيا به النفوس والقلوب وتعود الحياة إلى العاصمة.

معاندة بني إسرائيل للرسول

كان رجل من بني إسرائيل غنياً ثرياً، فعدى عليه ابن أخيه في الليل فذبحه!

اغتيال رهيب في ليلة ظلماء!

وأتى هذا القاتل المجرم إلى موسى ليخفي جريمته، ويبعد التهمة عن نفسه، فبكى بين يدي موسى عليه السلام، قال له: مالك؟ قال: عمي قتل البارحة وأنت المسئول عنه، فأنت النبي وبيدك الحكم: سل الله من قتل عمي، فجمع موسى بني إسرائيل وقال: من قتل عم هذا الرجل؟ قالوا: لا ندري، إن كنت يا موسى نبياً فسل ربك، فهم يقولون: ادع لنا ربك، قال أحد المفسرين: قبحهم الله وفضحهم، أليس برهيم؟! لماذا لم يقولوا: ادع ربنا، وإنما قالوا: ربك؟ فابتهل واستقبل القبلة وبكى وقال: اللهم أخبرنا من هو القاتل.

فقال الله: يا موسى! مر بني إسرائيل أن يأخذوا بقرة فيذبحونها، ثم يأخذوا عضواً منها فيضربوا الميت؛ فإنني سوف أحياه بإذني؛ فيتكلم فيخبر بمن قتله، قال الله: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٧٢ - ٧٣] فقال موسى: اذبحوا بقرة، قال ابن عباس: [[لو أخذوا بقرة من عرض البقر لأجزأتهم]] لكن تعنت البقر، أمام قصة البقر، لأن العقول التي لا تهضم معلومات الوحي تعترض، والعقل الجامد أمام النور الخالد يعترض، الله يقول: اذبحوا بقرة فاعترضوا، ففي كل شئوهم اعتراض، أنزلهم في واد فيه من وسلوى، حمام مشوي وعسل فقال: كلوا، قالوا: لا {فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} [البقرة: ٦١] أخرجهم من البحر وأقدامهم مبتلة بالماء، فلما خرجوا وذهب يكلم ربه عبدوا العجل، وقالوا: ظمئنا أين الماء؟ فضرب الصخرة بالعصى فانفجرت اثنتي عشرة عينا، قالوا: أين ربك؟ قال: أكلمه، قالوا: اذهب فكلمه.

فذهب فلما أتى وجدهم قد أخذوا هذا العجل وسجدوا له، فتاب إلى الله وبكى موسى منهم، قال: يا رب! ما توبة بني إسرائيل؟ قال: خذ من خيارهم سبعين رجلاً والقني بطور سيناء، فإذا لقيتموني فاسجدوا لي؛ لأتوب عليكم، {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ

رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا} [الأعراف: ١٥٥] فاختر من خيارهم سبعين، فمضى بهم إلى طور سيناء وقال: لا تتكلموا فإن ربي سوف يكلمني، فإذا كلمني فاسجدوا وابكوا، قالوا: نعم، فلما كلمه الله لم يسجدوا، فالتفت إليهم وقال: ما لكم؟ قالوا: أرنا الله جهرة.
قال: اسجدوا لله قالوا: أرنا الله جهرة.

فأنزل الله عليهم صاعقة فقتلت السبعين جميعاً، فوقف موسى باكياً وقال: يا رب! أعود لبني إسرائيل فيقولون لي قتل السبعين من خيارنا، فماذا أقول لهم؟ قال الله: سأحييهم لك.

فأحياهم الله، وقالوا: يا موسى أحيانا الله فأرنا آية؟ فنتق الله الجبل فوق رؤوسهم {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ} [الأعراف: ١٧١] قال: أصدقتم؟ قالوا: لا.

قصة أبي مسلم الخولاني

ذكر ابن رجب في جامع العلوم والحكم: أن أبا مسلم الخولاني كان لا يفتخر لسانه من ذكر الله، دخل على معاوية، وهو يتمتم بالذكر، فقال معاوية: أجنون هذا يا أبا مسلم؟ قال: بل حنون يا معاوية.

حنون إلى رضوان الله، حنون إلى عطاء الله، حنون إلى الاتصال بالله.

والذهبي يذكر عن أبي مسلم هذا الذاكر، أن له قصة عجيبة كادت تودي بحياته، لكن الله حفظه يوم أكثر من الذكر، يوم أكثر من الاتصال بالله، ذلك أن أبا مسلم دخل على الأسود العنسي الكذاب الدجال في اليمن الذي ادعى النبوة في صنعاء، فقال له الأسود: هل تشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: هل تشهد أني رسول الله؟

قال: لا أسمع شيئاً، فأعاد عليه الكلام، فأعاد عليه الجواب، فجمع له حطباً وأججه، فلما صارت ناراً عظيمة ذات سعير، قال لجنوده: ألقوه في النار، فأخذوه بتلابيب ثيابه وأكتافه ومجامع جسمه، فلما حملوه في الهواء تذكر الواحد الأحد، تذكر الركن.

قال وهو في الجو: حسبي الله ونعم الوكيل، وهي كلمة إبراهيم عليه السلام لما ألقى في النار. وكلمة محمد صلى الله عليه وسلم لما قيل له: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُم فَاخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران: ١٧٣] فلما وقع في النار، حولها الله برداً وسلاماً، وذلك في خلافة أبي بكر الصديق، وارتحل من اليمن واستقبله الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه وعمر والصحابة، وقال عمر: [[مرحباً بالذي جعله الله في أمة محمد كالخليل إبراهيم عليه السلام]] وما ذلك إلا لكثرة اتصاله وذكره للواحد الأحد.

أيها الناس! أوصيكم ونفسي بكثرة الذكر، فإن فوائده جليلة أوصلها ابن القيم إلى ما يقارب الثمانين، وقال: لا يأتي الحصر عليها منها: طرد الشيطان، وإرضاء الرحمن، وإذهاب الوسواس، والرضا بمقدور الله، والاطمئنان إلى الله، والقضاء على الفراغ، والهم والغم والحزن، وجمع الجهد، والقوة، والنظرة، والمهابة، والحلاوة، والطلاوة، والملاحاة التي يكسبها الله العبد، والأجور الحاصلة، وتكفير السيئات، ومن أعظمها أن يسكن القلب إليه سبحانه وتعالى.

معنى (أمة وسطاً)

يقول الله تبارك وتعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣] فما معنى الوسط؟ وما مدلولها؟ وما حدها ومقدارها؟

الجواب

الوسطية: مدار دلالتها عند أهل التفسير على ثلاث معانٍ:

قيل: العدول.

وقيل: الخيار.

وقيل: المتوسطون في أمورهم.

وكان المعنى الأخير، وهو التوسط في الأمور هو المقصود، أو القريب من المقصود إن شاء الله، فنحن أمة وسط.

وسط في المعتقد، فلسنا بالأمة التي تلغي اعتقادها، ولا تؤمن بإله كأهل الإلحاد والوثنية، وأهل الفكر العفني المتخلف الذين كفروا بالإله، لا إله إلا هو {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥].

ولسنا بالأمة التي ضاهت أهل الحلول والاتحاد، فجعلت كل مطعوم ومشروب ومحبوب ومنكوح ومرغوب إله كما فعل ابن عربي في فتوحاته وفصوصه، وأتباعه قاتلهم الله أنى يؤفكون، بل نحن نشهد أن لا إله إلا الله، فلا إله إلا الله، ولا معبود إلا الله، ولا محبوب، ولا مرغوب، ولا مرهوب، ولا مطلوب إلا الله، فلا إله إلا هو، هو إلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنحن في المعتقد وسط بين الفريقين وبين الواديين، ووسط في الفن والجمال.

فلسنا بالأمة البليدة الغبية، التي تتنكر للحب والجمال، والله جميل يحب الجمال، جمّل الكون، وجمّل المخلوقات، ولسنا بالأمة المفتونة التي ترقص على الجمال، وتعبد الجمال، وتسجد للجمال! إننا أمة تحب الجمال إذا سقاها هذا الحب إلى مرضاة الله تبارك وتعالى حب حلال مباح، يقوم مقدرات العبد في الحياة، ويرغبه فيما عند الله سبحانه وتعالى.

ونحن أمة وسط، وسط في التفكير، فلسنا بالأمة التي تعيش مع الخيال، فلسفية الفكر كسقراط وبقراط ومن سار في ركبهم.

ولسنا بالأمة التي لا تؤمن إلا بالمحسوس! فنحن أمة نفكر ولكن في نصوص، ونتدبر ولكن في قال الله وقال الرسول صلى الله عليه وسلم، وأمة تستقرئ وتستنبط، لكن في كلام وحي يوحى من الله تبارك وتعالى.

وأمة وسط في الزمن، فلسنا بالأمة التي تقدمت وأتت في أول مسيرة التاريخ، فكانت عرضة للتجارب الضحلة، عديمة الاستقراء، قليلة العلم! لا، ولسنا بالأمة الأخيرة التي كانت خاتمة للأمم، فلم يكن بعدها جيل يستفيد من ركبها، لكن توسطنا الزمان نستفيد من القديم ونبنى عليه، ونبنى للمستقبل ونعطيه ونبذل له.

العجيب والطريف أننا وسط في المكان، فما عشنا وراء المحيطين، ولا وراء القطبين، بل عشنا وسط الدنيا، ووسط الكرة الأرضية من أم القرى التي سماها الله في القرآن أمًّا، والأم هي: المتوسطة للأشياء توزع الهداية للناس، ونحن في وسط الدنيا.

عمرو بن العاص وسفيان الثوري عند الموت

روى مسلم في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه قال: حضرته الوفاة في مصر، وكان والياً على مصر، وفتح مصر، ومعلم أهل مصر وهو أرتبون العرب، وداهية الإسلام، الذي دوخ ملوك الكفر حتى دخلوا في هذا الدين.

حضرته الوفاة، فإذا هو متجرد من دهائه وذكائه، وإذا هو متجرد من منصبه وأمواله وأولاده، ذهب المنصب والمال والأولاد، وإذا هو متجرد من كل شيء إلا من العمل، وكان معه أناس من وزرائه وأولاده وأصحابه، فحول وجهه إلى الحائط وبكى بكاءً طويلاً، فجاء ابنه عبد الله بن عمرو الزاهد العابد، فقال: يا أبتاه! ما لك تبكي - وأراد أن يحسن ظنه بالله عز وجل - يا أبتاه! أما صحبت الرسول صلى الله عليه وسلم، أما ولاك غزوة ذات السلاسل؟ أما مدحك؟ أما صحبت أبا بكر وعمر؟ أما فتحت مصر؟ أما جاهدت؟ أما فعلت؟

فلما طال كلام ابنه عبد الله، وطال بكاء عمرو، التفت عمرو إلى الناس، فقال: أيها الناس! إني عشت حياتي على طباق ثلاث - وسوف أعرضها لكم، وهو في سكرات الموت، يتكلم عن سجل حياته ويعيد لهم التاريخ مرة ثانية من يوم ولد إلى أن يلقي الله في هذه الساعة.

اسمع إلى أنبائه وأخباره - يقول: [[إني عشت حياتي على ثلاث طباق كنت في الجاهلية لا أعرف الإسلام، وكان أبغض الناس إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله لو تمكنت منه لقتلته غيلة، ولو مت على تلك الحالة لكنت من أهل النار، ثم رزقني الله الإسلام، فهاجرت من مكة إلى المدينة، فأتيته رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مسجده، فلما رأيته، هش وبش في وجهي بأبي هو وأمي واستقبلني، وقال:

حيلاً يا عمرو! قال: فصحبته وأحسن صحبته، ووالله ما كنت أملأ نظري منه صلى الله عليه وسلم حياءً منه، والله لو سألتهموني الآن أن أصفه لكم- أي: أصف رسول الله صلى الله عليه وسلم- لما استطعت، فيا ليتني مت على تلك الحالة، ولو مت على تلك الحالة، لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم تخلفت بعده صلى الله عليه وسلم فلعبت بي الدنيا ظهراً لبطن، فوالله ما أدري هل يؤمر بي إلى الجنة فأنا من السعداء، أو يؤمر بي إلى النار فأنا من الأشقياء، لكن ليس معي من العمل إلا شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ثم قبض يده على لا إله إلا الله، قال ابنه عبد الله: فأتينا لنغسله، وفتحنا أصابعه، فما استطعنا أن نفتحها وبقيت مضمومة، قال: فأدخلناه في كفنه وأصابعه مضمومة وأدخلناه في قبره وأصابعه مضمومة رضي الله عنه وأرضاه]].

فالعدة كل العدة أن تستعد لهذا المصارع، والحزم كل الحزم أن تحفظ وقتك، وأن تستعد بعمل صالح لهذا المصارع، والذكاء كل الذكاء أن تحفظ هذه السويقات التي تمر بك من الرياح، أو البرق الخاطف أن تستغلها فيما يقربك من الله.

الله لا يغتر الإنسان بشبابه وفراغه وصحته، فإن الله سبحانه وتعالى إذا أخذ؛ فإنه يأخذ أخذ عزيز مقتدر، وأنتم رأيتموهم ورأيانهم، شباب مترفون أقوياء مصطحون منعمون أهل أموال وثروة خرجوا من بيوت أهلهم، وما ودعوا أمهاتهم، ولا آباءهم، وعادوا أمواتاً وجثثاً هامدة حتى ما استطاعوا أن يقولوا: السلام عليكم أيها الأهل والجيران، وإلى اللقاء، ما استطاعوا أن يقولوا: وداعاً وعادوا وقد انتهوا من هذه الحياة.

فالله لا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور! أعدوا ما استطعتم من العمل الصالح، فهذه الدقائق تقول لك: إن الموت قد حصل.

دقات قلب المرء قائلةً له إن الحياة دقائق وثوان

وكان سفيان الثوري رحمه الله إذا جلس مع الناس، يجلس قليلاً، وهو يسبح، ثم ينتفض، وإذا هو واقف، فيقولون له: ما لك يا أبا سعيد؟

قال: والله ذكرت الموت.

وإذا أردتم ترجمة سفيان فعليكم بـ "حلية الأولياء" لأبي نعيم، اقرءوا كيف كانوا، وكيف كانوا يتذكرون الموت، وكيف يعدون له، كان يتذكر الموت وهو في مجلس الحديث، فيقطع الحديث، والفتوى، والموعظة، ويبكي حتى يقولون: كأنه يصرع من البكاء، ثم يقول بأبيات الصلتان السعدي:

أشاب الصغير وأفنى الكبير كُرُّ الغداة ومُرُّ العشي

إذا ليلةً حرمت يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتي

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجةٌ ما بقي

يسألونه ويقولون: يا أبا سعيد! ما حكم كذا وكذا؟ فيقول: والله! ما أدري ماذا تقول أيها السائل، قال: كيف لا تدري وأنا أتكلم بالعربية؟ قال: والله! لقد أنساني الموت كل شيء.

ولذلك يقول الذهبي: كان سبب موت سفيان الثوري أنه ذكر الموت فتفتت كبده حتى عرض ماؤه على الطبيب، قال: هذا الرجل لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام.

فهذا رجل فتت ذكر الموت كبده، قرأ سورة "ألهاكم التكاثر" بعد صلاة العشاء، فبقي يردددها ويبكي حتى الصباح، كان يبكي أهله وجيرانه من بكائه رضي الله عنه وأرضاه، لأنه علم علم اليقين.

يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} [التكاثر: ٥] لأن علمنا الآن في الآخرة علم ظني ليس علم يقين، ندري أنا سوف نموت، وندفن الأجداد والآباء والأمهات والإخوان، لكنه علم ظني وعلم نظري، ما تعمق في قلوبنا، وإلا لو تعمق في قلوبنا لكننا أقبلنا على الله، وتجردنا إلى الله وأتيننا بهمة وعزيمة إلى الله، وحفظنا أوقاتنا مع الله، لكنه علم نظري، فنحن نعرف أننا مسلمون، وأننا سوف نموت، ويقولون: هذه حياة، والله غفور رحيم، وهذه كلمات جوفاء، وهذه كلمات أصدرتها البلادة، وأصدرتها عدم المبالاة مع الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلا لو ذكرنا الموت لكانت حياتنا غير هذه الحياة.

فالله الله يا إخوتي في ذكر الموت دائماً وأبداً.

ميمون بن مهران الزاهد العابد التابعي حفر قبراً في حضيرته بجانب داره-وسواه، وجعل فيه صفائح.

فدخل القبر وجعل يقرأ أجزاءً من القرآن، وبكى بكاءً طويلاً، ثم يعود ويخرج من القبر، ويقول: يا ميمون! خرجت من القبر، فاعمل عملاً صالحاً.

وبعضهم كان يأخذ كفنًا ويفصله ويعلقه في سقف بيته، كلما أصبح نظر إلى الكفن وبكى، وقال: أواه!

ولذلك من حسن الإنسان وذكائه أن يذكر الموت.

الهداية إلى الصراط المستقيم

في القرآن ثلاث آيات تتحدث عن هذا المبدأ، يقول سبحانه وهو يوجه المؤمنين إلى الدعاء: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦] وقال سبحانه: {وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: ٦٨] وقال سبحانه: {وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: ٢].

قيل: القرآن، وقيل: محمدٌ عليه الصلاة والسلام، وقيل: طريق النجاة، وقيل: الإسلام، والصحيح: أنه كل ما يهديك إلى الله فهو الصراط المستقيم، والصحيح أنه الإسلام، فهو الطريق الذي وقف في أوله صلى الله عليه وسلم ورفع فيه راية لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والطريق الذي يؤذن فيه بلال، والطريق الذي سلكه من قبل نوح وأدم وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، هو الطريق الخالد لذلك الموكب الكريم، فهذا هو الطريق المستقيم: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} [الفاتحة: ٧] وهم الأنبياء والرسل والصالحون والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، والصراط المستقيم هو أقرب موصل بين نقطتين، فليس فيه عوج ولا لبس، ولا مذاهب أرضية، ولا أطروحات بشرية، إنه مستقيم جد مستقيم يوصلك إلى الأمام.

ولا تركز لغير الهداية، لا تتوقع أن منصبك أو كرسيك أو مالك أو ولدك سوف ينقذك من عذاب الله، إن لم تتشرف بحمل الهداية، قال تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٣ - ٩٥].

ليبد بن ربيعة أحد شعراء العرب كان شاعراً مشهوراً، كان عنده جماهير، يصفقون له ويمدحونه، لكنه ذاق جرعةً من دواء محمد عليه الصلاة والسلام، فوجد الهداية، فاعتزل الشعر والجماهير والغناء، وقال:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

إذا وصل بك الحال إلى أن لم تكتشف في هذا القرن الخامس عشر، أن الهادي بعد الله -هداية الدلالة- محمدٌ عليه الصلاة والسلام، فإنك إذا ما اكتشفت، ولا عرفت شيئاً.

وقال سبحانه: {وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: ٦٨] وهذه في سورة النساء، يقول الواحد الأحد: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا* وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا* وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: ٦٦ - ٦٨].

والخطاب للهود، ولكل من سار على منهج اليهود، أو شابه اليهود في سيرهم، يقول: لو فعلوا بهذه السنة وهذا القرآن والوحي {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا* وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا* وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء: ٦٦ - ٦٨].

وقال تعالى: {فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٣] أنا وأنت علينا ميثاق، والميثاق ختمٌ أتى به صلى الله عليه وسلم، فمن حمله في كتفه أداه إلى الجنة، وهذا الميثاق يقال عليه: شارة المدينة، وخرج من مسجده صلى الله عليه وسلم، وهو علامة لأهل السنة، إذا رآهم المحاسبون يوم العرض الأكبر أدخلوهم الجنة، ومن لم يحمل الختم فليس على مسيرة محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

وقال سبحانه للرسول عليه الصلاة والسلام: {وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: ٢] وهذه الآية من سورة الفتح التي نزلت بعد صلح الحديبية.

قال أهل العلم: "كيف يهديه وقد هدي؟ واهتدى وهدى الملايين؟ لسانى ولسانك، وعيني وعينك، وأنفى وأنفك، وأذني وأذنك، كلها أدوات تتحرك بلا إله إلا الله، هذه الملايين اليوم التي تصوم في شعوب الأرض كلها ورققات من شجرته عليه الصلاة والسلام:

أتطلبون من المختار معجزةً يكفيه شعبٌ من الأموات أحياء

ويقول شوقي:

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له وأنت أحييت أجيالاً من الرمم

يقول شوقي: إن كان عيسى أبراً الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله، فأنت يا رسول الله! أتيت إلى شعوب ميتة، وإلى حضارة واهية، وإلى قلوب متفلتة، فأحييتها بلا إله إلا الله!! وأعدتها إلى الله، وحركتها بلسان الحق، حتى خطبت على منابر الدنيا، قال أهل العلم: {وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [الفتح: ٢] أي: يزيدك هداية إلى هدايتك!!

وكان عليه الصلاة والسلام، إذا قام في الليل -وهذا عند مسلم من حديث عائشة- كان إذا قام من الليل يقول: {اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل! فاطر السماوات والأرض! عالم الغيب والشهادة! أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم} فهده الله هدايةً عامة، وهدايةً خاصة، وهدى به الأمم عليه الصلاة والسلام.

الهداية تزيد وتنقص

أنا وأنت لسنا كـ أبي بكر الصديق، أبو بكر الهداية في قلبه مثل الدنيا، النور في قلبه مثل الشمس لا يصيبه ظلام أبداً؛ لأن وقته للإسلام، من أول يوم وضع يده في كف محمد عليه الصلاة والسلام مبيعاً ومهاجراً ومجاهداً حتى أفنى كل شيء عنده في خدمة هذا الدين، وأنا وأنت نطالب اليوم أن نهتدي فنصلي في المسجد جماعة، ونطالب أن نترك الغناء والمخدرات والدخان، أما أن نطالب أن نفعل مثل أبي بكر، فلا:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

لا تعرضن بذكرنا في ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

لشтан ما بين اليزيديين في الندى يزيد بن عمرو والأغر بن حاتم

وما بيننا وبينهم كما بين الثرى والثريا!

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل: إن السيف أمضى من العصا

نحن مع الصحابة مثل العُصي وهم سيوف؛ لأن الصحابة كانوا يستيقظون مع الصباح، يقول أحدهم وقد انتبه وقد استيقظت عيناه وقلبه، من النوم: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، فأول ما يفكر به كيف ينصر هذا الدين، كيف يقدم روحه، أما نحن فأول ما نستيقظ نتفكر في إفطارنا ووظائفنا وخبزنا ولحمنا وثلاجتنا وفاكهتنا، اهتماماتهم كلها للإسلام، تقطع يد أحدهم، وتتعلق بعصبة، أو بعرق، فيجعل يده بين ركبتيه، ثم يتمطى عليها حتى تنقطع لئلا تشغله عن الجهاد؛ وتقطع يد جعفر بن أبي طالب اليمنى فيأخذ الراية باليسرى، وتقطع اليسرى، فيحتضنها بين عضديه أو ليست هذه معالم الهداية؟؟!!

من يصل إلى هذه الدرجة؟! أحد الصالحين كان فيه مرض، فكان يتبسم ويقول:

إن كان سرکم ما قال حاسدنا فما لجرح إذا أرضاکم ألم

هذا البيت لـ أبي الطيب المتنبي، رمي وهو ينشد عند سيف الدولة بدواة، فسال الدم من جهته، فضحك سيف الدولة، فيقول المتنبي: يا سيف الدولة! إن كان سرک هذا الدم، فأنا لا أجد أذى لأنه سرک.

فأتى الولي الصالح، فقد رد البيت إلى من يستحقه.

والهداية -أيها الإخوة- تزيد وتنقص، يقول سبحانه: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧] تعبير القرآن لا يرتقى إليه، أسلوب فذ، مثل كلامنا ومثل القرآن كمثال مادة التراب، نحن نستطيع أن نصنع من مادة التراب آجرًا، ونصنع منها أواني فخارية، لكن هذا التراب خلق الله منه الإنسان، والقرآن من حروف نتكلم بها، ولكن كلامنا لا يمكن أن يقارب مستوى القرآن.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧].

فهم اهتدوا من أول الطريق، الذي يصلي الصلوات الخمس يعطيه الله خشوعًا، والذي يترك الغناء يحبب الله إليه القرآن، والذي يتجه إلى ذكر الله عز وجل يقوده الله عز وجل إلى بر السلام: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: ١٧] وفي البخاري: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به).

فمن مشى في الطريق خطوةً زاده الله هداية، المؤمن دائماً في هداية بعد هداية، والكافر والفاجر في إعراضٍ بعد إعراض، لا يخرج إلا من جرائم إلى جرائم، يضع الكأس فيحمل المجلة الخليعة، ويضع المجلة الخليعة فيعرض عن القرآن، ويعرض عن القرآن فيتترك المسجد، ويعق والديه فيقطع رحمه، فهو في مصائب ومدلهمة، ويقول سبحانه: {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف: ١٣] عندنا الوقود، والطاقة، يسميها سيد قطب: محطة الوقود، هذه محطات جعلها الله للمؤمنين كالمدار في سيارته -ولله المثل الأعلى- كلما أوشك وقوده أن ينتهي، تزود من الطريق التي سلكها محمد عليه الصلاة والسلام، والوقود هنا هو الإيمان والذكر والقرآن والسنة وصدق التوجه إلى الله والصيام، أنتم بين موعظةٍ وصيامٍ وتلاوةٍ واعتكافٍ وعبادة، فهي وقودكم: {وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف: ١٣] عندنا الهدى نحن زدناهم من عندنا لا من عند غيرنا، زدناهم على الجمع والتعظيم، وقوله زدناهم دليل على أن أصل النبتة موجودة في قلوبهم، أما الذي بتر الإيمان في قلبه، وأتى يطلب الشفاء، فهذا إنسانٌ ما عرف الطريق أصلاً، بتر الفطرة، ويقول سبحانه: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً} [مريم: ٧٦] فيزيدهم بعد أن اهتدوا.

ثم ذكر أن من عوامل طاقات الهداية ومما يزيد الهداية الأعمال الصالحة الباقيات، ومن الباقيات: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، نحن المؤمنون عندنا هزجٌ جميل.

قرأت قبل أيام لخواجة مؤلف في علم النفس يقول: فإذا أحسست بالقلق فعليك أن تستمع إلى الموسيقى، فأقول له: خيب الله شبابك، وسود الله وجهك، وجهت

الإنسان للموسيقى ليدفع القلق، وقد علمنا عليه الصلاة والسلام ذكراً وهزجاً خالداً، علمنا أن نقول: لا إله إلا الله، وهي كلمة تنشرح لها القلوب:

الله أكبر كل هم ينجلي عن قلب كل مكبر ومهلل

يونس عليه السلام في بطن الحوت في الظلام، ولما أظلمت الدنيا في عينيه قال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فانقضت من أمامه الظلمات:

أين ما يدعي ظلاماً يا رفيق الليل أينما إن نور الله في قلبي وهذا ما أراه

أين هذا الظلام؟ يقول لسان حال المؤمن: أين الظلام الذي يشتكيه الناس؟ أين هذه المستشفيات النفسية التي فتحت لأهل القلق والهموم والغموم؟ أين الظلام؟ أنا لا أجد ظلاماً؛ لأنني أصلي وأحمل القرآن وأذكر الله، وأتبتل إلى الله:

أين ما يدعى ظلاماً يا رفيق الليل أينما إن نور الله في قلبي وهذا ما أراه

الهداية إلى الأعمال الصالحة

وهناك هداية جزئية إلى الأعمال الصالحة، قال سبحانه عن المؤمنين: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} [الحج: ٢٤]: {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ} [الحج: ٢٤] أي: أن الله وفقهم فهداهم إلى الطيب من القول.

لا إله إلا الله! هذا الإيمان عجيب، يحول الإنسان بين عشية وضحاها إلى أن يصبح نظره طاعة، وكلامه طاعة، وحركته طاعة، ومشيه طاعة، حتى كلامه يصبح ذكراً يقول سبحانه: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ} [فاطر: ١].

{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [فاطر: ١٠] ودل على نفسه سبحانه بالضمير لا بالاسم الظاهر؛ لأنه معروف عند المؤمن أنه إلى الله، العرب في أشعارهم كانت تعبر بالضمير تعظيماً للممدوح، يقول المتنبي يمدح كافوراً:

قطعت الفيافي والشناخيب دونه وجبت هجيراً يترك الماء صادياً

أبا كل طيب لا أبا المسك وحده وكل غمامٍ لا أخص الغواديا

وترك اسم كافور، وما أعلمنا به في القصيدة، لأنه مشهور.

ولو أن هذا المتنبي قطع الفيافي إلى الله وترك هؤلاء البشر لكان له عند الله شأن لكن مرة عند سيف الدولة، فإذا جفاه سيف الدولة، خرج إلى كافور، وإذا طرده كافور خرج إلى عضد الدولة لأنه ما عرف الطريق.

قال:

قطعت الفيافي والشناخيب دونه وجبت هجيراً يترك الماء صادياً

يقول: إني جبت الصحراء وظمئت في الصحراء حتى كدت أموت لآتي إليك والشناخيب هي الجبال، والشاهد قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [فاطر: ١٠] والصالحون يعرفون على من يعود الضمير في قوله: (إليه، وأنه هو الله).

وورد في قصة سليمان عليه السلام، والقصة في تسخير الريح له، كما قال تعالى: {رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ} [ص: ٣٦] غدوها شهرٌ ورواحها شهر، سخر الله له الريح، فكان إذا أمرها أن تنتقل به من مكان إلى مكان انتقلت به الريح، وأصبح في السماء، معه وزراؤه

وأمرأؤه وحاشيته على بساطٍ من الريح، فحجب سليمان بهذا البساط عليه السلام الشمس عن فلاحٍ يزرع في الأرض؛ فنظر فوجد بساط سليمان عليه السلام يخترق الجو عابراً من مكانٍ إلى مكان، فالتفت فرأى سليمان ورأى الناس معه على بساطٍ من ريح، وتعبير القرآن جميل يقول: {رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ} [ص:٣٦] أي: أنها إذا أرادت أن تهوي به فلا تهوي مرةً واحدةً فيتكسر، بل تهوي بالتدريج حتى تنزله كما تفعل الطائرة في مدرجات المطار: {رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ} [ص:٣٦] قال أهل العلم: بانبساطٍ متدرج حتى يصل، قال: فلما التفت الفلاح قال: سبحان الله! لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، ولم يكن يعلم أن قوله: (سبحان الله) أعظم من ملك آل داود، فسمعها سليمان عليه السلام؛ لأنها اخترقت الحجب لتصعد إلى رب العالمين: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} [فاطر: ١٠].

قال للبساط: اهبط هنا فهبطت الريح، قال للفلاح: ماذا قلت؟! قال: رأيته فقلت: سبحان الله! لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً، قال: والذي نفسي بيده، لقولك: (سبحان الله) خيرٌ مما أوتي آل داود.

هذه الكلمة وحدها خيرٌ من ملك الدنيا وما عليها، ويقول سبحانه: {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النور: ٣٥] تعبيرٌ عجيب! وهنا أضواء دنيوية لكنها تضمحل أمام نور الله.

فأنت شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب

إذا أتى نور الله بطل كل نور: {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ} [النور: ٣٥].

ولا يهدي الله لنوره إلا من يشاء، ومن يحب، وفي حديث أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: {إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من

{يحب} فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، ومن هداه الله فقد أحبه، أما الدنيا فأمرها سهل، يعطيها الله الكافر الوثني في أفريقيا، والملحد الأحمر في روسيا والنصراني الأشقر في أمريكا، والصيني الأصفر في بكين، فكلهم سواء، أما الهداية فلا يعطيها الله إلا لصنفٍ من الناس: {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣].

الهداية لصاحبها

يظن العبد إذا اهتدى أنه زاد من الإحسان لله، وفي الحديث الصحيح عند مسلم: {يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئاً} والله الذي لا إله إلا هو، لو كان سكان الأرض كلهم على إيمان أبي بكر ما زاد في ملك الله ذرة، وما نفع الله ذلك، والله الذي لا إله إلا هو لو كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص عند ذلك من ملك الله شيئاً، قال سبحانه: {مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ} [الإسراء: ١٥] أنت تنفع نفسك وتنقذها حين تؤدي ما افترض الله عليك، يقول ابن القيم: لله الفضل والمنة، يعطيك الإيمان، ويعطيك الحياة، ثم يتوب عليك، فتكون المنة لله ليست لك.

أتى إلى النبي عليه الصلاة والسلام أعراب من بني أسد، قالوا: يا محمد! اشكرنا، قال: على ماذا؟ قالوا: أسلم العرب كلهم بالسيف وأما نحن فأسلمنا بلا قتال، فسكت عليه الصلاة والسلام، وما أحب أن يجرح مشاعرهم، مع أنهم دخلوا واهتدوا على يده صلى الله عليه وسلم ثم يقول قائلهم: الحمد لله الحمد ربك أنني اهتديت على يديك!!، فهذا غير صحيح، ومثلهم كمثله إنسان تهديه تمرراً أو رطباً، فيقول: الحمد لله أني أخذت هديتك، الحمد لله أني قبلت مالك.

فسكت عليه الصلاة والسلام، فأنزل الله: {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات: ١٧].

المنة لله.

الفضل لله والعطاء لله أتمن على الله وهو قد هداك؟! قال تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [الإسراء: ١٥].

الهداية هي السعادة

السعادة الحقيقية: هي الهداية، انظر إلى أحوال الناس، كثير من الناس عنده قصور كثيرة، وعنده من المال ما يمكن أن يطعم به ألفاً مؤلفة من الناس ويعيشهم ويسكنهم، لكنه في اضطراب معقود الجبن، على جبينه مكتوب عليه لا سعادة، يوشك أن يأخذ السكين وينحر نفسه، نقول له: مالك؟! عندك المال والمنصب وكل شيء؟! قال: ما رأيت السعادة، الله يجيب على هذا التساؤل فيقول: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [طه: ١٢٣ - ١٢٦] أتاك رسول الله عليه الصلاة والسلام وأتاك القرآن، والإيمان، وأتتك الرسالة، وأتتك لا إله إلا الله، فأعرضت عنها، لم يكن لها قدرٌ عندك في حياتك ولا ميزان، ولا أصالة، ولا اهتمام، والله إنا نعلم أن من الناس اليوم من يعيش ويجعل الدين في آخر اهتماماته، حتى وقت الصلاة، وتأدية الصلاة، والقيام إلى الصلاة، في آخر جدولته اليومي ثم يصلي صلاةً باردةً ميتةً سقيمةً مريضة، ويقول: أين السعادة؟؟!!

نحن جربنا دينكم ما وجدنا السعادة، نقول: لو حملت الدين ذقت الدين، كما ذاقه الصالحون، عرفت طعم السعادة، وما شقيت بعدها أبداً، بإذن الله.

الهداية المطلقة

الله له هداية مطلقة، وهداية خاصة؛ الهداية المطلقة: يدخل فيها العجماوات والحيوانات والبهائم، يقول سبحانه: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ} [الإنسان: ٣] وهذه لكل مخلوق: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ} [الإنسان: ١ - ٣].

وفرعون يقول لموسى: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ} [طه: ٤٩] اسمع إلى الجواب الصارم، يقول الزمخشري صاحب الكشاف: "لله دره من جواب أسكته!! أسكت الخبيث الغبي، إسكاتاً ما بعده اسكات: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ} [طه: ٤٩] لو قال موسى: ربنا الله، لقال فرعون: أنا الله، ولو قال: ربنا المالك، قال: أنا المالك، لكن الجواب كان مفحماً: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ} [طه: ٥٠] أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، كل شيء أعطاه خلقه ثم هداه هداية مطلقة إلى أسباب المعاش.

النملة هداها الله من هدى النملة؟! من علم النملة أن تأتي في الصيف فتكتنز للشتاء، عند النملة مخازن ومستودعات، قسم المستودعات لا يصرف منه إلا في الشتاء؛ ومن شك منكم فليبحث في جحر نملة، وهذا مثبت بالعلم التجريبي، وهناك قسم للاستهلاك المحلي اليومي، وقسم التعاملات، وقسم الملكة لها مكتب خاص، تجتمع في دورات سنوية بالعاملات والشغالات، هل هذا من هدى النملة من نفسها؟ لا والله، هل عند النملة دماغ تفكر في هذا المستوى؟! إن الله هو الذي هداها وإلا فهي ما تملك شيئاً.

اسمحوا لي غفر الله لكم أن أورد قصةً أوردها ابن القيم في مفتاح دار السعادة يقول: ذكر أحد الصالحين أن نملةً من النمل خرجت من جحرها، والنمل يسلك طريقاً عابراً ويتخذهُ ويفتحه ويعبده ويزفله، ثم لا يأخذ طريقاً آخر، وأنت انظر إليه، والنمل إذا كان هناك ماء قليل، بمستوى النملة صنع النمل جسراً من أفرادهِ ثم يمشي بقية النمل عليه، وأسألو الواقع وانظروا.

قال ابن القيم: فخرجت نملة تبحث عن رزقها من الشغالات، لأن هناك ملكة لا تخرج أبداً، وهناك عاملات تبني بيوتاً وتخزن وترصد الحبوب والقمح، وهناك شغالات تحمل الطعام، فخرجت الشغالة فوجدت رجل جرادة؛ رجل الجرادة أكبر من النملة، فحاولت أن تسحبها يميناً أو يساراً فما استطاعت، فذهبت إلى النمل فأخبرتهم؛ وبينهم لغة خاصة؛ ولغة الحيوان مثبتة.

وهذا الروسي سخروف الذي توفي قبل شهرين اكتشف في مذكرات له أن للنبات لغات خاصة، وكاد أن يسلم هو، لكنها حكمة الله عز وجل.

يقول: للنباتات نبرات خاصة من الصوتيات، والورد بينه صوت خاص، والنخل صوت خاص -قدرة الباري سبحانه وتعالى- فالحيوان بقدرة الله عز وجل له لغة خاصة: {عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} [النمل: ١٦] خرجت هذه النملة فاصطدمت برجل الجرادة فما استطاعت أن تحملها فأنت إلى شغالات أخرى، فأنت الشغالات معها فأنتي الرجل الصالح فرفع رجل الجرادة، فأتوا فما وجدوا في المكان شيئاً، فلما رجع النمل أنزل الرجل الصالح فرفع رجل الجرادة، فأنت تسحبها فرجعت إلى الشغالات فأخبرتهم فأنتي النمل فرفع الرجل جرادة فلم يجد النمل شيئاً فرجعوا ثالث مرة، فرفع الرجل، فقال النمل: قد كذبت، قال: فطوقوها ثم مزقوها قطعةً قطعة.

عودوا إلى مفتاح دار السعادة، واسألوا ابن القيم في ذلك، واسألوا أهل الكتب العلمية مثل: الطب محراب الإيمان، أو كتب الأمريكان، الله يتجلى في عصر العلم واسألوا كتاب الإنسان لا يقوم وحده لـ كريسي موريسون وكتاب الإنسان ذلك المجهول لـ ألكسيس كارل فهذه حقائق شهد بها الكافر وهو كافر، فكيف بالمؤمن؟!

قال سبحانه: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠] يمتن على الإنسان بالهداية وهذه هداية مطلقة، يقول: بينا له طريق الخير من الشر، التمر والجمر، دللناه على طريق الجنة وطريق النار، وقال سبحانه: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠] وقال سبحانه: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} [الإنسان: ٣] وقال سبحانه: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} [الإنسان: ٣] علمناه الطريق وأتينا بمحمد عليه الصلاة والسلام، وأنزلنا القرآن، وقلنا: هذه القبلة، وهذا الماء وهذا المسجد فتوضأ وصلّ، وطريق الشر كذلك، وهذه الخمارة والبارة والعود والوتر والغناء والمجلة الخليعة وافعل ما شئت، أنت أبصر بنفسك، والطريق غداً:

ستعلم في القيامة إن عرضنا غداً عند الإله من الملموم

أما والله إن الظلم شؤمٌ وما زال المسيء هو الظلوم

إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

{ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام: ٦٢].

امتلاء قلوب الصحابة بلا إله إلا الله

يقول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ} [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٢] من الذين سبقت لهم من الله الحسنى؟!

إنهم أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين لا يسمعون حسيس النار ولا يخلدون فيها.

فيا أهل لا إله إلا الله! ويا حملة لا إله إلا الله! (لا إله إلا الله محمد رسول الله) كلمتان يدور عليهما الإسلام، وفي مظلتكما هذا الدين، ولذلك كان عنوان هذا الحديث في (ظلال لا إله إلا الله).

ويوم يأتي المسلم ليستقرئ سيرته -صلى الله عليه وسلم- يجد أنه بدأ بلا إله إلا الله وختم بلا إله إلا الله، وقف على الصفا عليه الصلاة والسلام فجمع الناس لينذرهم فقال: {يا بني هاشم! يا بني عبد مناف! يا بني كعب بن لؤي! قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا، إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد} حينها آمن من آمن بلا إله إلا الله فدخل الجنة، وكفر من كفر بلا إله إلا الله فدخل النار.

يقول عمه أخو أبيه أبو لهب: تباً لك، ألهذا دعوتنا! فأنزل الله قوله المحرق لهذا الرعديد الفاجر: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد: ١ - ٢]

ويأتي بلال من أرض الحبشة ليؤمن بلا إله إلا الله: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} [الصافات: ٣٥] أما أهل الصفا، وأهل زمزم، وأهل الحرم، فقد كفر كثير منهم بلا إله إلا الله.

أما صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي، وخباب بن الأرت فقد ملئوا قلوبهم بلا إله إلا الله.

يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدعو الناس وقبل أن يتكلم إلى البشر: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} [محمد: ١٩].

إذا أردت أن تدعو الناس، وأن تبدأ في طريقك وتزاول عملك، فاعلم -أولاً- أنه لا إله إلا الله {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: ٦٥] هل تعلم أحداً مثيلاً لله؟!

هل تعلم أعظم من الله؟! لا والله.

أتى عدي بن حاتم (والحديث حسن) إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم -وأبوه حاتم الطائي كريم باذل جواد، ولكنه لا يساوي ذرةً في ميزان الحق؛ لأنه لم يدخل قلبه لا إله إلا الله محمد رسول الله، مات كافراً مشركاً فما أفاده إيمانه بالطاغوت، ولا نفعه جوده ولا كرمه؛ يقول ابنه كما في صحيح مسلم للرسول عليه الصلاة والسلام: {يا رسول الله! إن أبي كان يكرم الضيف، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الحق، فهل ينفعه ذلك شيئاً عند الله؟ قال: لا}.

إن أباك طلب شيئاً فأصابه {طلب الذكر، والشهرة، والرياء، والسمعة فحظه ذلك في الدنيا حتى يتراد صيته واسمه بين مجتمعاتنا ولكنه من الخاسرين}.

وكريم آخر يُسأل عنه صلى الله عليه وسلم فقال: {لا}.

إنه لم يقل يوماً من الأيام: رب اغفر لي خطيئتي.

{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ*
 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}
 [هود: ١٥- ١٦] ويقول: {وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}
 [الفرقان: ٢٣] ويقول: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ
 عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥].

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} [محمد: ١٩].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: {قلت: يا رسول الله! من أسعد الناس
 بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: لقد ظننت ألا يسألني أحد قبلك يا أبا هريرة، أسعد
 الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه} لكن ليس معنى لا إله إلا الله
 أن ترددها أيها المسلم بلسانك وأما واقعك وعملك فهو يخالف لا إله إلا الله، وكثير من
 الناس يتصور أنه إذا قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله كفى.

لا إله إلا الله اعتقاد وقول وعمل، فإن بعض المشركين قالوا: لا إله إلا الله فما
 نفعهم ذلك؛ لأنهم ما اعتقدوا بمدلولها، وما أخلصوا في حملها، وما عرفوا العمل بها.

إن من يقول: لا إله إلا الله، لا تفوته الصلوات الخمس جماعة.

ومن يعتقد لا إله إلا الله، لا يتعدى حدود الله، ولا ينتهك حرماته.

ومن يقول: لا إله إلا الله، لا يجعل بيته وثناً، ولا يجعل بيته مسرحاً للمعاصي؛
 والأغنية الماجنة، والمجلة الخليعة، واللعن، والسب، والشتم، والاستهزاء بآيات الله

وبرسوله وبالإسلام الذي أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا يخالف لا إله إلا الله.

وفي ظلال لا إله إلا الله -أيها المسلمون- لتعلموا أن من أكبر قضايا لا إله إلا الله هي: الإيمان بالله تبارك وتعالى، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} [مريم: ٩٦] {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: ١- ٣].

توبة إبراهيم بن أدهم

بشر الحافي سيد الزهاد، كان عندهم ندماء يدور عليهم الكأس بعد صلاة العشاء، لا يعرفون عشاء ولا فجرًا، ليالي بعض الناس مثل ليالي الحمير، لا يدري في أي وقت هو، في العشاء أم في الفجر، أم في الأذان، أم في التراويح وقراءة القرآن، أم في الصلاة، تائه عيادًا بالله، قال تعالى: {ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: ٤٠].

من أين يأتي النور إلا من عند الواحد الأحد، فأتى هذا الرجل فنزل إلى السوق - وهو أمير معه حاشية وجند، ولكن بعض الأمور وبعض الأعمال ترفع صاحبها عند الله- فوجد في السوق ورقة مكتوب فيها (الله) يدوسها الناس بالأقدام لا يدرون عنها، فقال: سبحان الله! اسم الحبيب يداس بالأقدام، والله لأرفعه! فأخذ هذه الورقة وغسلها وطيبها بالطيب ورفعها في بيته، ولما أمسى في الليل سمع قائلاً يقول: يا من رفع اسم الله! والله ليرفعن الله اسمك، وأتى في اليوم الثاني وإذا قلبه متغير، رأى حياة الجهالة والضلالة، فأصبح عابد أهل بغداد، فرفعه الله، فلا تجد ترجمة في أي كتاب من كتب السلف وتراجهم إلا تجد بشر الحافي رحمه الله رحمة واسعة، وهذا من الطراز العظيم، رفعه الله بصدقه وعودته إليه فتبارك الله أحسن الخالقين، وتبارك

الله الذي يقبل التائبين، وتبارك الله الذي بتوب على المنيبين، فנסأله أن يتوب علينا
وعليكم، وأن يجعلنا من المقبولين، فإن المحروم صراحة من حرم الثواب والعودة إلى
الله.

يقول أبو الفتح البستي:

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتعبت جسمك فيما فيه خسران
أقبل على الروح واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان
من يتق الله يحمده في عواقبه ويكفه شر من عزوا ومن هانوا
من استعاذ بغير الله في حديث فإنما ناصره عجز وخذلان

في قصيدة طويلة يقول في آخرها:

يا عامراً لخراب الدار مجتهداً بالله هل لخراب الدار عمران

دار أخرجها الله تعميرها أنت! ودار أبغضها الله تحيها! ولو صرف الواحد منا عُشْر ما
يصرف لدنياه لدينه لصلحت أمورنا، تجد بعض الناس مهتماً من كل جهة الصلاة
مهدومة، قراءة القرآن والصدق والوفاء والأمانة والأكل الحلال والاستقامة والإخلاص،

كل شيء مهدم، لكن دنياه معمورة، لو انكسرت حنفية لأقام الدنيا وأقعدتها، سيارته عامرة، بيته عامر، ولكن يقول:

يا عامراً لخراب الدار مجتهداً بالله هل لخراب الدار عمران

ويا حريصاً على الأموال تجمعها أقصر فإن سرور المال أحزان

توبة الطفيل بن عمرو الدوسي

أتى الطفيل بن عمرو الدوسي إلى مكة، وكان شاعراً مجيداً، سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم، فدخل الحرم وشياطين الإنس عند أبواب الحرم؛ لأن للجن شياطين وللإنس شياطين -يقول أحد الصالحين: شيطان الجن تستعيز منه فلا يأتيك، لكن شيطان الإنس يطرق عليك الجرس وتفتح الباب وتدخله، وتجلسه على الفراش وتصب له قهوة ويؤذك في دارك، ولذلك أمرنا بالاستعاذة من شيطان الجن والإنس- أتت قريش فوزعوا بعض الشياطين من الإنس وقالوا: إذا أتى رجل من العرب فصدوه عن محمد، فأتى الطفيل الدوسي وهو زهراني من بلاد زهران، فوصل إلى الحرم ونزل من على ناقته وتلقوه عند الباب من أين؟ قال: من دوس، ماذا تريد؟ قال: الذي يدعي هنا أنه نبي، قالوا: إنه شاعر، ساحر، كاهن، إياك! لا تقرب منه، فما زالوا يلقون عليه محاضراتٍ وخطباً حتى أخذ القطن من راحلته فوضعها في أذنه -انظر إلى التخويف والإشاعات الباطلة، والاغراضات والحرب المعنوية الباردة- فنزل فأتى الحرم، فقال: كنت أنظر إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولا أسمع كلامه، لأنه مسدود الأذنين، لكن إذا أراد الله بشيء خيراً تممه، قال: أنظر إليه وأسمعه يتمم لكن ما أدري ماذا يقول، ثم عدت إلى نفسي وقلت: عجباً أنا شاعر من شعراء العرب -وهو صحيح من شعراء العرب- وأنا أعرف جزل الكلام من هزله، وأعرف فصيحته من رثته، فلماذا لا أنزع القطن وأسمع؛ فإن أعجبني شيء وإلا تركت -أراد الله أن يهديه- فنزع القطن، وهذه

بداية الاستجابة، واقترب من الرسول صلى الله عليه وسلم والرسول صلى الله عليه وسلم يتلو آيات، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {قَلَّا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة: ٣٨ - ٤٧] فقام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

يقول سيد قطب: القرآن يأتي على القلب حتى يطوقه من جميع النوافذ فما يستطيع القلب أن يفر.

ويروي سيد قطب قصة في أول هدايته، وسيد قطب درس في كلورادو في مدينة دنفر، وكان معجباً بالغربيين، وقرأ ثقافتهم، ووصل إلى مصر بعدما كان مثقفاً متطوراً غربياً، وهذه القصة ذكرها في تفسير سورة النجم في المجلد السادس، قال: كنا أنا ورفقة لي في القاهرة بعد صلاة العشاء وعندنا راديو، ففتحنا الراديو نستمع إلى الأخبار -أول الهداية من الله عز وجل قد تكون بمقالة، بمحاضرة، بنظرة، ببكاء، بجنابة، بصوت من راديو، بمشهد تقرأه أو تطالعها- قال: فاستمعنا إلى صوت الراديو ومعني الزملاء، فارتفع صوت راديو الجيران، فإذا مقرئ حسن الصوت يقرأ سورة النجم: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} [النجم: ١ - ٥] قال: فأما أنا فسافرت بقلبي في رحلة مع الرسول عليه الصلاة والسلام -الرجل أديب يكتب بقلمه ما لا يستطيع الإنسان أن يرسمه بيده، قلمه سحر حلال- قال: فسافرت مع الرسول عليه الصلاة والسلام في رحلة الإسراء والمعراج، وتركت جثمانى مع زملائي- بعض المقرئين يهزك حتى يذكرك بقيام الساعة- قال: حتى وصل إلى قوله تعالى: {أَزِفَتِ الْأَفَاقُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ} [النجم: ٥٧ - ٥٩] قال: فانهديت باكياً حتى يقول

في الظلال: -ولكم العودة إليه- قال: والله ما استطعت أن أتحكم في عضلاتي، أصبح يهتز كله، قال: وعلمت أن هذا القرآن يؤثر في القلوب مالا يؤثر فيها شيء آخر أبداً، ثم أعلن هدايته وتوبته وعاد إلى الله، فأصبح قلماً من أقلام الحق، وأصبح شهيداً من شهداء الإسلام إن شاء الله، وهنا قصيدة قيلت فيه، وسبب هذه القصيدة أنه لما أتى يشنق في المشنقة ضحك، فقال له الجلادون: لماذا تضحك؟ قال: أضحك من حلم الله على هؤلاء ومن تجرئهم على الله، فيقول أحد شعراء مصر:

يا شهيداً رفع الله به جبهة الحق على طول المدى

سوف تبقى في الحنايا علماً قائداً للجيل رمزاً للفدا

ما بكينا أنت قد علمتنا بسمه المؤمن في وجه الردى

يقال له في آخر الأيام: اكتب اعتذاراً إلى أحد الطغاة أنك تنازلت عن مبادئك لعله يعفو عنك، قال: والله لا تكتب يدي حرفاً له، إن كنت قتلت بالباطل فأنا أكبر من أن استرحم الباطل، وإن كنت أقتل بحق فأنا أصغر من أن أعترض على الحق، فقتل {ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

الطفيل أعلن إسلامه، وعاد إلى دوس فدعاهم إلى الله فأعرضوا، فأتى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: ادع على دوس سبحانه الله! لو كان الواحد منا أتى ببعض الجزئيات التي وقعت للرسول صلى الله عليه وسلم لدعا على الناس جميعاً، تصور أن رجلاً يحدث جماعة في مسجد ويختصم معهم فيدعو عليهم، أو يمنعونه من الكلمة، أو يحرمونه من شيء فيجعلهم أعداء ألداء، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يضرب

ويرمى ويخرج من دياره، وتضرب بناته، ويؤخذ ماله ويبيع عقاره، ويقول: {اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون} حتى يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤] ما هذا التحمل والصبر والحكمة والحلم والأناة؟! يقول سبحانه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤] ويقول له عز وجل: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران:١٥٩].

دعاهم الطفيل وهو من تلاميذ الرسول صلى الله عليه وسلم، فأعرضوا عنه فقال: {يا رسول الله! ادع على دوس، فشا فيهم الزنا وأكلوا الربا، فرفع يديه واستقبل القبلة، فقال الطفيل: هلكت دوس فقال عليه الصلاة والسلام: اللهم أهد دوساً وأت بهم، ثم قال عليه الصلاة والسلام: اذهب إليهم، قال: اجعل لي علامة -أي: بينة وكرامة من الكرامات يصدقونه- قال: اللهم اجعل له علامة -أو كما قال عليه الصلاة والسلام- فأتى نور في جبينه يضيء في الليل مسافات، قال: يا رسول الله! أخشى أن يقولوا: هذه مثله، فدعا صلى الله عليه وسلم أن تتحول، فتحولت إلى العصا فكان يقول بالسوط هكذا على جبال زهران فتضيء كلها بنور الواحد الأحد، دخل عليهم فأسلموا جميعاً ودخلوا في دين الله أفواجاً.

توبة محمود شيت خطاب

مفاتيح القلوب يعطيها الله من يشاء، بعضهم عندهم مفاتيح الخزائن لكن لا يستطيع أن يفتح قلباً واحداً، والبعض الآخر يجلس بكلمة فيفتح الله به قلوباً محمود شيت خطاب اللواء الركن العراقي، كان في الجيش العراقي، وهو مؤلف عنده عشرة كتب في العسكرية الإسلامية، مسلم داعية كبير، كان مع الجيش يعربدون ويفجرون ويفسقون ولا تسأل عن ليلهم ونهارهم، ما يعرفون الصلاة بل كانوا يستهزئون بها.

الجيوش العربية حين أن دخلوا فلسطين قيل لأحد القادات وهم يقاتلون إسرائيل: نصلي؟ قال: إذا رجعنا بلادنا صلينا، فنزلت عليهم إسرائيل نزول من لا يخاف ولا يرحم، فترك جزمته في إسرائيل وهرب إلى بلاده، هذا هو الجزاء، قال تعالى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ} [فصلت: ١٦].

فأتى هذا اللواء الركن يقول: كنت جالساً في ثكنة عسكرية في العراق، وكنا في الليل مع قادات -هو لواء ركن- قال: فمر بنا داعية من الدعاة المسلمين -أراد الله أن يفتح قلبه- قال: فأتى ونحن في ليلة حمراء، مع كل قائد كأس خمر، ويلعبون من البلوت واللعبات التي لا يلعبها إلا الغافلون دائماً، فقال لهم هذا الداعية كلمة واحدة، ما ألقى محاضرة ولا خطبة، قال: أما تخشون الرقيب؟!

فقال اللواء خطاب: وأين الرقيب؟ وما عندنا إلا الكواكب، ما هنا إلا النجوم؟ قال: وأين مكوكب الكواكب؟ قال: ثم تركنا وذهب، لكن دخلت كلمته إلى قرار قلبي، أحسست بحرارتها تلك اللحظة؛ لأن الإنسان مفطور على الخير وعلى الإيمان: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٣٠] كل حيوان وكل مخلوق وكل كائن يعرف أن هناك إلهاً.

مر عيسى عليه السلام -والقصة صحيحة إلى عيسى ثبتت عنه- مر عيسى عليه السلام ببقرة قد اعترض ولدها في بطنها في ساعة الولادة، وإذا البقرة تنظر إلى السماء وتدمع عيناها؛ لأنها تعلم أن الحي القيوم مفرج الكربات في السماء {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: ٦٢] ثم تكلمت وأنطقها الله الذي أنطق كل شيء فقالت: يا روح الله! أسألك بالله أن تدعولي، فبكى عليه السلام وقال: اللهم سهل لها، فأنزل ولدها في تلك الفترة نعم.

كل شيء يعلم أن هناك إلهاً مدبراً، سبحانه الخالق الأحد!

قال: فذهبنا تلك الليلة وبقيت أقول كلما قمت من نومي: أين مكوكب الكواكب؟

أتي أنام فما أستطيع أن أنام وأقول: أين مكوكب الكواكب؟

أخرج في الليل وأنظر إلى الكواكب وأقول: أين مكوكب الكواكب؟

وفي الأخير أعلن توبته وانصدع باكياً في ليلة من الليالي، فأتى وتاب من حياة الجهل والخرافة والظلام، وجدد إيمانه وطريقه وأصبح من دعاة الإسلام، وهو الذي سد مساحة العسكرية الإسلامية في كتبه، نسأل الله أن يجزيه عن الإسلام خير الجزاء يقول تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [الأحقاف: ١٦] وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثِّلَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٤-٢٧] فنسأل الله لنا ولكم الثبات والاستقامة حتى نلقاه.

توبة مالك بن الربيب

وهذا مالك بن الربيب الشاعر، ولا أعرف قصيدة في الرثاء أجمل ولا أحسن ولا أجل من قصيدة مالك بن الربيب، تبكي العيون، كتبها لأقرأها وكأنه يقطع من قلبه، هذا الشاب خرج ضالاً معرضاً عن الهداية، لا يصلي ولا يسجد لله سجدة ولا يركع لله ركعة، خرج مع شباب إلى طريق العراق وخراسان، إذا أنت القافلة ترصد لها ثم قبض

على أهل القافلة وأخذهم وذبحهم وأخذ القافلة، إذا مرت ظعينة أخذ الظعينة، إذا مر الرجل على دابة ذبح الرجل وأخذ الدابة، سارق وقاطع طريق، والله عز وجل مهما تمرد العبد فإنه فتح باب التوبة، وسبحان الله ما أحلم الله! تصور أن إنساناً يحمل في نفسه بعض الإساءات من الإنسان، لكن الله حلیم، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} [إبراهيم: ٤٢] لكن الله صاحب الحلم الواسع تبارك وتعالى، حتى مهما قتل الإنسان ومهما اعتدى ثم عاد قبله الله، فهذا كان يفتك في العباد فتكاً، وفي صباح يوم مشرق أرسل خيوط شمس الذهبية على الكون ليكون يوم الميلاد لهذا الشاعر، ليكون يوم الهداية والرجوع والتوبة إلى الله، أنت القافلة وقائدها سعيد بن عثمان بن عفان ابن أمير المؤمنين، هؤلاء الشباب على سيماهم أنوار الهداية وعلى وجوههم إشراقات، شباب يريدون الجهاد رافعين سيوفهم وحاملين رماحهم يريدون القتال في سبيل الله، مروا بهذا الشاب فقالوا: يا فلان! من أنت؟ قال: أنا مالك بن الربيب.

قالوا: ما أجلسك هنا؟ قال: لي أغراض -هم لا يدرون ما هي الأغراض- قال تعالى: {وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى} [طه: ١٨] قال: وأنتم إلى أين خرجتم؟ قالوا: خرجنا نقاتل في سبيل الله، قال: كيف تقاتلون في سبيل الله؟ قالوا: نقاتل، قال: وماذا جزاؤكم إذا قاتلتم في سبيل الله؟ يريد أن يعرف ما هي الثمرة من ذلك، قالوا: شرى الله أنفسنا بالجنة، قال: في ماذا؟ قالوا: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} [التوبة: ١١] قال: هذا كلام الله؟ قالوا: نعم هذا كلامه.

قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتوب إلى الله، ثم وضع يده في يد القائد وتاب إلى الله وذهب معهم وباع نفسه من الله،

ولما عاد -وقد قاتل في المعركة- يريد أهله وفي الطريق لدغته حية، فورم جسمه وأخذ يرتعش من السم، فبكى من الفرح، وقال: الحمد لله الذي توفاني على توبة قبل أن يتوفاني على ضلال، وقبل سكرات الموت سجل قصيدة من أجمل وأحسن القصائد! قصيدة الصدق والإنسان في سكرات الموت، قصيدة تصل إلى القلوب لمن يعي الأدب العربي يسمونها: مالك بن الريب يرثي نفسه، أو القصيدة المبكية المحزنة، يقول من ضمن أبياتها:

دعاني الهوى من أهل أود وصحبتني بذي الطبسين فالتفت ورائيا

يقول: أتاني الضلال وجنون الشباب والغرور وزملاء السوء ورفقة الضلالة والمجرمون -عصابات الإجرام- دعوني فأخذوني من بيت أهلي وذهبت إلى الطبسين وتركت أهلي في العراق لأفسق، قال: فوصلت إلى هناك

دعاني الهوى من أهل أود وصحبتني بذي الطبسين فالتفت ورائي

فما راعني إلا سوابق عبرة تضعضعت منها أن ألوم ردايا

ألم ترني بعث الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

رحمك الله ورحم الله ابن عفان وأباه

ألم ترني بعث الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

فله دري يوم أترك طائعا بني بأعلى الرقمتين وماليا

ما أحسن هذه الخاتمة الحسنة؛ يوم تركت أبنائي وأطفالي وزوجتي وأمي وأخواتي وملت في سبيل الله! لأن المقصد أن نلتقي في الجنة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور: ٢١].

يقول عبد الله بن أنيس: {أين ألقاك يا رسول الله غداً؟ قال: في الجنة إن شاء الله، قال: أعطني علامة، قال: خذ هذه العصا فتوكأ بها في الجنة} والمتوكلون بالعصي قليل فأخذها ودفنت معه.

أتى إعرابي وقال: {يا رسول الله! أين ألقاك يوم الزحام؟ يقول: المسألة صعبة ما أدري كيف أهتدي لك؟ من أسأل عنك يوم الحشر يوم يجمع الله الأولين والآخرين؟ - فدمعت عينا الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال: تلقاني عند ثلاثة مواقف:

إما عند الحوض - يوم يسقي الناس عليه الصلاة والسلام.

وإما عند تطاير الصحف فأخذ باليمين وأخذ باليسار.

وإما عند الصراط وهو يقول: اللهم سلم سلم، اللهم سلم سلم، اللهم سلم سلم {فناج مسلم ومكرس على وجهه في النار

واستشفع الناس بأهل العزم في راحة العباد منذ الموقف

وليس فهم من رسول نالها حتى يقول المصطفى أنا لها

فيقول:

فلله دري يوم أترك طائعاً بني بأعلى الرقمتين وماليا

يقول: كل الدنيا تهون يوم ذقت الهداية، وذقت النور لا تساوي الدنيا شيئاً، قال:

ودع خليلي اللذين كلاهما علي شفيق ناصح لو نهانيا

يقول: وسلام على أبي وأمي وهما شيخان كبيران، فيقول: الحمد لله! أخبروهم أنني
مت على هداية ونور، فلا يبكون علي، وإنما البكاء على من مات معرضاً، ثم قال
لإخوانه:

ولا تحرماني بارك الله فيكما من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

يقول: وسعا في القبر قليل، لا تحرماني من الأرض فقد أصبحت منزلي:

ولا تحرماني بارك الله فيكما من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا

خذاني فجراني بردي إليكما فقد كان قبل اليوم صعب قياديا

يقول: الآن أصبحت ليناً ما عندي منعة ولا قوة -كما قال الوليد بن عبد الملك
عندما كان خليفة، كان جباراً قوياً حتى يقول الذهبي: كان غشوماً ظلوماً، فلما أتنه
سكرات الموت أصبح كالحبل انقطع، فقال: {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهُ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهُ}
[الحاقة: ٢٨ - ٢٩].

قال:

خذاني فجراني بردي إليكما فقد كان قبل اليوم صعب قياديا

قال: كنت شجاعاً لكن:

إذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع

ثم يقول:

وأشقر خنذيذ يجر لجامه إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا

يقول: فرسي -والحقيقة هذا تصوير عجيب- يقول: حتى الفرس بعد قليل سوف
يذهب إلى الماء وهو بلجامه ما ترك له الموت ساقيا

يقولون لا تبعد وهم يدفنوني وأين مكان البعد إلا مكانيا

العرب إذا دفنوا حبيبهم يقولون: لا أبعدك الله! يدفونه في التراب ويقولون: لا
أبعدك الله! فيرد عليهم بقوله:

يقولون لا تبعد وهم يدفنوني وأين مكان البعد إلا مكانيا

أحد الشعراء وهو التهامي دفن ابنه، ومن حبه لابنه بكى عليه في أعظم قصيدة في
تاريخ الرثاء، أي: في رثاء الأبناء، وهذا في رثاء النفس، فقال من حبه له: والله لا أدفنه في
المقابر إنما أدفنه هنا في بيتي، فحفر له عند منامه، فدفنه وقال: لا أبعدك عني، والله
إن بعد ما بيتي وبينك بعد ما بين المشرقين، والحي الذي في الأندلس أقرب منك، حتى
يقول في قصيدته:

إني وترت بصارم ذي رونق أعدته لطلاب الأوتاري

جاورت أعدائي وجاور ربه شتان بين جواره وجواري

يقول ابن القيم في ترجمة التهامي: رأي التهامي في المنام بعدما مات فقالوا: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأدخلني الجنة.

قالوا: بماذا؟ قال: ببقي الذي قلت فيه:

جاورت أعدائي وجاور ربه شتان بين جواره وجواري

يقول: تركتني في الحياة للحساد وللأعداء وللظلمة وللمنغصين وجاورت أنت الله، شتان بين جواري وجوارك

طول الحياة إذا مضى كقصيرها والعز للإنسان كالإعسار

أو كما قال فالمقصود أنه يقول:

لعمري لئن غالت خراسان هامتي لقد كنت عن باب خراسان نائيا

إلى أن يقول:

يقولون لا تبعد وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا

وبالرمل لو يعلمن علي نسوة بكين وفدين الطبيب المداويا

عجوزي وأختاي اللتان أصيبتا وباكية أخرى تهيج البواكيا

ذكر الأسرة والأحداث التي سوف تمر، ثم عد نفسه أنه مات -إن شاء الله- في سبيل الله، وقال: لا لوعة ولا فراق ولا خوف وأنا مقبل على الله، فله الأمر من قبل ومن بعد، فالمخدول من خذل عن طريق الاستقامة، والمحروم من حرم هذا النور الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم، والمقطوع حبله من لم يعرف طريق الجنة: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [الكهف: ١٠٤] فنعوذ بالله من الخذلان.

وهذه -أيها الإخوة- دروس على طريق التوبة يشاهدها الإنسان صباح مساء، يشاهدها حين يذنب وحين يخطئ، ثم يتفكر أنه لا بد له من واحد أحد إله رحيم يتلجئ إليه.

وما نعلم أحداً من الناس إلا وهو مذنب؛ متكلم وسامع وصالح وعالم وداعية، يقول ابن عباس: [[تحترقون تحترقون ثم تصلون فيكشف ما بكم]] أي: من الذنوب والخطايا، وقال في أثر آخر: [[إنكم لا بد لكم من الذنوب، فأصبحوا تائبين وامسوا تائبين]].

أيها الإخوة في الله: علينا أن نجدد المسيرة والإقبال إلى الله، وعلينا أن نكون رسل خير وهداية، وأن نوثر في الناس عل الله أن يهدي على أيدينا عباده الصالحين، فإن من اهتدى وعرف الطريق وأصاب ليس كالذي ظل وركب رأسه، نعوذ بالله من الخذلان! {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣] يقول عز وجل عن هؤلاء: {أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاءً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية: ٢٣].

معركة القادسية

يأتي الصحابة في القادسية وهم ثلاثون ألفاً، ويقابلهم من فارس العجم الكافر مائتان وثمانون ألفاً، ونحن لم نقاتل الناس بقوات، كنا نقاتلهم بإيمان مع نسب من القوة كما قال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ { [الأنفال: ٦٠] (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى { [الأنفال: ١٧].

يأتي سعد بثلاثين ألفاً لكن الواحد منهم يحمل إيماناً بالله العظيم، يقدم دمه قبل جسمه في المعركة، يقدم روحه لله، يحمل روحه على كفيه، وكان هذا الدين أحب ما في الأرض كلها إليه، يحضر المعركة فيأخذ غمد سيفه فيكسره على ركبته ويقول: يا رب! أسألك أن تأخذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى، هذه أمة الحب والإيمان والطموح، يصلي بهم سعد رضي الله عنه قبل المعركة، وكانوا ثلاثين ألفاً كما أسلفت، يكبر فيكبرون، ويركع فيركعون، ويرفع فيرفعون، فينظر رستم قائد فارس وهم مائتان وثمانون ألفاً فيغضب ويقول: علم محمد الكلاب الأدب.

يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام.

كنا أمة مبعثرة متخلفة، لكن علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نأخذ المجد، وقبل المعركة يقول رستم لأحد جواسيسه وعيونه واستخباراته: اذهب في الليل وادخل في جيش المسلمين، ثم تعال وادخل في الليل في جيشي؛ لتري ماذا يصنع الجيشان.

فذهب هذا الجندي الفارسي العجبي الوثني فدخل في جيش المسلمين.

ماذا سوف يجد جيش المسلمين؟ إنه سيجد عبادةً.

عباد ليل إذا جن الظلام بهم كم عابد دمه في الخد أجراه

وأسد غاب إذ نادى الجهاد بهم هبوا إلى الموت يستجدون لقياه

يا رب فابعث لنا من مثلهم نفرأ يشيدون لنا مجداً أضعناه

إنه مجد أضعناه يوم تأخرنا في آخر ركب الأمم، والله إنه لمجد خسرناه يوم تقهرنا، وأصبح إخوان القردة والخنازير من إسرائيل وأمثال إسرائيل تغطي شمسنا بطائرات الميراج، كما يقول شاعر العرب:

فأطفأت شهب الميراج أنجمنا وشمسنا وتحدث نارها الخطب

شجباً ونكراً وتنديداً بغارتها الله كم نددوا يوماً وكم شجبوا

لكن المسلم في ذلك الزمن يقول: لا بد أن تحكم شريعة الله عز وجل.

وقبل العركة وصل هذا الفارسي ودخل في جيش المسلمين، فوجد هذا يتلو كتاب الله في الليل قبل المعركة بليلة، ووجد حلقة هنا تتدارس الحديث ويتباكون على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ووجد نفرأ آخر يستعد للمعركة يريش السهم ويبريه، ويرفع السيف ويحاذيه، وينكت الرمح ويوازيه؛ ليستعدون للقاء الله، ووجد سعداً مع أركان قيادته يجتمع اجتماعاً خاصاً ليكثر الدعاء والإلحاح على الله، فالنصر لا يأتي إلا من عند الواحد الأحد، النصر يأتي من فوق سبع سماوات، النصر والتمكين في الأرض من الله عز وجل، {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٤١] ثم خرج هذا الجندي الفارسي

إلى جيش فارس؛ فوجد هذا الجندي جندياً سكراناً ولهاناً وكأس الخمر بيده، غارق في المعصية، وإذا عصي الله في الأرض، مقت وأخزي ولعن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووجد جندياً آخر يشارك فتاة في الفاحشة، ورأى بقية الجنود وهم سكارى وما هم بسكارى ولكنهم في نوم عميق.

ورجع إلى رستم القائد الأعلى فأخبره، فعض أنامله وأخذ يتلوم على أصابعه ويقول: الهزيمة الهزيمة، سلام على العراق لا عراق بعد اليوم.

لقد عرف نتيجة المعركة قبل المعركة، وأتى سعد بن أبي وقاص في الصباح، الذي قام في الليل فلبس أكفانه من تحت الثياب، يقول محمد إقبال وهو يتكلم في جيش أفغانستان يوم زار ظاهر شاه:

كنا نرى الأصنام من ذهب فنهدمها ونهدم من فوقها الكفارا

لو كان غير المسلمين لحازها كنزاً وصاغ الكنز والديناراً

أرواحنا يا رب فوق أكفنا نرجو ثوابك مغنماً وجواراً

حرمان العلم

فإن العلم هبة من الله، والفهم عطية منه، والفقه مادته منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَهْبِئُهَا مَنْ يَشَاءُ، والله يربط العلم والفهم بالتقوى، فقال عز من قائل: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} [البقرة: ٢٨٢] وإذا أعطى الله العلم صاحبه، أو علمه حديثاً أو آية أو قضية، أو بصره، أو رده عن خطأ ولم يتعظ؛ سلب الله العلم منه، وأطفأ نوره وشهابه ومصباحه، فجعله في الدنيا في ظلمات، ثم أوعده بظلمات في الآخرة فأهل الظلمات

على الصراط إنما هووا على وجوههم في النار؛ لأنهم ما وجدوا نور الطاعة في الدنيا، ولأن ظلمات المعاصي أحاطت بهم.

ولذلك قال الله تعالى عن بني إسرائيل لما عصوه وأفسدوا في الأرض واستوجبوا غضبه ولعنته: {فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ} [النساء: ١٥٥] أي: بمعاصيهم؛ لأن في عنقك يا مسلم عهد من الله، من يوم خلق الله آدم ونثر ذريته كالذر من ظهره أخذ الميثاق عليهم ألا يُعبد إلا هو، فأنت قد أعطيت الله ميثاقك مرتين: مرة يوم أخذه من ظهر أبيك آدم، ومرة يوم أرسل لك محمداً عليه الصلاة والسلام، يقول عليه الصلاة والسلام: {والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار} وقد دخلت دعوته إلى كل بيت، فيعز بعز طاعته كل عزيز، ويدل بذل معصيته كل ذليل.

فأول عقوبة حرمان العلم، قال الله: {فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: ١٣].

أتى الإمام الشافعي رحمه الله ليعزور مالك بن أنس في المدينة، وهو إمام دار الهجرة، فرأى مالك نور الطاعة على وجه الشافعي، ورأى السم والوقار، فأخذه بيده وقال: "يا شافعي! إني أرى عليك نور الطاعة فلا تطفئ نور طاعتك بمعصية الله".

وذهب الشافعي إلى شيخه وكيع بن الجراح العالم الكبير المحدث، فقال: عظمي، ما هو أنفع دواء للحفظ؟ كيف أحفظ القرآن؟ كيف أحفظ الحديث؟

قال: عليك بتقوى الله، وإياك والمعاصي فإنك لن تنسى العلم بمثل المعاصي، قال الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي

مر أحد الناس فرأى امرأة فنظر إليها، فقال له أحد العلماء: تنظر إلى الحرام! والله لتجدن غيها وعقوبتها ولو بعد حين.

قال: فنسيت القرآن بعد أربعين سنة.

وقال بعض أهل العلم: لما قال يعقوب لأبنائه: {وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ} [يوسف: ١٣] أوحى الله إليه: يا يعقوب! خفت الذئب وما رجوتني!

فمن الذي يحفظ إلا الله؟

ومن الذي يري إلا الله؟

ومن الذي يسدد إلا الله؟

ومن الذي يهدي إلا الله؟

فيقول: يا يعقوب! أرسلت ابنك وما قلت: يحفظه الله وقلت: أخاف أن يأكله الذئب.

فأخذه إخوانه فغاب عن أبيه أربعين سنة.

قال أحد الصالحين -وهو أبو سليمان الداراني -: إني لأرى وجهي في المرأة كل يوم مرات، أنظر هل اسود وجهي من المعاصي؟! هذا وهو ولي، قائم الليل صائم النهار صادق مع الله مخلص ومع ذلك يأخذ المرأة ينظر هل تغير وجهه.

فقل لي بالله! كم أذنبنا! وكم أخطأنا! وكم ارتكبنا من ذنب وخطيئة الله أعلم بها! لكننا أصبحنا لا نشعر، فهم يشعرون لأن فيهم حياة، ونحن لا نشعر لأن قلوبنا قد ماتت من كثرة المعاصي.

ولذلك يقول أحد السلف: "إنني لأنكر أخلاق الناس معي بسبب المعاصي" وقال بعضهم: ما فعلت معصية إلا تغير الناس لي، وهذا أمر واقع، وأنت بإمكانك أن تجرب علاقتك مع الناس، وتسهل أعمالك ومراجعاتك، فإنها لا تسهل إلا بطاعة الله، وإذا تعقدت وتصبعت فبسبب المعاصي فالحذر الحذر! والبدار البدار إلى التوبة! فلا ملجأ من الله إلا إليه بتوبة نصوح.

وأبغض الناس إلى الله هم العصاة، فلا يمكن أن يفقههم في دينه أو يعلمهم، ولذلك لا يستفيدون من الموعظة ولا يفهمون، والله ذكر بني إسرائيل فقال: {كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: ٥] فهم عطلوا أمر الله ونهيه وتعاليمه؛ فجعلهم كالحمير لا تفهم ولا تعي، وقال عن عالمهم: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَافْضُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: ١٧٦] ولذلك يقول الأول:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

فتجد الذي يستمتع الغناء أو ينظر إلى الحرام كثيراً، أو يأكل الربا، أو يسهر على البلوت وعلى معصية الله، أو يعاشر الفاجرين المعرضين؛ تجده لا يحس بالذنوب، يقول ابن مسعود كما في صحيح البخاري: [[إن المؤمن ينظر إلى ذنوبه كأنها جبل يريد أن يسقط عليه، وإن الفاجر ينظر إلى ذنبه كأنه ذباب وقع على أنفه فقال به هكذا]] فأسرع الناس اقتراًفاً للذنوب هم الفجرة، ولذلك تجدهم يستصغرون كبائر الذنوب وسوف يأتي بيان ذلك، فحذار حذار يا من له طريق إلى العلم أو الفهم من المعاصي! نسأل الله أن يتوب علينا وعليكم من الذنوب والخطايا، وأن يثبتنا حتى نلقاه.

حرمان الرزق

الأثر الثاني والعقوبة الثانية من عقوبات الذنب: حرمان الرزق.

فإن العبد يحرم الرزق بالذنوب يصيبه، كما ثبت ذلك في مسند الإمام أحمد فما تعطل الرزق، وما قلت بركة الناس وبركة بيوتهم ودخلهم، وما كثرت عليهم المتطلبات إلا بسبب الذنوب والمعاصي.

ولذلك كان الرزق الهنيء لأهل الطاعة، ولا يهولنك أن تجد فاجراً عنده قصور ودور ونعمة، وعنده شيكات وبنوك ودخل وسيارات، فإن هذه نقمة لا نعمة قال تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً} [المدر: ١١ - ١٧].

فلا إله إلا الله كم قلت بركة ورزق من أعرض عن الله! تأتية الأموال مثل الجبال لكن لا بركة فيها: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

الوحشة بين العاصي واللّٰه عز وجل

أوحش شيء إلى العاصي أن يجلس وحده مع الله، فتجد العاصي يفر من الوحدة ولا يحب العزلة، بينما كان الصالحون والتابعون والسلف الصالح يجلس أحدهم في غرفة، فيذكر الله تعالى ويسبحه ويكبره، ويستغفره ويدعوه، ويجد اللذة والسكينة وحده أما الفاجر إذا جلس في غرفة وحده فكأن وحشة الدنيا وهمها وغمها اجتمع عليه، فلا يحب الوحدة بل تجده يحب الخلطة مع الفجرة، ويجلس في المنتديات والمقاهي مع المعرضين، ويحب الفكاهات والضحك الطويل العريض لينفس عن نفسه فتجده يضحك من شذقه إلى شذقه ومن أذنه إلى أذنه ويقهقه قهقهة قد تهدد أمن الحارة، فهو أكثر الناس ضحكاً وقهقهة، وأكثر الناس مزحاً فاحشاً وبذيئاً؛ لأن في قلبه غم وذلة وهم وحسرة لا ينفسها إلا الضحك فلذلك كان بين العاصي وبين الله وحشة وبين الطائع وبين الله زلفى وقربى.

كان الإمام أحمد يجلس وحده فيقال له: ألا تستوحش؟

فيقول: كيف أستوحش والله يقول: أنا جليس من ذكرني.

وكان إبراهيم بن أدهم يجلس وحده في جبل في لبنان فقالوا له: أتجلس وحدك؟

قال: معي الله عز وجل.

قالوا: ألا تستوحش في هذا الخراب؟ قال: أنا في العمار وأنتم في الخراب.

فهو في الصحراء لكن الله معه.

ذكروا عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه كان يخرج من المسجد بعد صلاة العصر وحده إلى الصحراء، فيرفع إصبعه ويذكر الله ويهمل ويكبر، ثم يبكي ويقول:

وأخرج من بين البيوت لعلي أحدث عنك النفس بالسر خاليا

وهذا البيت لمجنون ليلي، قاله في محبوبته، لكن ابن تيمية حوله إلى الحبيب القريب سبحانه وتعالى، فقال:

وأخرج من بين البيوت لعلي أحدث عنك النفس بالسر خاليا

واني لأستغشي وما بي غشوة لعل خيالاً منك يلقي خيالها

ولذلك العاصي دائماً يشعر بالضجر ويريد أن يقضي الوقت في التوافه، حتى إن بعض الناس إذا دخل عليهم رمضان جلسوا في لعب، كلعب البلوت أو الورقة أو ما شابهها، ويأخذون الساعات الطويلة في لعب الكرة، يقولون: نضيع أو نقطع الوقت، ويشعر أحدهم بضجر ويقول: انتابني هم وغم؛ وذلك بسبب معاصيه وإعراضه عن الله تبارك وتعالى.

الوحشة بين العبد والناس

قالوا: العاصي متهم دائماً، كاد من الريب أن يقول: خذوني.

لو تحرك الباب لقال: جاء الطلب، ولو تكلم في إنسان لقال هو في.

قال الله عن المنافقين: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: ٤] فالعاصي بينه وبين الناس وحشة، فهو يرى أن الطائعين يتهمون، ويرى أن الناس كلهم يظلمونه ويتحدثون فيه فإذا سمع اثنين يتناجيان قال: فيّ يتكلمون، وإذا سمع صاحبين يتكلمان قال: فيّ يختصمون، وإذا سمع حزبين يختلفون قال: فيّ يتحدثون.

فهو دائماً متهم، وهو دائماً مسلوب الإرادة ليس عنده قوة، وبينه وبين الناس وحشة.

حتى أنك تجد الذي يتمرد في المعاصي كثيراً ويعيش فيها سنوات لا يحب مجالسة الصالحين ويفر منهم؛ حتى وجد أن بعض الناس ذهب إليه بعض الدعاة في بيته ليحدثه، فخرج من الباب الآخر، وقال لأطفاله: قولوا أبونا غير موجود.

ووجد من بعضهم أنه يعتذر عن الوصول، ويعتذر عن حضور الوليمة التي هي للطائعين؛ لأن فيها قرآناً وحديثاً، وفيها سيرة وسلف وأخبار وأخبار، لكن إذا وجدت الرابة والدف والطبل حضر ورقص وشارك بشعوره وتكاتف وتعاون، فهو معرض عن الناس المستقيمين ومقبل على المعرضين لقربه وصلته بهم، فلا إله إلا الله كم بين من أحب الله من قرب وزلفى! {الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٦٧] نسأل الله أن نكون منهم.

ونجد أن المعرضين في الظاهر متعاونون متساعدون، ولكن بينهم من الشنار والعار والدمار ما الله به عليم: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [الحشر: ١٤] فمن أراد الحب والولاء فليتول الصالحين وليقرب منهم، ولذلك عقد النووي رحمه الله: باب زيارة الصالحين والاستئناس بهم وحبهم، والمرء يحشر مع من أحب.

أحب الصالحين ولست منهم لعلني أنال بهم شفاعة

وأكره من تجارته المعاصي ولو كنا سواءً في البضاعة

محق بركة العمر

العاصي من أقل الناس أعماراً انظر إلى بعض العصاة الآن، يعيش مائة وعشرين سنة لكنه مثل الحمار، يجدون معه مذكرات يكتب فيها ماذا فعل لقي امرأة في البرازيل وكتب مذكرات، وسمع أغنية، وعنده موسيقى وليلة حمراء، وشرب كنوس الخمر، وفتك بعباد الله وقتل ودمر فلا بركة ولا نور ولا عمر.

لكن ابحث الآن عن بعض أعمار المسلمين، فهذا سعد بن معاذ عمره ٣٧ سنة، عاش في الإسلام سبع سنوات فقط، لكننا أحسن من سبعة آلاف سنة، ولما توفي مقتولاً من أثر جراح في سبيل الله اهتز عرش الرحمن لموته، وأخذت الملائكة بأهداب العرش وقالت: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ١ - ٤] وشيعه سبعون ألف ملك، وأتى صلى الله عليه وسلم فشهد جنازته، وأتى صلى الله عليه وسلم يتكفكف بثيابه ويقول: {والذي نفسي بيده ما من موطن في الأرض - أي التي حوله - إلا وفيه ملك حضروا جنازة سعد بن معاذ} قال حسان:

وما اهتز عرش الله من موت هالك سمعنا به إلا لسعد أبي عمر

والنووي توفي وعمره أربعون سنة، لكنه ألف من الكتب ما يقارب عشرين مؤلفاً، منها ما يبلغ أكثر من عشرة مجلدات، وكان يسرد الصيام ويقوم الليل كله، وعنده من الأذكار والأوراد وقراءة القرآن، وفعل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما

يعادل الجبال من الحسنات، وبعضهم عاش ثلاثين سنة فآثمر الله في جهده، وبعضهم عشرين، بل يكفي من الطائع سنة واحدة ليخلص مع الله.

وهذا عمر بن عبد العزيز عمره أربعون سنة، وهو مجدد من مجددي الإسلام رضي الله عنه وجمعنا به في دار الكرامة.

ويتساءل ابن القيم ويقول: هل نقصان العمر حقيقي أو مجازي؟

أي هل هو حقيقي بأن يقصر الله عمره فبدلاً من أن يعيش ستين سنة يعيش أربعين؟ أو هو مجازي بأن يعيش هذا ستين وهذا ستين لكن هذا عمره أبارك من الآخر؟

ولا يستبعد أن يكون حقيقياً، وأن الله يقدر أن هذا يعيش ستين سنة لكن بسبب معاصيه يقدر أن يموت قبل أن يبلغ الستين.

وقيل هو مجازي، فهذا يعيش ستين سنة لكنه طائع، عاش ستين سنة في الطاعة، وهذا يعيش ستين سنة في المعصية، فيمحق الله بركة هذا ونوره ولياليه وأيامه، فيأتي صفر اليمين عند الله يوم الدين.

ذهاب الحياء والوقار

قالوا: لا يزال العبد عنده حياء، والحياء يزيد بالطاعات والاستغفار والذكر فيزيد الله من حيائه، والحياء كله خير، والله يقول: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ} [النساء: ١٠٨] فإذا وجدت الشاب والرجل والمرأة والفتاة عندهم حياء فاءمل فيهم خيراً، وادع لهم فسوف يثمرون الخير، وإذا رأيت الإنسان قد أسقط جلباب الحياء، فاغسل يديك منه، {إذا لم تستح فاصنع ما شئت} فإنه قد يبلغ ببعض الناس من

الجرائم أن يتحدث بها في المجالس، ويخبر أنه مذنب ومصر، وأنه فعل كذا كذا، وعند الناس فضائح ومذكرات مما فعلوا في أيامهم الخالية، يوم سترهم الله في الليالي الظلماء السود، وبإمكانهم أن يستتروا ويستغفروا ويتوبوا فيغفر الله لهم، لكنهم جاهدوا الله بالمعاصي، فهؤلاء لا يعافون.

جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: لكل أمتي معافي إلا المجاهرين.

قالوا: ومن المجاهرون يا رسول الله؟ قال: أناس يفعلون الذنب ويستترهم الله، فيصبح أحدهم فيقول: يا فلان فعلت كذا وكذا البارحة.

يمسي والله يستره، ويصبح فيكشف ستر الله عليه { فهذا لا يعافي، كما تجد بعض الناس -وهذا خطأ في جاهلية نسبية مرت بكبار السن- يقول: أنا سرقت من آل فلان وذبحت من آل فلان وفعلت، وزنى البعيد وفعل وفعل والعياذ بالله، فهذه تسجيلات وشهادة أمام العالمين أنه فعل ذلك.

وهذا هو سقوط الحياء الذي هو جلياب النور، من يعطيه الله عز وجل فقد أعطاه خيراً كثيراً، حتى إنك تجد بعض الناس يبلغ من التقوى أن يترك بعض المباحات خشية أن يقع في بعض المعاصي، فتجد بعضهم لا يأكل في السوق، والأكل في السوق مباح، لكنه لا يناسب المروءة، فبعض الناس لوقاره وحشمته وكرامته ومروءته ما يأكل شيئاً في السوق؛ لأنه يعرف أن لنفسه وزناً وأن له قيمة، لكن بعضهم من سقوطه وقلة مروءته ما عليه أن يمشي مكشوف الرأس، ويطارد الناس في السوق،

ويتمازح هو وإياهم ويتضاربون، ويأكل وهو واقف ويرفع صوته، فهو أجدر بأن يقع في المعاصي، وهذه تدل على غيرها.

استصغار الذنوب

فإن العبد لا يزال يحتقر الذنوب والكبائر حتى تصبح عنده كالهوى وشرب الماء، وبعضهم يغتاب فيؤصّي، فيقول: الغيبة سهلة، وبعضهم يترك الصلاة في الجماعة، فيقال له: صلّ في الجماعة.

فيقول: يكفي أن أصلي في البيت، فإن بعض الناس ما يصلي الصلاة مطلقاً فأنا خير منهم، فلذلك لا تلوموني على هذا.

وبعضهم يطول إزاره ويقول: سبحان الله! ليتك ترى الناس في أوروبا، ليتك سافرت ورأيت الناس في أمريكا.

فينزل نفسه إلى منزلة الكافر ويقيس نفسه بالكافر.

ويأتي إلى أهل الدعارات والخيانات فيجعل بينه وبينهم نسب، وإذا قيل له: لا تسبل إزارك.

قال: أنت في الإزار وفي اللحية، والناس أصبحوا الآن في مسائل غير هذه المسائل، ألا تعرفون إلا الإزار واللحية؟!

وذلك لأنها هانت عليه، وأصبحت عنده قشور، والمصاب بمرض عضال لا يهتمه الزكام، فإذا كان عنده مرض السرطان أو السل، أو مرض من الأمراض الفتاكة، ويؤتى

إليه في المستشفى ويُقال له: نعالجك أولاً من الزكام، فيقول: الزكام هذا أمره سهل وسوف يذهب، لكن عاجوني من هذا المرض الفتاك.

وكان ابن تيمية يستشهد ببيت شعر ويقول:

إن اللبيب إذا شكَا من جسمه مرضين مختلفين داوى الأخطرا

فحذار حذار من استصغار الذنوب! فإنه لا يزال العبد يستصغر الذنوب حتى يسقط من عين الله، ولذلك الرسول صلى الله عليه وسلم جعل ذنوب أصناف من الناس أعظم من ذنوب غيرهم، وقد صح في الحديث أنه قال: {ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب} من هم؟

لا ينظر الله إليهم يوم القيامة لأنهم سقطوا من عينه في الدنيا، ولا يزكهم فشهادتهم ساقطة، وليس لهم عند الله قبول، ولهم عذاب إليم: {أشيمط زان} شيخ كبير عجوز يزني، شابت لحيته، وبدا له الشيب وهو النذير: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} [فاطر: ٣٧] ومعلوم الزنا من الشباب حرام وكبيرة، لكنه مضاعف أن يزني الشيخ الكبير، ولماذا يزني؟

قد ضعفت قوته، ورأى نذير الشيب، واقترب من لقاء الله، وأندرت السنين، وعاش الأيام والليالي، ودفن الأموات من والأجداد والأحفاد ومع ذلك يزني! لا ينظر الله إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم، وهو أدهى وأمر.

ولذلك تستبشع إذا رأيت إنساناً في الخمسين من عمره وهو جالس في المقهى يشرب الشيشة، وإذا رأيت شاباً عمره ١٥ أو ١٨ سنة ربما تستسهل هذا الأمر ولو أنك تستقبحه، لكن أن ترى إنساناً كبير السن عنده أطفال بالبيت وزوجة وأولاد، فيتركهم

على المسرحية والغناء والمجلة، ويذهب بعد صلاة العشاء إلى الساعة الثانية يشرب الشيشة، هل رأيت أحقر من هذا؟ وكيف يزكي؟ هذا ليس عنده واعظ.

الإمام أحمد رأى الشيب في المرأة فبكى حتى كادت أضلّعه أن تختلف، فقالوا: مالك؟ قال: يقول الله عز وجل: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} [فاطر: ٣٧] هذا هو النذير.

أي: الشيب.

ويروى عن إبراهيم عليه السلام أنه نظر إلى المرأة فرأى شعرة بيضاء فنظر إليها وقال: يا رب! ما هذا البياض؟ قال: وقار يا إبراهيم.

قال: اللهم زدني وقاراً.

ولذلك ورد في حديث حسن: {ما شاب العبد شيبة في الإسلام إلا كانت له حسنة} فهذا الشيب معناه أنه يردعك عن المعاصي.

مر شيخ كبير بشباب يلعبون في شارع من شوارع الكوفة، فقال أحدهم لهذا الشيخ:

يا أبتاه! من الذي أعطاك هذا القوس الذي على صدرك؟

فقال الشيخ الكبير: هذا القوس أعطانيه الدهر بلا ثمن، وسوف يعطيك قوساً مثله.

يقول: انتظر، فسوف يأتيك.

تمنت عجوز أن تعود فتية وقد يبس الجنبان واحدودب الظهر

تسير إلى العطار تبغي شبابها وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

من يعيد شبابه إلا العمل الصالح؟

ومن يعيد قوته ومجده وجاهه إلا تقوى الله عز وجل؟

أما إذا ولي العمر ولي.

{وعائل مستكبر} رجل فقير ممزق ليس عنده شيء، ومع ذلك لا ينظر إلى الناس، ولو كان هذا الأمر من غني لكان قبيحاً، لكنه فقير ويتكبر ممزق الثياب، وينام على الرصيف وتسحبه الكلاب بأيديه وأرجله، وكل شيء فيه، ومع ذلك ينظر إلى الناس ويزدريهم ويحتقرهم كأنهم الذباب فهذا لا ينظر الله إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

قال عليه الصلاة والسلام: {وملك كذاب} سلطان من السلاطين ليس في حاجة إلى أن يكذب فيكذب، ولماذا يكذب والكذب إنما هو لدرء خوف، وهو لا يخاف من الناس في العادة، أو لجلب منفعة والمنفعة عنده، فلماذا يكذب؟! فلا ينظر الله إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

وصول شؤم المعصية إلى الغير

المعصية أمرها عجيب! تصل أضرارها مثل القنبلة الذرية، تقع هنا وتنتشر في المدن والقرى، مثل قنبلة هيروشيما، يقولون: لا زالت آثارها إلى الآن، وهناك مذكرات وصور عن أطفال مشوهين لا زالت تجري مع الماء، وهذا المفاعل النووي الروسي لما

انفجر حذر الناس منه حتى في استراليا، وقالوا: الجو تعكر وأصبح سماً زعافاً، والفواكه والألبان والخضروات، حتى الصحف أصبحت تحذر من أن تصدر بسبب هذه الجريمة.

والمعصية مثل ذلك، فلا يزال العبد يعصي الله حتى تنتقل إلى ولده وزوجته، وفي أثر يقول الله: {إني إذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية، وإني إذا غضبت لعنت وإن لعنتي لتبلغ السابغ من الولد} بل تجد العاصي يلتف حوله عصاة ويوجد له خلايا في المجتمع وأصدقاء فيقعون في المعاصي.

ووجد من بعض الشباب أنه كان يحمل سيجارة ويدخن، فأخذ شباباً من الحي وصاحيهم وأركبهم حتى أصبحوا مدخنين عن بكرة أبيهم وتركوا المسجد، فهذا من آثار شؤم هذا الرجل.

ووجد من بعض الصالحين من سار صلاحه في القرية حتى حمى الله به بعض القرى، فهذا رجل في القصيم حدثنا عنه بعض العلماء: أنه كان يذكر الله من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وكان له أوراد هائلة من التسابيح والحصون التي يستخدمها ابن تيمية وأمثاله بعد صلاة الفجر، كان ابن تيمية يستقبل القبلة بعد الفجر فيهلل الله ويكبره، ويردد الفاتحة والأدعية والأذكار، ويبتهل ويدعو الله، فيقولون: ما لك تطول؟ قال: هذه غدوتي لو لم أتعد لسقطت قواي.

وهذه معاني روحية مثل الجبال، وحصن حصين بينه وبين المعاصي، يقول أهل العلم: استقبل يومك بالدعاء.

كان هذا الرجل في القصيم، فأصاب القصيم مرض الجدري، وذلك قبل أربعين سنة أو ما يقاربها، فكان يقوم بعد صلاة الفجر في بلدته من ضواحي القصيم، فيدور على البلدة جميعاً ويقرأ عليها: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

وينفث على القرية ببساتينها ونخيلها وأطفالها، ويقرأ آية الكرسي والمعوذات كل صباح، ف قيل لي: والله! لا نعلم بلداً ولا قرية إلا دخلها الجدري، إلا مكان هذا الرجل، والله ما أصيب ولا طفل واحد بهذا المرض.

لماذا؟

إنه حفظ الله للرجل الصالح، حتى يقول ابن القيم: الله يحفظ الصالح في ديرته وحيه وقريته.

ونحن في أيها يمكن أن نحفظنا الله ببعض الصالحين الصائمين قوَّام الليل، وإلا لو تركنا ومعاصينا وفجورنا وإعراضنا لتدكدكت بنا الدنيا.

تزلزلت المدينة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه زلزلة بسيطة سقطت منها بعض الحوائط، فقام رضي الله عنه فقال: الصلاة جامعة، ثم صعد المنبر وقال: ما هذا الزلزال؟ -هو يدري أنه بقضاء وقدر- قالوا: يا أمير المؤمنين! بقضاء وقدر.

قال: أخبروني ما هذا الزلزال؟ قالوا: بقضاء وقدر، قال: بسبب ماذا؟ قالوا: بسبب ذنوبنا.

فقال: والذي نفسي بيده إن عاد هذا الزلزال لا أجاوركم بالمدينة بعدها.

يقول: أنتم السبب في هذا الزلزال، ولو عاد مرة ثانية فلا يمكن أن أبقى معكم.

وهو لا يزكي نفسه لكنه يعلم أن هناك ذنباً وخطايا، وهي مدرسة الوعظ المنهجية، يدخل معهم في المعمل ويقول: هذا زلزال وأثره الذنوب والخطايا.

والآن أصبح الناس الكفرة مثل الحمير، فيرى الحمار الزلزال فيعرف أنه زلزال، ويرى الريح تمر والبرق والرعد والمطر فيعرف أنه مطر لكن ما يعرف ما هي أسبابه.

خسف بمدينة في بلاد المغرب وبأهلها وقصورها ودورها وفنادقها، فقالوا: لأن الغطاء الصخري ارتخت بينه الدرجات فانصدع فهوت المدينة.

نحن نعرف هذا، لكن من قدر انصداع الغطاء الصخري ومن أتى به إلا الله؟!

وكذلك مدينة دمار في أرض اليمن ذهبت حيص بيص -كما تعرفون- بسبب ماذا؟ بسبب المعاصي، لكنهم قالوا: لأنها تقع في شبه الجزيرة، وغطاء الجزيرة الخارجي الأرضي الترابي غطاء رقيق يتعرض دائماً للهزات.

من الذي هزها إلا الواحد الأحد؟

وهذه التعليقات صحيحة، لكن من المعلن والمسبب والمقدر إلا الله الواحد الأحد؟

الطوفان الذي أرسل على قوم نوح هو مثل ما يأتي في البحر، أن يتبخر بالشمس فيحدث فيه طوفان ومطر، وكذلك الريح وكذلك البرق والصاعقة والزلزلة وما أشبهها، لكن بسبب الذنوب والمعاصي.

الذل والهوان

أهون الناس العصاة، حتى إن أحدهم لا تهمه نفسه ولا سمعته شيئاً، ويصبح ليس عنده حرارة، ولذلك يقولون: الديوث لا ينظر الله إليه، ولا يزكيه، وحرّم الله عليه الجنة لا يجاوره فيها.

ومن هو الديوث؟

الذي يقر الفاحشة ويدري بها في أهله.

بل وتبلغ ببعضهم الدياثة إلى أن يكون داعياً للجريمة في أهله -نعوذ بالله من الخذلان- فيكون من أسقط الناس وأهونهم، فحرام عليه أن يجاور رب الناس في جنة رب الناس إله الناس، فهذا يكون أهون الناس، حتى أنه لا تهمه سمعته، يقال له: يا فلان! سمعنا أنك تتناول المخدرات، فيقول: من قال لك؟ قال: فلان، فيقول: وهل المخدرات حرام هي مثل الخمر؟

فلا يتحرك ولا يتغير وجهه أبداً، بينما لو قيل هذا الكلام لرجل صالح لأخرج السكين مباشرة، وغضب وأقام الدنيا وأقعدها.

ولكن من يدري؟ فإن بعض الفجرة لو قيل له: يا كافر! لذيح الناس، وقد ارتكب من المكفريات مثل الجبال، لكن عنده غيرة.

ولذلك نجد أن سعد بن عبادة رضي الله عنه سيد الخزرج، كان فيه غيرة الله أعلم بها، فمن غيرته أنه تزوج امرأة فأركبها على فرس وراءه، فلما ذهب بها من بيت أهلها إلى بيته نزل فنحر الفرس وقتله، وقال: لا يركب الفرس الذي ركبته امرأتي بعدي أحد.

وكان فيه شهامة تتوقد مثل النار، كان ذات مرة جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتى أعرابي وقال: {يا رسول الله! إذا وجد أحدنا مع زوجته رجلاً فماذا يفعل؟ قال: يشهد على الرجل ويشهد عليها ثم يقام عليهما الحد.

قال سعد بن عباد: يا رسول الله! أبقي حتى آتي بالشهود، والله لأضربنه بالسيف غير مصفح { فالرسول صلى الله عليه وسلم يريد أن يسد الطريق أمام إزهاق الأنفس؛ لأنه لو فتح هذا الباب لكان كل إنسان له عدو ويكره زوجته يقول: وجدت فلاناً مع زوجتي، لأنه يكره الزوجة، فيقام الحد وتزهق الأنفس.

لكنه صلى الله عليه وسلم قال: يذهب فيأتي برجال يشهدون فقال: يا رسول الله! أتركهم! معنى ذلك: أسد الباب وأقول: انتظروا، ويذهب يبحث في السوق عن شهداء يشهدون على الجريمة! هذا يأخذ ساعات، ولذلك قال: يا رسول الله! أنتظر! والله لأضربنه بالسيف غير مصفح، أي: ما أدري أوجه السيف كذا أو كذا، ويقتلهم جميعاً.

قال صلى الله عليه وسلم وهو يتبسم من هذا الكلام: {أتعجبون من غيره سعد؟ إنني أغير منه وإن الله أغير مني}.

وفي الصحيح عند البخاري في صلاة الخسوف، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: {يا عباد الله! لا أحد أغير من الله، ومن غيرته حرم الزنا، ومن غيرته أن يغار على عبده المؤمن أن يزني وأمته المؤمنة أن تزني}.

اللقاء الأول للنبي مع الجن

خرج عليه الصلاة والسلام من مكة، قبل الهجرة؛ لأنه أؤذي عليه الصلاة والسلام ودبروا له اغتيالاً في مكة، وأحاط كفار قريش ببيته -كما تعرفون- وسلّوا السيوف عليه يريدون قتله، فأنجاه الله عز وجل، وخرج من بيته وترك علياً في الفراش، وحثاً على رءوسهم بالتراب.

وقبل هذه القصة: خرج عليه الصلاة والسلام، يريد أن يدعو أهل الطائف؛ لأن أهل مكة رفضوا أن يستجيبوا؛ إلا أربعة أو خمسة من العبيد، وأبو بكر وعلي، فخرج مريداً أن يهدي الله على يديه أهل الطائف، علّ أهل الطائف أحسن حالاً من أهل مكة؛ لكن:

وما شر الثلاثة أمّ عمرو بصاحبك الذي لا تصحبينا

خرج عليه الصلاة والسلام وصعد جبال الطائف، في الحاضرة، بين مكة والطائف، لا رفيق له ولا مؤنس ولا صاحب إلا الله، ما عنده زاد من الطعام أو الشراب، زاده يقينه وذكره لله عز وجل، وما عنده مركوب يركبه من الجمال ولا من الخيل، مركوبه: التوكل على الله عز وجل، وما عنده عصا يتكئ عليها، إنما يتكئ ويتوكل على الحول والقوة بالله سبحانه وتعالى.

هذا الرسول العظيم، الذي لو أراد أن تسير له جبال الدنيا ذهباً وفضة لسيرت، بقي جائعاً متعباً مكدوداً سهران ظمآن حتى وصل إلى الطائف بعد ليالٍ.

فلما دخل الطائف ما جلس، ولا أكل، ولا شرب، وما استضافه أحد، وما استقبله أحد؛ إنما عمد إلى نادٍ يجتمع فيه أهل الطائف جميعاً، فسلم عليهم فلم يردوا عليه السلام؛ لأنهم وثنيون جاهليون، يحملون الوثنية في رؤوسهم، (ولا إله إلا الله) ما اندمغت وما دخلت في أدمغتهم (لا إله إلا الله) فقال: {إني رسول لكم بين يدي عذاب شديد، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا} فتهكموا، واستهزءوا، وتضاحكوا، وأتوا بكلمات نابية مؤلمة، على الجوع والظمأ والتعب والسهرة الذي أصابه.

يقول أحدهم له: أما وجد الله من الناس أحداً إلا أنت حتى أرسلك؟

ويقول الثاني المستهزئ المستهتر: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.

ويقول الثالث: إن كنت رسولاً فأنت أكرم من أن أكلمك.

فعاد عليه الصلاة والسلام وليتهم تركوه يوم رفضوا دعوته وتركوا مبادئه لكن انظر إلى الخبث، وانظر إلى اللؤم، أرسلوا عليه العبيد والأطفال يرمونه بالحجارة، حتى أسيلت قدماه، وكان بالإمكان وفي قدرة الواحد الأحد أن يحميه بملائكة، كل ملك يستطيع أن يدمر الدنيا بجناحيه؛ لكن الله حكيم سبحانه وتعالى، يريد أن يؤذى هذا الرسول، ويؤجر، ويصبر؛ ليكون قدوة للناس.

وأتى ملك الجبال، فقال: ائذن لي أن أطبق عليهم الأخشبين، قال: {لا إني أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً}.

وأتى ملك الريح، فقال: أتريد أن أرسل عليهم الصَّرصَر؟ قال: {لا. اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون} أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فنزل عليه الصلاة والسلام تلك الليلة إلى وادي نخلة، بين مكة والطائف، وفي الليل الدامس الذي لا يجد له فيه قريباً ولا رحيماً، بل قرُّبه من الحيِّ الأحد، توضاً وقام يصلي، ورفع صوته بالقرآن يستأنس به في الوحشة، حيث كان أكبر مؤنس للرسول عليه الصلاة والسلام في وحشته وفي سفره القرآن، فقام يقرأ القرآن.

وانظروا إلى هذه الأعجوبة:

أرسل الله له جن نصيبين في تلك الليلة، حتى ملئوا الوادي يستمعون القرآن، فأخذ صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بكلام الله عز وجل {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا} [الرعد: ٣١] أين الجواب؟

ماذا يستفاد من الآية الآن؟

قال سبحانه وتعالى: {بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا} [الرعد: ٣١] فأين يكون الجواب في الآية؟ الجواب هنا مضمّر، ومعنى الآية: لو أن هناك قرآناً تُسَيَّر به الجبال، وتُقَطَّع به الأرض، ويُكَلَّم به الموتى، لكان هذا القرآن.

سكت الله عن الجواب؛ لأنه مفهوم، قال: {بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا} أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [الرعد: ٣١] بمعنى: أفلم يتيقن.

وبيئس: ليست بلغة قريش، بل بلغة النخع، [[سئل ابن عباس: ما معنى بيئس؟ قال: (بيئس) معناه يتيقن ويعلم، على لغة النخع]] أي: على قبيلة النخع، فالقرآن نزل بهذه اللغات.

إنما الشاهد: أن الرسول عليه الصلاة والسلام قام يقرأ القرآن، فأتاه جن نصيبين، وقل لي بربك: كم بين نصيبين ومكة؟ إنها تطوى في أشهر بالأقدام، لماذا؟ لأنهم عفاريت، أتوا يطيطون طيراناً، أسبق من الريح.

فوقفوا بجانبه عليه الصلاة والسلام وجلسوا، وكان من أدبهم أن سيدهم يقال له: (خنزب) أو غير ذلك، يقول لهم: اسكتوا، أنصتوا، فأخذوا ينصتون، ولكنهم كان بعضهم يركب بعضاً حتى يقتربوا من الرسول عليه الصلاة والسلام {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} [الجن: ١٩].

لكن يقول الله عز وجل في أول السورة: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ} [الجن: ١] قل للبشرية: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} [الجن: ١].

يقول سيد قطب رحمه الله: عجباً! حتى الجن يتذوقون القرآن؟! حتى الجن يدركون بلاغة القرآن؟! حتى الجن تسمو أفهامهم إلى معرفة القرآن؟! {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [الجن: ١ - ٥].

فلما وصلوا إلى هذا قالوا في القرآن الكريم: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} [الجن: ٩].

من أخبر الجن أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن في وادي نخلة، بين مكة والطائف؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: [[إن الجن منعوا من الاستماع إلى السماء]]؛ لأنه كان قبل إرسال الرسول عليه الصلاة والسلام وإنزال الوحي، كان الجني يركب الجني، هكذا على رأسه، ثم يأتي الثالث على رأس الثاني، وهكذا حتى يصبحوا كأنهم مسبحة أو عقد منظر إلى السماء، فأعلاهم يسمع الوحي، فيبلغ الذي من تحته؛ حتى يبلغه الأرض، فيأخذ الكهنة والسحرة بعض الكلمات، فيضيفون عليها مائة كذبة.

فلما نزل الوحي أراد الله أن يحمي الوحي؛ ليكون الإرسال صافياً قوياً، لا يدخل معه تشويش آخر، فأرسل الله الشهب على الجن فكانت ترميهم في كل مكان.

فقال سيد الجن: اذهبوا في أنحاء الأرض، في البحار، وفي الديار، فإن في الأرض أمراً حَدَثَ، ما ندري ما هو؟ فذهبوا يبحثون، ما هو الأمر الجديد الذي حدث؟ فتفرقوا، فأما جن نصيبين فهم الذين وُفِّقُوا ووجدوا السر، وجدوا الرسول عليه الصلاة والسلام يقرأ القرآن في وادي نخلة، فعرفوا أن هذا هو السر.

{وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ} [الجن: ٩] أي: من السماء {فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً} * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً} [الجن: ٩ - ١٠] انظر، ما أحسن الأدب! لم يقولوا: وأنا لا ندري أَشَرٌّ أَرَادَ اللهُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً، لكن استحيوا من الله، فقالوا: {وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ} [الجن: ١٠] وسكتوا عن ضمير الجلالة وعن لفظ الجلالة، ولما أتى الخير قالوا: {أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً} [الجن: ١٠].

وذلك مثل إبراهيم عليه السلام يوم قال في القرآن الكريم: {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [الشعراء: ٧٩ - ٨٠] قال: وإذا مرضت أنا، والذي يمرض هو الله؛ لكنه تأدب مع الله تبارك وتعالى.

فلما انتهى صلى الله عليه وسلم من قراءة القرآن، وسلم من الصلاة، تفرقوا وضربوا بقاع الأرض، ووصلوا إلى قومهم في اليمن، ودعوههم إلى (لا إله إلا الله) {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢] رجعوا دعاة.

انظر كيف أتوا في ليلة واحدة ورجعوا يدعون إلى توحيد الله عز وجل! وعاد صلى الله عليه وسلم ومعنوياته مرتفعة، ونفسه مرفرفة بالتوحيد، يوم أوجد الله لدعوته قبولاً عليه الصلاة والسلام.

أخذ العبرة من مصائب الآخرين

ذكر سبحانه وتعالى أنه يصيب الأقوام ليتعظوا، وألمح سبحانه وتعالى أن من الظلمة من يسكن مكان الظلمة ثم لا يتعظ، قال عز وجل وهو يلوم الكفار والمنافقين والمنحرفين: {وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ} [إبراهيم: ٤٥] ومعنى الآية، أن الأبناء سكنوا في أماكن الآباء والآباء في أماكن الأجداد، وقد هلك قرن وأتى قرن، فما اتعظ هذا الحي بما أصاب الميت.

واسمع إلى الآية: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [إبراهيم: ٤٥] نزلتم قصورهم، وسكنتم دورهم، وورثتم أملاكهم، فما لكم ما اتعظتم بما وقع عليهم، أو ما كان هذا لكم نذير؟! {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ} [إبراهيم: ٤٥] ولكن لم يتعظوا بالمثل، ولم يستفيدوا بالتجربة، والتجارب هذه إنما تستفاد من مصائب وحياة الناس، وقد علق البخاري من كلام معاوية رضي الله عنه وأرضاه أنه قال: [[لا حكيم إلا ذو تجربة]] وهذا في باب الأدب في صحيح البخاري.

وهي مدرسة الحياة، قال سفيان الثوري رحمه الله رحمة واسعة: "لاعب ابنك سبعاً، وأدبه سبعاً، وصاحبه سبعاً، ثم اتركه مع التجارب" أي: لاعبه حتى يصل إلى السابعة، ثم أدبه من السابعة إلى الرابعة عشرة، ثم من الرابعة عشرة سنة إلى الواحدة والعشرين سنة صاحبه ثم بعد الواحدة والعشرين اتركه مع تجارب الدنيا، يصاب ويصيب، ويأتيه من الأخبار الأمور ما تجعله ملقناً، مجرباً، حكيماً، إذا كان ذو عقل.

تقول عائشة رضي الله عنها وأرضاها: {كان الرسول عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يتمثل بقول طرفة بن العبد}

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

والرسول عليه الصلاة والسلام لا يحفظ إلا بيتين، أو أكثر قليلاً، وإلا فهو يحفظ القرآن عن ظهر قلب، لا يسقط منه حرفاً واحداً، ويحفظ السنة، والعلوم التي عند الأمة لا تصل إلى ذرة من علمه عليه الصلاة والسلام، ولكن يقول الله: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [يس: ٦٩] تراثه غير الشعر، فيقول طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

يعني: سوف تظهر لك الليالي والساعات أخباراً وعجائب، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران: ١٤٠] أي: مرة رخاء ومرة شدة، ومرة سلم، ومرة حرب، وما وقع في هذه الأيام، اتعاض ودرس لمن لم يقع عليهم شيء، قال: سبحانه: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ} [الأحقاف: ٢٧] أي انظروا إلى القريبين منكم، وانظروا إلى حدودكم، كيف أوقعنا بهم المصائب، ألكم أنتم عهد عند الله ألا يقع عليكم مصيبة! {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأحقاف: ٢٧] ويقول الناظم:

إياك أعني واسمعي يا جارة، يُقال أن سبب هذا المثل: أن صياداً خرج بقوسه يصيد حماماً، وأحمق الحيوانات الحمام، حتى ذكر الجاحظ صاحب كتاب الحيوان أن أحمق الحيوانات الحمام، وأحمق الحيوانات الجمال، وأخونها الثعالب، قال: فسد الرجل على الحمام ليضرها، وأخذت تصيح، فقالت أختها تسكتها: إن البلاء موكل بالمنطق، فضرها الصياد، فقالت وهي تموت: يالها من سكتة فاتني، والمقصود من هذا: أن هذا جزاء من لم يتعظ بجيرانه، وما حدث لإخوانه، يقول ابن القيم مما يحفظ للعرب من الأمثال: أنهم قالوا: "في كل وادٍ بنو سعد" وقالوا: "هل رأيت داراً ملئت حبرة وما ملئت عبرة؟"

وإذا رأيت الدور تمتليء غنى وبهجة وترفاً، ثم لا يتصل أصحابها بالله، فاعلم أنه سوف تصيبهم كوارث، وما امتلأت دار حبرة إلا امتلأت عبرة، وسبب المثل "في كل وادٍ بنو سعد": أن رجلاً من العرب ضيع جملة، فذهب يبحث عن الجمل، فنزل بوادٍ فقال: ممن القوم؟ قالوا: من بني سعد، وذهب إلى الوادي الآخر وقال ممن القوم؟ قالوا: من

بني سعد، والوادي الثالث قالوا: من بنو بني سعد، قال: في كل وادٍ بنو سعد، فمقصود ابن القيم أن كل إنسان تأتية لطمة.

وهذا قضاء الله وقدره، ولا يسلم من الكوارث أحد، إما في الدين أو في العرض بالسكنى أو بالتعليم، وهذا أمر حاصل في حياة الناس، ولكن المسلم يختلف عن الآخر أنه: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ١٥٦] {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٤].

مصيبة ابن عباد ملك الأندلس

ابن عباد هذا ملك الأندلس كان عنده من الحقائق والقصور ما الله به عليم، يقولون: كان يسكن في إشبيليا وله منازل في قرطبة، قالوا: كان نصف المدينة له والنصف الآخر للناس، ونذرت امرأته نذراً، أن تحمل الماء وأن تطأ في الطين -يعني: من باب التعرف- يعني: تذكرت أحوال الفقراء وهي امرأة ملك، فنذرت وحلفت أن تنزل وتحمل الماء في القرب وتطأ في الطين، فأتى ابن عباد وقال: لا يصلح نحن أسرة عارمة متقدمة ولا يمكن هذا، فاستفتى بعض الفقهاء وقالوا: مادام أنها نذرت نرى أن تملأ لها ماء المسك في القربة، وأن تعجن لها طيناً من المسك والكافور في القصر، يملئون لها قربة من العطر بدل الماء، وتأخذ هذا ثم تمررون على الممر، فتصبغون لها مسكاً كالطين، وتمشي وهي حافية وتذهب وتأتي، وقالت: وفيت بنذري، وهو ليس بصحيح، وأنت الأيام ودارت دورتها، وأتى ابن تاشفين من بلاد المغرب ودخل ضيفاً على ابن عباد، وبعد أن ضيفه وأكرمه ثلاثة أيام طوقه كما فعل حاكم العراق بـ الكويت:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

وبعد ثلاثة أيام، طوق قصر ابن عباد واحتل القصر بما فيه، وأخذ صاحب المنزل الذي ضيفه وأكرمه فطوقه بالحديد، وأخذ بناته وجعلهن جوارى له، وأصبح ابن عباد في أغمات فقيراً لا أهل ولا مال ولا ولد ولا ثياب ولا منصب، وسجنه، وفي يوم العيد - اسمع إلى الموقف- وينتظر ابن عباد وإذا من يطرق عليه الباب، ففتحوا الباب فإذا هو ببناته الأربع، وإذا هن حافيات ما عليهن إلا ما يستر عوراتهن، فبكى بكاء مرّاً حتى سمع من في السجن ثم قال قصيدته المشهورة، يقول وهو يخاطب نفسه:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

أصبحن يغزلن للناس، وينسجن لهم الخزف، ويخرزن لهم الجلود.

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

أصبحن بلا حذاء، كل واحدة كأنها ما وطأت المسك والكافور، إلى آخر ما قال، وهي قصيدة تفجع القلوب.

دخل عليه أحد الشعراء فرأى ابن عباد في السجن، فبكى الشاعر وقال:

تنشق رياحين السلام فإنما أخض بها مسكاً عليك مختماً

وقل لي مجازاً إن عدمت حقيقة فقد كنت ذا نعم وقد كنت منعماً

فشقت عليك الريح ثوبك بعدها وهز عليك الرعد ثوبك معلماً

إلى آخر ما قال، وهؤلاء ممن نكبوا.

مصيبة رجل من بني عبس

قيل لرجل من بني عبس -وكان من أغنى الناس، وجد وهو فقير، وهو أعنى يمسك بعصاه- قالوا: يا فلان! أما كنت أغنى الناس؟

قال: والله لقد أتى علي يوم من الأيام وأنا من أغنى الناس على الإطلاق، ثم ذهبت في طلب إبل سرحت مني وضاعت، فطلبتها وأتيت إلى مسارح أهلي ودوري في الوادي، ووجدت السيل قد حمل منازلنا وأهلي ومالي جميعاً، بما فيها الذهب والبقر والغنم والبساتين والدور، قال: فما وجدت شيئاً من أهلي، إلا طفلاً تركته أمه معلقاً في شجرة وقد سلم من السيل، فأتيت إلى الطفل فهرب البعير، فأردت أن أدرك البعير فسمعت بكاء الطفل وإذا بذئب قد أخذ الطفل، وأصبح رأس الطفل في فم الذئب، فرجعت، وإذا بالذئب قد فر برأس الطفل وألقى جثته في الأرض، فعدت إلى البعير فدهسني برجله فأعنى بصري، فأصبحت أعنى لا أملك أهلاً ولا مالاً ولا داراً ولا عقاراً.

مصيبة ابن بقية

ابن بقية وزير من الوزراء العباسيين، كان ينادي مناديه من على قصره في الصباح: من أراد الفطور المبارك فليتفضل؟ فيدخل الناس زرافات ووحداناً، الفقراء والأغنياء والكبار والصغار فيطعمهم، فإذا أتى بعد الظهر نادى مناديه من على القصر من أراد الغداء المبارك فهلم، فيدخلون، وهكذا العشاء، فلما تولى عضد الدولة ملك العراق

البويهي حسده وانتقم منه، وقال: هذا أصغر مني شأناً وعليه الناس زرافات ووحداً،
لأبطش به، وبالفعل بطش به، ماذا فعل به؟

قتله شر قتله، جوعه ثلاثة أيام، ثم أتى بالفيل وأغضبه، يقول: ضرب رأس الفيل
حتى سال دم خرطوم الفيل في الأرض، وإذا سال دم الفيل حطم الدنيا، يصبح بلا
عقل ويرفع عنه القلم، فأتى بهذا الفيل فأدخل الرجل وابن بقية الوزير رحمه الله من
الصالحين، لكن يقولون: كان فيه تجبر في بعض المواقف، فأدخله وجوعه ثم أدخله
شبك الحديد وخرج عضد الدولة يتفرج في المصارعة، وأدخل الفيل ودمه يسيل في
الأرض، فما أن رأى الفيل ابن بقية حتى هجم عليه وبطحه في الأرض ثم ضربه بخفافه
وخرطومه حتى قطعه، وبقي من صدره وما فوق، فأخذه عضد الدولة ونصبه عند
مدخل بغداد، يقول: تفرجوا في مضيفكم هذا الذي يطعمكم عند باب الطاق عند
النهر، فيخرج الناس في الصباح فينظرون، ويأتون في المساء ينظرون إليه ويكون، فأتى
أبو الحسن الأنباري يمدحه في قصيدة رائعة يلقيها وهو مصلوب نصف الجثمان فقط
على العود:

علو في الحياة وفي الممات بحق أنت إحدى المعجزات

هذه من أجمل القصائد! يقول: حتى في الموت علو، ما دفنوك مثل الناس، لا تحب
إلا العلو في الحياة وفي الممات.

علو في الحياة وفي الممات بحق أنت إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصلات

يقول: الآن الناس وهم يبكون حول جثمانك وأنت على الخشبة، كأنهم يزدحمون على قصرك وأنت تضيفهم وتعطيهم الأموال:

كأن الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصلات
مددت يدك نحوهم احتفاء كمدهما إليهم بالهبات
كأنك تعطيهم

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يواروا فيه تلك المكرمات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات
عليك نفائح الرحمن تترى برحمت غوادٍ رائحات

وهي من أعجب ما قيل في هذا الوزير الذي يستحق ذلك! وقد أحسن أبو الحسن الأنباري في هذه القصيدة التائية -على كل حال- هذه عاقبة الدنيا وكل شيء يأتيه قاصمة إلا الدين، فإن الخاتمة والعاقبة للمتقين ولو أصابهم ما أصابهم من النكبات، لكنها تصفي لهم بإذن الله الخاتمة الحسنة ولا يضيعهم الله عز وجل فإن الله لا يضيع أولياءه.

أبو الطيب الطبري عالم شافعي كان فُكاهياً دعوباً، ذهب إلى الخراز -خراز الأندلس- قال: أصلح لي حذائي، وذهب ثم مضى عليه اليوم الثاني قال: أين الحذاء؟

قال: إن شاء الله غداً، فأتى بالغد وقال: أين الحذاء؟

وكلما رآه الخراز جعلها في الماء حتى يتظاهر أنه يريد إصلاحها، فأتى بعد غد قال:
أين الحذاء؟

قال: أرشها وأصلحها إن شاء الله، قال: أعطيتك لتصلحها لا لتعلمها السباحة،
لأنها دائماً في البرميل، هذا أبو الطيب الطبري.

أبو الطيب الطبري قفز من السفينة إلى الشاطئ خطوات، فأتى الشباب يقفزون
فما استطاعوا قالوا: مالك استطعت وما استطعنا؟

قال: هذه أعضاء حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر: {قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ
حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤] {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧].

الظلم من أسباب النكبات

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ الظالمين وأخذهم: {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا} [النمل: ٥٢] قال ابن عباس: [[الظلم خراب البيوت، أما سمعتم قوله تعالى: {فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا} [النمل: ٥٢]]] قال شيخ الإسلام ابن تيمية -نظر الله سعيه:-
إن الله ينصر الأمة العادلة ولو كانت كافرة، ويمحق الأمة الظالمة ولو كانت مسلمة،
فالعدل إقامة الشعوب وسلامها واستمرارها والظلم خرابها، ظلم أحمد بن أبي دؤاد
الإمام أحمد، الإمام أحمد بن حنبل إمامنا، وأحمد بن أبي دؤاد إمام أهل البدعة إمام
المعتزلة، كان أحمد بن أبي دؤاد هذا قاضي القضاة في عهد المعتصم، من أفصح الناس

وأعجبهم، كريم: يقولون يوقع على الصك الواحد ألف ألف درهم، أعطاه الله أموالاً،
حتى يقول أبو تمام يمدحه:

لقد أنست محاسن كل حسني محاسن أحمد بن أبي دؤاد

وما سافرت في الأفاق إلا ومن جدواه راحلي وزادي

هذا وقف للإمام أحمد بالمرصاد وظلمه، وكان كلما أراد الخليفة المعتصم أن
يسمح للإمام أحمد ويخرجه من فتنة القول بخلق القرآن، قال: لا.

يا أمير المؤمنين عليك به، وهو مستشار للمعتصم، فيأتي المعتصم ويدمغ الإمام
أحمد، كلما فكر قال: يا أمير المؤمنين: الله الله اقتله ودمه في عنقي، انظر إلى الخائن!
يقول جلاد الإمام أحمد -رجل اسمه عدرس- والله الذي لا إله إلا هو، لقد جلدت
الإمام أحمد جلداً لو جلد بعير لمات.

لكن الإمام أحمد كان دائماً متصلاً بالله، كانت دماؤه تسيل، ويخرج من القصر
ويقول: اللهم اغفر لأمير المؤمنين، هذا الإمام أحمد، وكلما أراد أن يسمح المعتصم أتى
أحمد بن أبي دؤاد، قاضي القضاة المعتزلي، قال: يا أمير المؤمنين! دمه في عنقي، دمه
حل وبل وطل، اقتله يا أمير المؤمنين، فيستدعيه ويضربه، في الأخير صبر الإمام أحمد
ثم توجه إلى القبلة ودمعت عيناه وقال: اللهم عليك بأحمد بن أبي دؤاد، اللهم احبسه
في جسده، فأجاب الله دعوته في سنوات، فحبس أحمد بن أبي دؤاد في جسده، أما
نصفه الأيمن فمشلول يقول أحمد بن أبي دؤاد: والله لو قطعت بالمقاريض ما
أحسست بشيء في نصفي هذا، وأما نصفي هذا فوالله لو وقع عليه ذباب كأن القيامة

قامت، فكان يبكي الليل والنهار، فیدخل علیه تلاميذ الإمام أحمد، قالوا: ما دخلنا نزورك وإنما دخلنا نشمت بك، يقولون: لا تظن أننا نحتسب الأجر في الزيارة لا، لكن نتفرج في هذا المنظر وفي دعوة الإمام أحمد، فأخذه الله عز وجل وذهب إلى الله، لكن انظر إلى عاقبة الظلم وانظر إلى النتيجة والخاتمة.

أتى ابن الزيات أحد الوزراء فاعترض على الإمام أحمد وكان من المتسببين في تعذيب الإمام أحمد وقال: اللهم نكل به: فأصابه الله بقارعة، أخذه الخليفة المتولي بعد المعتصم ثم جعله في قرن فلما كبته في القرن، ضرب المسامير في رأسه حتى خرج دماغه من أنفه، فنعوذ بالله من الخذلان، ونعوذ بالله من الظلم، ومن الانحراف عن منهجه جل وعلا.

يقول ابن مسعود: [[ما امتلأت دار حبرة إلا امتلأت عبرة]] أي: ما امتلأت غنى وبسطة، ثم انحرفت عن منهج الله؛ إلا امتلأت نكبة ومصيبة.

ويقول ابن الوردي:

أين من شادوا وسادوا وبنوا هلك الكل ولم تغن القلل

ويقول أحدهم:

باتوا على قلل الأجيال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستزلوا بعد عز من منازلهم إلى مقابرهم يا بئسما نزلوا

تلك الوجوه التي كانت مكرمة أضحى عليها جموع الدود تقتتل

ذكر الترمذي في سننه رحمه الله من طريق عطاء بن أبي رباح أن عائشة: رضي الله عنها -أم المؤمنين- مرت بقبر أخيها عبد الله بن أبي بكر الصديق في مكة -دفن في مكة - فلما رأت قبره بكت، وقالت: " مثلي ومثلك يا عبد الله كمثل قول: متمم بن نويرة في مالك أخيه:

وكنا كندمان في ديمة برهة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنيا رهط كسرى وتبعنا
فلما تفرقنا كأني ومالك لطول الاجتماع لم نبت ليلة معا

هذه من أرق ما قيل، وكان عمر إذا ردها وذكر أخاه، بكى ويقول: يا ليتني كنت شاعراً فأرثي لأخي زيد.

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
بنفسي تلك الأرض ما أحسن الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا
ثم يقول:

فليت المنيا كن خلفن مالكا فعشنا جميعاً أو ذهبن بنا معا
هذا متمم بن نويرة يقول: يا ليتني مت مع أخي، أو ليتته عاش معي.

التفرق والاختلاف من أسباب النكبات

يقولون: كل يعرف النكبة، لكن ليس الكل يعرف كيف يخرج منها، أي: أكثر الناس الآن يعرفون أن من أسباب النكبات أموراً، لكن لا يعرفون كيف يتخلصون منها.

يذكر ابن القيم في الفوائد أن ثعلبين دخلا في مدجنة -في كرس دجاج- فلما دخلا، أول ما يدخل الثعلب، يدخل خفيف يدخل جائع، أي نافذة صغيرة يدخل وهو جائع، فدخل الثعلبان من هذا فلما أكلا الدجاج كله، أتيا لكي يخرجوا فما استطاعا، أصبح الواحد منهما مثل البرميل، وإذا بصاحب الدجاج مقبل معه ساطورة بيده، فطرق الباب يستأذن على الثعلبين، فيقول الثعلب لصاحبه: أين الموعد يا صاحبي؟

قال: نلتقي في المدبغة أي: المجزرة.

من أسباب النكبات التفرق، تفرق الأمة وتفرق الشعوب على مناهج مختلفة، أي: قطيع علماني، وقطيع بعثي، وقطيع ماركسي، وقطيع مسلم، ويقولون: لهم حرية الرأي، أنت تكلم على الماركسية وامدح استالين ولينين، وأنت لا بأس أن تسب الله، وأنت اخطب الجمعة، وأنت صلّ، وأنت بع مساويك وأنت بع خمراً، أي: ديمقراطية - يعني: عش حراً، وهذه هي قاصمة الشعوب، قال: سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَوَّلُهُ عَنْ مَبْدَأِ التَّفَرُّقِ {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦] {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤] وقال سبحانه: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [آل عمران: ١٠٥] أرسل عثمان رضي الله عنه، وقد طوقوا قصره.

جرحان في كبد الإسلام ما التأم جرح الشهيد وجرح بالكتاب دُمي

فلما طوقوا عليه بيته وأرادوا قتله وكان صائماً ذاك اليوم، وقد نام بعد الظهر ورأى الرسول عليه الصلاة والسلام في المنام وقال: يا عثمان سوف تفطر عندنا هذا اليوم، وبالفعل قتل قبل صلاة المغرب، فكتب عثمان قبل أن يقتل إلى علي رسالة مبكية يقول:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزقي

هذا البيت لرجل جاهلي قديم يقول: فإن كنت مأكولاً أنا، أنت كلني بالتي هي أحسن، يقول: إن كنت أنت تريد الخلافة بعدي فكل بالتي هي أحسن أنا أسلم الخلافة الآن، لكن علياً بريء من دم عثمان وهو وأخوه وصنوه وجمعهم الله في الجنة، وهم شهداء أبرار، ونشهد الله على جميعهم يقول:

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني وإلا أمزقي

يقول: أدركني قبل أن أمزق، وأتى علي رضي الله عنه يجمع الأمر ويدرك عثمان، فوجده قد مزق، حتى قتلوه وانسكب دمه على المصحف وكان يفتح على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٣٧] فقطرت هذه الدماء الطاهرة على هذا الآية، قالوا: ولا زالت هذه الآية الآن على المصحف وهي موجودة في

اسطنبول في متحف هناك، دم عثمان على الآية، انظر اختيار الآية، المقصود: أنه لما قتل عثمان بكى علي وقال: [[أكلت يوم أكل الثور الأبيض]] وهذا مثل في الجاهلية، يقولون: كان هناك ثلاثة ثيران قوية، أحمر وأبيض وأسود: كانت ترعى سواء تسرح إلى الماء سواء، وتمشي وتقوم وتشرب سواء، جاء الأسد وأراد أن يفترسها فاجتمعت عليه فناطحته فقتلته، فجاء أسد آخر فطردته، جاء النمر فاجتمعت عليه، فجاء أسد ذكي وأخذ الثور الأسود وقال: أريدك في أمرٍ، قال: ما هو؟ قال: هذا الثور الأبيض يأكل عليك المرعى دائماً، دائماً ينكد عليك، فأريد أن أتعاون أنا وإياك والأحمر ونقتل هذا الأبيض، قال: أصبت أصاب الله بك الخير، فاجتمعوا على الأبيض فقتلوه، فلما أتى رجوع إلى الأسود وقال: هذا الأحمر يفعل فعل ذاك، ما رأيك نقتله، قال: نقتله فاجتمعوا عليه فأبادوه، فقال: الأسد للأسود بقيت أنت يا عدو الله، قال: أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

وبالفعل استمر علي رضي الله عنه فقتل، قتله بعض أولئك الشرذمة، يقول: ما دام قتل عثمان أنا سوف أقتل وهذه حكمة الله عز وجل، فأما مثل علي وعثمان فهي درجات عند الله وحسنات، وأما أعداء الله فإنه يعذبهم في الدنيا (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ) [فصلت: ١٦].

الانغماس في الملذات من أسباب النكبات

يقول الله تعالى: {وَكَايْنِ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا} [الطلاق: ٨] وهنا يقول: {بَطِرْتُ مَعِيشَتَهَا} [القصص: ٥٨] أي عاشت البطر والترف والتفسخ، وعاشت شيئاً من التمتع الذي هو فوق ما يمكن أن يتصوره الإنسان، وفوق مستوى بعض الشعوب، مثلاً هذه الكبات تباع إلى ثلاثة آلاف عندهم، وهي موجودة الآن في بعض المجتمعات أي

ترف فوق العادة، يذكرون عن بعض الناس أنه: كان يلبس ثوباً فإذا خلعه للغسل لا يلبسه مرة ثانية لأنه دائماً يلبس جديداً، هل بعد هذا الترف من ترف!

عمر بن الخطاب -أمير المؤمنين- ما عنده طيلة الخلافة إلا بردة مرقعة، يقولون أنه يصلي بها الجمعة وفيها أربعة عشر رقعة، مرقوعة بيده، ويوم جاء الهرمزان مبعوث كسرى وجد عمر وهو نائم تحت الشجرة بلا حراسة فارتعد، وقال: حكمت فعدلت فأمنت فنمت، ولذلك يقول حافظ إبراهيم:

فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً ببردة كاد طول العهد يبليها

فقال قولة حق أصبحت مثلاً وأصبح الجيل بعد الجيل يروها

أمنت لما أقمت العدل بينهم فنمت نوم قرير العين هانها

دخل الربيع بن زياد الحارثي على عمر -أمير من الأمراء- فجلس أمام عمر قال: [[وكننت أتحذر في كلامي لا أسقط في كلمة -لأنه أمام عقلية جبارة ومن عظماء الدنيا- قال: فسلم الله وسدد حتى قدم لـ عمر إفطاره فإذا هو شيء من ملح مجروش مع شعير مع ماء، قلت: يا أمير المؤمنين! أنت أولى الناس بالمطعم النبيء والمركب الوطيء والملبس الثري، قال عمر: فأخذ خشبة فضرب أميره في رأسه، قال: أولاً: والله لن أوليك إمارة بعد الآن، وأما وصاياك لي هذه فاحتفظ بها لنفسك.

ثانياً: والله إني أعلم الناس بلباب البر، وتسيل العسل وأشهى اللحم لكن أخشى أن أعرض على الله يوم القيامة فيقول لي: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} [الاحقاف: ٢٠] فقال هذا الأمير: ووددت أن الأرض ساخت بي وماتكلمت]].

هكذا كان عمر، ولذلك حققت الأمة في عهده انتصاراً ما سمع التاريخ بمثله حتى كان ملوك الكفار إذا سمعوا بعمر يغى على الواحد منهم من الخوف، أنزل الله رعبه في قلوب الشياطين، شياطين الإنس وشياطين الجن، فهذا الانغماس في المذات ردى {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً} [الإسراء: ١٦] يعني: الإرادة الكونية، ماذا يفعل الله؟

هل يدمر هذه القرية؟

لا، {أَمْزَنَّا مُتْرَفِيهَا} [الإسراء: ١٦] وفي بعض القراءات (أَمَرْنَا) أي: كثرت {أَمْزَنَّا مُتْرَفِيهَا} فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: ١٦].

ومما يذكر أن القاهر الخليفة العباسي يقولون: تولى الخلافة ونصحه الناس: اتق الله! فأخذ حديقة وجعل كل الحديقة من فضة، شجرها من فضة -أي- وهمية، مثل المدن الوهمية، وجعل أسوداً، وثعالب ودجاجاً من فضة، ثم يأتي يصب الماء من أذنان الأسود فيخرج الماء من فم الأسود فيصب في البرك، ما الداعي لهذا الكلام؟

ثم أتى إلى برك في بيته، خزانات مثل خزانات الماء فحفرها ثم ملأها ذهباً وفضة، ثم جمع أبناءه وبناته، وقال: لا تخافوا من الدهر، سبحان الله.

هذا المال عندكم فلا تخافوا من شيء، افعلوا ما شئتم، فعلمه الله الذي يصرف الدهر ولا يصرفه الدهر، والذي يغير ولا يتغير، دخل عليه ابن عمه فخلعه في تلك الساعة، ثم أتى عليه فسمل عينيه بالحديد المحمي -أخرج عينيه حتى أصبح أعمى- ثم أخرج من ملكه وأخرج أبناءه، وطردهم وأتى بعد سنة هذا القاهر يمد يده في المسجد، -مسجد المنصور بدار السلام ببغداد- يقول: من مال الله يا عباد الله.

علمه الله أين البرك وأين دجاج الفضة، وثعالب الفضة، وأسودها {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ
هُلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا} [الإسراء: ١٦] وقال: {وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ
فَحَاسِبُنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا} [الطلاق: ٨].

ويقولون: إن عجوزاً كانت في الأندلس بنت ابن جحوان، كانت صالحة، تصلي
الليل والنهار وابنها كان من أفسد الناس، لا يعرف إلا الغناء وشرب الخمر، فكانت
تعااهده دائماً بالنصيحة: اتق الله، حافظ على الدين، حافظ على الصلاة، فيقول: لا.
وفي الأخير استولى عليه ملك آخر، فحطمه واستولى على قصره، وأخذه وأمه
وأودعهم السجن، فتقول له أمه كلما أصبحت تريد تصبح عليه، وهو في زنازة وهي في
زنازة فتقول له:

ابك مثل النساء مجداً تولى لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا يحافظ على المجد إلا بتقوى الله عز وجل، قال سبحانه: {وَأَتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا} [المؤمنون: ٣٣] {ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٣]
وقال سبحانه عن أوليائه: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ *
إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: ١١ - ١٢].

الخوف والاستحباب من الله عند السلف

جاء عند الإمام أحمد في كتاب الزهد أن أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه قال -وليت أبا بكر ينظر إلى واقعنا المعاصر، ليت مر هذه الليلة ليرى الشاطئ وما يحدث فيه من اختلاط ونظرات مشبوهة، وأعراض منتهكة، وصلاة متأخرة، ونعمة مرتفعة- يقول رضي الله عنه: [[يا أيها الناس! استحيوا من الله حق الحياء، فوالله الذي لا إله إلا هو، إني أذهب إلى الخلاء لأقضي حاجتي، فأجعل ثوبي على وجهي حياءً من ربي]].

اللهم ألحقنا معه في منازل الخالدين (حياءً من الله في قضاء الحاجة) ألا يستحي هذا العبد الذي خرج بعرضه: بابنته، وزوجته، وأخته، خرج بدينه وبشرفه، خرج بإيمانه بين لاهين لاغين، تركوا المساجد والقرآن، ماذا يقولون لله؟

صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {استحيوا من الله حق الحياء والاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ومن تذكر البلاء ترك زينته الحياة الدنيا}.

الخليفة العظيم عمر بن الخطاب الذي تربى على لا إله إلا الله، الرجل الذي عجز التاريخ أن يأتي بمثله مرة ثانية، قال ابن كثير عنه: إنه سمع قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُورُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ * بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} [الصافات: ٢٤ - ٢٦] فألقى عصاه واثكاً على الأرض، وحمله الصحابة على أكتافهم إلى البيت، وبقي مريضاً شهراً كاملاً.

هذا هو الإيمان، مراقبة الواحد الديان، يوم تخلو بالحيطان، وتتستر بالجدران،
ستعلم أن الواحد الأحد يراك، وتقول لنفسك:

وإذا خلوت بريبة في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان
فاستعي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

بكي الربيع بن خثيم حتى كادت أضلاعه تختلف، وقال: [[والله -إن شاء الله- لا
يسألني ربي أنني وقعت بفاحشة أبداً]].

وقال البخاري فيما يروى عنه في صحيحه: "منذ بلغت الاحتلام ما كذبت كذباً ولا
اغتبت مسلماً".

إن: تلك النماذج عاشت لله، وماتت لله، وذهبت لله، وأتينا إلى جيلٍ لا يعرفون
الله، أكلوا نعم الله، واستنشقوا هواءه، وشربوا مائه، وبارزوه بالمعاصي.

أنجى الله الذين يهون عن السوء، وأمّا أولئك فهلكوا، والصنف الثاني اختلف
العلماء فيهم، وكأنهم إلى الهلاك أقرب.

ابن تيمية يقاتل التتار

يقول ابن القيم رحمه الله: "ورأيت من شجاعته ما لا يوصف".

حتى أنه شارك وخاض المعركة بنفسه، لما أتى التتار المغول يهاجمون العالم الإسلامي واجتاحوا بغداد ودمروا المساجد والمكتبات، وأتوا ليحربوا حظهم مرة ثانية في دمشق فخرج ابن تيمية مع السيف في رمضان وأخذ كوباً من الماء أمام الناس وقال: هذا يوم يفطر فيه فأفطروا أيها الناس! ثم حمل راية الجهاد وكاد أن يضرب بالسيف، قال الذين معه: كنا نرى أو نسمع شظايا أو كسير السيف من على رؤوس الناس من شدة ما يضرب، وقد آتاه الله في الجسم بسطة وقوة، يقول ابن القيم: رأيت من قوته في كلامه وفي مشيه وفي خطابه ما لا يعلمه إلا الله؛ والسبب في ذلك كثرة الذكر والاتصال بالله، وإلا فإن أكله كان من أقل الناس أكلاً وغذاءً حتى كان على شظف العيش.

هذا ابن تيمية رحمه الله رحمة واسعة.

وكان في بعض الأوقات يخرج من مسجد بني أمية في دمشق إلى الصحراء، قال تقي الدين بن شكير -أحد تلاميذه- قال: رأيته خرج مرة من المرات إلى الصحراء فتبعته، قال: فما رأيي، قال: فلما اختلى عن الناس وأصبح في فضاء في الصحراء، نظر إلى السماء ثم بكى ودمعت عيناه، وقال:

وأخرج من بين البيوت لعلي أحدث عنك النفس بالسر خاليا

وهذا البيت لمجنون ليلي، استخدمه مجنون ليلي، في غرض ليس الغرض المطلوب، يقول:

وأخرج من بين البيوت لعلي أحدث عنك النفس بالسر خاليا

وإني لأستغشي وما بي غشوةً لعل خيالاً منك يلقي خيالها

فيقول ابن تيمية لما خرج، ونقل المحبة من محبة هذه الأشياء التي لا تنفع عند الله بل تضر، إلى محبة الحي القيوم فاطر السماوات والأرض فقال:

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس بالسر خاليا

منة الله على عباده بإرساله صلى الله عليه وسلم

الأول: تلمح المنة بإرساله صلى الله عليه وسلم، واعلم أننا كنا في جاهلية جهلاء، وفي ضلالة عمياء ما يعلمها إلا الله، كان الإنسان أو العربي بالأخص وبالذات قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم أذل وأقل وأضعف عند أهل الأرض من الجعلان الذي يدحرج العذرة، فلما بعث الله هذا النبي العظيم الأمي صلى الله عليه وسلم، رفع الله راية الإسلام وأعلى الله قيمة هذا الإنسان ومجده، فحينما تتذكر أنك حسنة من حسنات الرسول صلى الله عليه وسلم تحبه الحب العظيم، فالأول تلمح المنة بإرساله صلى الله عليه وسلم، واعلم أنك كلما سجدت لله سجدة فإن صاحب المنة بعد الله عز وجل هو محمد صلى الله عليه وسلم، من علمك وأتى لك بالصلاة والزكاة وقراءة القرآن والجلوس في بيوت الله وإصلاح بيتك وإصلاح قلبك والاتصال بالله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من الأمور؟!!

محبة عمر لأبي عبيدة بن الجراح

يقول الذهبي في ترجمة أبي عبيدة في سير أعلام النبلاء المجلد الأول: "فأما أبو عبيدة فرزقه الله حسن الخلق"

يقول عمر رضي الله عنه للصحابه بعد أن جمع الصحابة فقال: اجلسوا فجلسوا، قال: تمنوا فسكتوا، قال: أقول تمنوا -يعني كل إنسان يتمنى- فقال ذاك: أتمنى أن الله يرضى عني ويدخلي الجنة، وقال ذاك: وأنا أتمنى الشهادة في سبيل الله، وقال ذاك: وأنا أتمنى أن أحفظ القرآن، قال عمر: لكني أتمنى على الله أن يكون عندي ملء هذا البيت رجالاً من أمثال أبي عبيدة عامر بن الجراح، أبو عبيدة هذا رزقه الله من الزهد ومن العبادة والتجرد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى درجه منقطعة النظير، ولذلك يقول بعض أهل السير: "نرى أنه ما حمل في قلبه حقداً ولا حسداً"

من لياليه المشرقة التي يحفظه الله بها وسوف يجازيه بها، أنه كان أمير الأمراء في اليرموك، لكن في أثناء المعركة توفي أبو بكر فتولى عمر فأول إجراء اتخذه عمر أن عزل خالداً والمعركة حامية في اليوم الثاني وأتت الرسالة إلى أبي عبيدة فلما قرأ الرسالة: [بسم الله من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح أما بعد: فقد وليتك جيش المسلمين وعزلت خالداً]]

فدمعت عينا أبي عبيدة ووضع الرسالة: لأنهم يريدون الله والدار الآخرة، لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، ولو كان غيره لأتى به خالد وجرحه وحاسبه وجلده، وقال: قد عزلتك أمير المؤمنين؛ لأنك فعلت وفعلت، لكنه أخفى الرسالة وما تصرف في الأمر حتى انتهت المعركة، ثم جاء إلى خالد وقال: [يا خالد! إنما هي أيام قليلة نعيشها في هذه الحياة، وقد رأى أمير المؤمنين أن يولياني وقد تركتك من تلك الأيام]] فقام خالد فقبل على رأس أبي عبيدة وقال: [رحمك الله أفلا أخبرتني، قال: لا.

إنما نحن إخوة وكل منا يفعل ما يراه]] يعني ما يراه في ذات الله عز وجل يقولون: إنه من لياليه في آخر معارك اليرموك نام أهل المعسكر ما يقارب أربعين ألفاً من الناس -من الجنود من جنود المسلمين- ناموا بعد النهار الطويل والقتال المير، ناموا بعد ذاك

الإعياء والتعب الشديد ناموا جميعاً وقام هو فرأهم فأيقظ امرأته وقال: [[أتريدين ليلة من ليالي الجنة؟

قال: توضئي، فتوضأت، قالت: أنصلي؟

قال: لا، قالت: نقرأ القرآن؟

قال: لا، قالت: ماذا نفعل؟

قال: نطوف بهذا المعسكر فنحرسه علّ الله عز وجل أن يحرم عينينا عن النار، فقامت رضي الله عنها فركبت وراءه على الفرس]].

كان يستطيع بنفسه أن يطوف ويتفقد، هو أمير الأمراء ويستطيع أن يوقظ أحد الجنود من الناس الألوفا المؤلفة، ويستطيع أن يترك زوجته، ولكن أحب لها من الخير كما أحبه لنفسه، فقام يستعرض المعسكرات كلما مر بمعسكر سلم عليهم، وفي تلك الليلة أصاب الناس مطر في ذاك المخيم، قال أحد المسلمين: والله لقد رأيت أبا عبيدة أخذ قطعة من قماش وإنه يظلل بعض الناس من الأطفال والنساء هكذا بالخيمة أو القماش يظللهم عن المطر، فهل بعد هذا الوفاء وفاء؟!

الشاهد أن أبا عبيدة رضي الله عنه يقول -وهذا في كتاب الزهد للإمام أحمد :-
[[والله ما رأيت متقياً لله عز وجل حراً أو عبداً إلا وددت أني في مسلاخه]] يقول: وددت أني أنا الذي في جلده.

ومرة من المرات سافر أبو عبيدة من دمشق إلى المدينة ومعه ناس، فلما أصبحوا في الطريق [[قال أبو عبيدة: تمنوا، قال أحد الناس: أتمنى أن يدخلني الله الجنة، فلما

انتهوا كلهم من أمنياتهم بكى، وقال: والله يا ليتني كنت كبشاً يذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحتسون مرقتي وأني ما عرفت الحياة]].

هذا أبو عبيدة لكثرة إخلاصه وزهده، ولذلك لما سافر عمر إلى الشام وأراد فتح بيت المقدس، دخل فاستقبله الأمراء إلا أبا عبيدة كان غائباً عن الناس، فقال عمر: أين أخي وحبيبي؟ قالوا: من؟

قال: أبو عبيدة، قالوا: يأتيك الآن، فأتى على ناقه سوداء خطامها الليف ما عليها جلس، -يعني ما عليها بردعة ولا قتب- فلما رأى عمر، تعانقا وبكيا طويلاً، وقال عمر لـ أبي عبيدة: تعال نبكي على ما فعلنا بأنفسنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فانصرفا عن الطريق -يعني مالا عن طريق الناس والجيوش والأمراء- ينتظرون شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية وغيرهم من الأمراء كلهم وقوف صفوف ينتظرون قدوم عمر، قال: يا أبا عبيدة تعال نبكي على ما فعلنا بأنفسنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فانصرفا عن الطريق يبكيان ثم قال عمر: أريد أن أبيت عندك الليلة يا أبا عبيدة! وعمر ذكي لما ح، ومن ذكائه كان يباغت عماله وأمرأه، كان يتركهم حتى يناموا في الليل ثم يدخل عليهم فيطرق فينام معهم فيرى فرشهم ويرى ماذا أخذوا؟ وماذا تركوا، ويرى أموالهم؛ لأنه يقول ومن مبادئه أن الأمير إذا ابتنى بيتاً قال: أبت الدراهم إلا أن تخرج رءوسها، يعني يحاسبهم هكذا.

فقال لأبي عبيدة: أريد أن أنام عندك هذه الليلة، قال أبو عبيدة: تريد أن تعصر عينيك عندي، يعني تبكي عندي؟

قال: لا، فقال أبو عبيدة: حي هلاً وسهلاً، فلما انصرف الناس نام عنده عمر في تلك الليلة فقدم له خبزاً من شعير، قال: يا أبا عبيدة أما كان لك أن تتوسع؟

قال: ما كان لي من شيء، كل ما تعطيني من عطاية صرفتها في سبيل الله.

قال: فلما أتى ينام عمر أعطاه شملة فافترش نصفها والتحف النصف الآخر فلما أصبح عمر نائماً أخذ يبكي عمر، فقال أبو عبيدة: أما قلت لك في أول النهار أنك سوف تعصر عينيك عندي -يعني سوف تبكي عندي- يبكي عمر من حالة أبي عبيدة، ولذلك يقول عمر: ليت عندي بيتاً مملوء برجال مثل أبي عبيدة.

الشاهد أنه يقول: [[ما رأيت رجلاً متقياً لله عز وجل حراً أو عبداً؛ إلا وددت أني في مسلاخه]] هذا الحب في الله عز وجل والبغض فيه سبحانه وتعالى.

والإمام الشافعي يتواضع أشد التواضع وقد كررنا هذه الأبيات لا لحلاوتها ولطلاوتها فقط ولكن لما فيها من خير يقول:

أحب الصالحين ولست منهم لعلني أن أنال بهم شفاعته

وأكره من تجارته المعاصي وإن كنا سواء في البضاعة

فيقول له الإمام أحمد:

تحب الصالحين وأنت منهم ومنكم قد تناولنا الشفاعته

أو كما قال: لأن الشافعي من أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول: منكم قد أخذنا الشفاعته وأنت من الصالحين.

أوجه الشبه بين المسلم والنخلة

وجه الشبه بين المسلم والنخلة أمور قالها أهل العلم:

١/ ثبات الأصل: فالنخلة ثابتة الأصل والمسلم ثابت الأصل، تعاليمه سماوية، لا يأخذ تعاليمه من البشر، ولا من أفكارهم ولا من خرافاتهم فهو ثابت في الأرض؛ لأن مبدأه ثابت وعميق في الأرض، يعتمد على (لا إله إلا الله) ويعتمد على قرآن من الله سُبحَّانَهُ وَتَعَالَى، وعلى سنة من المعصوم صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، والنخلة ليس على وجه الأرض مثلها فالحنظلة -مثلاً- لو مرت شاة وأكلت منها اقتطعتها واقتطعت عروقها، أما النخلة فإنها تقاوم الإعصار، فهي مثل المسلم بثبات الأصل، هذا وجه شبه بين المسلم والنخلة.

٢/ كثرة المنافع: يقول أهل العلم: يؤخذ من طلع النخلة بسر وبلح ورطب وتمر ودبس، ويؤخذ منه نبيذ، ثم عدد ما شئت، هذا من التمر قالوا: ويؤخذ من سعفها الحصير، ويؤخذ منه مكاتل وبسط وفرش، وتستخدم جذوعها في السقف، والمؤمن كذلك منافع أكثر من أن تحصى، إذا أردته في مجلس ذكر أعانك على الذكر، وإذا أردته في الجهاد وهب نفسه للجهاد، وإذا أردته أن يشارك في مسألة أعطاك ما يمكن أن يشاركك به، وإن كان عنده مال واحتجت له، شارك بماله، وإن كان عنده وقت وبقي له وقت شارك بوقته، يزورك إذا مرضت، ويشمتك إذا عطست، ويشيعك إذا مت، فهو دائماً معك، فمنافعه أعظم من منافع النخلة، لكن وجه الشبه كثرة المنافع بين الجانبين.

٣/ ارتفاع القامة وعلو الهمة، فالنخلة هامتها مثل هامة المسلم، أما ترى النخلة قوية مرتفعة، ولذلك إذا هب الإعصار فإنه لا يأتي إلا على أعالي الشجر، فالمسلم

همته عالية، دائماً يفكر في معالي الأمور، ويفكر دائماً في الجنة، وفيما يقربه إلى الله، وهمته مثل علو النخلة، ولذلك أنزل الله تعالى: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} [ق: ١٠] قال بعض الأعراب: صليت المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعتة يقرأ: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} [ق: ١٠] فوالله ما علمت ولا أدري ما قرأ بعدها، ولأنني وقفت عندها، ولذلك يقول الزمخشري في التفسير: وإنها آية عجيبة حقاً، انظر لاختيار الكلمات: النخل باسقات، لم يقل طويلات، جمع باسقة والباسقة الطويلة، قالوا: ومع طولها امتداد قامتها؛ لأن بعض الناس طويل لكنه منحني مكسور الظهر، فمن ارتفاع همة المسلم أنه مثل النخلة في ارتفاع الهمة، فلا يفكر إلا في معالي الأمور.

ولذلك يقال: سل الإنسان فيم يفكر؟ سوف تعلم أي همة يهتم بها، من اهتم بأمر المسلمين أو بإصلاح بيته فهمته من أعلى الهمم، ومن اهتم بغير ذلك فهمته توصله إلى ذلك، يقول ابن القيم في مدارج السالكين: إن الله ينظر إلى همم الناس وإلى نياتهم ولا ينظر إلى صورهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَا إِلَى هَيَاكِلِهِمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِهِمْ، فالهمة هي العظيمة؛ ولذلك يقول ابن الجوزي في صيد الخاطر: والله لقد رأيت أناساً في المعمورة، فتعجبت من سقط هممهم، ويظنون أنهم بلغوا الثريا بالهمم، سمعت قول المتنبي في الهمم:

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسسي من تصاعد همتي

يقول: كل جسم مريض أما مرض جسسي فهو من تعالي همتي، ماذا فعل؟! كان يمدح كل سلطان في كل مكان ويريد الإمارة، ثم مات بلا إمارة ولا دين ولا شيء، ككثير اليهود لا دين ولا دنيا.

فيقول ابن الجوزي: فعدت إلى نفسي فوجدت همتي والحمد لله، لأنه يتحدث عن نفسه كثيراً فهي من أعلى الهمم، أريد أن أحقق العبادة، أن أنفع الناس، وأصلح أهلي، وأترك ورثة يعبدون ويذكرون الله، فهمة المسلم أعظم همة.

٤/ ومن أوجه الشبه بين المسلم وبين النخلة: دوام الاخضرار، يقولون: إن النخلة دائماً لا يسقط لها ورقة في الشتاء، ولذلك المؤمن على كلمة واحدة، يقول الحسن البصري رحمه الله: [[تلقاه العام بعد العام وهو على كلمة واحدة، وعلى نية واحدة وعلى عمل واحد أما المنافق فيتلون]] أي: إذا رأى المصلحة معك فهو معك، وإذا رأى أنك لم تقدم له شيئاً فإنه ليس معك، إن أركبته في السيارة ذكرك وأحبك، يوم أن غديته أحبك لكنه حبٌ وقي للطوارئ، أما المؤمن فهو معك دائماً.

ولذلك يقولون: دوام اخضرار المؤمن في عمله الصالح، فهو على كلمة واحدة، هل هناك مؤمن في الشتاء يزيد إيمانه وفي الصيف ينقص، وزيادة الإيمان مطلوبة، لكن في الشتاء تلقاه بوجه، وفي الصيف تلقاه بوجه، فالؤمن واحد في الليل والنهار، وكذلك النخلة لا تسقط ورقها في الشتاء، فهي دائمة الخضرة، وهذا من أوجه الشبه.

٥/ ومن أوجه الشبه ومن اللطائف التي يقولها الغزالي في الإحياء وهي لطيفة مثل الزهرة تشم ولا تعك (لأن الزهرة تشمها بأنفك، أما أن تأخذها بيدك تعكها وتعصرها فليست بعصير).

يقول: وجه الشبه بين المؤمن وبين النخلة أن المؤمن إذا أذيتة رد عليك كلاماً طيباً، والنخلة إذا رجمتها ردت عليك رطباً، وهذا شيء جميل.

وقفات مع السلف في حسن أخلاقهم

رأيت في ترجمة عيسى عليه السلام في بعض الكتب أنه كلمه رجل فأبذى عليه ذلك الرجل -سبه وشتمه- فقال: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [القصص: ٥٥].

فقال الحواريون لعيسى: يا نبي الله! كيف يتكلم عليك وترد هذا الرد، قال: كل ينفق مما عنده، ثم يقول: إن مثلي ومثلكم يا أيها الحواريون، كالنخلة إذا رجمت بالحجارة أنزلت على من رجمها رطباً.

وقد تفنن الشعراء في ذلك والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَرْسَى هذا المبدأ في كتابه حيث قال: {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: ٦٣] قال أبو عبيد القاسم والأصمعي: سلاماً في القرآن بمعنى سلامة لكن أتت بألف الإطلاق بدل الهاء: أي أنهم إذا خاطبهم الجاهلون، وتكلموا عليهم قالوا: سلاماً، أي: أبشروا بالسلامة، لا يأتاكم منا أذى، ولذلك إذا أجبت الشرير بالشر زاد عليك، فبدل أن تكون لطافة وكلاماً سهلاً يردون عليك بالمشاعيل نسأل الله السلامة من المشاعيل!

والمقصود أن حسن الجانب واللين يطفئ نائرة الضغينة، ويقولون: ما رأينا أقتل للشرير من السكوت.

إذا نطق السفیه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت

جاء رجل إلى أبي بكر فقال: والله لأسبئك سباً يدخل معك في قبرك، قال أبو بكر: [[والله لا يدخل معي وإنما يدخل معك أنت في قبرك]].

وجاء رجل إلى عامر الشعبي -وسوف يمر معنا في أذكى الناس في الأسئلة- أتاه وهو يفتي الناس -وأورد ذلك الذهبي وغيره- فقال: يا أبا فلان يقصد الشعبي وهو عالم

من علماء المسلمين: ما اسم زوجة إبليس؟ انظروا إلى هذا السؤال الخطير، فرفع الشعبي رأسه، وكان لا يتلعثم وكانت فيه دعاية، قال: لم أحضر الزواج كان عندي شغل يوم وليمتهم، لأنه ما دعي، وما وجهت له دعوة ولو وجهت له دعوة، فهو مشغول.

الشاهد أن الشعبي رحمه الله وقف رجل فسبه أمام الناس، فقال الشعبي: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كذاباً فغفر الله لك.

هل وراء هذا السؤال شيء أعجب من هذا الجواب؟ ماذا يقول بعدها؟ سوف ينعصر ذاك خجلاً ويموت كمدأ، ثم يأخذ حذائه ويقول: السلام عليكم.

ولذلك أفضل ما يمكن أن تقتل به السفیه أن تسكت مهما تكلم ومهما قال، أن تسكت وتقول سلاماً، وتبتسم.

ويذكر في ترجمة عمر بن عبد العزيز -وذكرها صاحب البداية والنهاية- أنه ذهب ليقوم الليل في مسجد بني أمية، وكان خليفة فذهب، فأخذ حذائه بيسراه ودخل المسجد، وإذا برجل نائم في المسجد فوطئه برجله في الظلام، فقام النائم فزعاً فقال: من هذا الحمار الذي وطئني؟ وهذا موجود في ترجمته، قال عمر بن عبد العزيز: أنا عمر بن عبد العزيز، ولست بحمار والحمد لله، فذهب ذاك الرجل يولول ويتأسف ويخبر الناس، فقالوا: من الخلفاء الراشدين رضي الله عنه وأرضاه.

فالشاهد من هذا هو أهمية الرد الجميل وكذلك اختلاف الناس في الفهم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ أَفْهَامَ النَّاسِ بِالتَّفَاوُتِ حَتَّى يَقُولُونَ: بَيْنَ النَّاسِ تَفَاوُتٌ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَلَا تَظُنُّوا أَنَّ فَضْلَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى حَسَبِ الذِّكَاءِ، وَأَنَّ الَّذِي

يحفظ جدول الضرب عن ظهر قلب هو أفضل من الذين لم يحفظوا جدول الضرب، لا فإن هذه وسائل دنيوية قد يستخدمها الإنسان في طاعة الله، وقد يستخدمها في المعصية، لكن الميزة عند الله هي التقوى.

ولذلك الذين اكتشفوا القنبلة الذرية هم من أذكى الناس بلا شك ولو كانوا كفاراً، ولا تقولوا: الكفار ليسوا بأذكىاء بل منهم الأذكىاء، لكن الواحد منهم أنجس من الكلب والخنزير، فذاؤهم لا ينفعهم عند الله؛ لأنه لم يرفعهم عند الله ولم يستخدموه فيما يقرهم منه سبحانه وتعالى.

قصص تدل على ذكاء المسلمين

هنا سوف أذكر ذكاء أهل الإسلام، فمن أذكى الناس علي رضي الله عنه ولقد كانت جواباته من أذكى جوابات الناس، حتى جمع بعض أهل العلم فصولاً في جواباته، مثل ابن عبد البر جمع له جوابات: سأله سائل كم بين العرش والأرض يا أمير المؤمنين هل علي رضي الله عنه قاس المسافة؟ هل عرفها بالأميال والكيلو مترات؟ لا.

بل قال علي رضي الله عنه: [[دعوة مستجابة]] بين الأرض وبين العرش دعوة مستجابة.

ولذلك يقول ابن أبي الحديد -وابن أبي الحديد منهم، عنده ملعتين من التشيع في التاريخ، ولذلك يتهم في ذاك الجانب - لكنه يقول: بهت علي الناس بذكائه وفطنته رضي الله عنه وأرضاه، ولذلك أتى سبعة أناس شاركوا في قتل رجل عند علي، وقد قال صلى الله عليه وسلم: {أقضاكم علي} شارك السبعة في قتل رجل، فقال علي: علي بالسبعة جميعاً، فأتوا فأدخلهم في صيوان عنده رضي الله عنه وأرضاه، فقال لجنوده: أمسكوا كل رجل عند سارية من السواري، فأخذوا كل رجل وجعلوه عند سارية، فأتى إلى الأول

فقال: أنت قتلتته؟، قال: لا والله ما قتلتته، قال علي: الحمد لله الله أكبر، فتوهم الستة أن هذا اعتراف، فقالوا: فضحنا، فأتي بالثاني، فقال: ماذا فعلت؟ قال: قتلتته، أتوا بالثالث، قال: قتلتته وشاركت في قتله، فاعترف الستة، فلما انتهى رضي الله عنه قال للأول وقد جحد: إما أن تعترف وإما والله لأقتلنك فإنهم قد شهدوا عليك، فاعترف.

يقول صلى الله عليه وسلم: {أقضاكم علي}.

ومن الأذكياء عند الناس شريح ولذلك يقول الناس: ما سمعنا في قضية المسلمين أذكي من شريح رضي الله عنه، فشریح القاضي من أذكياء الناس، دخل عليه رجل وامرأتان، فكانت المرأتان متحجبتين فتكلمت إحداهما، ثم تكلمت الثانية، ثم تكلم الرجل، فقال: قوما عني، فجمع مستشاريه والجلاس معه، قال: أما امرأة منهم فهي ثيب، وأما الثانية فإنها بكر، وأما هذا الرجل فإنه رضع من كلبة، وذكر ابن كثير أنهم ثلاث نسوة، وأما الثالثة فإن صوتها ضعيف وإنها حامل بولد، قالوا: كيف عرفت؟ قال: أما الثيب فهي جريئة تتكلم وتنظر في وجوه الرجال، وأما البكر فإنها خجولة تنكس رأسها، وأما هذه الحامل فإني أسمع زفيرها وعلمت أنها حامل بولد، وأما هذا الرجل: فإنه اضطرب وأصابته قشعريرة حتى انتفض شيء من وجهه فعلمت أنه رضع من لبن كلبة، فسألوهم فوجدوا هذه ثيباً، وهذه بكراً، وهذه حاملاً وأنت بولد، وقالوا للرجل: نسألك بالله هل رضعت من لبن كلبة؟ قال: ماتت أُمِّي وأنا صغير ونحن في البادية وقد ماتت الأغنام من القحط ومن الجذب، فما وجدوا إلا كلبة تدر فأرضعوني منها مرة واحدة.

تربية عمر للرعية على إنكار المنكر

وقف عمر ليتحدث للناس، وأراد أن يختبر مقدار قوة الناس في إنكار المنكر، ومقدار إيمانهم وعدم تملقهم ونفاقهم، لأن الناس إذا كانوا منافقين، فلن يقولوا كلمة الحق، ولن يصدقوا مع الله، والأمة المنافقة لا تستحق أن تنشر لا إله إلا الله في الأرض، وقف على المنبر يخطب ثم قطع الخطبة في وسطها وقال: [[يا أيها الناس! لو رأيتموني اعوججت عن الطريق فماذا أنتم فاعلون؟]] فسكت كبار الصحابة، ومعنى الكلام ببساطة: ما رأيكم لو خنت رسالة الخلافة؟

ما رأيكم لو جُرت؟

ما رأيكم لو عدلت عن الطريق؟

فقام أعرابي بدوي في آخر المسجد وسل سيفه أمام الناس وقال: [[والله يا أمير المؤمنين! لو رأيته اعوججت عن الطريق هكذا لقلنا بالسيوف هكذا]] فماذا قال عمر؟

أنظن أن عمر سوف يقول: خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه، إنه حيا بطولته ولموعه وكلمته وإيمانه، قال: [[الحمد لله الذي جعل في ريعتي من لو اعوججت عن الطريق هكذا، لقالوا بالسيوف هكذا]].

قارن هذا الموقف بموقف شاه إيران!! الذي كان الكرسي الذي يقضي عليه حاجته في دورة المياه من ذهب خالص، وكانت طائراته تخرج على الجماهير في طهران وتقصفهم بالرشاش، فيموتون كما تموت الذباب من المبيدات، هذه نماذج يخجل التاريخ أن يرويها للناس، وأصبح أهل إيران يسترون وجوههم من هذا النموذج الفاشل

الذي يعيرهم به التاريخ، أما الإسلام فلا نحاور مع شاه في هذا فهو بعيد كل البعد، فهو شاة وليس بأسد.

عمر يؤسس الكلمة الحية، ويشجع على الصدق مع الله؛ لكن تتردى الأمة في عصر الفاطميين، فيأتي الحاكم بأمر الله الخبيث الملحد المتن، الذي يدوس القرآن، وإذا خرج إلى الناس في الشارع سجدوا له، ومن أراد أن يتزود فليراجع كتب التاريخ.

أتى النابلسي المحدث الشهير العالم، يقول الحق، فسأله تلميذ، قال: ما رأيك هل أقاتل الفاطميين حكام القاهرة أو الصليبيين من النصارى؟

قال: من كان عنده عشرة أسهم، فليرم الفاطميين بتسعة، وليرم النصارى بسهم واحد.

وتنقل الاستخبارات هذه الكلمة إلى الحاكم بأمر الله فيستدعي النابلسي ويقول له: هل صحيح أنك تقول: من كان عنده عشرة أسهم فليرم النصارى بتسعة ويرمينا بسهم واحد؟

قال: لا، أنتم حرقتم الفتيا، قال: وما هي الفتيا الصحيحة؟

قال: يرميكم بتسعة ويرمي النصارى بسهم واحد.

فقتله قتلة ما قتل أحد في التاريخ مثلها فيما أعلم، وهو يسمى شهيد العلماء، فقد سلط عليه يهودياً فنكسه وربطه بأرجله في السقف ودلاه، فأخذ اليهودي يسلك جلده عن لحمه، وكان يقول: الله أكبر، الله أكبر! فلما وصل إلى قلبه، رحمه اليهودي -وما بالك بمصيبة يكون راحمها اليهودي- فطعنه بالسكين فمات في سبيل الله.

فهذه نماذج قدمها التاريخ، لكن ما روت سيرة عمر ولا مرت على طريقه.

قد كنت نجماً في ذرى العلياء يا منصف الموتى من الأحياء

وبنيت صرح العدل يا علم الهدى ورفعت رأس الدين للجوزاء

عمر فخرٌ لنا.

عمر تاريخٌ لنا.

عمر منارةٌ لكل شاب من شباب الصحوة.

وعمر تاجٌ على رؤوسنا، نفاخر به أهل الشرق والغرب.

عمر كان يشجع القائل أن يقول كلمته.

ذكر ابن الجوزي في المناقب أن عمر قال للصحابه: [[من ترون أن أولي على العراق؟ فقام منافق -والمنافقون قديمون- قال: أرى أن تولي الرجل الأريب الأديب الداهية المنصف عبد الله بن عمر -ابن عمر بن الخطاب -وما أراد إلا المداهنة، وإلا ففي المسلمين من هو أكفأ وأقدر وأعلم وأفضل- قال عمر: كذبت يا عدو الله، والله ما أردت الله بذلك]].

لماذا التدليس على الناس؟

لماذا الكذب على مناهج الله؟

ألأنه ابني؟

وهو عبد الله بن عمر الذي لا نصل إلى غبار قدميه، لكن في المسلمين أكفاء، أين ابن عوف؟

أين ابن عفان؟

أين أبو الحسن علي بن أبي طالب؟

أين فلان وفلان؟ لكنه ما أنصف.

وتستمر القافلة، وجسد عمر دائماً يعلن الإيمان والقوة والشجاعة على المنبر.

جسدٌ لفف في أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد

من لجسم شقّه طول النوى ولعينٍ شفها طول السهر

أبو مسلم الخراساني قتل ألفي ألف -أي: مليونين- فهو أكبر قاتل في التاريخ، وقف في مسجد خراسان، وكان يلبس السواد، وهو شعار الدولة العباسية، لأنه هو الذي نقل دولة بني أمية إلى بني العباس، ثم مات ولم يحظ بشيء، فقام أحد الناس من وسط المسجد يريد أن يرد عليه، وقال: لا تلبس السواد، فلبس السواد ليس من السنة، وقد أخطأ هذا القاتل، قال أبو مسلم: حدثنا فلان عن أبي الزبير عن جابر {أن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل عام الفتح وعليه عمامة سوداء} قال: يا غلام! اضرب رأسه بجانبك، فضرب رأسه، فإذا جثته في وادٍ ورأسه في وادٍ آخر، والحديث الذي ذكره في صحيح مسلم ولا أدري كيف حفظه!!

فهذه نماذج الخيانة والخيبة، وقد سود هذا وجه التاريخ.

لماذا قتلته؟

اقتعه، حاوره، أو أدبه، لكن تذبحه؟! هذا حرامٌ عقلاً ونقلاً، ولكن من يسمع هذا
أبو مسلم أم الحجاج؟!

زهد النبي صلى الله عليه وسلم

وهو عالم في الزهد، يقول الفيلسوف برناردشو: عجباً لمحمد على كومة من
التراب، يتناول فنجان القهوة ويصلح مشاكل العالم، وهو لا يعلم أن القهوة اكتشفت
بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام، ولا يهتمنا اكتشاف القهوة، ولكن يهتمنا اكتشاف
الحكمة والنور الذي حل به مشاكل العالم، والحق ما شهدت به الأعداء، فهو عالم في
الزهد عليه الصلاة والسلام، يعيشه صلى الله عليه وسلم ويتعامل مع الناس.

مسكنه غرفة من الطين، وفي صحيح البخاري: {كان إذا أوتر يغمز عائشة رضي
الله عنها وأرضاها فتكفكف قدميها ليجد مكاناً للسجود} و {يأتيه الملك بمفاتيح كنوز
الدنيا فيقول: لا.

بل أجوع يوماً وأشبع يوماً حتى ألقى الله} فثوبه ثوب واحد.

كفالك عن كل قصر شاهق عَمِدٍ بيت من الطين أو كهف من العلم

تبني الفضائل أبراجاً مشيدة نصب الخيام التي من أروع الخيم

وعالم في الزهد، لا يجد أحياناً حفنة من التمر، هذا الإنسان عليه الصلاة والسلام الذي أدخل -بإذن الله- محبيه إلى حدائق الأندلس، وإلى ضفاف دجلة والنيل والفرات، لا يجد حفنة من التمر، هذا الرجل الذي ملك -بإذن الله- أتباعه ثلاثة أرباع الدنيا، وأتى هارون الرشيد وهو أحد أتباعه يقول للسحاب: "أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك بإذن الله" ولا يجد حفنة من التمر.

هذا الرجل دخل أحد أتباعه وهو قتيبة بن مسلم كابل الحزينة، التي ضيعناها يوم ضيعنا لا إله إلا الله، كابل التي ذهببت مع المرتزقة والزنادقة، يمزقون مصاحفها، ويدوسون كرامتها وعفافها وحياءها، كابل أرضنا، ووطننا وحببتنا، يفتحها قتيبة أحد أتباعه عليه الصلاة والسلام فيأتي إلى الأصنام فيحرقها لأنها عبدت من دون الله، قالوا لقتيبة: خذ الأصنام، وتاجر بها، قال: لا.

أصنام سجد لها من دون الله تحرق، قال إقبال:

كنا نرى الأصنام من ذهب فهدمها ونهدم فوقها الكفار

هذا هو محمد عليه الصلاة والسلام.

كره العرب للبخل والبخلاء

العرب في جاهليتها وفي إسلامها تفتخر بإطعام الطعام، وكل ذنب يغتفر عند العرب إلا البخل، العرب في الجاهلية يوطئون رءوسهم للكذاب، ولشاهد الزور، وللنمام، ولشرس الأخلاق، ولكن إذا سمعوا أن هناك بخيلاً أنفوا وغضبوا وأنكروا وشجبوا ونددوا.

ولذلك وفد وفد بني سلمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: من سيدكم يا بني سلمة! قالوا: سيدنا الجد بن قيس على بخل فيه، قال صلى الله عليه وسلم: {أواه، وهل داء أدوى من البخل، بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح} فألغى صلى الله عليه وسلم سيادته، وخلعه: لأنه بخيل لا يستحق السيادة، ولأمر آخر ذكره بعض أهل العلم، قالوا: إنه منافق.

الجد بن قيس هذا شيخ كبير، لكنه كبير في الضلالة والجهالة، ملأ النفاق قلبه، لما استنفر صلى الله عليه وسلم الصحابة لغزوة تبوك، قال: يا رسول الله! إذا رأيت النساء فلا أصبر، فكيف إذا رأيت نساء بني الأصفر -أي: نساء الروم- ائذن لي ولا تفتني.

يقول: اتركني في المدينة ولا تفتني، فأنزل الله رداً عليه: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة: ٤٩].

قال سلمة بن الأكوع: ما أنسى الجد بن قيس بعد بيعة الرضوان -الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة- أتى هذا الرجل فضاع بعيره، فقالوا له: تعال بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: والله لأن ألقى جملي أحب إلي من أن يستغفر لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: تب إلى الله واستغفر فأتى ولوا رأسه، فنقل الله الحدث والصورة والمقالة

والهيئة، فقال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [المنافقون: ٥] ويقول تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [التوبة: ٨٠].

ولذلك فهم صلى الله عليه وسلم أن السبعين ليس حداً للعدد، فقال: {والذي نفسي بيده، لو أعلم أي لو زدت عن السبعين مرة فغفر الله لهم لاستغفرت الله لهم} ولكن يقول عز وجل على سبيل المثل، كقولك: لو حياك سبعين تحية فلا تدخل بيته، وهو لو حياك سبعين تحية ما دخلت، وبسط هذا في موضع آخر.

الشاهد: أن الضيافة عند العرب من أعظم الأمور، ولذلك روى الترمذي في سننه بسند حسن، عن عبد الله بن سلام، وأصله يهودي لكن من الله عليه بالإسلام، وهو الذي ذكره الله في سورة الأحقاف، قال: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الأحقاف: ١٠].

فالشاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام هذا، وقال عنه صلى الله عليه وسلم لما أسلم وغيره: {لو آمن بي عشرة من علماء اليهود لآمن بي اليهود جميعاً} أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فعبد الله بن سلام يقول: سمعت الناس انجفلوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى المدينة -انجفلوا: أي: سعوا وجروا وهرولوا- قال: فانجفلت مع من انجفل، سمع الضججة والصججة وسمع الناس يحتشدون فاحتشد معهم، قال: فأتيت فإذا هم في سوق المدينة، قلت: من؟ قالوا: رسول الله صلى

الله عليه وسلم قدم من مكة وعبد الله بن سلام يقرأ التوراة بين يديه، ويعلم أوصاف الرسول عليه الصلاة والسلام.

قال: فنظرت إليه، فلما استبنت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، ولذلك يقول ابن رواحة: لما رأى وجه الرسول عليه الصلاة والسلام:

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبئك بالخبر

يقول: يكفي أنه لا يأتي بمعجزات، يكفي أن تنظر إلى وجهه وحسب، وقالوا لـأبي هريرة: {كيف كان وجهه صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان كالقمر ليلة أربعة عشر} وقال: غيره، كأن الشمس تجري في وجهه صلى الله عليه وسلم، قال: فلما استبنت وجهه - يقول: ابن سلام - عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال: فسمعتة يتكلم -اسمع لكلمات الرسول عليه الصلاة والسلام- يقول: {يا أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام} راوي الحديث عبد الله بن سلام، وآخر الحديث سلام، رواه الترمذي بسند على رجاله السلام.

السب والشتيم لا يضر إلا صاحبه

في سيرة أبي بكر أن رجلاً قال لـأبي بكر: والله يا أبا بكر! لأسبـنـك سباً يدخل معك قبرك، قال أبو بكر: بل يدخل معك قبرك ولا يدخل معي، وصدق، فإن المسبوب لا يدخل معه السب بل يدخل السب مع الساب لا مع المسبوب.

فيظن هذا الجاهل أنه إذا سب أبو بكر الصديق المطهر فسوف يدخل سبه مع أبي بكر الصديق، في القبر، فقال أبو بكر: لا.

- فلم يرد عليه السب - وقال: بل يدخل معك أنت قبرك، أما أنا فلن يدخل قبري، وهذا هو الصحيح، فإن الكلمة العوراء الأثمة الجارحة تدخل مع الجراح الساب الشاتم، ولا تدخل مع المسبوب لحكمة الواحد الأحد.

وقال رجل لـ عمرو بن العاص: والله لأتفرغن لك - يريد أن يتهده، يعني أتفرغ لك بالسب، والقتال والخصام - قال: إذا تقع في الشغل.

يقول: إذا لن تكون فارغاً، بل يشغلك الله بي، أما أنا فلن أتفرغ لك ولن أشغل نفسي بك، إنما أنت إذا أشغلت نفسك بي فقد أوقعت نفسك بالخصام والسباب وقد أوقعت نفسك في كارثة.

ويروي أهل الحديث أن عامراً الشعبي الذي قيل عنه أنه أشبه عمر بن الخطاب في جمعه للعلم، وكان من علماء التابعين، وقد قال عنه الحسن البصري: "قديم السلم، كثير الحلم، جم العلم، قام إليه رجل فقال: كذبت يا عامر! فقال عامر: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

أي: إن كنت صادقاً أنا كاذب فغفر الله لي، لأنني أخطأت، وإن كنت كاذباً أنا لست بصادق فغفر الله لك، وهذا هو الحق، فماذا يقول الرجل بعد هذا؟ لأن من استطاع أن ينهي الخصام، وأن يجعل للمصلح موضعاً، وألا يستعدي الناس خاصة أهل الفضل والمنزلة والصدارة والمكانة؛ كان محسناً على نفسه وعلى الإسلام والمسلمين.

وفي سيرة سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم جميعاً أن رجلاً زاحمه في منى، فالتفت الرجل إلى سالم وهو علامة التابعين وقال له: إني لأظنك رجل سوء، قال: [[ما

عرفني إلا أنت]] يقول: قد أكون رجل سوء، وما عرفني إلا أنت، لأنه في نفسه يعتقد أن نفسه نفس سوء، فإن المؤمن يشعر بالتقصير ويلوم نفسه ويبكتها، والفاجر والمنافق يزكي نفسه أمام الناس، حتى رأيت أن سعيد بن المسيب يقوم وسط الليل ويقول لنفسه: [[قومي يا مأوى كل شر، قومي يا مأوى كل شر]] لأن النفس أماراة بالسوء، فيقول: إني لأظنك رجل سوء، قال: ما عرفني إلا أنت، وسكت ومرو.

وقام رجل في الحرم وهذه ثابتة بأسانيد صحيحة- أمام ابن عباس، حبر الأمة وترجمان القرآن فسبه أمام الناس، وابن عباس ينكس رأسه، فهذا أعرابي جلف يسب علامة الدنيا فرفع ابن عباس رأسه وقال: [[أتسبني وفي ثلاث خصال، قال الناس: ما هي يا بن عباس؟ قال: والله ما نزل القطر بأرضي إلا سررت وحمدت الله على ذلك، وليس لي بها ناقة ولا شاة]] يقول: ما سمعت بقطر المطر ينزل بأي أرض إلا وسررت به وهذا هو الإيمان، تسمع في الجنوب أو الشمال بمطر فتفرح، وهذه خصال المؤمنين.

[[قالوا: والثانية؟ قال: ولا سمعت بقاضي عادل إلا دعوت له بظهر الغيب وليس لي عنده قضية]] لكن يفرح أن يكون قضاة المسلمين عدولاً.

[[قالوا: والثالثة؟ قال: ولا فهمت آية من كتاب الله إلا تمنيت أن المسلمين يفهمونها كما أفهمها]].

وهذه المثل العليا التي حملها أصحابه عليه الصلاة والسلام، وهو الذي رباهم أصلاً على سمع وبصر، وإلا فهم أمة أمية خرجوا من الصحراء، لكن بناهم شيئاً فشيئاً ورصع مجدهم، واعتنى بهم صلى الله عليه وسلم حتى أخرجهم مثلاً أعلى وقدوات حسنة للناس.

وقالوا في المثل: من أين لك بأخيك كله؟! يقول: أتريد مهذباً كله؟ لا.

خذ بعضه، خذ نصفه، خذ ثلثين، خذ ثلثه، يقول: من أين لك بأخ كله؟ وأنا أسأل نفسي وإخواني: هل تجدون في المجتمع المسلم مهما بلغ هذا الشخص من الرقي والمثل العليا وحسن الخلق أن يكون كامل لا حيف فيه ولا نقص؟ هذا لا يكون: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ} [النور: ٢١] تجد هذا كريماً لكنه غضوب، وتجد هذا حليماً لكنه بخيل، وتجد هذا طيباً لكنه عجول، وهي مواقف لأن الله وزع المناقب والمثالب على الناس.

عبد الله بن جحش وعلامة حبه لله تعالى

هم أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام رباهم على الحب، فيأتي عبد الله بن جحش أول من سمي بالأمير يوم أحد، فيقول: [يا رب اللهم إنك تعلم أنني أحبك - وهذا مهر البيعة- اللهم إن كنت تعلم ذلك فلاق بيني وبين عدو لك شديد حرده، قوي بأسه، فيقتلني فيك - ما قال: أقتله- فيبقر بطني ويجدع أنفي ويفقع عيني ويقطع أذني، فإذا قلت لي: يا عبدي لِمَ فَعَلَ بِكَ هذا؟ فأقول: فيك يا رب]].

هل قتل أتباع استالين ولينين وهتلر على ذلك، كذب الأعداء الأخساء، كذب الدجاجة، والله ما قادوا الشعوب إلا بالحديد والنار، أما رسولنا عليه الصلاة والسلام فقداد القلوب إلى الحي القيوم وهي تقيه من جراحات الأسهم وتحوطه بسياج من النور في أحد حتى تقع الأسهم فيها، وأحدهم يقول: نفسي لنفسك الفداء يا رسول الله.

أولاً: حب الله عز وجل وحب رسوله عليه الصلاة والسلام حباً صادقاً أكثر من الزوجة والأهل والمال والولد، ولذلك أحباب الله يسارعون إلى محاب الله، وفي حديث عند الطبراني من قوله عليه الصلاة والسلام: {يضحك ربك إلى ثلاثة -ولله ضحك يليق

بجلاله لا نكيفه ولا نمثله ولا نشبهه ولا نعطله- أحد الثلاثة رجل حمله الحب سافر في قافلة وتعب في السفر، فلما نزل أصحابه قبل الفجر ناموا على الأرض، وأما هو فما نام، قام إلى الماء البارد فتوضأ واستقبل القبلة يبكي ويدعو ويناجي الواحد الأحد، فيقول الله لملائكته: يا ملائكتي! انظروا العبدى هذا ترك فراشه الوثير ولحافه الدفيء وقام إلى الماء البارد يتوضأ ويدعو ويتملقني، أشهدكم أنى غفرت له وأدخلته الجنة { أليس بحب؟ بل أعلى من كل حب.

في مذكرات لبعض الدعاة: أن شاباً مسلماً من بلاد الجزيرة العربية سافر إلى بلاد الإنجليز إلى لندن وهناك أعلن توحيده وأعلن صموده وأعلن إيمانه، لأنه خرج من بلاد الحرمين، من جزيرة التحدي للزنادقة وللملحدين، من جزيرة الإبداع والسمو والجمال والروعة والصفاء، وهناك سكن في بيت إنجليزي مع عجوز اضطر لذلك اضطراراً، وكان يقوم مع صلاة الفجر في البرد القارس المثلج إلى صنبور الماء فيتوضأ، وتلاحظه عجوز إنجليزية في البيت كل صباح، فتقول له: أمجنون أنت؟ قال: لا.

قالت: وكيف تقوم في هذه الساعة لتتوضأ؟ قال: ديني يأمرني بذلك، قالت: ألا تتأخر؟ قال: لو تأخرت لما قبل الله مني، فهزت رأسها وقالت: هذه إرادة تكسر الحديد.

من الذي أتى بهذه الإرادة وزرعها في القلوب؟ إنه محمد عليه الصلاة والسلام.

والفيافي حالمات بالمنى عجباً من قلبك الفذ الكبير

وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاليمه لا تزال كالفجر لامحة لمن أراد أن يستفيد من تعاليمه.

شجاعة ابن تيمية أمام ابن قطلوبك

ابن قطلوبك وما أدراك من ابن قطلوبك سلطان لا يعرف الفاتحة دخل عليه ابن تيمية، فأمره ونهاه وهز أكتافه بقال الله وقال رسوله، فقال ابن قطلوبك: يا ابن تيمية يزعم الناس أنك تريد ملكنا وملك آبائنا وأجدادنا، فيضحك ابن تيمية، ويقول: ملكك وملك آبائك وأجدادك؟! قال: نعم.

قال: والله، لا يساوي ملكك وملك آبائك وأجدادك عندي فلساً، إنني أريد جنة عرضها السماوات والأرض.

ألا لا أحب السير إلا مصعداً ولا البرق إلا أن يكون يمانياً

فأتى عليه الصلاة والسلام يربي الصحابة على الشجاعة والإقدام، وعلى أن أعظم ما يمكن أن يدفعوه أن يقدموا أرواحهم في سبيل الله.

قال الأستاذ المربي العظيم -نور الله ضريحه، وسقاه الله شآبيب الرضوان- قال: في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١] قال في كلام ما معناه: أنزل الله صكاً من السماء أتى به جبريل وأملأه محمد، ونص المعاهدة (إن الله اشترى الآية) فتقدم أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام بالثمن، ما هو الثمن؟ الأرواح، والسلعة؟ الجنة، فتبايعوا، فقال ابن رواحة: {يا رسول الله! ماذا تريد منا؟

قال: أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأطفالكم وأموالكم، قال: فما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال: لكم الجنة، قال ابن رواحة: ربح البيع، والله لا نقيّل ولا نستقيّل ثم قام من المجلس} فقال ابن القيم: والبيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإذا تفرقا، فقد وجب البيع.

أليس هذا أرقى علوم التربية عند ابن القيم؟ أما كان بالأولى أن تدرّس كتب ابن القيم في الجامعات والمؤسسات والمدارس والندوات والأمسيات، ولا تدرس خزعبلات ديكارت وكانت، وكل عميل متزندق ملحد! إنها {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النور: ٤٠].

أحد الحاقدين من القبورين المبتدعة النهائي، يقول: كتب ابن تيمية وابن القيم ما لقيت رواجاً في الأوساط لسوء نيات أصحابها، فتصدى له الألوسي، وقال: كذبت يا عدو الله، أما كتب ابن تيمية وابن القيم فهي الذهب الإبريز، والعسل المصفى، أما كتبك وكتب أشياخك فتصلح لأن تكون مخابئ الأحمية ومخالي يوضع فيها الشعر للحمير.

هذا هو الأصل: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} [الرعد: ١٧].

والشاهد: تربيته صلى الله عليه وسلم أصحابه على الشجاعة، ليس كالنصرانية يقولون: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، احتقار العبيد سلوك البربر! والتربية عنده صلى الله عليه وسلم شجاعة في موضع الشجاعة، وحلم في موضع الحلم، وحزم في موضع الحزم، وخلق في موضع الخلق.

همة عمرو بن سالم

يقول نعيم بن مالك بن ثعلبة في معركة أحد، والرسول عليه الصلاة والسلام يتكلم على المنبر للناس: {أترون أن نقاتلهم في أحد، أو هنا؟ قالوا: هنا، فقام هذا الشاب وقال: يا رسول الله! لا تمنعني دخول الجنة، فوالله لأدخلن الجنة، قال: بماذا تدخل الجنة؟ - يعني: ما هي المؤهلات؟ - قال: بخصلتين بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف، قال: إن تصدق الله يصدقك، وأتت المعركة وقتل في سبيل الله ومسح عليه الصلاة والسلام التراب عن وجهه وهو شهيد، وهو يقول: صدقت الله فصدقك الله، صدقت الله فصدقك الله، صدقت الله فصدقك الله}.

علو الهمة، ما أرادوا حطام الدنيا، ووجدوا أن ملاذ الدنيا وسمنها وعسلها ولحمها ومراكبها لا تساوي دقيقة من جهادهم الذي بذلوه في رفع لا إله إلا الله محمد رسول الله، أفيأخذون هذا الجزاء على هذا البذل؟ لا. فوفروا جزاءهم عند الواحد الأحد.

يقول عمر على المنبر: [[والله إني لأعلمكم بأحسن الطعام، وألين اللباس، وأوسع الدور، ولكن أخشى أن يقال لي يوم القيامة:

{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا} [الأحقاف: ٢٠]] ولذلك عمر في برد مرقع.

يقول محمود غنيم:

يا من يرى عمراً تكسوه بردهته والزيت أدم له والكوخ مأواه

يهتز كسرى على كرسيه فرقاً من خوفه وملوك الروم تخشاه

إذا: ربي عليه الصلاة والسلام أصحابه على الهمة، وهذا مطلب أساسي في هذه الصحوة الرائدة الخالدة المتجهة إلى الله.

إن من أسباب الصحوة هذه علو الهمة، جربوا المبادئ الهدامة، ذاقوا الأطعمة البائسة الحقيرة، صنفوا في كل مكان، فما وجدوا إلا الطريق إلى الله.

{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠]
{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨].

الجهل

الجهل داء عضال، وما دخل المستعمر وأهل القبور والدهريون على الدين إلا من باب الجهل، إن النصارى الضالين أهل الكهوف والمغارات الذين لا علم لهم ولا كتاب ولا سنة مثل غلاة الصوفية، فأشبهه الناس بالنصارى الصوفية، وأشبهه الناس باليهود كسلاً وخمولاً طالب العلم الذي تعلم العلم وما علّم وما عمل، فتجد بعضهم عنده شهادات معلقة ومبروزة في بيته، لكن ليس عليه من العلم أثر، قال تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: ١٣].

أما عباد المسلمين الجهلة والضلال فأشبهه الناس بالنصارى، قال الله: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا} [الحديد: ٢٧]
فالجهل طريق للبدع.

ولذلك لا تنتشر البدع إلا في المناطق التي يكثر فيها الجهل، فتجدها في القرى أكثر منها في المدن، وفي البوادي أكثر من القرى؛ لأنها تروج على الجهلة؛ ولأن البدعة مزخرفة، وظاهر المبتدع أنه يحب الرسول عليه الصلاة والسلام ويدعو إليه، وأنه يريد أن ينتشر دينه، وباطنها من قبله العذاب.

يقول أحد البطائحية من غلاة الصوفية لشيخ الإسلام ابن تيمية: يا ابن تيمية! حسبنا الله، نأتي إليك فَتَبْطُلُ كراماتنا ونذهب إلى التتار فتنجح كراماتنا -التتار الكفرة هم الذين داهموا العالم الإسلامي بقيادة هولاء كو وجنكيز خان- فهو يقول: نحن نأتي إليك فلا تصلح كراماتنا معك، ولكن إذا ذهبنا إلى التتار كان لكراماتنا وقع ونجاح، قال ابن تيمية: مثلنا ومثلك ومثل التتار كمثلي فرس أبلق، والتتار خيولهم سود ونحن خيولنا بيض، وخيلك أنت أبلق، فإذا دخل الخيل الأبلق -الأبلق هو الذي ليس بأسود ولا أبيض- بين البيض أصبح أسوداً، وإذا دخل بين السود أصبح أبيضاً، فأنت إذا ذهبت إليهم وعندك شيء من الإسلام أصبح فيك بياض، وإذا أتيت إلينا وفينا نور كثير من السنة أصبحت أسوداً، وهذا مثل لمن يروج على الجهلة وهم أهل البدع والخرافات.

معجزة الهجرة

خرج عليه الصلاة والسلام من مكة يريد أن يفر إلى المدينة؛ لأن المشركين حاصروه، وطوقوا البيت بخمسين شاباً كل شاب معه سيف يقطر دماً وحسداً، وبغياً وعناداً، فأتى الوحي من الله أن اخرج، قال لجبريل: كيف أخرج؟ قال: اخرج والله معك، وانثر على رؤوسهم التراب، فخرج عليه الصلاة والسلام فلما خرج وإذا الخمسون شاباً حول البيت، فأخذ حفنة من التراب فذرها على رؤوسهم وقال صلى الله عليه وسلم: {وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} [يس: ٩]

فألقى الله عليهم النعاس فسقطت من أيديهم السيوف وما قاموا إلا عندما طلعت الشمس كل يحتث التراب من على رأسه، وما وجدوه في البيت فخرجوا يجوبون مكة، فحدث لهم حادث قد يكون في غار ثور، فخرجوا إلى الغار مسرعين وطوقوا الغار وأرادوا دخوله، وفي السير أن الله سخر العنكبوت فبنت عشها على فم الغار، وجعل الحمامة تبني عشها وتبيض عليه، فأراد الكفار أن يدخلوا من فم الغار فوجدوا العش وبیت العنكبوت فقالوا هذا غار ما دخل:

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم

عناية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عالٍ من الأطم

فيقول أبو بكر وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار: يا رسول الله! والذي نفسي بيده، لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرأنا، فتبسم عليه الصلاة والسلام تبسم الزعيم الواثق الذي بإمكانه أن يقود العالم وقال: يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما! قال أحمد شوقي:

وإذا العناية لا حظت عيونها نم فالحوادث كلهن أمان

عناية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عالٍ من الأطم

ولذلك يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: {ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠] فما حزن عليه الصلاة والسلام من لثقته بالله، خرج صلى الله عليه وسلم فلحقه سراقا قال أبو بكر: يا رسول الله! سراقا أقبل شاهراً سيفه ورمحه ادع الله عليه يا رسول الله! فتبسم وقال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقرأ القرآن على سراقا فساخت به الفرس

فوقع على الأرض فقال: سراقاة للفرس صه، وهذه الكلمة تقال عند العرب إذا عثر الفرس يعني قم واستيقظ، فقام الفرس وركب وأقبل، فدعا عليه فساخ به الفرس فتعثر على وجهه، فقال: يا محمد! أريد الأمان منك لا تقتلني (فر من الموت وفي الموت وقع) أراد أن يقتل فطلب النجاة والسلامة.

فاشترط عليه الصلاة والسلام أن لا يخبر أحداً من الناس، وأعطاه كتاب أمان، ثم تبسم عليه الصلاة والسلام تبسم الواثق من نصر الله له، وقال: يا سراقاة! كيف بك إذا طوقت بسواري كسرى؟ وفي بعض الألفاظ وقيصر؟ فضحك سراقاة فقال: أنت فار وصاحبك من مكة تطارد وتملك ملوك كسرى وقيصر، إنها همة بإذن الله تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء، فأعطاه الأمان ورجع، فقال كفار قريش لـ سراقاة ما وراءك، قال: أما طريق المدينة فقد كشفها لكم فلا تبحثوا.

أتى سراقاة ففتح عمر رضي الله عنه أرض كسرى وقيصر، ودك عروش الخيانة والظلم، والجهالة والعمالة والطاغوت، وداسها هو وسعد بن أبي وقاص بأقدامهم في الأرض ثم أتوا بسواري كسرى وقيصر؛ من ذهب ومرجان ولؤلؤ فأخذها عمر، وقال لـ سراقاة: تعال ولبسه عمر فبكى سراقاة، قال عمر: مالك تبكي؟ يومٌ نصر الله فيه الإسلام والمسلمين وأنت تبكي- فقال سراقاة: والذي نفسي بيده! لقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم طارده: كيف بك يا سراقاة إذا سورت بسواري كسرى أو قيصر، فبكى عمر وبكى الصحابة: {أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ} [الطور: ١٥].

خرج عليه الصلاة والسلام ومر بعجوز خزاعية في خيمة معها عنز مكسورة في جانب الخيمة، فقال لها: هل من لبن؟ قالت: غنمنا خلوف وأبونا مع الغنم، قال: علي بهذه العنز وائذني لي أن أحلبها، فضحكت وقالت: عنز مكسور حائل ما تحلب، قال: أحلبها، فأخذ عليه الصلاة والسلام كوباً عظيماً هائلاً فقال: باسم الله فحلب فحلبت

فملاً الإناء فأعطاه أبا بكر فشربه، ثم ملاًه فأعطاه العجوز فشربت، ثم ملاًه فشرب عليه الصلاة والسلام ثم ملاًه ثم جعله عند العجوز فاندھشت.

قالت: ما هذا الكلام الذي تقول، فتبسم عليه الصلاة والسلام ثم خرج، يقول شاعر الجن يخبر أهل مكة لأنهم تلك الليلة لا يدرون أين ذهب، وجعلوا عليه حصاراً عالمياً، وغلقوا المنافذ وأعلنوا حالة الطوارئ في مكة ولكن طريق المدينة لم يبحثوا فيه، فيقول الجان من أعلى جبل أبي قبيس ينشد، وفي الجن شعراء وخطباء:

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيق حلا خيمتي

أم معبد الخزاعية:

هما نزلا بالبر وارتحلا به فأفلح من أمسى رفيق محمد

فيا لقصي ما زوى الله عنكم به من فخار لا تجازي وسؤدد

وذهب صلى الله عليه وسلم ووصل إلى المدينة وأتت معجزاته في المدينة تترأ.

الواجب مع الشائعة

الأصل في بيان الواجب أمام الشائعات والأخبار المزعومة قوله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} [الحجرات: ٦] وقوله سبحانه وتعالى أيضاً: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٦] قال ابن كثير رحمه الله: يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق؛ لاحتياط له، لئلا يحكم بقوله، فيكون في

نفس الأمر كاذباً مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد فعل ما نهى الله عزوجل عنه، وهذا من اتباع سبيل المفسدين.

وكثيراً ما أدت العجلة في إصدار الأحكام إلى الندم بعد وقوع الحكم، وكثيراً ما ندم بعض الأخيار من أحكام أصدروها على بعض الناس على معلومات خاطئة وصلتهم، وقد وقع هذا كثيراً حتى في صفوف أهل الصحو، وأهل الالتزام؛ حيث إن بعضهم يحكم على بعض بأخبارٍ ملفقةٍ لا أساس لها من الصحة.

لقد كثرت -أيها الفضلاء- بين الشباب النقل عن الثقات المزعومين، وهم يهمنون أسماءهم، فيقول أحدهم: حدثني الثقة عن فلان عن فلان عن فلان ثم يروي لك خبراً، وإذا بحثت عن هذا السند على قانون الجرح والتعديل وجدته إما سنداً منقطعاً، أو معضلاً، أو مرسلأً، أو معلقاً، أو وجد الخبر من أحاديث بني إسرائيل.

وتجد المبالغات في النقل، فكثيراً ما حدثونا أن فلاناً من المشايخ يحفظ الكتب الستة؛ يعني: الصحيحين والسنن الأربعة، فلما بحثنا وجالسنا كثيراً من الذين ذكر عنهم ذلك، فما وجدناهم يحفظونها.

وبعضهم يزعم لك أن فلاناً يحفظ كتاباً بأسره، وأنه يحفظ الألف المؤلفة من الأحاديث، فإذا جلست معه وشافهته لن تجد تلك المعلومات إلا خاطئة.

ومن ذلك أن كثيراً من الناس سامحهم الله ينقلون الخبر فيبترونه، أو يزيدون فيه، أو ينقصون منه، أو يؤولونه عن مقصد صاحبه؛ فيأتي الخبر مقلوباً لا أساس له من الصحة، ولا صدق، ولا أثر.

ومنها: أن أحدهم يعادي صاحبه وزميله لمجرد كلمة بلغت عن ذلك لم يتأكد من صحتها، أو من مقصد صاحبها؛ فيقع فيما نهى الله عز وجل، وتقع العداوات بين الأقران، بما فهم الدعاة الفضلاء بسبب هذه الشائعات التي تنتشر.

وكان حقاً على المسلمين خاصة الدعاة التحري أمام الشائعات، والتريث في إصدار الأحكام، وأقرب قصة مثلاً قتل واغتيال الشيخ جميل الرحمن رحمه الله في أفغانستان؛ فما أن اغتيل، ومرَّ على اغتياله ليلة واحدة إلا وأتى بعض الناس فقالوا: فلانٌ مسئول عن اغتياله وهو الذي قتله، قلنا: ما هو دليلك؟ فأتى بعمومات لا تغني، إنما هي من الظن: {إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً} [يونس: ٣٦].

وأنا هنا لست بصدد أن أبرئ، أو أتهم أحداً من الناس، وإنما أضرب بهذه القصة مثلاً في تعجل بعض الناس حتى في مثل هذه القضية الكبرى؛ قضية قتل قائد من قادات المجاهدين، ثم يعزى دمه ويلحق قتله بأحد القادة الفضلاء الآخرين، فقل لي بالله ما هو مستند هؤلاء؟ وما هو دليلهم؟ وما هو برهانهم؟ في نسبة هذا الجرم العظيم الذي ورد في الحديث القدسي، وأحياناً يرد من كلامه عليه الصلاة والسلام، وقد صححه كثير من أهل العلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: {لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل امرئٍ مسلمٍ لَكِهِمُ اللَّهُ جميعاً على وجوههم في النار} وفي الحديث الذي يصححه الشيخ الألباني: {لزوال الدنيا بأسرها أهون عند الله من قتل امرئٍ مسلمٍ} والرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث الحسن نظر إلى الكعبة وهو يودعها فقال: {ما أشد حرمتك، وما أعظمك، ووالذي نفسي بيده إن المسلم أشد حرمة منك} أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

والصاق التهم دون تثبت شائع من قديم، فلما قتل عثمان رضي الله عنه وأرضاه، قتله الشوار المتمردون المخطئون المسيئون كل الإساءة، قال بعض المتعجلين، الذين

يأخذون الأخبار من الشائعات: الذي قتله علي بن أبي طالب! لا إله إلا الله أبو الحسن يقتل عثمان، فوقف على المنبر أمام الناس وقال: [[أيها الناس: بلغني أن أناساً يقولون: قتلت عثمان، لعن الله من قتل عثمان، ومن شارك في قتل عثمان]]

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عني وشاية لمبلغك الواشي أغش وأكذب

وقس على ذلك من أمثالها كثير، وهي الأحكام المخطئة التي تعتمد على مجرد سماع الخبر، في اتهام بعض الجهات وبعض الأشخاص ولم نسألهم عن دليلهم في ذلك، وإنما يتعلقون بشبه وإيحاءات بعيدة، روي عنه عليه الصلاة والسلام في حديث ابن عباس أنه قال لرجل: {أتري هذه -يعني: الشمس في النهار- قال: نعم.

قال: على مثلها فاشهد أو دع} رواه ابن عدي بسند ضعيف، وصححه الحاكم فأخطأ، والحديث ضعيف ولكن معناه صحيح لأصول الإسلام الثابتة في الكتاب والسنة؛ ولذلك ذكرته يصيغة التمریض، فإن أهل العلم إذا ذكروا أثراً ضعيفاً قالوا: يروى، ويذكر، فيعفون أنفسهم من مغبة مطالبتهم بسند، أو بالحكم على هذا الحديث.

والله عز وجل -كما سلف- يقول: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: ٣٦] لا تقف أي: لا تقل، ولا تتحدث بما ليس لك به علم، ثم ذكر الله أن العبد سوف يحاسب على كلماته، وعلى أحكامه، تصرفاته فقال: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُورًا} [الإسراء: ٣٦].

قال الشاعر: وهي أبيات من قصيدة عظيمة، نسبت لابن المبارك، يقول في بعض أبياتها:

وإذا صاحبت فاصحب ماجداً ذا عفافٍ وحياءٍ وكرم

قوله للشيء لا إن قلت لا وإذا قلت نعم قال نعم

وانسب القول إذا ما قلته فعظيم منك إيراد التهم

وأنا أقترح على إخواني الشباب خاصة لأنهم أهل المشاركة والتأثير، وأهل الكلمة المسموعة أن يعودوا فيما يطرأ عليهم إلى العلماء فيصдرون عن رأيهم، ويعودون عن مشورتهم.

وحبذا لو كان في كل مدينة دعاة بارزون، يعود إليهم الشباب وطلبة العلم فيسألونهم عن الأحكام، أو عما يقولون، أو عن موضوعات الخطب والمحاضرات وهو الأسلم.

وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: {بئس مطية الرجل زعموا} وهذا في صحيح البخاري في كتاب الأدب؛ والمعنى: أن من جعل وسيلته زعموا دلّ على أنه لا يتثبت، وأنه مظنة أن يكذب، وأن يخطئ في الأحكام.

واسأل كثيراً من الناس عن أحكامهم، تجدهم يبنونها على زعمومات لا حقيقة لها، والحقيقة أن زعم في الغالب تنبئ عن الكذب {بئس مطية الرجل زعموا} والله يقول في القرآن: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا} [التغابن: ٧] يريد أن يبكتهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مع العلم أنه ليس هناك إجماع عند أهل اللغة على أن زعموا تشير إلى الكذب، لا، بل

إن سيبويه في الكتاب الذي هو في النحو كان ينقل كثيراً ويقول: وزعم الخليل؛ يقصد شيخه الخليل بن أحمد، ومعناه قال وصدق، ولكن الغالب أنها تدل على الكذب.

ودائماً أسانيد الناس: زعموا، وسمعنا، ويقولون، وقالوا، ونحو ذلك من الألفاظ التي هي صيغ تمريض، وقد كره الله للناس قيل وقال، وهي دلالة على كثرة النقل بلا روية، ولا تؤده، ولا تثبت، وعند مسلم في الصحيح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع} إذا رأيت الرجل يحدث بكل قصة يسمعها، وكل مقالة تنهى إلى أذنه؛ فاعلم أنه سوف يكذب لا محالة، قال الإمام مالك [لا يكون المرء إماماً إذا حدث بكل ما سمع] وقال الإمام مالك رحمه الله أيضاً: [ليس كل ما يُعلم يقال].

فإنك تعلم معلومات ولكنك لا تستطيع أن تقولها.

وفي صحيح البخاري أيضاً: أن أبا هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال: [حفظت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعاءين اثنين: أما الأول فبثثته في الناس -أي: علماً- وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم -وفي بعض الألفاظ: الحلقوم-] أي: قطع رأسه، قال بعض الشراح ك ابن حجر وغيره: ربما كانت من الأحاديث التي في خلفاء بني أمية التي أخبر بها عليه الصلاة والسلام، كالأحاديث التي حسنها الحافظ ابن حجر في الوليد بن يزيد الفاسق، وبعض الأحاديث في أشخاص بعينهم، فلو حدثها أبو هريرة لذهب رأسه إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم، ولا يسعه الكتمان عن علمٍ يحتاج إليه الناس، لكن يسعه أن يكتم علماً لا يحتاج له الناس، وليس كل علمٍ تطالب أن تبثه في الناس، أو لا واجب عليك أن تشرحه في الناس، لا، وإنما العلم الذي تحتاجه الأمة هو الذي ورد التهديد في كتمانها؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَيْنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} * إِلَّا

الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٥٩ - ١٦٠] وقوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ} [آل عمران: ١٨٧].

والإفراط في حسن الظن بالناس يصل بصاحبه إلى قبول خبر كل أحد، ولذلك عدّوا الحاكم صاحب المستدرک متساهلاً وكذلك ابن حبان والترمذي: فإنهم قبلوا أخباراً واهية، أذكر أن الحاكم قبل أحاديث موضوعة في المستدرک وجعلها صحيحة لحسن ظنه، وحسن الظن المفرط بالرواة وبالنقله وبالناس يودي بصاحبه إلى أن يقبل الكذب، والله المستعان!

أحاديث لا نورٌ عليها ولا سند تناقلها بعض العجائز في البلد

وهذه مثل وكالة العجائز أنهم يقولون، وقلنا، وسمعنا، فإذا حققت تجد أصلاً لن تعود إليه.

مدرسة الإلحاد والزندقة

إن الأزمة الأولى هي: مدرسة الإلحاد والزندقة، والإلحاد مركب قديم وليس بحديث، وليس من صنع ماركس ولا لينين ولا هرتزل بل هو قديم قبله فرعون، وقبل فرعون شيخه وجده إبليس، يقول موسى، وهو رسول التوحيد، ورسول لا إله إلا الله: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} [الإسراء: ١٠٢] لقد علم أن لا إله إلا الله، وعلم أن الذي رفع السماء وبسط الأرض هو الله:

قل للطبيب تخطفته يد الردى من يا طبيب بطبه أداكا

قل للمريض نجا وعوفي بعدما عجزت فنون الطب من عافاكا

والنحل قل للنحل يا طير البوادي من ذا الذي بالشهد قد حلاكا

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه فاسأله من ذا بالسوموم حشاكا

واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا

سبحان الله! السماء تشهد أن لا إله إلا الله، والأرض تشهد أن لا إله إلا الله، والماء والهواء، وكل ذرة على وجه الأرض، ولكن مدرسة الإلحاد أثبت ذلك، ومن عتوها وفجورها أنها تريد أن تدخل إلى الجزيرة العربية، تريد مركب الأدب يوم أخفقت في مركب الاقتصاد.

قبل أربعين سنة كان ماركس ولينين، أهل الحديد والنار، أعداء الشعوب، ظلمة الإنسان وأكلة الإنسان.

قالوا هم البشر الأرقى وما أكلوا شيئاً كما أكلوا الإنسان أو شربوا

أرادوا أن يلحد الإنسان وقالوا: لا إله والحياة مادة، فلما أخفقوا في الاقتصاد أتوا بمركب الأدب، وحرام أن تلحد هذه الجزيرة، أو أن يلحد صحفي واحد فيها أو شاعر أو أديب.

إن صحفنا ونوادينا لا بد أن تكون إسلامية، وقصاصنا إسلاميون، لأننا نفضل أن نموت ويحيا الإسلام، نغذيه بدمائنا، ونبني مجده على جماجمنا، فهو السراج والكنز

والمصير والقوة والشرف والعمق والأصالة، ويوم نتغلى عن الإسلام نتغلى عن الأصالة والعمق والشرف، ونخسر أوراقنا في الساحة.

إن مركب الإلحاد حاول بشق الوسائل التشكيك في المعتقد، بكتابة الكتب الرخيصة التي تشكك في الرسالة، وفي الله عز وجل، وفي الرسول صلى الله عليه وسلم، سبحانه الله! {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} [ص:٥] سبحانه الله! لا إله إلا هو: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم:٦٥] والله إن القلوب لتتفطر، وإن الجبين ليندى، وإن القلب ليرجف؛ يوم يذكر الإلحاد، كل شيء ربما تتفاوض معه، إلا مسألة الإلحاد، إنهم يريدون أن يلحد صحفي، أو أديب، أو شاعر، أو رياضي في جزيرة العرب.

أما علمتم يا أعداء الله! أن هذه الجزيرة حُمِلَ على أكتاف أبنائها لا إله إلا الله؟ وبعد خمس وعشرين سنة من الإسلام مات أبنائها على ضفاف نهر اللوار والسند والهند وسمرقند وأسبانيا والأندلس المفقود، أتريدون إدخال الإلحاد هنا؟ أما بحثتم عن بلد غير هذا؟ أما هذه فإنها بلاد محمد عليه الصلاة والسلام.

ومرض التشكيك والإلحاد ورد كذلك في بعض المسرحيات التي تستهتر وتستهزئ بشخص الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وإيم الله، وتالله، وبالله ما طرق العالم أعظم من الرسول عليه الصلاة والسلام، أريدون معجزة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم؟!

يقول شاعر وادي النيل:

أتطلبون من المختار معجزة يكفيه شعب من الأموات أحياء

كنا قبل لا إله إلا الله رعاة غنم وإبل؛ لا حضارة ولا ثقافة ولا معرفة ولا رقي، فلما جاء الرسول وبعث فينا وبث فينا الروح، فأصبحنا نتكلم بكلام الله، ونمسي أولياء لله على كتاب الله، نحيا لله ونموت على لا إله إلا الله.

أرواحنا يا رب فوق أكفنا نرجو ثوابك مغنماً وجواراً

كنا نرى الأصنام من ذهب فنهدمها ونهدم فوقها الكفار

لو كان غير المسلمين لحازها كنزاً وصاغ الحلي والدينارا

من الذي جعل عمير بن الحمام يأتي في معركة بدر وهو يأكل التمر، فيقول عليه الصلاة والسلام قبل المعركة وهو يعلن ساعة الصفر: {يا أهل بدر، إن الله اطلع عليكم فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، والله ما بينكم وبين الجنة إلا أن يقتلكم هؤلاء.

فيقول عمير بن الحمام وهو يأكل التمرات: يا رسول الله، ما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء.

قال: نعم.

فأخذ غمد سيفه فكسره على ركبته، ورمى بالتمر، وقال: لا إله إلا الله، اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى.

ثم رمى بالدرع في الأرض وقاتل حتى قتل.

أيفعل جنود نابليون وهتلر وتيتو وغاندي هذا الفعل؟!

كذبوا لعمر الله، والله ما يستमितون إلا على إحراق البشر، وأخذهم وامتهانهم.

لكن أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام يريدون الله وما عند الله.

الأغنية الماجنة

مهما ترخص مترخص فإن الأغنية التي تحبب الوله والغرام والعشق؛ تهدم صرح الإسلام، يقول المغنون والمغنيات، وأنا لا أثرب على أحد، ولا أذكر أسماء ولا هيئات، ولكنني أعرض حقائق.

يقولون: هم أهل الحب والفن والجمال! لا.

بل نحن أهل الحب والفن والجمال، حبهم ليس حباً، وفنهم ليس فناً، وجمالهم ليس جمالاً، وهذه مقالة قد عرض لها أبو الحسن الندوي الداعية الكبير وغيره من أساطين دعاة الإسلام، فما هو الحب حتى نعرف الحب؟

الحب يعرفه القرآن: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعُذًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} [التوبة: ١١].

فالذي دفع هؤلاء هو الحب، وقال تعالى: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤] قال ابن القيم: "ليس العجب من قوله (يحبونه) فالإنسان مجبول على حب من أحسن إليه".

إنسان يعطيك عشرة ريال أو يلبسك ثوباً ربما أحببته، لكن الذي غمرك بالنعيم ظاهراً وباطناً أليس هو الله؟ فليس العجيب أن تحب الله؛ لأنه أحسن إليك، لكن العجيب أن يحبك الله عز وجل.

الحب يصوره عبد الله بن عمرو الأنصاري أحد المجاهدين، يوم نزل في المعركة يوم أحد، فالتفت إلى السماء وقد تكفن في أكفانه، وأخذ طيباً وكسر غمد سيفه على ركبته، وقال: [[اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى، اللهم إني أحب لقاءك فلا تردني من لقاءك اليوم]].

سبحان الله!

وحضرت المعركة، فعلم الله أنه صادق، وأنه مخلص، وقتل في المعركة.

فقال عليه الصلاة والسلام لابنه جابر: {أتدري ماذا فعل الله بأبيك؟ -اسمع إلى كلمات الصدق والحرارة، وإلى الكلمات البديعات الرائعات- قلت: لا والله يا رسول الله. قال: والذي نفسي بيده لقد كلمه الله كفاحاً -بغير حجاب وبلا ترجمان- فقال: تمنّ يا عبدي.

ويأتي هذا الرجل ويقول: يا رب، أتمنى أن تعيدني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية.

قال: إني كتبت على نفسي أنهم إليها لا يرجعون، فتمنّ، قال: أتمنى أن ترضى عني؛ فأني قد رضيت عنك { أليس هذا حباً؟ إنه والله لمن أعظم الحب.

أتى البراء بن مالك -أحد الصحابة- في معركة تستر ، فلبس أكفانه وقال: [[يارب، أقسم عليك أن تنصرنا وأن تجعلني أول شهيد فأني أحبك]].

فحضر المعركة فقتل وانتصر الإسلام، فهذا هو الحب.

يقول شوقي أمير الشعراء:

الحياة هي الحب، والحب هو الحياة.

لكن لمن يريد أن يكون محبوباً وحبیباً، ويكون محبوبه الله تبارك وتعالى، وإلا فسوف ينتهي حبه، أما الحديث الذي وضعه الوضاعون المخرفون: {من أحب فعف فكتم فمات فهو شهيد} قال ابن القيم: لو كان سنده كالشمس لكان باطلاً كذباً موضوعاً.

أرجل يحب كأساً، وامرأة أجنبية محرمة يكون شهيداً؟ أي شهيد؟ أشهادة تيتو ونابليون وهتلر، شهداء الفن والمسارح والدعارة، شهداء الليالي الحمراء، أما شهداء محمد صلى الله عليه وسلم الذين يستشهدون من أجل لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الاشتغال بالتوافه عن الأصول

أزمة الاشتغال بالتوافه عن الأصول، أو إشغال الوقت في غير ما خلق له الإنسان، ونحن نؤمن بالوسائل لكن لا نجعلها غايات، فالرياضة في الإسلام وسيلة وليست غاية، ولا مبدأ يوالى ويعادى عليه، ويحب ويبغض من أجله، إنما الذي يوالى ويعادى عليه هو الإسلام، فنحن هنا نعتبر الرياضة وسيلة، هذا هو رأي الإسلام، ويوم أن تجعل غاية معنى هذا أننا حطمنا رسالتها، وألغينا فاعليتها في الأرض؛ لأنها يوم أن

تصبح غاية فسوف يوالي هذا هذا؛ لأنه من نادية، ويلبس لونه ويسير في مسيرته، ويعادي ذاك ولو كان أخاه لأبيه وأمه.

فالمقصود أنها وسيلة ليس إلا، وهي الغاية لربّي أجسادنا على رفع لا إله إلا الله؛ لأننا أمة ينتظر منا أن نفتح العالم كل العالم، ليس الجزيرة فحسب بل العالم كله يتوجه إلى الكعبة خمس مرات في اليوم واللييلة.

فالمقصود أن غايتنا من الرياضة أن نرفع لا إله إلا الله، كان ابن تيمية يصعد وينزل في جبل كسروان عصرًا، فقالوا له: ما لك؟ قال: إنني أتقوى على الجهاد في سبيل الله، أما أن نقوي أجسادنا ثم بعد ذلك لا تكون هناك نتيجة ولا غاية فهذا ليس بصحيح.

من غاياتنا أن نتقوى على طاعة الله عز وجل، ومن غاياتنا أن ندخل بالرياضة إلى بلاد العالم وإلى قلوب الناس إذا حملنا الرسالة؛ لأن الناس إذا خرج أحد منا ومن أنديتنا ومنتخباتنا إلى العالم، قالوا: هذا خرج من بلاد مهبط الوحي، من الجزيرة، من مكان يستقبله كل يوم وليلة ألف مليون (مليار) مسلم، فإذا رأى الشاب علم أنه يحمل رسالة فما هي رسالتنا إلى الناس؟ رسالتنا ليست رياضة، رسالتنا لا إله إلا الله محمد رسول الله، لننقذ العالم وندخل بهذه الوسيلة ليعلم بنا العالم، ويجلس معنا ويستمع إلينا.

إن العالم ينتظر من أبنائنا وشبابنا وينظر إليهم نظرة الطموح والإيمان والحب، فهذا محمد إقبال شاعر الباكستان، أتى إلى هذه البلاد وطاف بالبيت العتيق، ورأى شباب الإسلام فما رأى كالذي سمع، كان يتصور أنه يجد شباب الجزيرة قومًا مهمهم

حمل لا إله إلا الله، قوماً يتمنى الواحد منهم أن يموت في سبيل الله، قوماً يتلمظ الواحد منهم كالأسد متى يشرق دين الله تعالى على الأرض كلها، فبكى وأبكى وسجل قصيدته (تاجك مكة) يقول فيها وهي مترجمة:

نحن الذين استيقظت بأذانهم دنيا الخليقة من تهاويل الكرى

حتى هوت صور المعابد سجداً لجلال من خلق الوجود وصوراً

ومن الذي باع الحياة رخيصة ورأى رضاك أعز شيء فاشتري

أم من رمى نار المجوس فأطفئت وأبان وجه الصبح أبيض نيرا

فمن الذي أطفأ نار المجوس إلا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، يوم انطلقوا من الصحراء، ليس عندهم طائرات ولا دبابات ولا قنابل ولا صواريخ، يدخل ربيعي بن عامر -أحد جنود الإسلام في الثلاثين من عمره- على رستم القائد الفارسي المجرم، فيقول له رستم وهو يضحك استهزاءً به، يوم أن رأى فرسه الهزيل وثيابه الممزقة ورمحه المثلم، قال له: يا ربيعي، جئتم تفتحون الدنيا بهذا الفرس المعقور والرمح المثلم والثياب الممزقة.

فيقول ربيعي كلمة كالقذيفة بل أقوى من القذيفة قال: [[إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام]] وبدأت المعركة، وكان جيش كسرى مائتين وثمانين ألفاً، وكان جيش المسلمين ثلاثين ألفاً، وبعد ثلاثة أيام أخفق الإلحاد والزندقة والتبعية والتخلف وارتفعت لا إله إلا الله، وأصبح الشهداء يقدمون دماءهم إلى الله.

يقول سعد وهو يرى قصر كسرى الذي حكم فيه ألف سنة: الله أكبر، فانصدع القصر، فبكى سعد وقال: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ} [الدخان: ٢٥ - ٢٩].

عظم الصلاة وفضلها

أما عظم الصلاة وفضلها، فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال فقال: {الصلاة على وقتها} وعند الترمذي بسند صحيح: {الصلاة في أول وقتها} وقال سبحانه: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: ٤٥].

قال شيخ الإسلام عند شرح هذه الآية في الأجزاء الأخيرة من الفتاوى: أخطأ عامة المفسرين في تفسير هذه الآية {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: ٤٥] وقال: للصلاة فائدتان ومنفعتان، أحدها: أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، والثاني: أن في الصلاة يقام ذكر الله فيها، وذكر الله في الصلاة أعظم من نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر، وبعضهم يقول: ولذكر الله أكبر من كل شيء، لكن لا صلة في الآية ولا مناسبة.

وهذا صحيح، وهو من فهمه رحمه الله، أي: أن ذكرك لله في الصلاة أعظم من نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر، أي فائدة أن تذكر الله عز وجل في الصلاة أعظم لك أثراً من نفع الصلاة في نهىها عن الفحشاء والمنكر.

يقول: وأما حديث: {من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزد من الله إلا بعداً} فحديثٌ باطل لا يصح، بل من صلى وارتكب الفواحش أقرب إلى الله ممن ارتكب الفواحش ولم يصل.

وأما في السنة فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {الصلوات الخمس، والعمرة إلى العمرة، والجمعة إلى الجمعة، كفارات لما بينهن ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله} وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيحين أنه قال: {أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله} وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {بين المسلم والكافر ترك الصلاة} وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر}.

قال ابن تيمية رحمه الله: لم يأت عنه صلى الله عليه وسلم تفريق بين من تركها عامداً أو متهاوناً، لأن بعض الفقهاء -كما يدرس في بعض المدارس- يقولون: من تركها متهاوناً فهذا يستتاب، وأما من تركها عامداً فيقتل.

والمتهاون عندهم شيء، والعامد شيء، وهذا خطأ، فليس هناك متهاون ولا عامد، من ترك الصلاة فقد كفر، ما نقول: هل تركها متهاوناً؟ ولا نسأله عن قلبه؟ ما تركها إلا بعد ما كفر بالله العظيم، فنمسح بالسيف على رأسه، هذا هو الصحيح، أما التفريق بين من تركها متهاوناً أو تكاسلاً أو عمداً فليس له أصل، لا من عند الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا الصحابة، ولا أئمة المسلمين، فليعلم ذلك، وإنما هو تقسيمٌ استحدثه بعض الفقهاء.

أهمية الوقت

وقد أقسم الله به لعظمته، فإنه عمرك، وحياتك، وهو دقائقك وثوانيك، وهذا الزمن عظيم والله عز وجل يحاسب الناس يوم القيامة على الزمن والعمر فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ * قَالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: ١١٢ - ١١٦].

والصلتان السعدي الشاعر المصقع ذكر له الجاحظ في كتاب الحيوان أبياتاً في الزمن والعصر، يقول:

أشاب الصغير وأفنى الكبير كرّ الغداة ومّرّ العشي

فهو يقول: أخذ الملوك والمملوكين والرؤساء والمرءوسين هذا الصباح وهذا العشي.

أشاب الصغير وأفنى الكبير كرّ الغداة ومّرّ العشي

إذا ليلة هرمت يومها أتى بعد ذلك يوم فتي

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجات من عاش لا تنقضي

تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما بقي

فهل سألتهم أهل القبور: هل أكملوا حوائجهم في الدنيا؟

منهم من دعا لوليمة فمات قبل أن يحضر ضيوفه، ومنهم من عقد على امرأة ولم ين بها، ومنهم من دخل في دراسة ولم يكملها، ومنهم من عمر عمارة ولم يسكنها، فماتت معهم أغراضهم في نفوسهم.

وقد قرأت هذا اليوم لخليفة عباسي اسمه الظاهر، كان سفاكاً ذبح من العلماء والوزراء وفعل ما الله به عليم، ومات وعمره ست وأربعون سنة، أصابه خوانيق في حنجرته، فأخذ يصبح ويخور مثل الثور ويقول:

يا كوكباً ما كان أقصر عمره وكذا تكون كواكب الأسحار

فهو يقول: ما أقصر عمري!

والخليفة المعتصم لما حضرته الوفاة تقلب وبكى وقال: "والله لو أعلم أن عمري قصير ما فعلت ما فعلت من الذنوب والخطايا".

فبعض الناس يظن أن الموت لا يدرك الشباب، فالله يقرر الزمن لأهله، فيقول: {والعصر} [العصر: ١] فهذا الزمن الذي نعيشه هو حياتنا وهو على أحد ضربين: حياة السعداء وهي في طاعة الله، وحياة الأشقياء وهي في معصية الله، ويقول صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري: {نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ}.

فتجد أكثر الناس منكوبين في الوقت، يجلسون الجلسات الطويلة لا استغفار أو قرآن، ولا ذكر أو توبة، ولا علم أو مدرسة، فيمر هذا الوقت ويحاسبون عليه عند الواحد الأحد، بل بعضهم جعل الوقت حرباً لله عز وجل، فهذا هو العصر، وهو الزمن الذي نعيشه.

دقات قلب المرء قائمة له إن الحياة دقائق وثواني

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثاني

وعند الترمذي بسند صحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: {لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع - وذكر منها -: وعمره فيما أبلاه} فيسأله الله: أما أمهلتك؟ أما خولتك؟ أما تركتك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: ماذا فعلت؟ فيسأله عن العمر، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ} [فاطر: ٣٧] ومعناه عند أهل التفسير: أو لم نترككم زمناً يمكنكم أن تتذكروا فيه فما تذكركم؟! تذكركم؟! تذكركم؟!

وأما النذير، فقال ابن عباس: "الشيب" وما أحسن هذا من تفسير! وغيره قال هذا.

فإن هذا الشيب خطر وإنذار رهيب، فإذا شاب رأسك وشابت لحيتك؛ فاعلم أنه نذير لك بالقدوم على الله:

ويقبح بالفق فعل التصابي وأقبح منه شيخ قد تفتى

أي: يقبح بالشاب أن يلهو، وأقبح منه شيخ كبير يلهو، ولذلك تجد بعض الشيوخ الكبار في الستين والسبعين كالسفيه والطفل، برنامجه اليومي كبرنامج الطفل تماماً، تجده في المنتديات العامة والمقاهي والأرصفة.

يتحدث بكلام فارغ، وقد أصبحت رجله في حفرة القبر.

قال سفيان الثوري: "حق على من بلغ ستين سنة أن يلبس كفنًا" ويقول صلى الله عليه وسلم: {أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين} فالستون والسبعون معتزك المنايا، فأكثر من يموت هم أصحاب الستين إلى السبعين وقليل من يجوزها أو يتعدها: {حَتَّى

إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى
وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا {الأحقاف: ١٥} فلما بلغ الأربعين عاد، ولا يعني ذلك ألا يعود
الإنسان حتى يبلغ الأربعين، فيسئ ويعصي ويقول: حتى أبلغ الأربعين ثم أتوب، فإن
كثيراً من الناس لم يبلغوا الأربعين، بل عليه من سن التمييز أن يبدأ مع الله عز وجل،
حاداً لحدوده محترماً لحرماته، عامراً بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عمره
وحياته.

فالوقت هو النعمة التي تذهب من الناس كثيراً ولا يفكرون فيها إلا في سكرات
الموت.

وهذا الشيب -على ذكره- عجيب، يقول أبو العتاهية:

بكيّت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيب

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

قالوا: ما فعل المشيب يا أبا العتاهية؟

قال: أحنى ظهري، وأذهب عني لذة الشراب والطعام، وملذة المنام.

فصاحب الثمانين والسبعين لا يتلذذ لا بطعام ولا بشراب ولا بمنام، وهو أمر
معلوم من سير الناس.

تفسير قوله تعالى: (وتواصوا بالحق وتواصوا

بالصبر)

من ميزة هذه الأمة أنها تتواصى، وأنها لا تدفن الأخطاء وتقول: كل شيء على ما يرام، ولا تجامل، ولا تحابي في دين الله.

إذا رأينا الخطأ مثل الجبل وقلنا: كل شيء جيد وحسن؛ فإن هذا يعتبر خيانة، وعند ابن حبان عن أبي ذر قال: {أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم أن أقول الحق وإن كان مرأً فالحق مر وأحياناً يذهب الرؤوس، ويذهب النفوس، ويسيل الدماء لأنه مر.

يقول أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري شيخ الإسلام الهروي: قدمت رأسي لل سيف خمس مرات، كانوا يضعون السيف تحت أذني من أجل ألا أهاجم أو أسب المذاهب الأخرى فما رجعت.

وذلك لأنه يريد أن يقول الحق.

فقل الحق ولو كان مرأً، وهذا هو الذي جعل ابن تيمية مصفداً في الحديد في قلعة دمشق والإسكندرية، وفي كل مكان لأنه يقول الحق، أما الذي لا يقول الحق فإنه لا يؤذى.

فقول الحق والتواصي به صعب، ولا بد أن يقال ولكن بلين.

ومن صفات هذه الأمة أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وهو من التواصي، وعند البخاري عن جرير بن عبد الله البجلي قال: {بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وشرط عليّ والنصح لكل مسلم} وعند مسلم:

{الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم}.

والتواصي ألا نسكت على الأخطاء، لأن الشر يعم والخير يخص: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ} [هود: ١١٦].

فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُول: فهلاً كان منكم عصابة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟

ويقول لوط لقومه: {أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود: ٧٨] ، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ} [الأعراف: ١٦٥] فما نجي الله إلا من أمر ونهى، وقد وصف عليه الصلاة والسلام من يأمر وينهى الأمة بالسفينة التي لو ترك فيها الأشرار لخرقوها، وكذلك سفينة الأمة إذا تركت للسفهاء والأنذال والمحرومين والمخذولين خرقوا شرع محمد صلى الله عليه وسلم وتحطمت وخسرنا هذا الدين بسبب أننا سكتنا.

والساكت عن الحق شيطان أخرس، والناطق بالباطل شيطان ناطق، والناطق بالحق على لسانه ملك يؤيده، وهؤلاء أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ} [الأحزاب: ٣٩] وهو البلاغ الذي قال عنه عليه الصلاة والسلام كما عند أبي داود: {بلغوا عني ولو آية} ، وقال: {نَضَّرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنْهُ مِقَالَةَ فَوْعَاهَا فَأَدَاهَا كَمَا سَمِعَهَا فَرُبَّ مَبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ}.

وأكثر الناس الآن محبوسون في الشعير، هذه الأكياس التي تباع للغنم وتوزع في السيارات فيتضاربون عليها، فأكثرهم الآن محبوس في كيس شعير، أو قطعة أرض، أو

في غنم أو تيوس، أو محبوس من أجل عادة أو طريق بينه وبين جاره، وهذه التضحيات وعالم الضحايا من أجل البطون والقذور، وهم شهداء الشعير الذين إذا ماتوا شهدت لهم أكياس الشعير يوم العرض الأكبر، بأنهم قدموا منهمجهم من أجل أكياس الشعير، وصدق فيهم محمد إقبال إذ يقول:

ومن الذي باع الحياة رخيصة ورأى رضاك أعز شيء فاشتري

أم من رمى نار المجوس فأطفئت وأبان وجه الصبح أبيض نيرا

ولذلك بعض الناس الآن تعال وخذ متراً من أرضه، والله لا تستطيع، ويسيل دمك في الأرض، ويقاقلك بمسدسه الأسباني رقم تسعة، لأن الأرض أرضه.

فإن الماء ماء أبي وجدي وبئري ذو حفرت وذو طويت

لكن يُستهزئ بالدين، يقول: للدين رب يحميه، مثل عبد المطلب أتى أبرهة ليحطم الكعبة فقال: رد لي إبلي أما البيت فله رب يحميه، فإبلي لي وأنا رب الإبل.

فالناس يقولون الشعير شعيرنا، والدين لربنا، والمساجد لله، والذي يستهزئ بالرسول صلى الله عليه وسلم كل يلقي عمله عند الله، والذي يستهزئ بالقرآن الله يحاسبه ولا نتدخل فيه، والذي يسب الإسلام في الصحف الصباحية ويستهزئ بالدين في الملاحق الرياضية، فالله سبحانه الحسيب وهناك جنة ونار، أما الشعير شعيرنا، والأرض أرضنا والدنيا دنيانا، فلماذا لا تغضب لدين الله عز وجل كغضبك على هذه الأمور؟ هذا الفارق بيننا وبين الصحابة، فالصحابة غضبوا من أجل (لا إله إلا الله)

ونحن نغضب من أجل الشعير، هم قدموا مهجهم من أجل: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥] ، ونحن قدمنا مهجنا من أجل الماء والطين، فالفارق بيننا واضح.

وأكثر القتلى الآن بل ما سمعنا أن أحداً قتل من أجل لا إله إلا الله! من أجل هذه الكلمة قتل من الأنصار (٨٠%).

وهذا حنظلة الذي غسلته الملائكة -أنا لا أريد أن أذكر أباه لأنه فاسق مجرم- أتى من مكة يحرض ابنه على الارتداد عن الدين، فأخذ ابنه كفاً من التراب ولطخ به وجه أبيه وقال: اخرج يا فاسق!

لم يعد أباً له بل انقطعت هذه الأبوة وانقطع هذا النسل، الدم الضال انقطع، العرق الأثم المشنوم انفصل، أصبح حنظلة شيئاً آخر؛ فقد ربه محمد صلى الله عليه وسلم في المسجد، تزوج حنظلة وعمره عشرون وقيل أقل، بنى بزوجه وفي الصباح سمع الهتاف الخالد في أحد والملائكة تنزل، وكان أبو سفيان يحشد الكفر ليجتاح عاصمة الإسلام، يخرج الرسول ويعلن الحرب على أبي سفيان من على المنبر، فسمع حنظلة الصباح.

وقاتلت معنا الأملاك في أحد تحت العجاجة ما حادوا وما انكشفوا

فخرج وهو لم يغتسل من الجنابة، لبس ثيابه لأن الأمر أسرع، كيف يغتسل والرسول أصبح يقود المعركة؟! الدقيقة تؤخر، فالرءوس أصبحت تقطع في سبيل الله، فأخذ سيفه بدون غمد، وذهب سريعاً إلى أحد، فقاتل وقتل قبل صلاة الظهر، والتفت عليه الصلاة والسلام إلى السماء فأشاح بوجهه وقال: {والذي نفسي بيده! لقد

رأيت حنظلة بين السماء والأرض تغسله الملائكة بماء المزن في صحاف الذهب، سلوا أهله لِمَ تغسله الملائكة؟ قالت امرأته: خرج جنباً ولم يغتسل! فغسلته الملائكة قبل أن يدخل الجنة.

أملاك ربي بماء المزن قد غسلوا جثمان حنظلة والروح تختطف

وكلم الله من أوس شهيدهم من غير ترجمة زبحت له السجف

وهذا شهيد آخر مات من أجل: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥] أتى في الصباح فلبس أكفانه، فهذا لا يريد خط الرجعة، لأن الذي يلبس أكفانه هذا لا يريد أن يعود مرة ثانية، ترك ثيابه في البيت ولبس أكفانه وتطيب واغتسل وأخذ السيف؛ لأنه رأى في المنام أنه أول قتيل في المعركة، فلما حضر المعركة قال: [[اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى]] فقتل، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: {والذي نفسي بيده! ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعته} وهو عبد الله بن عمرو الأنصاري والد جابر، ف جابر هذا حافظ الحديث ولد هذا الذي قتل، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: {يا جابر! والذي نفسي بيده لقد كلم الله أباك كفاحاً بلا ترجمان -مباشرة- فقال: تمن، قال: أتمنى أن تعيدني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، قال: إني كتبت على نفسي أنهم إليها لا يرجعون، فتمن، قال: أتمنى أن ترضى عني فيني قد رضيت عنك، قال: فيني قد أحللت عليك رضواني لا أسخط عليك أبداً} فهؤلاء هم الشهداء، وهذا هو موكب الأمة، وهو جيل محمد صلى الله عليه وسلم.

فتجد الآن أعداء الله يقدمون من التضحيات أكثر مما يقدم أولياء الله عز وجل، كم قتل من العرب من أجل البعث! وكم قتل من العرب من أجل مذهب ماركس؟

ألوف مؤلفة من أجل أن يبقى مذهب لينين - "لا إله والحياة مادة" - في الأرض،
والوطنيون حزب الطليعة والصاعقة.

ناصريون نصرهم أين ولى يوم داست على الجباه اليهود

ويقول الآخر:

وَحَدَوِيُّونَ وَهَذَا يَقُولُ: المظلة العربية الدم العربي الأخوة العربية.

وحديون والبلاد شظايا كل جزء من لحمها أشلاء

ماركسيون والجماهير جوعى فلماذا لا يشبع الفقراء

لو قرأنا التاريخ ما ضاعت القدس وضاعت من قبلها الحمراء

فضل الذكر في القرآن الكريم

إن العودة إلى الله حسنة جميلة ولكنها في رمضان أحسن وأحسن، والتوبة
النصوح واجبة على كل مسلم ومسلمة، لكنها في رمضان أوجب وأوجب، وهنيئاً لمن تاب
في هذا الشهر وعاد إلى الله، وراجع حسابه مع ربه وعلم أنه سوف يلقاه.

وأزف لكم بشرى أن كثيراً من شباب الإسلام في هذه الأيام المنصرمة من أول
رمضان قد عادوا إلى الله وأعلنوا توبتهم وراجعوا حسابهم مع الله، والله يقول لهم في
محكم كتابه: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِدُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل
عمران: ١٣٥] قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الدُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: ٥٣].

كان منبر الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث درجات من خشب وفي رمضان {رقى عليه الصلاة والسلام المنبر في المدينة، رقى الدرجة الأولى، فقال: آمين، ثم رقى الثانية، فقال: آمين، ثم رقى الثالثة، فقال: آمين.

قالوا: يا رسول الله! ما معنى آمين؟ قال: جاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد! رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل عليك، قلت: آمين، ثم قال لي: يا محمد! رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة، قل: آمين، قال: قلت: آمين.

ثم قال لي: يا محمد! رغم أنف من دخل عليه رمضان وخرج ولم يغفر له، قل: آمين، فقلت: آمين! رغم أنفه، أي: ألصق بالرغام، والرغام هو دقيق التراب، أي: خسئ وخاب وخسر وبعد عن الله عز وجل يوم أدركته هذه الفرصة الذهبية الهائلة، التي لا تتكرر إلا قليلاً، ثم فوتها وضعيها.

إخوتي في الله: أعظم درس في رمضان أن يتوب العبد مع أهله وأسرته وبيته، ويعيش عيشة إسلامية، والذين لم يهتدوا إلى الطريق فإنهم مساكين، وكذلك الذين ما عرفوا ذكر الله، ولا كتابه ولا الطريق إليه.

من هنا كان حقاً على المسلم أن يذكر إخوانه في هذا الشهر بدرس عظيم، طالما ذكّر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو درس الذكر: ذكر الله تبارك وتعالى.

أما فضل الذكر فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية في المجلد العاشر من فتاويه: أفضل العبادات بعد الفرائض الذكر، وهو شبه إجماع بين أهل العلم.

شبه إجماع أن أفضل النوافل بعد الفرائض ذكر الله تبارك وتعالى، ولكن ننصت نحن وإياكم إلى قضايا لننفذ إلى مسائل.

طريقان موصلتان إلى رضوان الله تبارك وتعالى: طريقة الفكر، وطريقة الذكر.

التفكر في آلائه ونعمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والذكر لأسمائه وصفاته وذكره الشرعي، قال سبحانه: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

الصالحون إذا اجتمعوا ذكروا الله، والفجرة إذا اجتمعوا تذكروا ما يقرهم من الشيطان، ذكر الصالحين تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل، وذكر المعرضين غناء ومجون وسفه وغيبة ونميمة وفحش.

يقول الأول:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ونترك الذكر أحياناً فننتكس

يقول: يا رب! قلوبنا إذا مرضت تداوت بذكرك فصحت، أما قلوب اللاعنين فتمرض من كثرة اللغو فلا تحيا ولا تصح أبداً.

قال سبحانه: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨] والقلوب مهما علقها بلذائذ الدنيا فلن تطمئن أبداً، تعلق بعض الناس بالمناصب، وبعضهم بالقصور، وبعضهم بالأموال، وبعضهم بالأولاد، ولكن لم تصح قلوبهم ولا طابت، وما انشروحت صدورهم أبداً؛ لأن الله يقول: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا

فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) [طه: ١٢٤ - ١٢٦] ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

علماء الغرب يعرفون الله

اسمعوا إلى كلام أساطينهم وعلمائهم الذين وصلوا إلى درجة من العلم، فدلهم
هذا العلم على الله، ولكن ما وجدوا من يخبرهم بالإسلام، ولا من يوصل لهم الإيمان.

كما يقول كريسي موريسون في كتابه: (الإنسان لا يقوم وحده):

يا أبناء لا إله إلا الله! قدمنا لكم الثلجة والبرادة والطائرة والصاروخ، وما قدمتم
لنا الإيمان.

وهذا أستاذ الفلسفة في جامعة هارفارد، اسمه وليم جيمس يقول:

إن أعظم دواء للقلق أدركته ولا شك هو الإيمان، لكن نقول له: لو ذقت أنت
حلاوة الإيمان التي نعيشها نحن، لأمنت ولصدقت ولرأيت السعادة والنور، عنده حد
وقدر نسبي من الإيمان والتصديق فكيف لورأى الإيمان، ما كان ينبغي أن تفتح
مستشفيات لمرضى النفس، ولا أرق ولا هموم ولا غموم، لكن لما انحرف الجيل عن
المسجد والقرآن والذكر والأوراد وعبادة الواحد الديان، امتلأت المستشفيات النفسية
بالمريض، بمرض القلق والأرق والتشنج، فحلنا وقضيتنا وعلاجنا ودواؤنا الإيمان.

يهددنا الناس والعالم بالبحث المباشر، وكثير من الناس يرد منهم حلولاً، منهم من
يقول: بتطوير شاشتنا لترد على شاشاتهم، ومنهم من يقول: بالتشويش على رادارهم
وهذا لا يستطيع، ولكن نحن نقول: نملاً قلوب جيلنا وأمتنا بالإيمان فإذا تحصنا
بالإيمان فلن يغلبونا أبداً.

لا تحدثني عن البث المباشر والعريسات وأقمار المقامر

أنا بثي دعوة قدسية تطفئ الشمس وتخزي كل كافر

والمذيعون علي والبرا وأبو بكر وعمار بن ياسر

ويقول الفيلسوف فرنسيس بيكون، وهو مشهور، وهو الذي ترجم له الزركلي في الأعلام وغيره يقول:

إن قليلاً من العلم قد يبعدك عن الله وكثيره يقربك من الله.

وهذا القرآن يصدقه، والحكمة ضالة المؤمن، يقول: أنا ببحوثي واكتشافاتي دلي العلم على الله، {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨] لكن ربما تعرض لي سائل يقول: الواقع يكذب نظرية بيكون لأننا نجد من يحمل الماجستير والدكتوراه والشهادات العالية، ولا يصلي في المسجد ويهجر القرآن، ويفجر ويتناول المسكر، فأبي نظرية صادقة.

نقول: نحن نتحدث عن علم القلوب لا عن علم الجيوب، ونتحدث عن علم القبر لا عن علم القدر، لأن هناك علماً اسمه علم القبر وهناك علم القدر.

فعلم القبر الذي يدل على الله، قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد: ١٩] وقال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٩] وقال تعالى: {يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: ١١] وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ} [الروم: ٥٦].

فهذا العلم هو الذي يرفعك ويقربك إلى الله، أما علم البطن والفرج والجيب والمرتب، فهو الذي أنتجته شهادات مزورة، قال تعالى: {وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْمُرْسِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦] وهذا علم لا ينفع صاحبه وهو ردى وعمى عليه.

وهذا مثل ما حصل لسخروف، قبل أن يموت، فقد نشرت الشرق الأوسط قبل موته بشهر في موسكو مقالته عن الإيمان، وهي وثيقة تشهد الله على أنفسهم أنهم يعلمون أن لا إله إلا الله في أنفسهم.

ويقول هنري كورد صاحب شركة عالمية أمريكية: أعتقد أن الله تعالى لم يتخل عني في تلك الفتريات من حياتي، فكان يساعدي على تصريف أموري، ولولا الله لانهارت أموري.

وقد ذكر الله هذا في القرآن، قال تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [العنكبوت: ٦٥] إذا تقطعت بهم الحيل والأزمات واشتد الحبل؛ عادوا إلى الله ورجعوا إليه.

ويقول الطبيب النفساني كريميونت في كتابه: الرجل الحديث يبحث عن الروح:

جاءنا كثير من المرضى من الشعوب المتحضرة، وأكثر المرضى في القلوب من الشعوب المتحضرة، أهل القرى قليل مرضهم، المعقدون صناعياً هم أكثر الناس مرضاً؛ لأن علمهم ما دلهم على الله، قال: وكلما وجدت مشكلة وجدت أصلاً؛

افتقارهم إلى الإيمان بالله العظيم الكريم، ليتهم يؤمنون، قال تعالى: {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الانشقاق: ٢٠].

شبابنا في قضية الإيمان متروك في أن يقدم أو يحجم، قال تعالى: {أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا} [النور: ٥٠] أم كأن الرسالة ارتابت في أذهانهم، أم كأن الأغنية المأجنة خير من التلاوة السعيدة، والمجلة الساقطة أحسن من الكتاب الإسلامي، والجلسة الحمراء خير من مجالس العلم، أم هداية استالين أعظم من هداية محمد عليه الصلاة والسلام، أم النار خير من الجنة، فما لهم لا يدركون هذا ويتفكرون.

ويقول المهاتما غاندي، وما أدراك ما غاندي! إنه عدونا، قتل مليون مسلم وتسبب في عقم مليون امرأة مسلمة في الهند، وهو يقدس في بعض بلاد العلمنة التي لا تعرف المناهج الربانية، يقول: بغير الصلاة كان يتحتم عليّ أن أصبح معتوهاً أبلة منذ مدة طويلة.

وهذا مع أن صلاته خاطئة، فكيف لو عرف صلاتنا؟!

كيف لو ذاق سجودنا؟!

كيف لو عرف مساجدنا؟!

كيف لو عاش هذه اللحظات الإيمانية؟!

لكن يعطيهم الله بقدر هذه المعرفة القلبية ما يؤنسهم، وهذا جزاء الكافر إذا ركن إلى غير الله في الحياة، فجزاؤه وقته في الدنيا ولكن لا ثواب له عند الله.

ويقول ألكسس كاريل صاحب كتاب الإنسان ذلك المجهول وأنصح بقراءة هذا الكتاب، وقد نقل عنه سيد في كتاب الظلال أكثر كتابه هذا، نثره في الظلال من أوله إلى آخره، يقول:

لعل الصلاة من أعظم الموارد الحرارية للإنسان، إنها كمعدن الراديوم مصدر للإشعاع، ومولد ذاتي للنشاط.

عمر والهرمزان

ناطح عمر دولة فارس الكافرة، يريد إسقاطها وأسقطها الله، وقد أسقطها الله بيد عمر.

رمى بك الله جنبها فحطمها ولو رمى بك غير الله لم يصب

أرسل جيشاً عرمرماً هناك، وحاصرها من كل جهة، يريد إسقاطها، وبعد أن أسقطت أرسل أهل فارس مفوضاً ومندوباً اسمه الهرمزان يتكلم مع عمر في الأسارى وفي شئون المفقودين واللاجئين والفقراء، وهذا الهرمزان كان من أعيانهم، كان من وزراءهم كان ذكياً، وأصابه الله بالرعب؛ لأنه يريد أن يتكلم مع عمر، وهو يسمع صيت عمر يدكدك الدنيا ويهز المعمورة، فكان يتساءل الهرمزان!! كيف يقابل عمر؟ بأي لسان يقابله؟ وكيف يجلس معه؟

وصل إلى المدينة، وكان مع الهرمزان حاشية، وقال أهل العلم: كان يلبس حيراً وعليه تاج وكان مرصعاً بالديباج في يده، كان كافراً لا يعترف بأحكام الإسلام، فقال للناس وللمسلمين: أين قصر الخليفة؟

قالوا: لا قصر له، قال: دلوني على بيته، قالوا: تعال، فأتوا إلى بيته؛ فإذا هو مبني من طين في طرف المدينة، قال: هذا بيته؟!

قالوا: نعم هذا بيته، فطرق الباب فخرج ابن عمر، قال: أين أبوك؟

قال: خرج وأظنه نائماً في المسجد، التمسّه في المسجد، قال: أليس له حرس؟ قال: لا حرس له، فذهب إلى المسجد والناس حوله ينظرون إلى الديباج والحريّر الذي يلمع مع الشمس، لأن المسلمين ما رأوا تلك الحضارة البراقة، حضارة المادة، حضارة البطون، عرفوا حضارة القلوب، وحضارة الأرواح، ولكن هذا الديباج، وهذا الذهب والحريّر ما رأوه.

فذهبوا إلى المسجد فما وجدوه، فخرجوا معه فوجدوه تحت شجرة قد نام، وعصاه الدرة عند رأسه، وقد توسد ذراعه، فقال الهرمزان: أهذا عمر؟

قالوا: هذا عمر.

قال: أهذا الخليفة؟

أهذا الذي أسقط دولة فارس؟

قالوا: هذا الذي أسقط دولة فارس، فقال وهو ينتفض: "حكمت فعدلت فأمنت فنمت".

مواقف من الذين أنعم الله عليهم

المنعم عليهم هم الذين أنعم الله عليهم بالهداية لا بالمال، والنعمة في القرآن قسمان: نعمة ونعمة.

فالنَّعْمَةُ: يشترك فيها المؤمن والكافر، فمثلاً: القصر نعمة يسكنه الخواجة والمسلم، والسيارة يركبها الخواجة والمسلم، الثوب يلبسه هذا وهذا! التفاح يأكله هذا وهذا، فهي دنيا يعطيها الله من يشاء، أما الإيمان فلا يعطيه الله إلا من يحب.

دخل عمر رضي الله عنه وأرضاه حظيرة فيها إبل الصدقة، وإذا بإبل الصدقة كأنها الجوخ الأحمر من النعمة والسمن وضخامة الأجسام، فقال مولاه أسلم: صدق الله: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨] قال عمر: [[كذبت قاتلك الله! ليست هذه الرحمة، فضل الله أن تعمل بنور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تكف عن المعصية على نور من الله تخاف عقاب الله]] أو كما قال، هذه هي النعمة.

ليست السعادة في جمع الأموال، وسكن الدور، ورفع القصور، وأخذ المرطبات والمشهيات والأكلات والسيارات، لا والله!!

خذوا كل دنياكم واتركوا فؤادي حراً طليقا غريبا

فإني أعظمكم ثروة وإن خلتُموني وحيداً سليبا

قال معاوية بن أبي سفيان لأحد العباد: [[تدري ما هي السعادة؟ قال: لا، قال: رجل لا يعرفنا ولا نعرفه، أحسن عبادة ربه، له زوجة تطيعه، وله دابة تحمله، وله بيت يسكن فيه]].

وقال معاوية: [[أكلت كل لذيت، وشربت كل مشروب -يعني من الحلال- ولبست كل لباس فما وجدت كالتقوى]].

وقيل لـ هارون الرشيد وقيل غيره: كيف وجدت الحياة؟ قال: وجدت بها كبيت له بابان، دخلت من هذا وخرجت من هذا، وقيل للإمام أحمد: كيف وجدت الشباب؟ قال: والله ما وصفت الشباب إلا بثيء كان في كمي ثم سقط مني.

وذكروا عن عابد من بني إسرائيل أنه عبد الله أربعين سنة، لا يفتر من صلاة ولا ذكر ولا دعاء، ثم أتاه زيغ من الشيطان فأنحرف، فبقي في المعصية أربعين سنة، ثم نظر إلى صورته في المرأة فإذا هو قد أصبح شيبة كبيراً في السن؛ فصاح وقال: يا رب عبدتك أربعين، وعصيتك أربعين، هل إذا عدت إليك تقبلني؟ فناداه الله: أطعنا فقربناك، وعصيتنا فأمهلناك، فإذا عدت إلينا أحبيناك، فقال: أشهدك يا رب إنني عدت إليك.

إن الملوك إذا شابت عبيدهم في رقهم عتقوهم عتق أبرار

وأنت يا خالقي أولى بذنا كرما قد شبت في الرق فاعتقني من النار

تولى هشام بن عبد الملك الخلافة فأتي له بكل مطعوم ومشروب وملذوذ، كانت الجواري على رأسه، وكان له الخدم والحاشية والوزراء، فقال: والله من يوم أن توليت الخلافة ما مرّ بي يوم وسلمت من الهم والغم فيه، وقرر ذات يوم أن يختفي في حديقة قصره لينظر هل يأتيه خبر يزعجه من الصباح إلى المساء، وبينما هو في البستان إذا بسهم قد أتى وعليه ريش وفيه دم، فرفع السهم والريش وإذا رجل قد قتل وضرب السهم داخل الحديقة، قال: ولا يوم واحد!! -أي: لا أسلم ولو يوماً واحداً- ومن أراد أن يبحث عن هذه الأخبار فليبحث عنها في كتاب التذكرة لـ عبد الحق الإشبيلي ليرى العجب العجائب.

قال إبراهيم بن أدهم: والله لو يعلم الملوك ما نحن فيه من السعادة لجالدونا عليه بالسيوف، أتت سكرات الموت عبد الملك بن مروان، فبكى وأبكى الناس، ونزل فسمع غسلاً يغسل -والغسل في واد حول قصر عبد الملك لا يعلم أن عبد الملك بن مروان مات، ومن أخبره؟ لم يقرأ الصحف ولا سمع الأخبار- والغسل هذا ينشد من راحته واطمئنانه، يعبد الله، له ما يكفيه وليس له هم ولا غم ولا ديون ولا رعية ولا مسئولية، فأخذ يستمر في النشيد، فسمع عبد الملك بن مروان ذلك فقال: يا ليتني كنت غسلاً، قال سعيد بن المسيب لما سمع هذه الكلمة: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا في سكرات الموت ولا نفر إليهم.

وقال المعتصم لما حضرته الوفاة: ذكرها عبد الحق الإشبيلي - أنزلوني من على السرير، هل أموت اليوم؟ قالوا: نعم تموت، ثبت شرعاً أنه يموت، شهد عليه أربعة بالموت، فظن أنه سوف يأتيه خبر قبل أن يموت، قال: أنا شاب أموت اليوم؟! قالوا: نعم تموت، قال: والله لو كنت لو أعلم أنني أموت هذا اليوم ما فعلت ما فعلته من أمور، قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام: ٩٤].

دخل سالم بن عبد الله الحرم، فلقية هشام بن عبد الملك فقال: يا سالم أتريد مالاً؟ أتريد حاجة؟ قال: أما تستحي من الله؟ قال: ولم؟ قال: تقول هذا الكلام وأنا في بيت الله؟ فلما خرج من الحرم عرض له هشام قال: أتريد حاجة؟ قال: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قال: بل من حوائج الدنيا، قال: أما الدنيا فوالله ما سألتها من الذي يملكها فكيف أسألكها منك! ومما يقول محمد إقبال:

ومما زادني شرفاً وفخراً كدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

هذا هو الشرف، أن تكون عبداً لله، لأن الذي لا يكون عبداً لله، يكون عبداً
لوظيفته ومنصبه، وحذائه وسياراته، ودرهمه وديناره.

ذكر ابن كثير أهمية جانب الاعتزاز بالله عز وجل والركون إليه والرضا به
والتشرف بخدمته، يقول: طاوس بن كيسان العالم النحرير، والمحدث الكبير، اليميني،
كان مولئاً من الموالى لكن رفعه الله بالتقوى والعلم والعمل الصالح، يقول: أتيت الحرم
لأعتمر فطفت وصليت ركعتين، ثم جلست عند المقام أنظر إلى المعتمرين والطائفين
والركع السجود، قال: وبينما أنا جالس في المقام، وإذا بجلبة السلاح والحراب
والسيوف والرماح، فالتفت فإذا هو الحجاج بن يوسف!! فقال: فجلس ينتظر معه
خدمه وحواشيه، قال: وإذا بأعرابي أتى من اليمن يطوف وعليه إحرام -وهذا الأعرابي
لا يملك من الدنيا شيئاً، لكنه يملك قلباً فيه توحيد وعمل صالح وذكر وعبادة- فهذا
الأعرابي بعد أن طاف أراد أن يدخل الصفوف، فتعلقت حربة من حراب الحجاج في
قميصه فوقعت على الحجاج، فمسكه الحجاج، قال الحجاج: من أين أنت؟ -
وطاوس يروي القصة- قال: من أهل اليمن -وعرف الأعرابي الحجاج، وظن الحجاج
أنه لم يعرفه- قال: كيف تركت أخي محمداً؟ -أخوه محمد بن يوسف هو ظالم غاشم
مثل الحجاج، لكن أقل منه بدرجة، قال تعالى: {ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكْدِ يَرَاهَا} [النور: ٤٠]- قال: كيف تركت أخي محمداً وأهل اليمن؟ قال: تركته
سميناً بطيناً، -يظن أنه سوف يقول: إنه يقوم الليل ويصوم النهار، قال: لست أسألك
عن صحته لكن أسألك عن عدله؟ قال: تركته غشوماً ظلوماً، قال: أما تدري أنني أنا
الحجاج؟! قال: أنظن أنه يعتز بك أكثر من اعتزاي بالله؟! قال طاوس: والله ما بقيت
شعرة في رأسي إلا قامت من هذه الكلمة، قال: فأطلقه الحجاج ولم يقل له شيئاً،
فبقيت أنظر إليه بين المعتمرين وهو يطوف ويدعو: أي: إن كان أنت أخوه تحميه

وتمنعه وتدافع عنه فـ{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}
[الحج:٣٨].

سلمان رضي الله عنه الباحث عن الحقيقة

يوم أتى سلمان الفارسي يبحث عن النور وعن الطريق إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كان في أرض فارس المجوس عبدة النار، الذين ما أطفأ نارهم إلا محمد صلى الله عليه وسلم.

أم من رمى نار المجوس فأطفئت وأبان وجه الصبح أبيض نيرا

ومن الألى دكوا بعزم أكفهم باب المدينة يوم غزوة خيبر

هذا الرجل كان يسجد للنار من دون الله، والعقل إذا لم يعرف الله ضل، والقلب إذا لم يهتدِ إلى الله عز وجل أصبح قلباً رخيصاً سافلاً حقيراً لا يساوى فلساً واحداً.

فأراد أن يهتدي، ورأى بعض النصارى يقومون بطقوسهم الدينية فذهب إليهم فأعجبه دينهم، لأن دينهم أرفع قليلاً في المستوى من دين المجوسية -وبعض الأديان خير من بعض- فذهب إلى راهب فدلّه ذاك الراهب في قصة طويلة على راهب آخر، والآخر على آخر، وقبل أن يتوفى الراهب قال له سلمان رضي الله عنه وأرضاه: إنني صحبتك ورأيت فيك الخير فإلى من توصي بي؟ هل تعرف في الأرض رجالاً صالحاً توصي بي إليه؟ فقال هذا الراهب: ما أعلم اليوم على الأرض من رجل صالح إلا نبياً سوف يبعثه الله عز وجل، أظلك زمانه -أي: قرب حينه- فإذا سمعت به فالحق به، فهو في أرض ذات حرة سوداء وذات نخل.

وركب سلمان رضي الله عنه وأرضاه مركب التوفيق، يوم سمع الله أكبر يُهتف بها من مكة، يوم يقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] حتى يقول بعض المفكرين: سبحان الله! الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام تعلن عالميتها من مكة وهو لم يكن عنده إلا شيخ واحد هو أبو بكر، ومولى وهو زيد بن حارثة، وامرأة وهي خديجة، وصبي وهو علي! ويقول الله له: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧] ولما سمعها كفار مكة ضحكوا وقالوا: أي رحمة وهم لا يجرؤ أحدهم أن يبول خوفاً من سيوفنا؟! لكن بعد عشرات السنوات أصبحت أعلام لا إله إلا الله على مشارف أسبانيا وعلى ضفاف نهر السند وفي جنوب أفريقيا، سرت هذه الدعوة: لأنها رحمة للعالمين.

فأتى سلمان ونزل في المدينة، وهو لا يريد المال فعنده المال، وأبوه من أغنى أغنياء الدنيا، لكنه يريد الطريق إلى الله، يريد توفيق الله، يريد أن ينقذ نفسه حملها بين جنبه، والرسول عليه الصلاة والسلام يوم أتاه عمه - كما في الحديث الحسن - العباس بن عبد المطلب قال: {يا رسول الله! أريد إمارة - أي: أنه يريد أن يتولى إمارة - لأنك وليت فلاناً وفلاناً.

فقال له: يا عباس! يا عم رسول الله! نفس تنجها ولا إمارة تحصيها}.

أعظم ما يمكن أن تنفع نفسك في الحياة الدنيا أن تنجو من غضب الله ولعنته وسخطه، فوصل سلمان رضي الله عنه وأرضاه إلى المدينة وعرف الحرتين ورأى النخل، وكان يتوقع وصول الهادي عليه الصلاة والسلام ليعرض نفسه على الطبيب؛ لأنه مرض من المشارب، ومن الملل والنحل، ومن الشراكيات والانحراف والتقليد، فلما وصل كان من أعظم العلامات التي أخبر بها سلمان ثلاث علامات في الرسول صلى الله عليه وسلم:

أولها: أنه لا يقبل الصدقة ويقبل الهدية، انظر إلى هذه النفس التواقة الشريفة، نفس مرتفعة، الصدقة هي أوساخ الناس، وهي تطهير لأموال الناس وأعراضهم، فما قبلها ولا يقبلها عليه الصلاة والسلام، وفي صحيح البخاري أنه رأى عليه الصلاة والسلام الحسن بن علي -ابن بنته فاطمة- يأكل ثمرة من تمر الصدقة فقال له: {كخ كخ} أي: اتركها -أما تعلم أنه لا تحل لنا الصدقة؟- طفل صغير يريد أن يربيه على الحلال فيقول له: كخ كخ، هذا لا ينبغي لنا، نحن بيت نربي على طاعة الله وعلى الحلال الصريف، فمن مواصفاته عليه الصلاة والسلام أنه لا يقبل الصدقة ويقبل الهدية.

ثانيها: أن بين كتفيه خاتم النبوة عليه الصلاة والسلام، فأتى سلمان رضي الله عنه وأرضاه وذهب إلى النخل وأتى بشيء من الرطب وتقدم به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في أصحابه، فقال: هذه صدقة أتصدق بها عليكم، فكف صلى الله عليه وسلم يده وأكل أصحابه، وفي اليوم الثاني أتى برطب فقدمه وقال: هذه هدية أهديها لكم؛ فأكل عليه الصلاة والسلام.

وذهب صلى الله عليه وسلم يشيع جنازة فرأى سلمان خاتم النبوة بين كتفيه، فجعل يقبل ذلك الخاتم وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبعد أيام ليست بطويلة يقول عليه الصلاة والسلام: {سلمان منا آل البيت} أصبح ذلك المولى الفارسي الفقير المسكين من بني هاشم بالتقوى، والزهد، والعبادة، والإقبال على الله!

جلس سلمان رضي الله عنه وأرضاه -بعد أن عرف الطريق إلى الله- مع قوم من العرب، فقالوا لبعضهم: انتسبوا.

فيقول الأول: أنا تميمي، ويقول الآخر: أنا غطفاني، ويقول ذاك: أنا فزاري، فقالوا لـ سلمان: وأنت ممن أنت؟ فقال:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وهذا هو الفخر العظيم لسلطان رضي الله عنه وأرضاه.

وبقيت حياته على وتيرة من الزهد والصدق والعفاف، ويوم تولى عمر رضي الله عنه وأرضاه كان لا يعرف الرجال بالطول ولا بالعرض، ولا يعرفهم بالأسر ولا بالمناصب، بل يعرفهم بتقوى الله، حتى إنه يقول لبعض الأمراء: تول ولاية كذا وكذا.

فيقول: اعفني يا أمير المؤمنين! قال: والله لتتولينها فإني رأيتك في الليل تصلي وتبكي ولا يراك إلا الله.

هذه هي المؤهلات عند عمر بن الخطاب، وكان رضي الله عنه وأرضاه يحاسب أمراء وهو في عرفات، يحاسب أمراء الأقاليم على الدنيا فكان يقول: يا أيها الناس! والله ما بعثتكم لضرب أبشار الناس ولا أجسادهم، وإنما بعثتكم رحمة للناس.

يا من يرى عمراً تكسوه بردته والزيت آدم له والكوخ مأواه

يهتز كسرى على كرسیه فرقاً من خوفه وملوك الروم تخشاه

وهذه فعلها واحد من أحفاده وهو عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، جلس في الأيام الأولى من خلافته في السراشق-الإيوان أو الديوان- فأتى الناس وفوداً يسلمون عليه ويخرجون من الباب الآخر، فدخل ثلاثة شباب في عنقوان الصبا وفي زهرة الفتوة فجلسوا على الكراسي؛ فالتفت إليهم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الزاهد فقال: أبناء من أنتم؟ قال الأول: أنا ابن الوالي الذي كان والياً لعبد الملك بن مروان على البصرة؛ فسكت عمر بن عبد العزيز؛ لأن هذه لا تذهب عنده كثيراً، وقال للثاني: وأنت ابن من؟ قال: أنا ابن أحد قواد الجيش الذين كانوا مع الوليد بن عبد الملك؛ فسكت،

وقال للثالث: وأنت ابن مَنْ؟ وهو ابن قتادة بن النعمان الأنصاري ، الذي ضربت عينه يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسالت على خده فردها صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة قال الفقي:

أنا ابن الذي سألت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد

فبكي عمر بن عبد العزيز والتفت إليه وقال:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالأ

يقول: من أراد أن يفتخر فليفتخر بمثلك؛ لأن فخرك بالإسلام، وبالخدمة وبالجهاد في سبيل الله، وبرفعة لا إله إلا الله.

معاذ وسؤاله العظيم للنبي صلى الله عليه وسلم

جاء عند الترمذي بسند حسن والحديث بمجموع طرقه يصل إلى درجة الصحيح- عن معاذ رضي الله وأرضاه، وهو الداعية الكبير، قدوة كل شاب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، معاذ الذي كان له المنصب العالي في حياته عليه الصلاة والسلام، والذي أرسله صلى الله عليه وسلم داعية إلى أهل اليمن فهدى الله به الأرواح، ويوم ودع الرسول عليه الصلاة والسلام ذاهباً إلى اليمن بكى، وهذه القصة أوردها الذهبي في سير أعلام النبلاء في ترجمة معاذ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: {ما لك تبكي يا معاذ؟ قال: يا رسول الله أبكي لفراقك.

قال: لا تجزع فإن الجزع من الشيطان، يا معاذ! اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن، يا معاذ! اذكر الله عز وجل عند كل شجر وحجر ومدر.

يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدننت راحلي من راحلته.

أي: اقترب منه وهم في السفر، فخلاله الجو بسيد الخلق عليه الصلاة والسلام، وتصور أنت في نفسك أنك في جمع عظيم، وفي جيش عرمرم جرار، وفي ألوف مؤلفة من الناس، ثم تخلو برسول الهدى صلى الله عليه وسلم في الطريق أنت وهو! فلما خلا معاذ رضي الله عنه وأرضاه برسول الهدى صلى الله عليه وسلم أراد أن يسأله أعظم سؤال، ومن أعظم الأسئلة في تاريخ الإنسان، وأهل الدنيا يسألون للدنيا، وأهل الجاه يسألون للجاه: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ} * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: ١٥ - ١٦].

اقترب معاذ من الرسول صلى الله عليه وسلم، ودنا منه الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخذها فرصة ثمينة غالية، وكان بإمكانه أن يسأله الإمارة، أو أن يؤتیه منصباً أو أن يمنحه مالاً، لكنه رفض ذلك كله، وما سأله إلا عن سؤال عظيم في الآخرة؛ لأن الناس أتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فممنهم من سأله المال فأعطاه صلى الله عليه وسلم المال، وممنهم من سأله المنصب فأعطاه المنصب، وممنهم من سأله أعراضاً أخرى فأعطاهم عليه الصلاة والسلام: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ

عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا [الإسراء: ٢٠ - ٢١].

خذوا كل دنياكم واتركوا فؤادي حراً طليقاً غريباً

فإني أعظمكم ثروة وإن خلتُموني وحيداً سليباً

عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يوزع غنائم حنين ، وكانت -كما يقول أهل السير- أربعة وعشرين ألف رأس من الغنم، وسبعة آلاف رأس من الإبل غير البقر والذهب والفضة، فما سألَه أبو بكر ولا عمر ولا معاذ ولا أبو هريرة ولا أبي إنما أتى الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام يسألون، لا زالت قلوبهم فارغة من التوحيد ومن الإيمان ومن الذكر ومن العمل الصالح.

أتى حكيم بن حزام فقال: يا رسول الله! أعطني.

فقال: أترى الغنم التي بين الجبلين؟ قال: نعم.

قال: هي لك، فأخذها.

وأتى في اليوم الثاني فقال: يا رسول الله! أعطني.

قال: خذ، فأعطاه مائة ناقة.

وفي اليوم الثالث ظنها فرصة ويظن أنها لفضله، فجاء وقال: أعطني يا رسول الله! فأعطاه مائة ناقة، وفي اليوم الرابع قال: أعطني يا رسول الله! وكان من أغنى أغنياء

مكة، يكسو الكعبة سنة وأهل مكة يكسونها سنة! فالتفت إليه صلى الله عليه وسلم وقال: يا حكيم! إن هذا المال حلوة خضرة، واليد العليا خير من اليد السفلى.

فقال: والله يا رسول الله! لا أرزأ بعدك أحداً من الناس.

أو كما قال.

أي: لا أطلب مالاً أنقصه على أحد من الناس بعدك، حتى عطاؤه ما كان يسأله من أحد من الخلفاء، فكان أبو بكر يعطيه العطاء فيقول: لا، وكان عمر يعطيه فيقول: لا، فيقول عمر رضي الله عنه: أشهدكم أيها الناس أن حكيماً دفعت له عطاءه فأبى ذاك العطاء.

فالمقصود أنه أتى معاذ وهو من العلماء النبلاء، وفي حديث سنده حسن أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: {معاذ قائد العلماء يوم القيامة برتوة} وفي لفظ: {يدخل أمام العلماء يوم القيامة برتوة} والرتوة رمية الحجر، أي أن علماء الأمة الإسلامية إذا اجتمعوا يوم العرض الأكبر، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، يكون قائدهم معاذ رضي الله عنه وأرضاه، يمضي قبلهم حتى يدخل الجنة.

قال معاذ: {يا رسول الله! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار - لا فض فوك، ما أحسن هذا المقال! وما أحسن هذا السؤال! - فقال عليه الصلاة والسلام: لقد سألت عن عظيم} هذا السؤال من أعظم الأسئلة في تاريخ الإنسان؛ ولذلك جعل أهل العلم هذا الحديث من أصول أحاديث الأعمال، وأتى به النووي في الأربعين النووية، وتكلف كثير من العلماء في شرحه، وقاموا بتوضيحه للناس وهو وصية أهديها لنفسي وإليكم جميعاً.

قال: {لقد سألت عن عظيم! وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت} هذا هو الإسلام، هذا السطر هو مفهوم رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم، ليس فيه ألغاز ولا مشكلات ولا تصفيف كلام {تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت} ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة -أي: وقاية من العذاب ومن النار والعار والدمار- والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم تلا عليه الصلاة والسلام {تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة: ١٦] حتى بلغ {يَعْمَلُونَ} [السجدة: ١٧] ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: فأخذ صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه ثم قال: كف عليك هذا.

قلت: يا نبي الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ! -أي: فقدتك أمك لا تفهم هذه المسألة، وهو دعاء عند العرب لا يراد منه إمضاء هذا الدعاء ولا إيقاع هذا الدعاء بالمدعو عليه- وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم} -وفي لفظ آخر: {وهل يكب الناس في النار على مناخرهم أو على أنوفهم إلا حصائد ألسنتهم}.

هذا السائل عن طريق الجنة أجابه الرسول عليه الصلاة والسلام بهذه الإجابة، والطريق إلى الله عز وجل يكمن في هذا الحديث {تعبد الله لا تشرك به شيئاً} ولذلك كان يوصي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس.

جود ابن المبارك رحمه الله

كان ابن المبارك إذا أراد أن يحج اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون: نصحبك، فيقول: هاتوا نفقاتكم، فيجمعون نفقاتهم جميعاً، هذا عنده مائة درهم، وهذا مائتا درهم، وهذا ثلاثمائة درهم، فيأخذها في صرة ويكتب اسم صاحبها على الصرة، ثم يضعها في غرفة، فيظن الحاج أنه يحج بنفقته، فإذا حج بهم أطعمهم وسقاهم وكساهم وتنقل بهم، فإذا انتهوا من الحج ذهب بهم إلى المدينة، فإذا زاروا المسجد وسلموا على الرسول عليه الصلاة والسلام سأل كل واحدٍ عن حاجته، لأنه كان غنياً من أغنياء العالم الإسلامي في عهده، والإسلام لا يعترف بالدروشة، أن تضيع المال وتقول: الزهد الزهد؛ كلنا فانون رائحون! لا.

بل يعترف أن تكون غنياً تخاف الله، تملك المال وتصرفه في مصارفه.

كان عنده مئات الألوف من الدراهم، حتى لامه العلماء، مثل سفيان الثوري وإسماعيل بن علية والفضيل بن عياض لاشتغاله بالتجارة، فقال: [[والله لولاكم ما اشتغلت بالتجارة]] لأنه ينفق عليهم كل سنة.

ولذلك كان يعطي سفيان الثوري عشرة آلاف درهم كل سنة، ويعطي الفضيل مثله، نفقاتهم كلها من عند ابن المبارك.

المقصود: فلما انتهوا من الزيارة قال: أحد منكم يريد هدية لأهله؟ فيشتري لهم، ثم يرحل فإذا وصل إلى خراسان، دعا أهل خراسان في وليمة عامة مع الحجاج ومع ذويهم وأهاليهم وضييفهم، ثم دعا الحجاج ورد لكل نفقته مكتوب اسم صاحب النفقة عليها، قالوا: كيف؟ وأين نفقتنا في الحج؟ قال: أما سمعتم في الحديث أنه يبارك للحاج في نفقته؟ فقد بارك الله لكم في نفقتكم.

حج مرة فوصل إلى الكوفة، يقولون: كان إذا ارتحل كأن موكبه موكب ملك، حتى يقولون: إنه يأخذ الدجاج المشوي على اثني عشر جملاً، وكان يطعم الناس الفالودج، وهي أكلة طرية لو رأيتموها لسال لعاب الواحد منكم، فكيف لو أكلها، قالوا لـأبي يوسف القاضي: الفالودج والبالودج أحسن؟ قال: لا يحكم على غائبين -وهو قاضي الدنيا- لا بد أن أراهما في صحنين ثم أحكم، فقدموهما في صحنين، فأكل من هذا لقمة وأكل من ذاك لقمة، فقال: كلما أدلى هذا بشهادة أدلى هذا بشهادة، حتى صفى الصحنين ثم قال: كلهم سواء في الميزان.

فابن المبارك كان يطعم الناس الفالودج، وكان يسرد الصيام سرداً، وكان يدور ويغرف من القدور المرق للناس في الصحنون.

لما حج ووصل إلى الكوفة، وهو في طريقه يخترق من خراسان يريد مكة، فمر بـ الكوفة فوجد أهل الكوفة في سنة مجدبة، في قحط لا يعلمه إلا الله، بلغ بهم الجوع إلى أن خرجت جارية من بيت إلى مزبلة -قمامة- فأخذت غراباً ميتاً وذهبت به إلى البيت فقال لـغلامه: بالله اذهب واسألها لماذا أخذت الغراب؟ فسألها فقالت: والله مالنا من طعام منذ ثلاث ليال إلا ما يلقي في هذه المزبلة، فلما أخبروا ابن المبارك، بكى وجعل يده على وجهه وقال: الله المستعان! نحن نأكل الفالودج وهم يأكلون الغريان الميتة، قسموا هذه القافلة على أهل الكوفة وعودوا لا حج لنا هذه السنة، فقسموا على أهل الكوفة كل ما على القافلة من البر والزبيب والمأكولات والمطعومات، ورجع بدون حج من الطريق، فلما وصل إلى خراسان ونام أول ليلة.

رأى قائلاً في المنام يقول: حج مبرور، وسعي مشكور، وذنب مغفور -فعسى الله أن يتقبل منا ومنه الحج، فإن هذا من أعظم المقاصد التي قد تكون أعظم من الحج؛ لأن بعض الناس يتنفل بحج وجاره جائع بجانبه، وجاره فقير ولا يجد أكلة، فهذا من فقه

ابن المبارك وعلمه، وهذا من سعة إدراك ابن المبارك - ونريد أن نكرر من تلاميذ الإسلام من مثل ابن المبارك.

كل الخلائق تدعو الله

خرج سليمان عليه السلام - والحديث صحيح - يستسقي بالناس، فمر في الطريق بنملة وإذا هي قد انقلبت على ظهرها ورفعت يديها إلى الحي القيوم فمن أخبر النملة أن الله خلقها؟ من أخبر النملة أن الذي يحيي ويميت ويضر وينفع ويشافي ويعافي هو الله؟ أتدرون ماذا تقول النملة؟

تقول: يا حي يا قيوم! أغثنا برحمتك، فبكى سليمان وقال لقومه: عودوا فقد سقيتم بدعاء غيركم.

النملة تعلم أن لا إله إلا الله وتشتكي ضررها إليه، وهكذا العجماوات والسمكة في البحر والدودة في الطين:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يججده الجاحد

والبقر تشهد أن لا إله إلا الله، وقد ورد عن عيسى عليه السلام أنه مر ببقرة وهي في الولادة وقد اعترض ابنها في بطنها، فأخذت البقرة تنظر إلى السماء تطلب العون من الله، فأنطقها الله الذي أنطق كل شيء، وجعلها الله داعية متكلمة تقول: يا حي يا قيوم! يسر علي!! ثم قالت: يا روح الله! أسألك أن تدعو الله أن يسهل علي، فبكى عيسى ودعا الله فسهل الله عليها.

وكل الكائنات تلتجئ إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى وقد أخبرنا شيخ جليل لا يزال في أيها وهو حي يرزق يقرأ كتاب الله، يقول: سافرت في سفينة في البحر الأحمر، قريباً من باب المنذب الذي يشرف على عدن، فحانت صلاة المغرب وأنا في وسط البحر في السفينة، فقامت أؤذن، فكان هناك ثعبان في البحر كلما قلت: الله أكبر؛ رفع نصفه من البحر واستقام، فإذا انتهيت عاد إلى الماء، فإذا قلت: الله أكبر؛ عاد من جديد واستقام، فإذا سكنت عاد، فما قلت كلمة ولا جملة من الأذان إلا رفع جسمه ثم نزل بعد أن سكنت.

من علمه؟

إنه الله لا إله إلا هو.

يا طبيب! يا من عنده العلاجات! يا حامل الأدوية!

قل للطبيب تخطفته يد الردى من يا طبيب بطبه أرداكا

يا طبيب! من الذي أرداك وقتلك وأماتك؟

من فضائل الدعاء: أنه هو العبادة

يوم ترى العبد كثير الدعاء اعلم أنه عابد، يوم تراه متصلاً بالله اعلم أنه قوي الإرادة.

نظرت إلى فيلم مع بعض الإخوة للمجاهدين الأفغان في منطقة ترخم، وقد رفعوا أيديهم قبل القصف المسلح وهم يحملون الكلاشنكوف فبكينا جميعاً.

من أين يأتي المدد؟ أخذوا المدد من الله، لا من هيئة الأمم، ولا من مجلس الأمن، ولا من موسكو، ولا من واشنطن، ولكن {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٦٠] النصر من السماء، كان الصحابة إذا حضروا طلبوا من الله أن ينصرهم فينصرهم سبحانه.

فقبل المعركة لهم دعاء، واتصال بالله.

وقف حبيبنا ورسولنا ومعلمنا صلى الله عليه وسلم في معركة بدر يدعو إلى الفجر حتى سقطت برذته من على كتفيه.

يقول سبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦] إذا قالوا لك: أين الله؟ هل هو قريب أو بعيد؟

إذا سألك العباد عن قدرة ربك، وعن سمعه وعلمه، فقل: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦] ولم يقل: فقل لهم إني قريب، قال أهل المفسرين: ترك الفصل لشدة الوصل، ولم يقل: فقل لهم: إني قريب.

لأن في هذا فصل، وإنما قال: إني قريب، ترك الفصل لشدة الوصل ولا اتصال الكلام {أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦] وسبب نزول هذه الآية أن الصحابة أتوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنهم حديثو عهد بالجاهلية التي كانت تجعل الإنسان يعبد الوثن واللبن والتمر والحجر والمدر، فجعلهم عليه الصلاة والسلام يعبدون الله، جعلهم أمة ربانية تتصل بالله، بينها وبين الله جسور، أمة ليس بينها وبين الله واسطة إلا في التبليغ عن طريق محمد عليه الصلاة والسلام.

قالوا: {يا رسول الله أربنا قريب فننأجيه أم بعيد فنناديه؟}.

يقولون: يا رسول الله! أخبرنا وأفتنا أربنا قريب يسمع فنتكلم بصوت خافت أم هو بعيد فنرفع أصواتنا؟ ولذلك يقول ابن مسعود: [[كنت متسترأ في لباس الكعبة فمر بي مشركان كثيرة شحم بطونهما، قليل فقه قلوبهما، فسمعت الآخر يقول: أيسمعنا رب محمد إذا تكلمنا؟ فيقول أخوه التيس الأعشى الذي هو غبي مثله قال: إذا رفعنا سمعنا، وإذا خفضنا لا يسمعنا.

فيقول: خفض صوتك]].

وبالمناسبة كان هناك رجلان مشركان، وقد أسلما فيما بعد، جلسا تحت ميزاب الكعبة والرسول -عليه الصلاة والسلام- في المدينة وكما قيل: أين مناخ العيس من حلب.

لا هاتف، ولا فاكس، ولا اتصال، ولا برقيات ولا شيء، أمة صحراء، الجمل يأخذ من المدينة إلى مكة عشرة أيام، فقال صفوان بن أمية لعمير بن وهب: ما رأيك يا عمير في محمد قتل آباءنا وإخواننا وأعمامنا في بدر؟ ما رأيك لو قتلته؟ قال عمير بن وهب:

أريد أن أقتله لكن من يقوم بأطفالي وأهلي؟ قال: أنا أقوم بأطفالك وأهلك، الهدم هدمي والدم دمي والحياة حياتي والموت موتي.

فأخذ عمير سيفه فسمه حتى أصبح السيف أزرق، فذهب إلى المدينة يريد أن يقتل محمداً عليه الصلاة والسلام ولم يدر أن الله قال: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: ٦٧].

عناية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عالٍ من الأطم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم

وصل عمير إلى المدينة يريد تنفيذ خطة من أبشع خطط البشر، فوصل إلى المسجد فرآه عمر، فقام عمر وهو مجرد من السلاح وذاك عنده السيف، فأخذه عمر بسيفه وثيابه ومماسكه وقاده كما يقود التيس، حتى أدخله على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد.

فقال عليه الصلاة والسلام: يا عمير! ماذا جاء بك؟

قال: جئت أفادي أسرانا في بدر.

قال: بل كذبت! جلست أنت وصفوان تحت ميزاب الكعبة، فقال لك صفوان: كذا، وقلت له: كذا وكذا وجئت لتقتلني، وما كان الله ليسلطك علي.

قال عمير بن وهب: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله.

من الذي علمه؟ من هو القريب؟

قالوا: {أربنا قريب فنناجيه أو بعيد فنناديه؟ فسكت عليه الصلاة والسلام فأنزل الله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦].

البراء بن مالك لو أقسم على الله لأبره

من هو البراء بن مالك؟

إنه صحابي جليل، كان من أفرس الصحابة، وكان أسداً يفترس الرجال مثلما يفترس الأسد الماعز!! دخل عليه أخوه أنس وإذا البراء في بيت من بيوت الأنصار وإذا به يرفع صوته بنشيدة إسلامية، وضع رجلاً على رجل وهو ينشد مرتاحاً بعد صلاة الظهر قال له أخوه أنس: أنت صحابي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنشد؟! قال: اسكت يا أنس! والله لقد قتلت مائة فارس مبارزة ولا أموت إلا شهيداً.

لماذا يحلف؟ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام، قال: {رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك} كان يحلف على الله ويستجيب له حلفه.

حضرُوا في معركة تستر والمسلمون مع أبي موسى الأشعري فلما حضرت المعركة وبدأت ساعة الصفر، قالوا: يا براء! نسألك بالله أن تقسم على الله أن ينصرنا.

قال: انتظروني قليلاً.

فاغتسل ولبس أكفانه وأتى بالسيف، وقال: اللهم إني أقسم عليك أن تجعلني أول قتيل وأن تنصرنا.

فكان أول قتيل وانتصر المسلمون.

إن هذه الأمة ربانية؛ لأنها اتصلت بالله، ولقد تكرر مجدها مع كل وقت وحين، ولذلك أنتم ترون المجاهدين وتسمعون من أخبارهم وعجائبهم ما يرفع إيمانكم إن شاء الله، يقفون ويكبرون ثم يطلقون الرصاص من السلاح العادي الكلاشنكوف فتسقط الطائرات سبحانه الله! يضعون عتادهم على الحمير، ويسحقون الدبابات الروسية كل ذلك بسبب دعاء الأولياء.

معاذ مع النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك

في تبوك كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة، وفي أثناء الطريق قال معاذ: اقتربت من راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسسته، وكان الصحابة يستأنسون أيما أنس بقريهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما آتاه الله من حسن الخلق والبركة والهداية والنور، وكان من سعة حلمه وتواضعه وخلقه أنه إذا صاحب الرجل من الصحابة في السفر حدثه كثيراً حتى في الليل.

ففي تلك الليلة قال معاذ: اقتربت منه صلى الله عليه وسلم فوجدت أبا قتادة من الأنصار قريباً منه، وكان في آخر الليل، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ينعس على راحلته -لأنه سهر في الليل في تلك الليلة- وكاد أن يسقط من على الراحلة وتكاد تسقط به.

قال أبو قتادة كما في صحيح مسلم: {فاقتربت منه ودعمته بيدي -أي: أسندته بيدي- حتى رددته إلى مكانه، قال: ثم نعس الثانية، فرددته، ثم نعس الثالثة حتى كاد يسقط، فانتبه عليه الصلاة والسلام، قال: من؟ قلت: أبو قتادة، قال: حفظك الله بما حفظت نبيه عليه الصلاة والسلام} قال أهل العلم: ما زال أبو قتادة محفوظاً في أسرته

وذريته حتى في القرن الثاني؛ لأنه تكلم بهذا الكلام، حتى عندما أتت الفتن لم يتدخل فيها، ولم يشترك في مشكلات الأمة؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا له بالحفظ، قال: {حفظك الله بما حفظت نبيه} والحفظ أعظم ما يمن به الله على عبده.

يقول ابن المسيب رضي الله عنه: [[إن الله يحفظ العبد المؤمن في أهله وأولاده ودويريته]] أي: حتى في الدور التي تقاربه في قريته.

ففي تلك الليلة العامرة التي لا ينساها معاذ رضي الله عنه وأرضاه تقدم ليستغل الوقت في سمر من أحسن السمر مع سيد البشر عليه الصلاة والسلام- هل يتحدث معه في الدور أو القصص أو الوظائف أو يطلبه منصباً؟ وهو عليه الصلاة والسلام يستطيع أن يعطيه ذلك؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْطَاهُ مِنَ الْوَلَايَاتِ مَا اللَّهُ بِهَا عَلِيمٌ- فقال: يا رسول الله! ما هو العمل الذي يقربني من الجنة ويباعدني من النار؟!

هذا أعظم سؤال قد وقع بعد سؤال العقائد على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: {إنه ليسير على من يسره الله عليه} وفي لفظ الترمذي: {يا معاذ! لقد سألت عن عظيم}.

أي: لقد سألت عن أمر من أعظم الأمور، وهذا الحديث الذي تسمعون قاعده من قواعد الإسلام وأصل من أصول الدين، وهو من الأحاديث النبوية التي عليها مبنى أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام قال: {لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه} ثم أتى صلى الله عليه وسلم يسوق الأمور التي تقرب العبد من الجنة وتوصله إليها، وهي مفاتيح من مفاتيح أهل الجنة، فاستمعوا إليه:

يقول: {تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت- ثم وقف عليه الصلاة والسلام، وظن معاذ أن الخطاب قد انتهى- ثم قال عليه الصلاة والسلام: ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه} انظر إلى الكلام! كأنه هيئ من شهر أو شهرين وهو وليد الساعة؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد، حتى يقول أبو موسى: [[إنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم]].

وقال ابن مسعود: [[أوتي رسول الله جوامع الكلم وهديه وآخره]].

ثم قال: {ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، ثم سكث صلى الله عليه وسلم وقال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله! قال: الصوم جنة- يعني: وقاية- والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل صدقة، ثم تلا عليه الصلاة والسلام قوله تبارك وتعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [السجدة: ١٦] إلى قوله: (يعلمون) ثم قال عليه الصلاة والسلام: ألا أدلك على ملاك ذلك كله؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله! قال: كف عليك هذا، وأخذ بلسان نفسه عليه الصلاة والسلام، فقال معاذ: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به يا رسول الله؟! -أي: أيسجل علينا؛ لأنهم ما علموا إلا ما علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم- قال عليه الصلاة والسلام: ثكلتك أمك يا معاذ! -وهذا عند العرب لا يراد به الظاهر وإنما هو دعاء، أي: فقدتك، حتى هذه المسألة لا تعرفها- وهل يكب الناس على مناخرهم أو قال: على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم} رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

عاش معاذ رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عليه الصلاة والسلام معجباً به وبعلمه، وروى الإمام أحمد في مسنده، والترمذي بسند صحيح قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في دين الله عمر، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح}.

خيرية حافظ القرآن ومكانة أبي بن كعب

كلام الله لا يحفظه إلا موفق، ولذلك كان هو السبب العظيم الذي كان صلى الله عليه وسلم يشرف أصحابه به، فقد كان يحب أبي بن كعب سيد القراء رضي الله عنه وأرضاه، حتى يقول عمر: [[أقرؤنا أبي، وإنا نأخذ ونترك من بعض قراءة أبي]] وقد صح ذلك عن عمر.

وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم بالناس فنسي آية فلما سلّم قال الصحابة: {يا رسول الله! أنسخت الآية أم نسيته؟} -فمن يسأل، ومن صاحب هذا التخصص؟ معاذ تخصصه الحلال والحرام، وعلي قاضي، وزيد بن ثابت فرضي، وحسان بن ثابت أديب مسلم، لكنه أعطى القوس باريها- فقال: يا أبا المنذر! أكما يقول الناس؟ قال: نعم يا رسول الله!}

وفي الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأله -والمسألة تناسب تخصص أبي - فقال له: {أي آية في كتاب الله أعظم؟} قال: الله ورسوله أعلم، قال: أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: ٢] فضرب على صدره وقال: لهنك العلم أبا المنذر! لهنك هذا الفتح العظيم، لهنك هذا التقدم، إذا افتخر الناس بالشهادات، وافتخروا بالشاة والنعم أو بالمناصب والوظائف فلهنك هذا الفضل العظيم:

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد شهيم يموت بموته بشر كثير

وذلك كأي.

وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام، أن الله لما أنزل عليه سورة البينة ذهب إلى أبي وطرق عليه الباب وقال: {إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة البينة، فقال أبي: وسماني في الملاء الأعلى؟ -أنا معروف في السماء من أنا، أنا لولا الرسالة الخالدة لست بشيء- قال الرسول صلى الله عليه وسلم: نعم سماك الله في الملاء الأعلى، وقرأ عليه الرسول صلى الله عليه وسلم سورة البينة} ولذلك يتفكه المحدثون ويقولون: هل عرض الرسول صلى الله عليه وسلم على شيخ من الشيوخ؟ قالوا: عرض على أبي.

وعند أحمد في المسند بسند صحيح، قال أبي بن كعب: {قال المشركون لرسول الله: انسب لنا ربك -أي: من أبوه ومن جده؟ سبحانه الخالق! لم يتخذ ولداً ولا والدة ولا زوجة: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا* لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا* وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٣ - ٩٥] فسكت عليه الصلاة والسلام فأنزل الله قوله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: ١ - ٤].

قصة محمد بن واسع مع قتيبة بن مسلم

وقد خرج يجاهد في سبيل الله، فافتقده قتيبة بن مسلم فأرسل الجنود يبحثون عنه، فوجدوه قد رفع طرفه إلى السماء وقد اتكأ على قوسه، ورفع سبابته وهو يقول: يا حي يا قيوم!

يا حي يا قيوم! يا حي يا قيوم! فعادوا يخبرون قتيبة بن مسلم بما وجدوه، فدمعت عيناه فرحاً وهو يقول: أبشروا فوالذي نفسي بيده لأصبع محمد بن واسع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير، ومن مائة ألف شاب طرير في سبيل الله.

وينتصر المسلمون بإذن الله، وبعد المعركة يؤتى إلى قتيبة بن مسلم بشيء من الذهب كرأس الثور فيقدم بين يديه فيقول لوزرائه: هل تظنون أحداً من المسلمين يأبى إذا دفعنا له هذا الذهب؟ فيقولون: ما ندري، قال: والله، لأخبرنكم أن في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من لا تساوي الذهب والفضة عنده التراب الذي يطؤه بأرجله، ثم قال: عليّ بـمحمد بن واسع.

فذهبوا إلى محمد وإذا هو يصلي في خيمته ويبكي قالوا: الله نصر الإسلام والمسلمين وأنت تبكي في خيمتك.

قال: نعم.

لأن ثواب الشكر العبادة والذكر أو كما قال.

قالوا: القائد قتيبة يريدك، قال: وماذا يريد مني قتيبة وأنا خرجت لله وأعود لله عز وجل؟ قالوا: هو الأمير فقد أمرك، فاستعان بالله ودخل على قتيبة في خيمته، فدفع له قتيبة هذا الرأس من الذهب وقال: خذه وتمول، فأخذه وقام من الخيمة.

فاحمر وجه قتيبة ووجوه الوزراء، ثم قال: قتيبة في نفسه: اللهم لا تخيب ظني فيه، كيف يأخذ الذهب وهو أزهد الناس وأعبدتهم وأعلمهم في عصره بالله عز وجل، فيقول: لأحد جنوده اذهب وراءه وتلفت ماذا يصنع بهذا الذهب.

قال: فحمله بين يديه، فمر به مسكين يسأل الجنود والجيش فدفع إليه الذهب فمر، فاستدعى قتيبة هذا المسكين فقال: ادفع إلينا المال ثم دعا الوزراء وقال: هذا محمد بن واسع الذي أخبرتكم أن الله ينصرنا بدعائه.

لماذا كانت النوافل سبباً للمحبة

السبب في أن النوافل سبب للمحبة؛ لأنها تؤتي باندفاع وبحب وباشتياق ولا يرغمك أحد عليهما، وبعض الناس يصلي في المسجد -نسأل الله العافية- إما مدارة للناس، وإما مجاملة لأهل الحي، وإما لأنه يخاف من الإمام والمؤذن أن يرفعه أو الهيئته، أو يخاف من السلطان أن يبطله ويجلده فيصلّي مع الناس، لكن يظهر هذا في النوافل، لا تجده يتنفل في المسجد، إذا سلم الناس كأنه طائر في قفص يخرج متضايقاً، فهو يحسب هذه الدقائق ولا يحسبها في أماكن اللهو واللغو واللعب، وبإمكانه أن يجلس جلسة سافرة ساحرة مأكرة الساعات الطويلة، يتميل مع الأعواد، يأخذ النغمات، ويستنشق الفرح الذي ليس هو بفرح ولكنه حزن ولا يمل، لكن إذا حضر في المسجد كان آخر من يدخل وأول من يخرج، فإذا سلم الإمام يذهب ولا يتنفل، فهذا علامة على أنه ليس محباً.

أما المحب فهو الذي يتنفل، فكانت النوافل سبباً في محبة الله، فلذلك تجده يتنفل كثيراً وتجده يأتي مع الأذان أو قبل الأذان، يقول عدي بن حاتم كما في كتاب الزهد للإمام أحمد: والله ما أذن المؤذن إلا وأنا متوضئ والحمد لله، وهذا من باب قوله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى: ١١] وذكروا أن أحد السلف كان يعمل نجاراً فكان يرفع المطرقة فإذا سمع (الله أكبر) تركها وأسقطها وراء ظهره ولا يطرق بها مرة ثانية.

وعائشة رضي الله عنها تقول: {كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتكلم معنا ويكون في مهنة أهله ويقطع مع أهله اللحم، فإذا سمع (الله أكبر) قام كأننا لا نعرفه ولا يعرفنا}.

وكان كثير من السلف يقومون ويأتون المسجد في الغدوات، ويؤذن للصلاة وهم في المسجد، ولذلك ضيوف الرحمن يأتون على قدر منازلهم.

وقال أهل الأثر: الناس يوم القيامة في المنازل كمنازلهم في المسجد.

يقول ابن مسعود: [[اللهم لا تسبقني بأناس كثير في الجمعة، فاغتسل وتأخر قليلاً حتى سبقه ثلاثة، فدخل هو الرابع، فقال: رابع أربعة، وما رابع أربعة من الخير ببعيد]] قال تعالى: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} [المدثر: ٣٧] يتقدم في الخير ويتأخر عن الخير.

ولذلك نحن نقيس هذه الأعمال أو محبة الناس لله عز وجل بأعمالهم الظاهرة، قال تعالى: {وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ١٠٥].

العالم المثالي

{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩].

والجواب مسكوت عنه، وتقديره: أنهم لا يستوون، وأن العلماء أفضل، والله يقول: {وَمَا يَعْزِفُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت: ٤٣] لا يفهم الآيات البينات، ولا يعقل مقاصد الأمور ولا تأويل الحوادث إلا أهل العلم.

ويقول سبحانه: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [العنكبوت: ٤٩]
ثم يقول سبحانه: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}
[المجادلة: ١١].

ولسنا بحاجة يا شباب الصحوة! ويا أبطال التوحيد! ويا حملة الرسالة! لسنا
بحاجة إلى أناس يحفظون النصوص، ثم لا يكون لها أثر في واقعهم، وحياتهم،
وسلوكلهم، وأمتهم، كما سيأتي في العناصر المقبلة إن شاء الله.

حاجتنا إلى عالم يمشي قرآناً على الأرض، يقول سبحانه للرسول عليه الصلاة
والسلام، وهو في أول الطريق: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} [محمد: ١٩]
قال البخاري في صحيحه: فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، أمة متعلمة.

هل العلم في الإسلام إلا فريضة وهل أمة سادت بغير التعلم

من الذي فتح منائر العقل؟!

من الذي خاطب الضمير بالعلم إلا محمد عليه الصلاة والسلام؟!

لما ثار الفرنسيون على الكنيسة عام (١٨٨٧ م)؛ كان سبب ذلك: أن الكنيسة كانت
تحارب العلم، كانوا إذا اكتشف مكتشف علماً ذبحوه، أو اخترع مخترع جهازاً؛ قتلوه
وشنقوه، وظنوا أن كل دين سوف يحارب العلم حتى الإسلام، ففصلوا بين الإسلام
وحياة الناس، وهذا خطأ، والله عز وجل يقول للرسول عليه الصلاة والسلام: {وَقُلْ رَبِّ
زِدْنِي عِلْماً} [طه: ١١٤] لم يطالبه بالتزود من شيء إلا من العلم.

هو العضب المهند ليس ينبو تصيب به مضارب من أردت

وكنز لا تخاف عليه لصاً خفيف الحمل يوجد حيث كنت

يزيد بكثرة الإنفاق منه وينقص إن به كفاً شددت

وقال سبحانه وتعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ} [القصص: ٨٠] يوجد في الساحة علم بلا إيمان، عندنا دكاترة يحملون رسالة الدكتوراه، لكن لا يصلون الفجر في جماعة!! وعندنا دكاترة قطعوا أرحامهم، ودكاترة استهزءوا بالدين، ودكاترة تهجموا على شباب الصحوة والملتزمين، ودكاترة تجرءوا على اقتحام الشريعة!! أين العلم؟! {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧] وقال تعالى: {بَلِ إِذَا زُكِّتْ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلَّ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ} [النمل: ٦٦].

إذا ما لم يزدك العلم خيراً فليتك ثم ليتك ما علمتا

وإن ألقاك فهمك في مهاوٍ فليتك ثم ليتك ما فهمتا

مشيت القهقري وخبطت عشوى لعمرك لو وصلت لما رجعتا

وإذا لم يصل الأستاذ إلى اليقين، كيف يستمر؟ ولذلك يقول الناظم:

لعلك يا أستاذ ما زرت أحماً رسول الهدى المبعوث من خير هاشم

فوالله لو قد زرته الدهر مرة لما كنت نهياً للقصور القشاعم

لما انفصل العلم عن الإيمان، صار العلم طاغوتاً يُعبد من دون الله.

نشرت جريدة الهدف قبل اجتياح الكويت في افتتاحيتها مقالاً تقول: امرأة فنزولية تلد كلباً، ووجد أنه صحيح، عقموا المرأة بمني كلب!! وهل هذا يجوز في الإسلام؟

إنه حرام بالإجماع!! لكنهم ما سألوا الإيمان، عندهم علم، فاخترعوا وتطوروا وتقدموا لكن ما ضبطوه بالإيمان، والله تعالى يشترط في العالم أن يكون مؤمناً: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ} [الروم: ٥٦].

قول الحق ولو كان مرأً

{أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ} [الأعراف: ١٦٩] أما أخذنا عليهم الميثاق ألا يخافوا في الله لومة لائم؟!

ألم يؤخذ عليهم أن يقولوا كلمة الحق صريحةً هادئةً حكيمةً تصل القلوب؟!

الكلمة قوية، أقوى من شعاع الشمس، وأقوى من الذرة، والأمة تحتاج إلى كلمة العالم، يقولها في وقتها وفي مكانها، حينها يشكره الله، ويثيبه الله، ويرفع منزلته، وهذا واجب طلبه العلم، والدعاة، والأخيار، أن يقولوا كلمة الحق، لكن {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٤] بهدوء، وبصدق، وبإخلاص، ولا يكتنم على الأمة كلمات الحق، ولا يخرس ألسنتهم، ولا يعكفوا في بيوتهم، لكن يصلوا إلى الحق بحكمة وهدوء وانضباط واتزان ليبلغوا دين الله، وينصروا هدفهم الذي هو إعلاء {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥].

أما أن يقول العلماني كلمته، ويبرز علينا من الشاشة، ويتكلم من الصحف والمجلات، ويستهزئ بالخيرين، ويكون جريئاً متحدياً، وإذا قلنا له: لا، قالوا: عليكم بالحكمة:

إذا عير الطائي بالبخل مادرٌ وعير قساً بالفهاهة باقل

وقال السهي للشمس أنت كسيفة وقال الدجى للبدر وجهك حائل

فيا موت زر إن الحياة ذميمةٌ ويا نفس جدي إن دهرك هازل

قُلْ كلمة الحق، ولو ذهب رأسك في كلمة الحق، لماذا أتباع برجنيف تسحق
جماعهم تحت الدبابات في أفغانستان؟!

لماذا أذئاب شامير -إسرائيل- في سيناء تشدخ رءوسهم تحت المجنزرات، يريدون
أن يثبتوا عقيدتهم وعقيدتنا التوحيد، لكن بلا طيش، ولا تهور، ولا عجلة، لكن حمل
الوائق الذي يحمل مبادئه، ويؤديها في رسوخ، وفي ثقة، وفي حكمة، ويطالب بحقه
الإسلامي الشرعي الذي فرضه الله.

أنا وأنت لو اعتدي على منزلنا وعلى أرضيتنا وسيارتنا، ما رضينا، نذابج أنا وأنت،
ونقاتل، لكن الإسلام يُنتَهَك، والمنكرات تفسو، والحدود تُنتَهَك، ومع ذلك نفسي نفسي،
لكن الله تعالى يقول: {أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ} [الأعراف: ١٦٩] والله تعالى يقول
للعلماء وللدعاة ولطلبة العلم: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا
حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}
[النحل: ١١٦] لا تحلوا المحرم، ولا تحرموا المحلل.

وعجبت لكاتبٍ أديبٍ من هذه البلاد في الشرق الأوسط، جعل نفسه مفتياً، وهذا
هو العجب العجيب، وأظنه لا يحفظ حديثاً من صحيح البخاري أو صحيح مسلم.

وأتحداه أن يحفظ حديثاً ويخرجه لنا، أو يحفظ مسألةً فقهيةً وينسبها إلى كتاب من كتب أهل العلم، وأتى يقرر علينا في عين العاصفة قضية القضايا وبقية القضايا، ويناقشنا في مسائل هي لهيئة كبار العلماء وليست له:

وَيُقْضَى الْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ وَلَا يُسْتَشْهِدُونَ وَهُمْ شُهَدَاءُ

أنت لست هناك، تفرض على الأمة، أنت لست أميناً، وليس لك مكان فقه على الأمة، طهر كيالك أولاً.

وقرأت له أيضاً مقابلة نشرت في مجلة الدعوة قبل ثمان سنوات، يقول: ما رأينا النور في الجزيرة العربية منذ ثلاثة آلاف سنة، وعرضت فتواه على بعض العلماء، فقال: إن كان اعتقد ما يقول فقد ارتد عن الإسلام، وأقول له: أنت ما رأيت النور منذ ثلاثة آلاف سنة، فنقول: صدقت أما أنت فما رأيت النور، لكن نحن عشنا النور، وشربنا النور، ومشينا في النور، {نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ} [النور: ٣٥] {وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ} [النور: ٤٠]:

أين ما يدعى ظلاماً يا رفيق الليل أينما إن نور الله في قلبي وهذا ما أراه

قد مشينا في ضياء الوحي حباً واهتدينا ورسول الله قاد الركب تحدوه خطاه

فكيف يكون هؤلاء متكلمون بلسان الأمة، ومتحدثون عن شريعة الأمة؟!

يفاوض على مسائل ليست له، هي لـ ابن تيمية، ابن باز وابن عثيمين ولأمثالهم من هيئة كبار العلماء والفضلاء أما له فلا، لا نقبل.

عليه أولاً: أن يتوضأ ويصلي معنا!

عليه أولاً: أن يتوب، ويعلن إسلامه، ويتخلى عن الرجس والوثنية، ثم يتكلم لنا في المعتقد والشريعة.

قال سبحانه: {انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا} [النساء: ٥٠].

انظر كيف يكذبون على الله، يقولون: حلال وحرام؟!

رأيت في مجلة وهو موجود في شريط: (الفتاة السعودية والعلمانيون) توثيق هذا الكلام موجود، رأيت مفتياً أتوا به على حد قول جمال: عاوز مفتي بفرخة!! ماذا يقول جمال: أطلب من المصريين أن يعطوني مفتياً وأعطيته فرخة، إذا أردت مفتياً يفتيني في مسألة أعطيته دجاجة ويفتيني فتوى على الكيف!!

ولذلك وجد من يفتي بفرخة، ووجد قراء بفرخة، اففتح جمال ذات مرة مشروعاً في أسوان فأتوا بقارئ قالوا: اقرأ سورة فيها ذكر جمال، فتأمل هذا القارئ واستعرض القرآن، فوجد لفظة (جمال) في سورة النحل، يقول فيها: {لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ} [النحل: ٦] والله يذكر الإبل والبغال والخيل والحمير، ولا يذكر جمالاً، فأتى المقرئ فقال: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ} [النحل: ٦] فالتفت جمال، وقال: يفتح عليك.

اكتشف لفظ (جمال) في القرآن، هذه قراءة بفرخة!!

فهذا المفتي في إحدى المجلات النسائية قيل له: أتزور المرأة المقبرة؟

قال: نعم، يجوز لها أن تزور بمحرم.

ما شاء الله! هم في المسارح لا يشترطون المحرم، والسفر إلى بنكوك وباريس لا يشترطون أن تزور المرأة بمحرم، وتسافر في المطارات بلا محرم، لكن عند المقبرة بمحرم حتى لا يخرج عليها الموتى، هذه فتوى بفرخة، فتوى على الكيف.

{انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} [النساء: ٥٠].

انظر كيف يدجلون على الأمة؟ يضحكون على لحانا؟!، هل أصبحت الأمة بقرًا؟!

ما أصبح في الأمة مثقفون يفهمون الحرام والحلال!! حتى طالب ابتدائي يعرف أن بعض المسائل التي يفتيها بعض الناس خطأ، ولكن علماؤنا -إن شاء الله- متزهون عن ذلك، وهم بمنزلة عالية رفيعة.

نسأل الله أن يثبتهم وأن يزيدهم توفيقاً لقول الحق لا يخشون في الله لومة لائم.

عمرو بن العاص يصف الموت

حضرت الوفاة عمرو بن العاص الذي يُسَمَّى (أرطبون العرب) داهية من الدهاة، ولكن لا حيلة في الموت، أبطل الموت دهاء الدهاة، وأعدم الموت قوة الأقوياء، ونسف الموت بنيان الأغنياء، فلما انقعر في سكرات الموت قال له ابنه عبد الله الزاهد العابد: [[يا أباي! صف لي الموت، فإنك أصدق واصف للموت -فهو يذوق الموت ويشرب الموت، وهو يزاول سكرات الموت- قال: يا بني! والله لكأن جبال الدنيا على صدري، وكأني أتنفس من ثقب الإبرة]] انظر إلى الوصف: كأن جبال الدنيا على صدري، وكأني أتنفس من ثقب الإبرة.

رؤيا إبراهيم عليه السلام

قال تعالى: {إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} [الصافات: ٢٠] إبراهيم عليه الصلاة والسلام رأى في المنام أن قاتلاً يقول: اذبح ابنك إسماعيل؛ فقد درج إسماعيل وأصبح حبيباً إلى القلب، يسعى في سن ليس بالكبير الذي قد تقل محبته، ولا بالصغير ولكن في سن طيب، فأصبح له مكانة عند أبيه إبراهيم عليه السلام، فأراد الله أن يمتحن إبراهيم؛ لأن الله اتخذ إبراهيم خليلاً عليه السلام، فأراد أن يعرف هل يقدم محبوب الله على محبوبه أم يقدم محبوبه على محبوب الله؟ فرأى إبراهيم في المنام قاتلاً يقول: اذبح ابنك، فصحا وصلى وعاد فعاد الرائي قال: اذبح ابنك، فصحا وصلى وعاد قال: اذبح ابنك، فأتى لابنه الصغير الموحد المتعلم الخائف من الله قال: {إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى} قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ} [الصافات: ١٠٢] وهذه من أحسن الكلمات! افعل ما تؤمر، أي أنت لا تفعل ما في ذهنك لكن ما يأمرك الله به، ستجدني: ولم يقل: من الصابرين؛ ولكن قال: إن شاء الله، فأتى عليه وأجلسه -والقصة طويلة ما مررت بها إلا عرضة- فأضجعه على التراب وأخذ السكين، فكان كلما أجرى السكين على عنقه انقلبت السكين، وكلما أجراها انقلبت، حتى أتاه الوحي أن {قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} [الصافات: ١٠٥] وشكر الله لإبراهيم إمام الموحدين، وما نذبحه نحن في منى فداء لإسماعيل عليه السلام.

فداً لك من يقصر عن فداكا فلا ملك إذاً إلا فداكا

ولو قلنا فدى لك من يساوي دعونا بالبقاء لمن قلاكا

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحل به سواكا

عظم المصطلحات وقلة العلم عند الخلف

الدكتوراه كلمة نمساوية معناها (كبير التوراة) (دك) كبير، (توراة) التوراة؛ وهي لغة يهودية صهيونية عالمية، تعني أكبر الناس في التوراة، أو عالم التوراة، ثم نقلت إلى الشرق الأوسط فأصبح إذا تشرف الشيخ الذي يقرأ البخاري ومسلم لا يتشرف حتى يقول: يا دكتور، يا كبير أهل التوراة، هذه كلمة ولكن تحتاج إلى عراك ليسى الإنسان عندنا بالأسماء الشرعية، إما حافظ، أو إمام، أو شيخ، أو مخرف على هذه التسميات كما فعل السلف الصالح يسمون العالم عالماً، وإماماً، وشيخ الإسلام، والحافظ، والعلامة، وطالب علم، وداعية، ويسمون يعقوب بن الوليد المدني صاحب الحديث الذي في الدارقطني الحديث الموضوع: {أول الوقت رحمة الله، وأوسطه عفو الله، وآخره رضوان الله} قال الإمام أحمد: في سنده يعقوب بن الوليد أحد الكذابين الكبار، وقال أبو حاتم: جبل من جبال الكذب، أول ما تسمع كلمة جبل تهتز ثم يقول: من جبال الكذب، هذا أمر بارك الله فيكم ينبغي أن ينبه إليه.

فيسر علم السلف هو الذي هدانا إلى هذا الكلام، ولذلك ترى بعض الناس يهوش ويشوش على الطلبة لفصلهم عن العامة، وهي خطة ماسونية، فإذا قيل لطالب العلم من الشريعة وأصول الدين: فلان! علّم العوام في هذه القرية الفاتحة والوضوء والصلاة، تكبر ورفض وقال: أنا أعلمهم الوضوء! يبحثون عن أمثالهم، أنا لا أعلم إلا أسساً منطقية في العلم، ديكتاتورية الدعوة، من أين تنطلق! ومن أين تنبثق! وما هي الأطر التي تنصهر فيها، والبوتقة التي تنصب فيها! فهذه بارك الله فيكم خطة الماسونية، وقد قرأت مذكرات يقولون: إن من الخطط الماسونية التي قدمت إلى الشرق أن يؤتى بطلبة العلم فيعجبون بأنفسهم، أو يرفعون عن طبقة العامة، لو ذهب إنسان للغرب إلى بريطانيا وفرنسا وأمريكا أعطي رسالة ماجستير ودكتوراه، فإذا دخل عندنا هنا قالوا: حضر في بريطانيا رسالة الدكتوراه؛ سبحان الله في بريطانيا،

فتأتي تسأله فلا يعرف الفاتحة، ولا يعرف {وَالَّتَيْنِ وَالتَّيْنُونَ} [التين: ١] ولا يعرف {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: ١] ولا حديثاً واحداً من صحيح البخاري، وأين النظارات يا شيخ، وأين هذه الأبهة، وأين الكنبات، وأين الرحلة والتذكرة والذهب والإياب، قال: تعلمت العلم في أمريكا وفي بريطانيا، هم بأنفسهم في منشوراتهم لا يعترفون بهذه الرسائل، فخذوها قاعدة، وهي أن الأمريكي لا يعترفون بالدكتوراه ولا بالمجستير، علماؤهم في جامعاتهم ما عندهم إلا شهادات مبدئية، ولكن هم أساطينهم.

أما عندنا فأصبح الأمر بالعكس فيقال: دكتور يعلم العجائز الفاتحة، دكتور يذهب يعلم الناس الغسل من الجنابة، لا لكن الدكتور له محاضرات خاصة، لما توفي الخليل بن أحمد الفراهيدي، وكان من أذكى العالم، وهو من الزهاد العباد الكبار، وكان يدخل عليه ابنه وهو يقول: تن تن، تن تن، تن تن، فذهب الولد إلى أمه وقال: جُنَّ أبي، أصابه الصرع، وقد ذهب عقله، قال الخليل بن أحمد:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت أجهل ما تقول عدلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

دخل المسجد وهو يفكر في مسألة قال: لأضع كتاباً في الحساب تذهب الجارية إلى البقال فلا يظلمها بدرهم، فاصطدم بالسارية فكان الخطأ منه فمات؛ رأي في المنام قالوا ما فعل الله بك؟ قال: ما نفعتني علم العروض ولو مثقال ذرة، ولكن أدخلني الجنة لأنني كنت أعلم عجائز في قريتنا سورة الفاتحة.

عجائز يستدعين في الصباح مع إطلالة الفجر، فيبدأ يا خاله! اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يا عمه قولي الحمد لله رب العالمين، فأدخله الله الجنة بهذا، أما علم

العروض فسواءً وضع بحوراً أو لم يضع فأهل السنة هم أهل السنة، والسماء هي السماء، والأرض هي الأرض:

الليل ليل والنهار نهار والأرض فيها الشمس والأقمار

موسى يطلب أخاه هارون وزيراً

موسى عليه السلام يقاتل قتالاً برياً وبحرياً، ويصارع صراعاً ميدانياً وعلمياً وعملياً، يرسله الله إلى فرعون في ديوانه وإيوانه وقصره، فيجعل معه أخاه هارون وزيراً، لماذا يجعل هارون معه؟

ما هو السر وما هو السبب؟

لأن هارون أفصح منه لساناً، موسى صاحب الرسالة ولكن هارون فصيح، موسى كان (أدوم) يأكل بعض الكلمات، ولا تتضح الكلمات التي ينطقها، ولكن هو أفضل من هارون بلا شك، والعجيب أن بعض المؤرخين قالوا: هارون أكبر من موسى بسنة! ولكن نعمة الله ورعايته وولايته وعطاءه جعلت النبوة والرسالة في موسى، ثم جعل ذلك في فضله ورحمته وعطائه حتى يقول الله له: {اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ} [طه: ٢٤].

{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} [طه: ٢٥] أمر كليف صعب وكأنه يحمل الجبال على كتفيه، وهل هذا أمر سهل؟

تصور أنك راعي غنم فقير، ومعك ضأن وعصا تهش بها على غنمك، عليك ثياب صوف، تدخل على طاغية من طغاة الدنيا كحكام مصر وحرسه -كما قال أهل العلم- معه ستة وثلاثون ألفاً عند الحدائق، وعند مداخل مصر فكيف تصل إليه؟ قال: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي} [طه: ٢٥ - ٢٧] أي: يا رب أنت تدري أن لساني يتلعثم، ما هو السبب؟

قالوا: لما عرضت له التمرة والجمرة أخذ الجمرة ووضعها على لسانه فأصابته لسانه {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي} [طه: ٢٧ - ٢٨] قال الحسن البصري: [[رحم الله موسى، ما سأل إلا أن تحل عقدة واحدة من لسانه!]] فقط بمجرد أن يفهموا قولي، ما قال: أكن خطيب مصر ولا أديها ولا متكلمها، إنما ليفقهوا قولي فقط.

ثم قال: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي} [طه: ٢٩] وزيراً يساعدني ويكون من أهلي؛ لأنه لو كان من غير أهلي ربما يكون حاسداً أو عدواً أو حاقداً، ثم عينه باسمه؛ لأن أهله كثير، كبار وصغار وأبناء وعمومة وأقارب {هَازُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} [طه: ٣٠ - ٣٢] -لماذا؟- {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا} [طه: ٣٣] -الاثنان يسبحان أكثر من الواحد- {وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا} [طه: ٣٤] -هو يذكرني وأنا أذكره- {إِنَّكَ كُنْتَ بِنًا بَصِيرًا} [طه: ٣٥].

فأتى الجواب مباشرة قال: {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [طه: ٣٦] لم يقل أسئلتك؛ لأنها سهلة في علم الله {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢] هذه الأسئلة مجرد سؤال قال: {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [طه: ٣٦].

ثم قال له وكأن الخطاب يقول: لا تنس أننا أعطيناك والأيادي التي منحناك قال: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى} [طه: ٣٧].

ثم أورد قصة فيها مذكرات حياته في الأربعين سنة يقول: وفعلنا بك كذا وكذا وكذا.

فلما أصبحا في الطريق؛ أوصاهما الله بأدب الدعوة قال: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٤] انتهوا من الخبيث! عليكم بالأسلوب السهل ولين الخطاب، لأنه رجل فاجر، والله يعلم في علم الغيب أنه لا يؤمن، الله كتب عليه أنه من أهل النار: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣].

أبو بكر الصديق يشتري بلالاً من أمية بن خلف

قال له أبو بكر: أتبيع مني بلالاً؟ قال: خذه لو أخذته بدرهم بعته منك، قال: وأنت لو قلت: بمائة ألف دينار أخذته منك، فأعتقه أبو بكر، فكان عمر يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا؛ لأن عمر دخلت في قلبه لا إله إلا الله وإلا لو أنه كان مشركاً لما قال هذه الكلمة، كان كفار قريش لا ينظرون إلى بلال ولا يُسلمون عليه ولا يجلس معهم، واستمر بلال فجعله صلى الله عليه وسلم مؤذناً للرسالة الخالدة.

كان يؤذن دائماً بصوته الجميل العاطر الندي، فيرتفع صوت الأرض إلى السماء، وكان صلى الله عليه وسلم دائماً إذا حزبه أمر، يقول: {أرحنا بها يا بلال} أرحنا بالصلاة، وكان دائماً مع الرسول صلى الله عليه وسلم قريباً من راحلته، وأحياناً ربما حمل معطف الرسول صلى الله عليه وسلم، أو حمل أدواته وحاجياته الخاصة عليه الصلاة والسلام.

الله خالق السماوات والأرض

{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [النمل: ٦٠] من الذي يدعي يا بشر؟ من الذي يتكلم يا عالم؟ من الذي ينطق وينسب السماوات والأرض له، من بناها؟ من سواها؟ من قومها؟ من عدلها؟

ذلكم الله لا إله إلا هو، {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٨٨].

يقول الله لهارون وموسى: قولاً له: يا مجرم، أنت رفعت هذه؟ أنت بسطت هذه؟ أنت أنبت الزهر في الربى؟ أنت تمتمت الماء في النهر؟ أنت أرسلت الضياء والسناء والهواء؟.

ولذلك كان جواب موسى متفوقاً، والعجيب أن الملحد هذا الذي يتكرر بالآف في كل قرن، هو الذي بدأ العراك، وهو الذي بدأ الحرب مع موسى في البلاط، فقال: فمن ربكما يا موسى؟

وموسى أتى من الصحراء ما تعلم، ولا قرأ، ولا كتب، وما عنده فن الجدل، ولكن الله قال له: {إِنِّي مَعَكُمْ أَصَمُّ وَأَرَى} [طه: ٤٦] قال أهل العلم: أسمع معك وأرى في الجدل العلمي، والعراك العملي.

قال: فمن ربكما؟

ولو قال موسى: ربى عليهم، لقال المجرم: أنا عليهم، ولو قال: ربى حكيم، لقال: أنا حكيم، وربما اصطاده، لكنه فر من هذه الإشكالات، وأوقفه مخزياً خاسئاً أمام قدرة الباري، وقال: {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠].

من الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟

من الذي أخرج الطفل لا يعي، ولا يفهم، ولا يتكلم، ولا ينطق، ولا يمشي، ودله على
الثدي، وأخبره أن في الثدي لبناً؟

من الذي أرسل النحلة تجوب القفر والساحة والحديقة، وتأخذ الرحيق إلى
الخلية؟

من الذي جعل النملة تدخر قوتها من الصيف إلى الشتاء: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ
خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} [طه: ٥٠].

وجعلنا من الماء كل شيء حي

{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً [النمل: ٦٠] وقصة الماء
يعيشها الإنسان في كل لحظة يشربه، ويغتسل به، ويرى الكائنات تترعرع على الماء، قال
تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: ٣٠] ويرى الفلك يبني على الماء؟ ويرى
الأرواح تسبح على الماء، فمن الذي أنزل الماء؟

من الذي جعله سائغاً للشاربين فلم يجعله مالحاً، ولا غائراً، ولا متكدراً؟

ذلكم الله ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب.

إنها محاضرات العقيدة تلقى في كلمات يسيرة، إنها دعائم التوحيد ترسخ في جمل
سهلة.

دخل ابن السماك على هارون الرشيد وهارون يحكم ثلاثة أرباع الدنيا، فاستدعى هارون ماءً في كوز ليشرّب، قال ابن السماك - الواعظ -: أسألك بالله ألا تشرب حتى أسألك، قال: سل، قال: بالله لو منعوك هذه الشربة، أكنت مفتديها بنصف ملكك؟

قال: إي والله - وإلا فماذا يفيد الإنسان أن يموت وملكه وراءه - فشرب، قال: أسألك بالله لو مُنعتَ إخراج هذه الشربة، أخرجها بنصف ملكك؟

قال: إي والله، قال: لا خير في ملك لا يساوي شربة ماء وإخراجها.

يوقف الله العبد أمام الماء الذي يشربه، ليدرس مع الماء من هو الخالق؟ ومن هو الرازق؟ ومن هو الواهب؟

ثم يترك الإجابة.

حدائق ذات بهجة

يقول أحد الفضلاء: مدرسة التوحيد في الحديقة تنبئك عن الخالق الواحد لا إله إلا هو، فالزهر، والشجر، والماء، والبساط السندسي، والعبير كلها تدل على الله، ولكن أسلوب القرآن أخّاذ ينفذ إلى القلوب، يقول الله تعالى: {فَأَنْبِئْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} [النمل: ٦٠] بهجة، قالوا: حياة، وقال بعضهم: روعة، وأصاب، وقال بعضهم: منظر حسن، وأجاد، وقال بعضهم: تشكيلة خلقها الله في الكون.

ويقول أحد العصريين: من الذي جعل الألوان تتماوج في الزهرة الواحدة حتى يعجز أعظم فنان في الأرض أن يرسمها، ذلكم الله لا إله إلا هو، الذي جعل الزهرة حمراء بجانب الخضراء والصفراء، أبدع الخلق فلا يتعقب، ثم يقول للكائنات وللناس:

{هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} [لقمان: ١١] يقول: هذا خلقي، وهذا صنعي، وهذه قدرتي، وهذه صناعاتي، فأروني ماذا أنتج الطواغيت للعالم؟!

يُتَحَدَّثُونَ بالذباب والبعوض، فيموت النمرود ببعوض في دماغه فيقتله الله، لأنه أهون من أن يصارع بالجيش.

ذباب يقف على أنف أبي جعفر المنصور الخليفة السفاك، فيقول أبو جعفر لأحد العلماء: لماذا خلق الله الذباب؟

قال: ليزل به أنوف الطغاة، فسبحان من خلق وأبدع.

قال سبحانه: {مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا} [النمل: ٦٠] تحدّ صارخ، وتحدّ سافر للبشرية أن يجتمعوا فيخلقوا شجرة، أإله مع الله؟! هل هناك أحد يخلق كخلق الله؟

هل هناك قوي كقوة الله، مبدع كإبداعه سبحانه وتعالى؟ والجواب معروف، وينتقل متحدياً، ويقول: {بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [النمل: ٦٠].

قال أهل السنة: يعدلون به غيره، وهؤلاء خونة الميثاق تجدهم يقرعون أبواب غيره، ولا يقرعون بابه، ويتذللون عند عتبات غيره من المجرمين، ولا يتذللون عند عتبه.

فالله يلومهم يقول: لماذا يعدلون مني إلى غيري؟ ولماذا يطلبون غيري؟

قال وهب بن منبه: قرأت في الحكمة أن الله يقول: (وعزتي وجلالي ما اعتصم بي أحد من خلقي فاجتمعت عليه السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن فرجاً، وعزتي وجلالي ما اعتصم بي أحد من خلقي، ثم كادت له السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن فرجاً، ثم قال سبحانه: وعزتي وجلالي ما اعتصم بغيري أحد من خلقي إلا أسخت الأرض من تحت قدميه، وقطعت الحبل بيني وبينه، وأهويته في مكان سحيق) هذه قدرة الله، وهذه قدرة غيره تعالى الله.

خوف عمر بن عبد العزيز من ربه

يقول ابن كثير في البداية: صلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله صلاة العيد بالناس -عمر بن عبد العزيز زاهد من الزهاد، تولى أمر الأمة الإسلامية على رأس المائة، فكان مجدداً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، فلما انتهت الصلاة ذهب إلى بيته فاستعرضه الناس وأتوا بالموكب، فقال: باعدوه عني فما أنا إلا رجل من المسلمين، فلما مر بالمقبرة التفت إليها، وقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، ثم قال: الله كم في هذه القبور من خد أسيل وطرف كحيل!

ثم قال للناس والوزراء والأمرء حوله وهو ينظر إليهم: ما كأنهم أكلوا مع من أكل، وما كأنهم شربوا مع من شرب، وما كأنهم استأنسوا بالدور ولا عمروا القصور، ثم رفع صوته وقال للمقابر: يا موت! ماذا فعلت بالأحباب؟ يا موت! ماذا فعلت بالأصحاب؟ فجواب نفسه بنفسه، وقال: أتدرون ماذا يقول الموت؟ قالوا: لا.

-هو يقصد بهذا الكلام مدرسة لهم حتى لا ينسوا هذا الدرس أبداً- قال: يقول: ذرفت بالعينين، وأكلت الحذقتين، وفصلت الكفين عن الساعدين، والساعدين عن العضدين، والعضدين عن الكتفين، وفصلت القدمين عن الساقين، والساقين عن الركبتين، ثم بكى حتى غشي عليه، هذا الرجل العظيم الذي خاف الله وموعد الله

فأكرمه الله أن جعله من السعداء في الدنيا وفي الآخرة إن شاء الله، فما يذكر إلا ترحم عليه.

ولذلك لما حضرته الوفاة يوم عيد الفطر خرج الناس يلبسون الجديد يوم عيد الفطر إلا هو، فقالوا: ما لك؟ قال: أرى أن مصرعي اليوم وأني ألتقي بربي اليوم، فلما دخلت عليه زوجته والناس يصلون العيد، قالت: ماذا ترى؟ قال: أخرجني من البيت! فإني أرى ملاً ونفراً ليسوا بجن ولا إنس، قال أهل العلم: هم ملائكة، فخرجت، فلما قبضت روحه رحمه الله، قال أهل السير والتاريخ في ترجمته: سقطت على المصلين صحيفة من السماء مكتوب فيها: براءة لعمر بن عبد العزيز من النار؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا علم من العبد أنه يخافه يؤمنه المخاوف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال أهل العلم: إذا خفت من الله خَوْفَ الله منك كل شيء، وإذا خفت من غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخافك من كل شيء، ولذلك أذل الناس وأخوفهم وأخضعهم وأهزمهم وأفشلهم من لا يخاف من الله، ولو رأيت جباراً عنيداً فاعلم أن الله أذهب الهيبة من قلبه.

ولذلك يتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن الخوف، ما هو الخوف المطلوب؟

قال: ما حجزك عن المعاصي فهو الخوف المطلوب.

أما ما زاد على ذلك فلا يطلب في الإسلام، فالذي يردك عن معاصي الله تبارك وتعالى فهذا هو الخوف الذي يطلب منك لتكون خائفاً منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصحابة الرسول عليه الصلاة والسلام إنما امتازوا علينا بمخافتهم من الحي القيوم.

توكل الأنبياء والصالحين على الله

ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سِر الصالحين وأن كل واحد منهم كان يقول: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨] ويقول هود عليه السلام: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [هود: ٥٦] فيقول أحد المفسرين: الله على صراط مستقيم، والرسول على الصراط المستقيم، والإسلام صراط مستقيم والصالحون على الصراط المستقيم.

في كفك الشهم من حبل الهدى طرف على الصراط وفي أرواحنا طرف

قيل لـ ابن مسعود: ما هو الصراط المستقيم؟ قال: [[محمد في أوله وتركنا في آخره]] ويقول ابن القيم: "في الدنيا صراط مثل صراط الآخرة من نجا فيه هنا نجا هناك" لأن الصراط هنا هو الطريق المستقيم، وفيه شهوات وشبهات ومعاصي، ومنكرات، فكلما نهشتك شهوة؛ نُهِشْتَ بشوك السعدان أو الكلاليب على صراط جهنم، أعاذنا الله وإياكم من السقوط والوقوع من على الصراط، إنه على كل شيء قدير.

يقول شعيب -وهو خطيب الأنبياء- ويقال: ما سُمع بحجة كحجة شعيب عليه السلام وكان خطيب الأنبياء وكان فصيحاً وحججه دامغة أوردتها الله في سورة هود إيراداً عجيباً، يقول شعيب: {وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨] يقول المفسرون: توكلت في أول الطريق وأنيب في آخر الطريق، ويقول الله لرسوله عليه الصلاة والسلام: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة: ١٢٩] ولا يمكن لأحد أن يصارع الأحداث إلا بالتوكل على الله الواحد الأحد، ويجعل قوته من قوة الله المستمدة لا من قوة البشر، انظر إلى الأدعياء الذين

يتبعون الكيانات دائماً ويفتخرون بها، تجد الواحد منهم عنده نشوة أنه يتبع فلاناً، وأنه من خدم فلان، ولكن أنت مع الله وفي حزب الله عز وجل قال تعالى: {وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات: ١٧٣] وقال سبحانه وتعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر: ٥١ - ٥٢].

قال ابن عباس: [[كان آخر كلام إبراهيم عليه السلام يوم ألقى في النار حسبنا الله ونعم الوكيل]] وفي الصحيحين أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: {رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ فِي الْمَنَامِ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيْطُ -أي: مجموعة قليلة- والنبي ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، والنبي وليس معه أحد، فإذا سواد عظيم فظننتهم أمتي، فقالوا: هذه أمة موسى عليه السلام، ثم إذا سواد عظيم قد سد الأفق فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب} ثم قام عليه الصلاة والسلام وترك المجلس، فخاض الناس فيهم، فقال بعض الصحابة: هم الذين ولدوا في الإسلام، وقال بعضهم: هم الذين صحبوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وقالوا أشياء أخرى، فخرج عليه الصلاة والسلام وأخبرهم فقال: {هم الذين لا يكتنون، ولا يتطيرون ولا يسترقون، وعلى ربه يتوكلون} وفي الحديث مسائل ليس الآن مجال بحثها، ومعنى: "لا يتطيرون" أي: لا يعلقون أحداثهم بالطير كمن يتشام بالطير ومن يظن أن هناك فالاً حسناً أو فالاً مشئوماً هذا:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

فعلم الغيب عند الله ليس عند الطير، كذلك بعضهم يتفاءل أو يتشام بصوت الثعلب، أو بعضهم بصوت الغراب حتى يقول بعضهم:

ناح الغراب فقلت نح أولاً تنح فلقد قضيت من الأنام ديوني

ويقول النابغة:

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسود

فالعرب عندها سانح وبارح، فالسانح: إذا طار الغراب في الصباح على الميمنة سافروا، وإذا طار في الميسرة لم يسافروا، كانت أمة جاهلة قال تعالى: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ} [النساء: ١١٣] وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢] وقال: {وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢].

يذكرني هذا الحديث بحديث في الصحيحين لطرافته وحسنه، أورده هذه الليلة لأن فيه مسألة خاض الناس أي: اختلف الناس في مراد الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهذا الحديث هو في خيبر حيث أرسل عليه الصلاة والسلام من يفتحها فاستعصت عليهم فكان الناس مهمومين مغمومين مكروبين وبعد صلاة العشاء قال عليه الصلاة والسلام: {لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله يفتح الله على يديه} قال عمر: [[ما أحببت الإمرة إلا ليلة إذ]] أي: أحببت أن أكون أنا صاحب الراية؛ لأنه من مواصفاته أنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فليست رتباً عسكرية، ولا شهادات علمية، إنما هي رتبة عالية هي: حب الله والرسول، وبات الناس يدوكون من يعطاها، فصلى عليه الصلاة والسلام صلاة الفجر وسلم، والتفت إلى الناس وقال: {أين علي بن أبي طالب؟} قالوا: يا رسول الله! في خيمته في طرف

المعسكر، وهو لم يحضر صلاة الفجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يرى مد يده حيث أصابه رمد في عينيه، فقال عليه الصلاة والسلام: أين هو؟ قالوا: به رمد يا رسول الله لا يرى شيئاً، قال: عليّ به، فذهب الناس يقودونه إلى المعصوم عليه الصلاة والسلام، فلما اقترب منه تفل في عينيه فأصبح كأن لم يكن به رمد قال: {خذ الراية، وادعهم قبل أن تقاتلهم، لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم}.

فأين الإعلام العالمي الذي يقول: إن شباب الصحوة ودعاة الإسلام يريدون قتل البشرية؟ في الجزائر يوم خرج مليون جزائري قبل شهر من المساجد يكبرون ويهللون في شوارع الجزائر وهم يطالبون بحكم الله ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

قام عليهم الإعلام العالمي قال: الأصوليون يريدون إزهاق الأرواح، أتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله ليخرج الإنسان من الظلمات إلى النور! بعثه بالسعادة والنور والإيمان قال تعالى: {طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: ١- ٢] أما الصهيونية والعلمنة والزنادقة والحداثيون، والمهرجون، والمغنون، والضائعون فلهم الميدان والإعلام والمكانة، وأما هؤلاء فهم متهمون دائماً، تلاحقهم التهم، سبحانك ربي هذا بهتان عظيم.

وذكر الترمذي في حديث حسنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: {لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً} الطائر في الصباح من يتكفل برزقه إلا الله، حتى أن ابن تيمية له كلمة في هذا يقول: "الطيور في أوكارها تشدوا بذكره" إذا سمعت الحمام يغني فاعلم أنه يشدو بذكر الواحد الأحد، "والدود في الطين تلهج بذكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى" والحيتان في البحر، وجميع ما في

الأرض يسبح له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود:٦].

وقد سمعت بعض الفضلاء يذكر قصة، يقول: رأيت عصفوراً كان يأتي إلى رأس نخلة، يهاجر من مكان إلى مكان، ومن ثم يعود إلى رأس النخلة، والعصافير عند العرب لا تبيض في النخلات، قال: فتعجبت كيف يأتي العصفور إلى النخلة؟! فصعدت النخلة فوجدت حية عمياء ويأتي هذا العصفور برزق هذه الحية، فإذا اقترب هذا العصفور فتحت الحية فمها فأعطاهما اللحم والخبز، وهذه الحية العمياء في مكانها، رزقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا الرزق، وهذا عجب من الأعاجيب؛ فإن الله يرزق الحية العمياء وهي في جحرها فكيف لا يرزق الإنسان، حتى يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً} [الإنسان:٢].

حتى يقول بعض الفضلاء من الفلاسفة يقول: يخرج الإنسان من بطن أمه أول ما تضعه أمه ويداه مقبوضتان من حبه للدنيا وحرصه عليها، حتى يقول أحدهم:

ولدتك أملك يا بن آدم باكياً والناس حولك يضحكون سرورا

فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً سرورا

فهو التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وممن توكل على الله أصحاب الرسول عليهم الصلاة والسلام خرجوا في الصحراء مع العلاء بن الحضرمي! فانقطع بهم الماء في صحراء الربع الخالي، بحثوا عن الماء فلم يجدوا شيئاً، حتى ذكر في السير أن بعضهم حفر قبره وجلس عليه! فقام أحدهم وقال: يا علاء بن الحضرمي ادعُ الله أن يغيثنا،

فقام العلاء الحضرمي وقال: يا علي يا عظيم! يا حكيم يا عليم! أغثنا؛ فأنت غمامة لتوها فنزل القطر.

أنا أعرض عليكم قصة ربما سمعها الواحد منكم مائة مرة سامحوني في التكرار، لكنني أزعم أنني لا أكرر، وأن القصة ولو تكررت فهي في قالب آخر وفي مجال آخر:

لكن خذوا هذه القصة، وألقوها في دار الإلحاد العالمي والشيوعية العالمية في موسكو، فإذا لم يؤمنوا فاعلموا أنما يتبعون أهواءهم.

في يوم الجمعة يصعد الرسول عليه الصلاة والسلام على المنبر ويقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيقول الصحابة: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته -في جو المدينة صيف قارص، والشمس لامعة ليس هناك قطعة سحاب- يقول أنس: {والذي لا إله إلا هو، ما في السماء من سحاب ولا قزعة} فيأتي أعرابي ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يتكلم في موضوع آخر، والأعرابي يأتي من طرف المسجد -من باب الندوة فيدخل- فيقول الأعرابي: يا رسول الله! اجاع العيال، وضاع المال فادع الله أن يغثنا، فتوقف صلى الله عليه وسلم وقال: اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا.

قال أنس: {فسارت سحابة كالترس -الذي يضعه المقاتل على رأسه- فملأت جو المدينة ثم أرعدت، ونزل المطر وصار الماء يتصبب من سقف المسجد على وجه الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخذ يتبسم عليه الصلاة والسلام} هذا سيد المتوكلين، محمد صلى الله عليه وسلم، وكان يسجد في المحراب في الطين وبقي المطر أسبوعاً كاملاً ليل نهار لا ينقطع حتى يقولون: سال وادي قناة في المدينة شهراً كاملاً وهو يسيل وبعد

أسبوع في الجمعة دخل الأعرابي أو غيره، والرسول صلى الله عليه وسلم في الخطبة والمطر متواصل مدة أسبوع إلى الجمعة الثانية وهو مستمر فقال: يا رسول الله! جاع العيال، -أي: ما خرج بسبب المطر- وضاع المال، وانقطعت السبل، فادع الله أن يرفع عنا هذا المطر، انظر ما أسرع العبد، لا يستقر على حال البأس ولا على حال النعمة، متبجح هذا الإنسان يقول تعالى: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا} [الاسراء: ٨٣].

الإنسان إذا ألقى في السفينة، وأخذت تموج به في الهواء تجد الدعاء والتذلل والتضرع لله، فإذا خرج بطر، وآخر الصلاة، وعصى وتمرد على الله، قال: ادع الله أن يرفع عنا الغيث، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال: {اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الضراب وبطون الأودية ومنابت الشجر، قال أنس: فوالله ما يشير إلى جهة إلا انصب الغيث جهتها، قال: فخرجنا من المسجد في مثل الجوبة} أصبحت المدينة في مثل الجوبة، أصبحت الشمس فقط ترسل أشعتها إلى المدينة وأما حولها فغيث،: {أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ} [الطور: ١٥].

هذه واحدة من ألف معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم، وهي تنبيء عن توكله على الله عليه الصلاة والسلام.

وأتى البراء بن عازب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله! علمني دعاء أدعوه إذا أردت أن آخذ مضجعي -وفي بعض الألفاظ أنه هو الذي علمه- فقال عليه الصلاة والسلام: {إذا أويت إلى مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة وقل: اللهم إني أسلمت نفسي إليك وألجأت ظهري إليك، وفوضت أمري إليك، رغبة ورهبة إليك لا منجأ ولا ملجأ منك إلا إليك، أمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، ثم نم

فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة { وهذه وصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمقصود بهذا: حتى في النوم يجب أن تتوكل على الله عز وجل.

وكان عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح إذا خرج من بيته - في حديث أم سلمة - يقول: {اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي} وهذا دعاء مطلوب من المسلمين أن يقولوه المسلم كلما خرج من بيته، وفي رواية صحيحة من حديث الترمذي وأبي داود كان يقول عليه الصلاة والسلام: {باسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي} ويقول عليه الصلاة والسلام في صحيح مسلم وفي مسند أحمد: {يدخل الجنة أقوام أفئدتهم كأفئدة الطير} قال النووي: قيل هم المتوكلون على الله، وقال بعضهم: وهم في توكلهم على الله مثل الطير التي هي أعظم المخلوقات توكلًا على الله، تجده يخرج في الصحراء لا يدري هل يلقي حباً أو لا، فيلقى حباً ويملاً الله بطنه طعاماً بدون حيلة.

تدبير الخطة لقتل يوسف

اجتمع إخوة يوسف، ويوسف ليس معهم، وقال قائلهم: {إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [يوسف: ٨] إخوان في بيت واحد من أب واحد قالوا: أخطأ حين قدم أخانا، لماذا يقبله أكثر مما يقبلنا؟ لماذا يجلسه بجانبه ولا يجلسنا بجانبه؟ ولذا فهذا درس في التربية؟ من كان عنده أبناء أو بنات فلا يميز أحدهم على الآخر، فإن هذا يورث الضغينة والحقد بينهم، إلا أن يكون طفلاً صغيراً فله أن يميزه بين الآخرين: {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [يوسف: ٨] فكانت النتيجة: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا

صَالِحِينَ} [يوسف:٩] مكيدة ما سمع التاريخ بمثله، شاب بريء طفل عاقل من أبناء النبوة، وليس البعيد الذي سيقطله بل إخوانه: {اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا} [يوسف:٩] أو اذهبوا به إلى أرض بعيدة، وسوف تنفردون بأبيكم وينفرد بحبكم - وظنوا أن هذا سوف يحدث- ثم تتوبون من الخطأ وتستغفرون من الجريمة ويتوب الله عليكم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: [[نوووا بالتوبة قبل الذنب]] {وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} [يوسف:٩ - ١٠] والقائل أظنه أكبرهم، القتل صعب وجريمة نكراء، فتحرك هذا الأخ برحمة الأخوة والقرابة والعاطفة، وقال: لا تقتلوه وألقوه في بئر مغيبة إن كنتم مصممين على هذه الفعلة، وأجمعوا أمرهم على هذه المكيدة، ولكن من يخرج يوسف من بين يدي أبيه عليه السلام، فيأتون ويجلسون:

كاد المريب أن يقول خذوني.

فيقولون: يا أبتاه! مالك لا تأمنا على يوسف أنحن خونة؟! أتشك فينا؟! ماذا فعلنا هل أسأنا إليه! نحن نحبه -والله- وننصح له ولا نريد إلا الخير له: {قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} * أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [يوسف: ١١ - ١٢] أرسله غداً معنا يرحى الغنم، وهم لا يحتاجون راعياً فإنهم أحد عشر، وربما كان بعض الرعاة أكثر من الغنم، فهم لا يريدون أن يعاونهم بالرعي، ولكن أضافوا عذراً آخر وقالوا: ويلعب، فهو لم يشك ولكنهم شككوه.

{قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ} [يوسف: ١٣] أولاً: أجد وحشة أن يخرج من بيتي، وأخاف أن يأكله الذئب، قال ابن

عباس رضي الله عنهما: [[لو لم يقل لهم أخاف أن يأكله الذئب، لما قالوا له في الأخير أكله الذئب]] لأنه ليس في أذهانهم أنهم سيقولون: أكله الذئب.

فهم يقولون: نلقيه في غيابة الجب ولم يجهزوا عذراً لكنه فتح لهم طريقاً وأتى لهم بعذر، فقال: أخاف أن يأكله الذئب، ولذلك في بعض الآثار: أن الله عاقب يعقوب عليه السلام بسبب هذه الكلمة أن أفقد عليه ابنه أربعين سنة، وأوحى إليه، قال: يا يعقوب! أخفت الذئب ولم تخف مني ولم تثق بي، كيف تقول: أخاف أن يأكله الذئب، ولم تقل كما قلت في آخر القصة: {قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤]؟ ولذلك في آخر السورة بدأ يغير من هذا الكلام فكان يقول: {قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: ٦٤] فخرجوا، وعذر أكل الذئب في أذهانهم.

فلما أصبحوا في الصحراء بغنمهم، الغنم ترتع وهم يلعبون والجو ساكن وهادئ، والطيور تغرد وتزغرد، ولكن القلوب تغلي بالحقد على الأخ القريب الصغير، فأخذوه أول ما وصلوا إلى الصحراء ولم يتركوه يرتع ويلعب كما قالوا، وإنما قيدوه بحبل وأنزلوه في البئر، فأخذ يستغيث ويظن أنهم يمزحون، وقد خيروه بين القتل، وبين أن يطرحوه في البئر:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانياً

تمنيها لما تمنيت أن ترى صديقاً فأعيا أو عدواً مداحياً

فأنزلوه وهو يتشبث بالحبل ويبكي، ويقول له أخوه الأكبر وهو يستهزئ به ويتمكم، كما في الآثار: [[هذه أحد عشر كوكباً وهذا الشمس والقمر يسجدون لك]] فأخذ ينزل في الحبل، وذكر ابن رجب في جامع العلوم والحكم أنه لما نزل أخذ يقول: "حسبي الله ونعم الوكيل" ويقول: {قَسْبَحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس: ٨٣]

قال ابن عباس وهو يبكي عند قراءة سورة يوسف: [[هدأت الحيتان في البحر من التسبيح، ولم يهدأ يوسف عليه السلام من التسبيح]] فأنزله، فلما نزل قطعوا الحبل فبقى في حفظ الله، فصار في حفظ الله ورعايته، وفي عين الله.

قطعوا الحبل وتركوه في البئر، وهو يلهج بذكر الله في صحراء ليس معه فيها إلا الله، الذئب حوله والجو مقفر، لا خبز ولا ماء ولا طعام ولا أهل ولا جيران ولا أربة، لا ماراً يمر، وإنما الذئب يعوي في صحراء مدوية:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيّر

صور من معايشة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن

قام عليه الصلاة والسلام بعد أن نام، قال ابن عباس: {فرأيت في الظلماء} فما كانت هناك سُرُج ولا كهرباء، وكان بيته صلى الله عليه وسلم يلتقي رأسه بطرف الجدار ورجلاه الشريفتان بالطرف الآخر من ضيق بيوته صلى الله عليه وسلم.

فهو أتى ليبني الأرواح والقلوب عليه الصلاة والسلام، أما الأجسام والدور والقصور فلهن أناس متخصصون خلقهم الله لها، ولذلك يقول معاذ، أحد دعاة الإسلام، لما حضرته الوفاة: [[والله إني لم أكن أحب الحياة لغرس الأشجار، ولا لجري الأنهار، ولا لعمارة الدور، ولا لرفع القصور؛ ولكن لمكابدة الليالي، ولمزاحمة العلماء بالركب في حلق الذكر، ولظماً الهواجر]] {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

قام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذهب النوم من عينيه، وأخذ يتلو: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

قرأ الآيات العشر حتى ختم سورة آل عمران، ثم قام عليه الصلاة والسلام.

وعند ابن جرير الطبري وابن مردويه بسند يقبل التحسين قال بلال: {خرجت وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاة الفجر، فوجدته يبكي صلى الله عليه وسلم، فقلت: مالك يا رسول الله! بأبي أنت وأمي؟ قال: يا بلال! قلت: لبك وسعديك يا رسول الله! قال: أنزلت علي آيات بينات، ويل لمن قرأها ولم يتدبرها، قلت: وما هي يا رسول الله؟ فأخذ يقرأ وهو يبكي: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وربما كان عليه الصلاة والسلام يقوم فيصلي من الليل، وفي بعض الأحيان يقوم ويتوضأ ويخرج إلى المدينة، وينشط إلى بيوت الأنصار والمهاجرين وهم يقرءون القرآن، فيبكي وهو يستمع لهم صلى الله عليه وسلم.

ومن ذلك ما ثبت في الصحيح عن عمر وابن مسعود وعائشة رضي الله عنهم قالوا: {خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فسمع أبا موسى الأشعري يقرأ القرآن، فوضع صلى الله عليه وسلم يديه على نافذة المسجد في الليلة الظلماء وهو ينصت لأبي

موسى} وأبو موسى الأشعري من أهل اليمن، أُوتي صوتاً ما أجمل منه! ولا أحسن منه! ولا أثر منه! يقول مسروق: [[سمعت أبا موسى يقرأ، فوالله ما سمعت صنجاً ولا طنجاً ولا نأياً ولا وترأ أعجب من صوته!]] فأخذ صلى الله عليه وسلم يستمع وينصت -وذاك يصلي ويقرأ وهو لا يعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يستمع له- وأخذ صلى الله عليه وسلم يبكي، فلما سمع نساؤه بكاءه صلى الله عليه وسلم، أتين ووضعن أيديهن معه وبجانبه يستمعن ويبكين، فلما أصبح الصباح لقي الرسول صلى الله عليه وسلم أبا موسى وقال له: يا أبا موسى! لو رأيتني البارحة وأنا أستمع إلى قراءتك، وقد أوتيت مزمراً من مزامير آل داود، فقال أبو موسى: يا رسول الله! أستمع لي البارحة؟ قال: إي والله، قال أبو موسى: والذي نفسي بيده يا رسول الله! لو علمت أنك تستمع لي لحبرته لك تحبيراً! أي جودته أكثر مما سمعت، وحسنته أكثر مما وقع في أذنيك ليكون أكثر تأثيراً.

ولذلك تسابق أبو بكر وعمر مرة ثانية إلى أبي موسى يبشرانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم يستمع إليه، قال عمر: [[لما صليت الفجر ذهبت إلى بيت أبي موسى لأبشره ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت أبو بكر قد سبقني، فقلت: والله لا أسابقه بعد اليوم]] كلما أتى عمر رضي الله عنه يسابق أبو بكر سبقه أبو بكر.

ألا لا أحب السير إلا مصعداً ولا البرق إلا أن يكون يمانياً

ولذلك كان أبو بكر أسبق الناس، فهو في الجهاد أستاذ الجهاد، وفي العبادة أول الصحابة، وفي الخلافة الرجل المرجى والمرشح رضي الله عنه وأرضاه، لا شيء إلا لشيء وقَر في قلبه وهو الخشية، حتى كان يصلي بالناس ويقطع قلبه بالبكاء وهو لا يزال في سورة الفاتحة لما علم من معرفة الله عز وجل.

وقد أسلفت لكم أنه يخرج عليه الصلاة والسلام في المدينة، وفي تفسير ابن أبي حاتم بسند جيد عن امرأة من الأنصار قال: {خرج صلى الله عليه وسلم ذات ليلة يتمشى في شوارع المدينة، فسمع عجوزاً من الأنصار تصلي في الليل، وتقرأ: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} [الغاشية: ١] فوضع رأسه صلى الله عليه وسلم على سائر الباب، وجعل يستمع معها وهي تردد وتقول: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} [الغاشية: ١] فيقول: نعم أتاني، نعم أتاني، وهو يبكي حتى الصباح صلى الله عليه وسلم}.

لفتة مع دعاء أبي بن كعب

جاء عند الترمذي من حديث أبي بن كعب قال: قلت: يا رسول الله! كم أجعل لك من صلاتي؟ -أي: من دعائي- قال: ما شئت، قال: أجعل لك الثلث؟ قال: ما شئت وإن زدت فأحسن، قال: النصف؟ قال: ما شئت وإن زدت فأحسن، قال: الثلثين؟ قال: ما شئت وإن زدت فأحسن، قال: أجعل لك صلاتي كلها، قال: إِذَا يُغْفَرُ ذَنْبُكَ، وَتُكْفَى هَمُّكَ}.

حديث صحيح.

ولسيرة أبي بن كعب طعم في قلوب الموحدين، وهو سيد القراء، وكان عمره بهابه كثيراً، وكان إذا تنازع القراء في عهد عمر عادوا إلى أبي، بل ذكر أهل الحديث والفقه أن الرسول عليه الصلاة والسلام تجاوز آية وهو يصلي بالناس، فالتفت إلى الناس بعد الصلاة فقالوا: يا رسول الله! نُسِخَتِ الْآيَةُ، أم نسيته؟ قال: {يا أبا المنذر! أكما يقولون؟}؛ لأنه مرجعية ثابتة في علم القراءة، فهو رئيس قسم القراء في عهده عليه الصلاة والسلام.

وقد مرض بالحُمَّى ثلاثين سنة، حتى كُفِّرَت سيئاته -إن شاء الله- وخطاياهُ.

استقبله عليه الصلاة والسلام فقال له: {أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥] فضم -صلى الله عليه وسلم- كفه وضرب في صدره وقال: لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ {أي: افرح واغتنب بهذا العلم الصافي، التَّمِيرُ الثابت، العميق الأصيل.

وجاء عند مسلم: {أن سورة البينة لما نزلت على المعصوم عليه الصلاة والسلام أمر الله جبريل أن يأمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقرأها على أبي بن كعب، فقام عليه الصلاة والسلام وذهب إلى أبي في بيته، وقال: إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة البينة.

قال: أوسَمَّاني في المَلَأُ الأعلى؟ -أي: هل ذكرني عند الملائكة باسمي أبي بن كعب؟ - قال: نعم سَمَّاكَ {فأَجْهَشَ بالبكاء.

أقسام المرض في القرآن

ذكر الله المرض في القرآن على ثلاثة أقسام:

١/ مرض الجسم:

أولاً: مرض الجسم قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ} [النور: ٦١] وهذا هو مرض الجسم وليس مرض القلب: {أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى} [النساء: ١٠٢] أي مرض الجسم.

٢/ مرض الشهوة:

ثانياً: مرض الشهوة، إنسان قلبه مريض بالشهوة، إذا سمع صوت امرأة تحرك قلبه، بعضهم فيه شهوة ولو كان عنده أربع زوجات لكن مرض الشهوة في قلبه، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ} [الأحزاب: ٣٢] وليس هذا مرض النفاق بل هذا مرض الشهوة.

٣/ مرض النفاق:

ثالثاً: مرض النفاق قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} [البقرة: ١٠] وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [التوبة: ١٢٥].

٤/ علاج هذه الأمراض:

إذاً فالأمراض ثلاثة في القرآن: مرض الجسم وهو أقلها وأيسرها وأخفها ولا عبرة به، بل لو تقطع الإنسان على السرير من المرض لكان خفيفاً يسيراً، وأما مرض الشهوة فهو أثقل، ودواؤه الصبر، وأما مرض النفاق فهو أخطر ودواؤه اليقين، ولذلك ذكر الله اليقين والصبر في موضع واحد فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: ٢٤] لماذا ذكر الصبر؟ قالوا: عن الشهوات، ولماذا ذكر اليقين؟ قالوا: عن الشبهات، يقول ابن تيمية: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

ثم يقول سبحانه: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ٧] هنا تساؤلات:

أولها: لماذا ختم الله على قلوبهم؟ لأنهم لم يهتدوا {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥].

ثانيها: لماذا قدم القلوب وجمعها؟ لأن لكل واحد منهم قلباً، ولا يصح أن يقال في اللغة على قلوبهم، أما السمع فإنه يؤخذ منه المصدر فيقال: على سمعهم؛ لأنه قال هنا: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [البقرة: ٧] ولم يقل: وعلى أسماعهم؛ بل أتى بها مفرداً أما القلب فلا يفرد.

ثالثها: ولماذا أتى بالسمع قبل البصر؟ لأن آلة السمع في العلم أقوى من آلة البصر، قال سبحانه وتعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: ٧٨] فبدأ بالسمع؛ ولذلك من يستخدم آلة السمع في طلب العلم يكون أقوى ممن يستخدم آلة البصر، ووجد أن العمي أذكى الناس؛ إذا استخدموا أسماعهم بعد تقوى الله في السماع، والسماع الذي تسمعه أنت أقوى من القراءة التي تقرأها، وحضورك للدرس وسماعك له أقوى من نظرك في الكتاب حين تقرأه، لأنها تشترك الآلات جميعاً في استقبال الصوت وهذا مجرب وملحوظ، فالله بدأ بالسمع قال سبحانه وتعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} [البقرة: ٧] ولم يقل: أسماعهم؛ لأنه يجوز أن يجعلها مفرداً هنا، وليس فيه ثقل في العربية، أي: في البلاغة، وأما لو قال: على قلوبهم، فإنه لا يستقيم.

{وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} [البقرة: ٧] هنا الأبصار الذي يظهر -والله أعلم- أنها هذه الأبصار التي يرون بها، ليست البصائر ولو أنه قد يقال: إنها البصائر.

منهج القرآن في الوسطية والبشرى

قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦] أن تتكلم للناس وأنت تعرف أن لهم طاقات محددة، فلا تكلفهم فوق الطاقة قال تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨] فطبيعة الدين أنه ليس يناسب الفطر {زَيَّنَّا لَا تُؤَاخِذُنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة: ٢٨٦] وفي الحديث الصحيح: {قد فعلت قد فعلت} وابن تيمية يرويه في الفتاوى أنه قال: {نعم، نعم، نعم} وهذه رواية مسلم، ومن طبيعة الرسول عليه الصلاة والسلام أنه {يُضَعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف: ١٥٧] أي: أن الأغلال التي كانت على الأمم السابقة قد وضعها عليه الصلاة والسلام عن أمته.

أتى بهذه الآية ابن تيمية رحمه الله وهو يتكلم عن مسح الخفين، والحقيقة انظر إلى العقل إذا تدخل في الشريعة فوق حدوده، أتى بعض الفقهاء، وقالوا: يشترط في الخفين تسعة شروط: أن يكون (جلداً - مخروzá - قائماً بنفسه - لا ينفذ الماء - يمشى فيه-) إلى آخر تلك الشروط التي كأنها شروط المجتهد المطلق.

من أين نأتي لكم بخف تنطبق عليه هذه الشروط؟ أنأتي به من السماء.

قال ابن تيمية: شروط باطلة، الرسول صلى الله عليه وسلم {يُضَعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف: ١٥٧] هذا مثل من الأمثلة.

أيضاً يقول سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عن المتنطعين: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ} [الحديد: ٢٧] من هذا المبتدع الذي يبتدع أحكاماً ويسير الأمة على مزاجه؟ فمن حاد عن مزاجه وعن منهجه وعن موقفه هو، فهو فاسق كافر يमित القضايا، منهزم يميع المنهج الرباني، هكذا يحكم على الناس، قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ} [الحديد: ٢٧] أنا أعرف أن من يتسرع ويتعجل يريد رضوان الله، ولكن ليس كل من ابتغى رضوان الله أصاب، والله عز وجل ذكر المبتدعة، فقال: {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [فاطر: ٨] قال سفيان بن عيينة: نزلت هذه الآية في المبتدعة، زين الله لهم سوء أعمالهم، أتظن عمران بن حطان كان يظن أنه فاجر أو مخطئ، أو الجعد بن درهم، أو الجهم بن صفوان؟ لا، يقول ابن المبارك في الجهم -لأنه كان داعية، وكان يضحي عن مبادئه أكثر من تضحيتي أنا وأنت عن مبادئنا- يقول:

عجبت لدجال دعا الناس جهرةً إلى النار واشتق اسمه من جهنم

الجعد بن درهم ماذا فعل؟ مخطئ فاجر ضال؛ رفض أن يتنازل عن خطئه ويظن أنه صائب، قال له خالد بن عبد الله القسري: أعود عن رأيك، قال: لا، فقال في خطبة العيد: يا أيها الناس! إن الجعد بن درهم زعم أن الله لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً، ألا إني مضح بـ الجعد بن درهم ضحوا تقبل الله منكم أضحياتكم، ثم نزل فأخذه بالخنجر قتله حتى يقول ابن القيم:

من أجل ذا ضحى بـ جعد خالد القسري يوم ذبائح القربان

إذ قال إبراهيم ليس خليله كلا ولا موسى الكليم الداني

شكر الضحية كل صاحب سنةٍ لله درك من أخي قربان

يقول: من أراد أن يضحى فليضح مثله، البدنة عن سبعة.

أيضاً يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {طه * مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: ١- ٢] يقول بعض المفسرين: مفهوم المخالفة في الآية أن تسعد، نزل القرآن للسعادة، فالتلاوة فيها سعادة، والحكم به في الناس سعادة، تبيينه للناس سعادة، لا أن تشقي الناس، لماذا نشقي الناس بالقرآن؟ لماذا نشقي الناس بالسنة؟ وسوف أصل -إن شاء الله- في هذه المحاضرة إلى مواقف محمد عليه الصلاة والسلام، وليست من كلامي ولا من كلام آخر من المجاهيل النكرات، لكن من كلام من يجب علينا على رغم أنوفنا أن نستمع له، وأن نتحاكم إليه، كما قال مالك: ما من إنسان إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} [الأعلى: ٨] فاليسر من طبيعته في العبادة، وفي الدعوة، وفي التربية، والأخلاق، والسلوك، تقول عائشة كما في صحيح مسلم: {ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما} إذا كان الناس يستجيبون لك بالكلمة اللينة، فلماذا الغضب؟! ولماذا التشنج في العبادة؟! ولماذا الجرح؟! ولماذا الوصم بالكفر والفسق؟! لماذا؟!

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} [الطلاق: ٧] فلا تطلب من الضعيف في العبادة ما تطلبه من القوي؛ لأنه قد علم كل أناس مشربهم.

ومن صفاته عليه الصلاة والسلام: أنه رحمة للعالمين، فهل سأل كل واحد منا نفسه؟ هل سأل الإمام والخطيب والعالم والقاضي ورجل الهيئة نفسه: هل هو رحمة للعالمين أم هو شقاء للعالمين؟ رحمة للعالمين، فلم يقل رحمة للناس فيخرج الحيوانات، ولم يقل للمؤمنين فيخرج الكافرين، ولم يقل للرجال فيخرج النساء أما

الرازي فقد مد نَفْسَه في هذه الآية وتكلم كثيراً، والعجيب أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان رحمة للعجماءات، رحمة للطيور، رحمة للزواحف ورحمة للوحوش.

في سنن أبي داود بسند صحيح: {أن الرسول صلى الله عليه وسلم جلس تحت الشجر مع أناس من الصحابة، فأنت حمامة -طائر أنثى- كان أحد الصحابة، قد أخذ أفراخها، فأنت تشتكي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن بلا كلام، ولا نطق حامت على رأسه عليه الصلاة والسلام ففهم أنها تشكو، قال: من فجع هذه بأفراخها، قال رجل: أنا يا رسول الله! قال: رد عليها فراخها! فلما رد أفراخها، ففررت فرحة جذلانة وعادت إلى عشها.

يقول أحد الشعراء في هذه:

جاءت إليك حمامةٌ مشتاقةٌ تشكو إليك بقلب صب واجف
من أخبر الورقاء أن مكانكم حرم وأنك ملجأ للخائف

هذه رحمته عليه الصلاة والسلام، وسوف أصل إلى وقفة مع رحمته عليه الصلاة والسلام فيما يأتي.

أيضاً وصفه ربه سبحانه وتعالى أنه (عزيز عليه ما عنتم) أي: أي شيء يعنت الأمة يعز عليه عليه الصلاة والسلام ويكلف عليه ويشق عليه قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ} [التوبة: ١٢٨] وقرأ ابن مسعود: من أنفسكم، يعني: من أغلاككم، ومن أحسنكم، ومن أرفعكم نسباً وذكرنا {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨].

التبكير بالسفر صباحاً

ذكر في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يخرج صباحاً إذا أراد السفر، أي: بعد الفجر، وهذا درسٌ للمسلمين في أسفارهم أن يحرصوا على السفر بعد صلاة الفجر، للحديث الصحيح عن أبي صخر الغامدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {بارك الله لأمتي في بكورها} رواه أحمد والترمذي وغيره، وهذا الحديث هو الوحيد لـ أبي صخر الغامدي، وهذه بشرى لآل غامد أنه وجد لهم حديث في مسند الإمام أحمد، وهذا شرفٌ عظيم، وذكر أهل السير في ترجمته أنه لما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: {بارك الله لأمتي في بكورها} فكان يذهب بعد الفجر يتاجر حتى كثر ماله، فلا يدري أين يضعه.

ومنها: أن السفر المرغوب يوم الخميس، فإنه ذكر كعب بن مالك أن الرسول صلى الله عليه وسلم سافر يوم الخميس، وكان غالباً ما يسافر صلى الله عليه وسلم يوم الخميس، والذي ينهى السفر فيه يوم الجمعة، وبعض أهل العلم على كراهية السفر يوم الجمعة، وبعضهم يقول: الكراهة والتحريم بعد الأذان الأول، إذا أذن الأذان الأول فلا تسافر، أما في صباح الجمعة فلك ذلك، لكن الأحسن أن يستقر العبد يوم الجمعة فيجعله للعبادة والغسل والتهيؤ للصلاة والذكر والتلاوة وتدبر القرآن؛ لأنه عيد المسلمين.

وقفات مع بيعة العقبة

كان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب، وكان يمر على السوق فيقول: من ينصرني؟ يقول لبني شيبان: انصروني، وامنعوني مما تمنعون به نساءكم وأطفالكم ولكم الجنة فيقولون: لا نستطيع، يمر على القبيلة الأخرى فيعرض نفسه

عليه الصلاة والسلام فيعتذرون، وكل قبيلة تعتذر لماذا؟ لأنهم يقولون: لو أننا نصرناه لحاربنا العرب عن وتيرة واحدة.

ويوم أراد الله أن يرفع الأنصار جعلهم أنصار الرسول صلى الله عليه وسلم، فأتى عليه الصلاة والسلام في العقبة ليباع الأنصار، قال عبدالله بن رواحة: يا رسول الله! على ماذا تباعنا؟ قال: أباعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأطفالكم وأموالكم، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا عند الله؟ -أي: ماذا تعطينا من مكافأة إذا نصرناك وأويناك وجاهدنا معك؟ - قال: لكم الجنة، قالوا: ربح البيع لا نكيل ولا نستكيل.

يقول ابن القيم معلقاً على هذه البيعة: {البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإذا تفرقا فقد وجب البيع} ولذلك أعلنوا بيعتهم رضوان الله عليهم، وكانوا ينتظرون متى يسلمون أرواحهم رخيصة في سبيل الله.

وأنا أذكر نماذج الأنصار كما فعل ابن حجر لما شرح هذا الحديث، عرض لبعض النماذج باستطراد ليثبت أن الأنصار بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الجهاد، كانوا يحضرون المعركة وهم ينشدون ويترنمون ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

من أبطالهم: أبو دجانة، سلم نفسه في أحد للبيعة، لكنه ما قتل ذاك اليوم، أتى إلى المعركة فوقف عليه الصلاة والسلام قبل المعركة، فمد سيفه صلى الله عليه وسلم، قيل: ذو الفقار، وقيل: غيره، قال: {من يأخذ هذا السيف؟ فمد الصحابة

أياديهم كلهم يريد أن يأخذ السيف، قال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟ فسكنت الأصابع وهدأت الأصوات، وقام أبو دجانة وقال: أنا أخذه يا رسول الله بحقه، فما هو حقه؟ قال: حقه أن تضرب به في الأعداء حتى ينحني -فما قال: تضرب به فحسب، وإنما تضرب به حتى ينحني- فلما أخذه أخرج عصا حمرأ من جيبه، وشد رأسه وقال:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

ألا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول

فلما أخرج عصا حمرأ سكت الأنصار وقالوا: أخرج أبو دجانة عصا الموت! يسمى هذا خطر ممنوع الاقتراب قال أنس: فتتبعت أبا دجانة فكان يفلق بالسيف هامات الكفار حتى أتى بالسيف في العصر وقد انحنى.

سبحان الله! سيف ينحني؟ يقول النابغة الذبياني يمدح الغساسنة فيقول:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

تخيرن من أزمان يوم حليلة إلى اليوم جربن كل التجارب

يقول: من أزمان جداتهم وسيوفهم معهم، لا عيب فيهم إلا أن أسيافهم مثلثة، وهذا يسمى عند أهل البلاغة: المدح بما يشبه الذم.

كان عكاشة في معركة بدر يضرب بالسيف حتى تكسر، وما تبقى منه إلا المقبض، فأخذ صلى الله عليه وسلم عوداً من خشب، وقال: خذ هذا السيف بارك الله لك فيه،

فهزّه صلى الله عليه وسلم فتحول سيفاً بإذن الله -وقد ذكر هذه القصة ابن القيم وابن هشام وابن إسحاق - هز الخشب عليه الصلاة والسلام فأخذه عكاشة وقتل به، وبقي معه حتى قال أهل العلم: دفن معه في القبر.

وحضر قتادة بن النعمان معركة أُحُد، وهو من الذين بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام يوم العقبة، فلما حضر المعركة رميت عينه اليمنى فسالت عينه على خده، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: باسم الله، ثم أعادها مكانها وأرجعها عليه الصلاة والسلام، فكانت أجمل من العين الأخرى { حتى يقول ابنه لما يمتدح:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد

ومن أهل الأنصار من أهل بيعة العقبة: عبد الله بن عمرو الأنصاري حضر في معركة أُحُد فباع نفسه من الله، وقال: اللهم خُذ من دمي هذا اليوم حتى ترضى، فسلم نفسه من الله فقتل، ضرب أكثر من ثمانين ضربة، حتى يقول صلى الله عليه وسلم لابنه جابر: {إِبْلِكِ أَوْ لَا تَبِكِ}، فوالذي نفسي بيده، ما زالت الملائكة تظلل أباك بأجنحتها حتى رفعته، وقد كلمه الله كفاحاً بلا ترجمان {

هذه قصص استعرضتها لما قال كعب بن مالك إنه من أهل بيعة العقبة، أما الدرس فعنوانه (الفرج بعد الشدة) أي: أنها إذا اشتدت الشدائد واحتكمت الضوائق فلا يفرجها إلا الله عز وجل.

لأحد أهل اليمن وهو شاعر يماني عظيم، له قصائد طويلة.

فابن دريد يقول:

يا ظبيةً أشبه شيء بالمها ترعى الخزامي بين أشجار النقا

فعارضه اليميني هذا بقصيدة في العقيدة كأنها قذائف من القلب يقول:

سبحان من يعفو ونهفو دائماً ولم يزل مهما هفا العبد عفا

يعطي الذي يخطي ولا يمنعه جلاله عن العطا لذي الخطا

لطائف الله وإن طال المدى كلمحة الطرف إذا الطرف سجا

يقول ابن الجوزي في صفة الصفوة: "لا يفرج الكرب إلا الله، ولا يرزق إلا الله".

وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وكتابات ابن تيمية تدور حول العبادة والرزق، وكشف الضر من الله عز وجل.

يقول ابن الجوزي في قصته: "مر رجلٌ فرأى عصفوراً ينقل لحماً إلى نخلة، قال الرجل: فتعجبت لأن العصفور لا يعيش على النخل، فصعدت النخلة فوجدت في النخلة حية عمياء، قال: إذا أتى العصفور باللحم صوّت العصفور، وترنم بصوته، ففغرت فاهاً وهي عمياء، فألقى في فمها اللحم وعاد، فعلمت أنه لا يرزق إلا الله الواحد الأحد".

وعلى سبيل المثال عندما استطردنا في ذكر الحيوانات يذكر ابن القيم في مفتاح دار السعادة قصة أرويهما على ذمة ابن القيم وهي قصة النملة المشهورة، لكن لا بأس بتكرارها.

كرر العلم يا جميل المحيا وتدبره فالمكرر أحلى

قص ابن القيم علينا قصة يقول: كانت هناك نملة خرجت من جحرها تطلب الرزق، والله عز وجل يتجلى في خلق النملة ويتجلى في خلق النحلة، ويتجلى في كل شيء قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦] {وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨] كلها تدل على الواحد الأحد.

قل للطبيب تخطفته يد الردى من يا طبيب بطيئه أرداكا!

قل للمريض نجا وعوفي بعدما عجزت فنون الطب من عافاكا!

والنحل قل للنحل يا طير البوا دي ما الذي بالشهد قد حلاكا!

وإذا ترى بالثعبان ينفت سمه فاسأله من ذا بالسموم حشاكا!

واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا!

يقول: جلس رجل عند بيت نملة، وكان هناك رجل جرادة بجانب بيت النملة، فخرجت النملة فوجدت رجل الجرادة، فحاولت أن تزحزحها وتسحبها إلى بيتها فما استطاعت، فعادت تأخذ نقالات وحمالات؛ لأن النمل ثلاثة أقسام: ملكة، وهذه لا تشتغل وإنما تصدر الأوامر ولها عاملات حولها وخدم، وهناك شغالات همها تبني خلايا البيض والبيوت وتصلح الأعشاش، وهناك خدم عمال، وهؤلاء جنود متطوعون يأتون بالرزق، ذلك من حكمة الواحد الأحد، ذلك خلق الله، قال تعالى: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} [لقمان: ١١] وقال سبحانه: {وَإِنْ يَسْأَلُكُمُ الدُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج: ٧٣] خرجت فحاولت أن تجر

رجل الجرادة فما استطاعت، فعادت فأخبرت الشغالات أو الخدم، ففي أثناء عودتها ومعها ما يقارب الثلاثين نملة فأتى الرجل، فرفع رجل الجرادة، فبحثوا في المكان فما وجدوا شيئاً فعادوا، ووقفت النملة وحدها مكانها، فلما رجع البقية أعاد لها رجل الجرادة، فحاولت أن تسحبها ولكنها لم تستطع، فعادت فكلمتهم فأتوا، فرفع رجل الجرادة، فبحثوا ولم يجدوا شيئاً فرجعوا، ثم وضع الرجل، فأنت تسحب فما استطاعت، فعادت فكلمتهم فأتوا فرفع الرجل فما وجدوا في المكان شيئاً، قال: فتحلقوا على هذه النملة فقطعوها إرباً إرباً".

ذكرها ابن القيم في مفتاح دار السعادة، والعهدة على ابن القيم وهو ثقة عند أهل السنة والجماعة.

والذي يؤخذ من هذا: أن الفرج من عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يفرج الكرب إلا هو تبارك الله رب العالمين.

من ضمن هذه الكرب التي مرت قصة أكررها كثيراً، لكن لا بأس بإيرادها:

يقول ابن القيم في كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي "كان هناك رجل تاجر وخرج في تجارة، فعرض له أحد قطاع الطرق، فلجأ إلى الله فأنجاه الله".

وهناك قصة إبراهيم عليه السلام حينما أرادوا أن يلقوه في النار، تقطعت به الأسباب، وتقطعت به الحبال إلا من ذي الجلال والإكرام، أتاه جبريل فقال لإبراهيم: "ألك إِيَّ حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فنعم" والصحيح أن الإنسان يلجأ لا إلى جبريل ولا إلى ميكائيل ولا إلى إسرافيل ولا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء لا

ينفعون ولا يضرّون ولا يشافون ولا ينجحون ولا يرزقون ولا يشفون، وإنما يفعل ذلك الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً} [الفرقان: ٣].

المحبة تستلزم الطاعة

ثابت بن عامر بن عبد الله بن الزبير، قال: يا رب! أمتني ميتة حسنة، قالوا: وما هي الميتة الحسنة؟ قال: أن يتوفاني ربي وأنا ساجد، فطالت به الحياة وعلم الله أنه صادق: {فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ} [محمد: ٢١] {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩] وأتت إليه منيته في وقت صلاة المغرب، فإنه لما كان في حالة الموت فسمع: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، قال: احملوني إلى المسجد، قالوا: أدركك الموت، قال: أسمع حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح ولا أقوم، لا والله! فنقلوه فلما أصبح في السجدة الأخيرة قبض الله روحه.

فهذه هي الميتة الحسنة.

فأهل الحب هم أهل الإيمان والحب والطموح.

قال أبو الحسن الندوي في معرض كتابه مسيرة الحياة: عين بلا إيمان مقلّة عمياء، وأمة بلا إيمان قطيع من ظأن وغنم، ونحن نقول: كتاب بلا إيمان كلام مصفف، وقصيدة بلا إيمان كلام ملفف، وعقل بلا إيمان ضلال وضياح وخسار ودمار وعار، لينتبه كل منتبه أن العقل لا يأتي بالدعوى، يقول ابن القيم في مدارج السالكين، وهو يتلطف مع المحبين، ويتكلم عن يدعي حب الله عز وجل ثم يكذب، أقواله في واد وادعاؤه في واد آخر:

أصحيح أن من يحب الله عز وجل يتدثر في فراشه وصلاة الفجر ينادى إليها؟ كذبٌ والله! إن هذا لم يحب الله، ولو أحب الله لأتى بيت الله، ولصلى مع المسلمين، ولتشرف بوضع جبهته في الأرض، فإن الذي لا يضع جبهته في الأرض لله يضعها لغير الله، والذي لا يمد يده سائلاً الله، يمدّها لغير الله، وهذه قاعدة.

فلا بد للإنسان من إله: الله أو غيره، لذلك يقول ابن تيمية: الإنسان همام حارث - كما في الحديث الصحيح - لا بد لقلبه أن يهيم ولا بد له أن يزاول شيئاً، فلا بد له من إله يألّيه وهو الله تبارك وتعالى، واسم "الله" معناه الذي تأله القلوب وتحبه، ولا يركن القلب ولا يرتاح القلب إلا مع الله.

وقد ذكر عن سيبويه النحوي: أنه رئي في المنام فقالوا: ماذا فعل الله بك؟ - سيبويه توفي وعمره (٣٢ سنة) وقد أُلّف في النحو، ولو كان في الكتب معجزة - غير كتاب الله وسنة المصطفى - لكان هذا الكتاب، ولكن كتاب الله هو المعجز ونستغفر الله، لكن قالها أبو حيان المصري النحوي - فلما رئي في المنام، قالوا: ماذا فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قالوا: بماذا؟ قال: قلت في باب المعرفة: الله أعرف المعارف.

فهو عندما أتى إلى اسم الجلالة ليعرفه للنحاة لم يعرفه بل قال: الله أعرف المعارف وسكت، ثم أخذ في الكلام، وهذا كلام عجيب، وهو أعرف المعارف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨] وابن القيم يتحدث عن ادعاء الحب فيقول: تقول امرأة لرجل يدعي حبها:

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني أليس أرى الأعضاء منك كواسيا

تقول: لو كنت صادقاً لنحل جسمك من الحب، ولظهر عليك علامات الحب، أما أن تتظاهر بالحب وأنت تنام الليل، وتأكل ما اشتيت، وأنت سمين، فأين آثار الحب عليك؟

ولذلك يقول ابن المبارك:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا لعمرى في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

فيقول: كذب من ادعى المحبة، وفي أثر إسرائيلي: كذب من ادعى محبتي، فإذا ضمه الليل نام غني ولم يقم يناجيني، أو كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من أحاديث الإسرائيليات نرويها باعتبار: {حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج}.

فالحب ادعاه قوم كثير وهو في المسلمين كثير وكثير، حتى من الفسقة الفجار ممن يحمل الكأس، ويعيش للمرأة، ويسمع الأغنية، ويعاصر الخلاعة، فإذا قلت له في ذلك ادعى حب الله، وهذا أكبر ادعاء وبهتان في الأرض وهو إفك وبهتان وزور مبين.

صور من العفو في عصر السلف الصالح

يقول ابن عباس رضي الله عنه: [[كان أهل القرآن خاصة عمر ومستشاريه صغاراً كانوا أو كباراً، وكان منهم الحر بن قيس؛ كان شاباً ويقربه عمر رضي الله عنه وأتى ابن عم للحر بن قيس؛ وهو شيخ قبيلتهم، فقال للحر بن قيس: إنك قريب عند هذا الأمير -يقصد عمر- فاستأذن لي عنده غداً لأكلمه، فأتى الحر بن قيس فاستأذن على عمر رضي الله عنه، فأذن عمر لذلك الرجل، فلما دخل قال: مهلاً يا عمر! والله ما تحكم فينا بالعدل ولا تعطينا الجزل، فغضب عمر وحمل درته وأراد أن يبطش بهذا الرجل

الذي أساء الأدب معه رضي الله عنه، فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين! إن هذا من الجاهلين والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: {وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٣٤].

فقال عمر: قد كظمت وعفوت وأحسنمت، قال ابن عباس: رضي الله عن عمر، كان وقافاً عند كتاب الله عز وجل]].

وسطر السلف الصالح من مواقف العفو والصفح أعظم الصور الرائعة التي حفظها الدهر، ولذلك يروى عن عمر بن عبد العزيز أنه خرج رضي عنه وهو خليفة للمسلمين في وسط الليل، يريد أن يصلي في مسجد بني أمية الجامع في دمشق، وكان يخرج وحده في الليل يتفقد أمور الناس، وربما صلى في المسجد، وربما زار المقبرة، وكان هو الخليفة الوحيد في تلك الفترة خليفة المسلمين رضي الله عنه من المغرب إلى نهر السند شرقاً، [[فلما خرج ودخل المسجد في الظلام وطأ برجله أحد النوام، فقال: من هذا الحمار الذي وطأني؟ فقال عمر بن عبد العزيز: أنا عمر بن عبد العزيز ولست بحمار، ثم صلى رضي الله عنه، وانصرف]].

فيقول العلماء: "إنها من حسناته الفريدة التي يرى أنها قليلة لا يلتفت إليها بل هي من أعظم الحسنات؛ لأن أهل السلطان يغضبون على أي شيء، وأما هذا فرضي الله عنه، ما غضب" ولذلك يقولون: إنه من سلالة عمر رضي عنه وهم دائماً من أشد الناس في الحق، لكنهم من أعظم الناس عفواً عما يصلهم، أو ما يخص ذوات أنفسهم رضي الله عنهم.

[[وكان سالم بن عبد الله رضي الله عنه يطوف، فزاحمه رجل من أهل العراق، فكأن سالمًا زاحم الرجل فالتفت إليه العراقي، فقال: والله إنني لأظنك شيخ سوء، فقال سالم: ما عرفني إلا أنت، ثم انصرف من الطواف رضي الله عنه وأرضاه]].

وسالم هذا من الذين يتقرب بحميم إلى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لزهده وجلالته، ولكن العفو والصفح يأتي إما بجبلة، أو تعلم، وهو موهبة من الله عز وجل، أو اكتساب يكتسبها الإنسان بالدربة، وبالعلم، وبالرياضة، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم لـ أشج بن عبد القيس: {لديك خصلتان يحهما الله: الحلم والأناة، فقال أجبلي الله بهما أم تخلقت عليهما؟ قال: بل جبلك الله عليهما، قال: الحمد لله الذي وفقني لخلق، أو جبلي على خلق يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم}.

ومن أحلم الناس وأعظمهم حلمًا: قيس بن عاصم المنقري وقد تعرضنا له بشيء من الإيجاز، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لـ قيس بن عاصم المنقري: {أنت سيد أهل الوبر}.

هذا سيد بني تميم وشيوخهم، كان من أحلم الناس بل ضرب في الحلم والصفح أروع الأمثلة، حتى أنه ما كان يغضب أبدًا.

قيل للأحنف بن قيس: [[ممن تعلمت الحلم؟ قال: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقري، قالوا: بماذا؟ قال: كنا جلوساً عنده ذات يوم وكان محتبياً بثوب وهو جالس القرفصاء، فأتى ولد له فقال: يا أبتاه! قتل أخي، قتل أخي قال: من قتله؟ قال ابن فلانة -امرأة ربعية سكنت عندهم وحلت ورضعت معهم وكان معها ولد فقتل ولدها ولد قيس بن عاصم أي: أسقط عليه حجراً فقتله- قال الأحنف بن قيس: فوالله ما حل قيس بن عاصم حبوته، ولا تحرك، ولا تغير وجهه، ولا قطع حديثه، قال: فلما

انتهى من الحديث قال: جهزوه، وغسلوه، وأتوني به أصلي عليه وأودعه، وخذوا مائة ناقة -لأنه كان غنياً ثرياً- وخذوا مائة ناقة واعطوها ذاك الولد لئلا يخاف ذاك الولد القاتل، وسلّوا أمه وعزّوا أمه؛ لئلا تظن أنا نريد بها شراً، وعفا الله عما سلف، قال الأحنف بن قيس: فمن ذلك تعلمت الحلم]].

وكذلك كأن الأحنف بن قيس هو سيد، بعد قيس بن عاصم وقيس بن عاصم هو الذي سارت بذكره الركبان يقول: عقد له البخاري باباً في الأدب المفرد وأخذ وصاياه العلماء بل حتى المحدثون جعلوه في كتبهم ولذلك يقول الأول:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحمها

تحية من ألبسته منك نعمةً إذا زار عن شحط بلادك سلماً

وما كان قيس موته موت واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

تولى الأحنف بن قيس بعده ولاية بني تميم، فجلسوا في مجلس يسمرون، فقال رجل منهم: [[هل رأيتم الأحنف غضب في يوم من الأيام؟ قالوا: والله ما رأيناه قد غضب في يوم من الأيام، فقال: فما لي إن أغضبته؟ فأعطوه شيئاً من المال، فدعا رجلاً سفهاً من سفهاء بني تميم، وقال: خذ هذه الجائزة -ما أدري كم من الدنانير والدرهم وهي في عيون الأخبار والعقد، وغيرها من كتب الأدب والتاريخ- قال: خذ هذه الجائزة واذهب إلى الأحنف بن قيس ولا تكلمه، وإنما الطمه على وجهه، فإذا قال لك: مالك؟ فقل: إني سمعت أنك تتعرض لي وتسبني وتغتابي، فذهب وإذا الأحنف بن قيس جالس في مجلس بني تميم فتعرض له ذاك السفية فضربه على وجهه، فقال له الأحنف: مالك؟ قال: سمعت أنك تعرضت لي وسببتني وشتمتني، قال: من أخبرك؟ قال: أخبرني فلان بن فلان، قال: ماذا قال؟ قال اذهب إلى سيد بني تميم فلان فاضربه، فقال الأحنف: أنا

ليس بسيد بني تميم، إن سيد بني تميم جارية بن قدامة -سيد آخر لكنه يغضب من الريح إذا مرت- فذهب إليه وهو في مجلس آخر، فانطلق هذا السفيف، ثم أتى جارية بن قدامة فضربه على وجهه، فقام جارية بن قدامة ومعه سيفه فضرب يد الرجل فأنزلها في الأرض]].

وهذه مشهورة عن جارية بن قدامة؛ لأنه من أحد الناس، ومن أغضب الناس.

هذا نموذج للحلم أو الصفح الذي تمثل به أهل الجاهلية في جاهليتهم وزاده الإسلام قوة وامتانة، ولذلك أحلم الناس وأعظمهم عفواً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقول الله سبحانه وتعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩].

{دخل أبو سفيان بن حرب بعد تلك الأفاعيل والأيام السوداء، بعد أن أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم، وحارب الرسول صلى الله عليه وسلم، وقاتله وباع أملاكه، في مكة دخل يوم الحديبية مستسلماً، فلما دخل أخذ عمر يطارده في الخيام، وكانت المعسكرات في الحديبية، والرسول صلى الله عليه وسلم قد وزع الجيش أربعة أقسام، فأخذ أبو سفيان يكر على بغلة الرسول صلى الله عليه وسلم مع العباس وعمر وراءه بالسيف ويقول: هذا أبو سفيان لا نجوت إن نجا، حتى دخل أبو سفيان في خيمة الرسول صلى الله عليه وسلم، فتكلم أبو سفيان إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله! فعلتُ وفعلتُ فاعف عني.

قال: فقد عفوت، وحلمت، وقد صفحت، فدمعت عينا أبي سفيان وقال: لا إله إلا الله ما أرحمك، ولا إله إلا الله ما أبرك، ولا إله إلا الله ما أوصلك}.

ولذلك لما دخل صلى الله عليه وسلم مكة -كما ثبت في أحاديث صحيحة- وقد كان أبو سفيان بن الحارث ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ما ترك قصيدة عصماء يهجو بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلا نثرها في العرب، حتى أن الناس من المشركين أخذوا يهجون الرسول صلى الله عليه وسلم بشعر أبي سفيان بن الحارث ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كفى هذا، بل نازل وصرف ماله في حرب الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما فتح الرسول صلى الله عليه وسلم مكة ونصره الله ورفع الله رايته، وأعزّه وهزم الأحزاب وحده {أتى أبو سفيان بن الحارث فجمع أربعة أطفال له ما بلغوا سن التمييز وخرج بهم يريد الصحراء فلقبه علي بن أبي طالب، وهو من بني عمومته، فقال: يا أبا سفيان إلى أين تذهب؟ قال: أذهب بأبنائي إلى الصحراء فأموت جوعاً وعطشاً، والله لئن أدركني محمد ليقطعني إرباً إرباً، فقال علي: أخطأت يا أبا سفيان! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحلم الناس، ومن أبر الناس، ومن أوصلهم، فعد إليه، وقل له كما قال إخوة يوسف ليوسف {تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ} [يوسف: ٩١] فعاد أبو سفيان بأطفاله، ووقف على رأس الرسول صلى الله عليه وسلم، والرسول صلى الله عليه وسلم على رأسه ما يقارب اثني عشر ألفاً من الأنصار ومن قبائل العرب والمسلمين مسلحين، فقال: يا رسول الله! السلام عليك، تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، فرفع الرسول صلى الله عليه وسلم عينيه ودمع صلى الله عليه وسلم وقال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فنسي كل ما مر به عليه الصلاة والسلام}.

وفي ذاك اليوم وقف صلى الله عليه وسلم، وأخذ بباب الكعبة وتكلم للناس ثم قال لقريش وقد أخذ السلاح من أيديهم: {ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء}.

أي: مسامحين معفو عنكم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا عفوه صلى الله عليه وسلم وسماحته، وهذه قضايا الحديث.

وبقيت قضايا لفظية في هذا الحديث منها: قوله صلى الله عليه وسلم: {لا يؤمن أحدكم}.

ورد في لفظ: {لا يؤمن أحد} بدون الإضافة، وورد: {لا يؤمن عبد} وورد: {لا يؤمن مسلم}.

وأشملها: {لا يؤمن أحد} وهو أعمها في اللفظ، وأكثرها فائدة، ومعنى: {لا يؤمن} أي: الإيمان الكامل، أما أصل الإيمان فقد يحصل بدون أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب نفسه لكنه إيمان ضعيف، وإيمان ليس في تلك القوة التي يريد بها الرسول صلى الله عليه وسلم.

{حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه} قال كثير من العلماء منهم النووي والقرطبي: "أن يحب لنفسه من خير الدنيا والآخرة".

ولذلك يورد ابن القيم في الوابل الصيب مسألة في الإيثار بالقربات: هل لنا أن نؤثر بالقربات؟ يعني: لك إذا رأيت مسلماً في الصف الثاني أن تترك الصف الثاني أنت وتتأخر وتقدمه مكانك، أو أتيت يوم الجمعة متقدماً وجلست في مكان، ثم أتى رجل متأخر من المسلمين، هل لك أن تجلسه مكانك وتعود؟

والذي يميل إليه ابن القيم وبعض العلماء: أن هذا وارد وأنه جائز ومشروع، وأن الله يثيبك على الإيثار في القربات.

ورأى بعض العلماء: أن هذا لا ينبغي وأن الإيثار يكون في أمور الدنيا في الأكل، والشرب، واللباس، وفي مجالس الدنيا، أما في القربات التي يقصد بها التقرب إلى الله فلا يؤثر بها.

هذه المسألة: الراجح فيها ما ذهب إليه ابن القيم، وهو جيد في بابه فإن الله سبحانه يثيب ويعطي على مقدار ما جعلت أنت وما تنازلت عنه من الأحقية ومن الثواب الذي أثرت به غيرك؛ لأنه لا يوجد في النصوص ما يعارض ذلك أبداً، بل قد أثر كثير من الصحابة رضوان الله عليهم بعضهم، فـ عمر رضي الله عنه يقولون: [[أنه أثر أبا بكر في الصلاة في بعض المواقف، وتأخر قبل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأثره بالخلافة]] وأثر بعضهم بعضاً بالقيادة، والإمامة، وأثار بعضهم بعضاً بالمجالس، وصدور المجالس، والصفوف الأول، هذا هو الوارد، وكأنه الصحيح والله أعلم، والمسألة سهلة لا تقتضي هذا الخلاف.

أما قوله صلى الله عليه وسلم: {لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه} فمعناه: أن من لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فليس بمؤمن كامل الإيمان، وفي نفسه ضغينة، ولذلك يطلب من الإنسان أن يطهر نفسه من الحسد والحقد والغل، ومن لم يفعل فإنه سوف يبقى ناقص الإيمان حتى يلقي الله عز وجل.

والقضايا اللفظية سوف نتعرض لها بعد هذا الحديث إن شاء الله، إن كان هناك وقت، لكن نريد أن نربط بين الحديث الأول والحديث الثاني والثالث لأنها بمعنى واحد.

يقول الإمام البخاري باب: حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب، قال: حدثنا أبو الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده} وفي حديث أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم: {لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين} عليه الصلاة والسلام.

مراتب الصبر

الصبر في الإسلام على ثلاث مراتب:

أولها: صبر على الطاعات، وثانيها: صبر عن المعاصي، وثالثها: صبر على الأقدار والمصائب.

وأعظمها الصبر على الطاعات -إن شاء الله- على خلاف، لكن هذا الذي تميل إليه النفس، لأنها مقصودة الأداء وهو الصبر العظيم المطلوب، فتؤدي الطاعة وتصبر عليها وتصابر نفسك لتؤديها على أكمل وجه بخشوعها وخضوعها.

والصبر عن المعاصي: حين تدعوك نفسك الأماراة بالسوء، فتصبر وتحسب.

وصبر على أقدار الله حين يكتب عليك الله سبحانه وتعالى من أقداره ما يريد أن يخفف به من ذنوبك، ويرفع به من درجاتك، إذا علم هذا فإن أولياء الله الصالحين كان يميزهم الصبر مع اليقين، سئل شيخ الإسلام ابن تيمية، قيل له: بم تنال الإمامة في الدين؟ قال: بالصبر واليقين، أما سمعت الله يقول: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة: ٢٤].

أُمُور تخفف الابتلاء

مما يخفف الابتلاء عند كثير من أهل العلم، ما ذكره ابن القيم في كتابه زاد المعاد:

أولاً: أن تؤمن بالقضاء والقدر، فإنه أعظم معالم أهل السنة والجماعة وفي أول حديث في صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر قال ابن عمر لما حدث أن قوماً في العراق لا يؤمنون بالقضاء والقدر قال: {والذي يحلف به ابن عمر، وفي لفظ والذي نفسي بيده، لو أنفق أحد منهم مثل أحد ذهباً ما تقبل منه حتى يؤمن بالقضاء والقدر} وفي حديث صحيح عن عبادة بن الصامت، أنه قال لابنه عندما حضرته الوفاة: يا بني! عليك بالإيمان بالقضاء والقدر، فوالذي نفسي بيده، إن لم تؤمن بالقضاء والقدر، لا ينفعك عملك أبداً.

وفي سنن الترمذي بسند حسن من حديث ابن عباس في حديثه الطويل قال: {كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا غلام! إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك -انظر ما أحسن الكلمات- احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة -ثم قال:- واعلم أن النصر مع الصبر واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك} فأول ما يخفف الابتلاء والمصائب قضية الإيمان بالقضاء والقدر، ومن لم يؤمن بالقضاء والقدر فلا قبل الله له صرفاً ولا عدلاً، ولا كلمة ولا زكاه وله عذاب أليم.

ثانياً: أن تعرف أن ما أصابك إنما هو قليل بالنسبة لما أعطاك الله سبحانه وتعالى {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} [النحل: ٩٦] فما أصاب الله العبد بمرض أو هم أو

غم أو حزن إلا كَفَّرَ الله به من سيئاته، فاعلم أنها تكفر عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا تضيع.

ثالثاً: أن تتسلى بالمصايين والمبتلين من الناس، وأن تعلم أن كل دار فيها مصيبة، وأنه ما ملئت دار حبرة إلا ملئت عبرة، وفي كل واد بنو سعد، ولذلك قالت الخنساء: تسليت ببكاء الثكالي حولي، ثم قالت:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

فالتسلي بمصائب الناس وتذكرها، من أعظم ما يزيل الكرب عن النفوس، أو يخفف المصيبة، وذكر ذلك ابن القيم فقال: واعلم أن في كل دار بني سعد.

إذا عُلِمَ هذا فإن الذي يخففها أيضاً: أن تعلم أنها أقل مما كانت، فإن الله عز وجل يخفف بعض المصائب عن بعض، وأعظم مصيبة تصيب العبد مصيبة في الدين، فهي التي لا جابر لها، ولا مسلي، ولا معزي، ومن كل شيء عوض إلا من الله، فإذا فاتك فاتك، ومن كل شيء تسلية إلا الدين، فإذا فاتك فوالله ما بعده تسلية ولا عزاء ولا عوض، فاحمد الله عز وجل أن أصبت بمصيبة في جسمك، أو ولدك أو عرضك، ولم تصب بمصيبة في دينك، فإنها من أعظم المصائب، بل هي أم المصائب، ولا جابر لها إلا التوبة والعودة إلى الله عز وجل.

الصبر على فراق الأبناء

الأبناء نعمة من النعم الجليلة، والله عز وجل ذكر عن الصالحين أنهم كانوا يقولون: (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) [الفرقان: ٧] ومن أحسن ما يجمال الحياة المال والبنون، فهم زينة الحياة الدنيا، وما أحسن من أن

ترى أطفالك وأبناءك يترعرعون أمامك، ويهشون ويبشون بنور الإسلام، ويسجدون للواحد القيوم، ويرددون عليك آيات القرآن، ولكن إذا حكم الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بأخذهم فما لك من حيلة.

في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {يقول الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ليس لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة} ولم يقل الولد ليخرج الأخ، ولم يقل الأخ ليخرج الأب، ولم يقل الأب ليخرج الصديق والصاحب، وإنما قال الصفي ليدخل الكل في هذا، وما أحسن هذا الكلام! فالصفي هو كل من أصابتك لوعة من فراقه، أو حرقة، أو حزن، عوضك الله عنه إذا صبرت واحتسبت الجنة.

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إذا مات ابن العبد المؤمن قال الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى -وهو أدرى للملائكة الذين قبضوا نفسه- قبضتم ابن عبدي المؤمن؟ قالوا: نعم يا رب! وهو أعلم، قال: قبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: نعم يا رب! قال: فماذا قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع -أي: الحمد لله، إنا لله وإنا إليه راجعون- قال: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد} هذا الحديث حسن، والبيت هنا كالربابة البيضاء، أو كالكوكب الدري، مكتوب عليه بيت الحمد، يدخله الرجل الصالح يوم يحتسب مصيبتة في ولده على الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمرأة المسلمة تشارك الرجل في هذه المصائب، بل ذكر صلى الله عليه وسلم للنساء في فوت الأطفال ما لم يذكر للرجال، فإنه قال لما زارهن: {ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كانوا لها حجاباً من النار، قالت: امرأة واثنين يا رسول الله -اثنين عدد المفعولية- قال: واثنين، قالت: وواحد -في بعض الروايات- قال: وواحد} فالحمد

لله أن جعل فضل موت ابن واحد تحتسبه عند الله؛ دخول لك جنة عرضها السماوات والأرض بإذن الله.

ابتلاء الإمام أحمد بن حنبل

سُجِنَ الإمام أحمد رحمه الله إمام أهل السنة والجماعة، وجلد بالأسواط على ماذا؟ على زهده وعبادته، على علمه بالحديث يوم حفظ ألف ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف ومسند ومقطوع وأثر وكلام تابعي على صيامه في النهار، وإعراضه عن الحياة الدنيا، وعلى أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وعلى دعوته المشعة الفياضة، واستقامته في ذات الله، وتربيته لأجيال الأمة وتعليمهم العلم، ابتلي بلاء يرفع الله به منزلته، وجلد، ووضع في السجن، وأخرج فكان كالذهب الأحمر إذا أدخلته النار فعاد ذهباً خالصاً أحمرًا {أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ٢- ٣] الدين ليس دعاوى:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء

يدعي أحد الناس أنه يحب الله، فإذا سمع الأذان لا يتحرك إلى المسجد، فهذا منافق إن لم يكن له عذر شرعي، ويدعي أنه يحب الله ورسوله، وأنه يوالي الله ورسوله، ولكنه إذا أصيب بمرض تسخط وأنكر القضاء والقدر، وقال كلمات لا أصل لها، فأين الإيمان وأين الصدق؟! الإيمان معناه: أن تقوم إلى الماء البارد في صلاة الفجر، وهو أحب إليك من الجلوس مع الأخيار، في السمر، أو في مناجاة الأحبة، وفي الحديث: {إذا قام العبد المؤمن وتوضأ من الماء البارد -وهذا من الابتلاء في الطاعات- وترك فراشه الوثير ولحافه الدفيء، قال الله: يا ملائكتي! انظروا العبد، ترك فراشه الوفير، ولحافه

الدفء، وقام إلى الماء البارد يتوضأ منه، وقام يدعوني ويتملقني، أشهدكم أنني غفرت له، وأدخلته الجنة}.

وعلاوة الصدق أن تثبت في صفوف المؤمنين في الصلاة، وأن تقدم إليها بشوق وحرارة، لأن المنافق قد يصلي، ولكن ليس هناك حب، ولا إخلاص، ولا انقياد، يقول جل ذكره: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ١٤٢] يصلون، ولكن كسالى، ويذكرون الله، ويقرءون القرآن لكن ببرود، ليس هناك صدق ولا إخلاص ولا محبة ولا اندفاع فلم ينفعهم ذلك.

الإمام أحمد سجن لأنه يقول ربي الله، فرفع الله درجته، فأصبحنا نذكره في كل مجلس، وعلى كل منبر، وفي كل منتدى، وعلى رأس كل محفل، فانظر كيف رفع الله ذكره، وأما خصومه ومن عارضه فمحق الله ذكرهم، فلا يذكرون إلا قليلاً، مثل الوزير ابن الزيات الذي دعا عليه الإمام أحمد، فجلد وعذب وأدخل في الفرع وهو حي حتى قطع تقطيعاً، هذا ابن الزيات الوزير الذي اعترض على الإمام أحمد، فسلط الله عليه ظالماً مثله، فعذبه وابتلاه وقطعه.

وأحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة المبتدع الذي هو أحمد أهل البدعة، وأحمد بن حنبل أحمد أهل السنة، دعا عليه الإمام أحمد فأصيب بالفالج، لأن الإمام أحمد قال: اللهم عذبه في جسده، لأنه السبب في الجلد والسجن والضغوط السياسية للإمام أحمد، فقال الإمام أحمد: اللهم عذبه في جسده، فشل نصف جسده، والنصف الآخر سليم، قالوا: كيف حالك يا بن أبي دؤاد؟ قال: أما نصف جسدي هذا، فوالله لو أن ذباباً وقع عليه لكأن القيامة قامت، وأما نصف جسدي هذا، فوالله لو قطع بالمنشير قطعة قطعة ما أحسست به، لماذا؟ لأنه عارض الحق، أما الإمام أحمد فبقي مذكوراً في كتب الحديث، فهو يذكر آلاف المرات.

أحد الصالحين دخل على ابن بقية، الوزير الظالم، فضربه على وجهه بكفه فأجلسه، فقال الصالح العابد: اللهم إنه ضربني، اللهم فاقطع يده، فابتلاه الله بظالم فقطعت يده، ولذلك يقول ابن بقية:

ليس بعد اليمين لذة عيش يا حياتي بانتي يميني فبيني

ذكره ابن كثير في ترجمته.

كيفية الاستدلال على توحيد الله

صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: {يقول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: عجباً لك يا بن آدم! خلقتك وتعبد غيري، ورزقتك وتشكر سواي، أحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك، وتبغض إلي بالمعاصي وأنت فقيرٌ إلي، في كل يوم خيري إليك نازل، وفي كل يوم شركٌ إلي صاعد} فقال عليه الصلاة والسلام: {تعبد الله لا تشرك به شيئاً} لأنه لا عبادة لمن أشرك مع الله من أهل أو ولد أو منصب أو وظيفة أو حجر أو شجر، وبعض الناس يظنون أن الأصنام قد انتهت، بل بعض الناس يعبد هواه من دون الله عز وجل، أما قال الله عز وجل: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ} [الجاثية: ٢٣]؟

وكل شيء يشير إلى وحدانية الله، وكل مخلوق يثبت بالبرهان أنه لا إله إلا الله، وكل كائنة تشير بيدها أنه لا إله إلا الله، الومضة من النور، اللمعة من الضياء، والقطرة من الماء، والورق من الشجر، الصوت من الطائر، الإنسان بما آتاه الله يشير أنه لا إله إلا الله.

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

قيل للإمام الشافعي رحمه الله: دلل لنا على القدرة، أي: اذكر لنا دليلاً على قدرة الحي القيوم، قال: هذه الورقة ورقة شجر، وتأكّلها دودة القز فتخرج حريراً، وتأكّلها النحلة فتخرج عسلاً، وتأكّلها الغزال فتخرج مسكاً، وتأكّلها الشاة فتخرج روثاً، أليست دليلاً على الحكيم الخبير؟

وقيل للإمام أحمد: دلل لنا على وجود القدرة، قال: هذه البيضة كالحصن الحصين، أما الباطن فذهب إبريز أصفر، وأما الظاهر ففضة بيضاء يخرج منها حيوانٌ سميع بصير، هو الفرخ، ألا يدل على وجود السميع البصير؟

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

كل شيء يشير إلى الله، يقول عز من قائل: {قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ} [يونس: ١٠١] يقول عز من قائل لأهل مكة يوم نزل عليهم القرآن، وهم لا يرون إلا الجبال السود، ولا يرون إلا السماء، ولا يرون إلا الأرض، ولا يرون إلا الإبل، خاطبهم بلغة عصرهم: لأن العلم الطبيعي ما بلغ هذه الدرجة التي بلغها اليوم، فقال عز من قائل: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

مالهم لا ينظرون؟ مالهم لا يتفكرون؟ ما للذي يترك الصلاة إذا سمع الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أربع مرات، ماله يلوي عنقه ويتولى عن المسجد؟ أنسي الله؟ أنسي البعث والنشور؟ أنسي الذي سواه في أحسن صوره؟ {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} [البلد: ٨ - ١١] يقول: ما هو

الأمر الذي أتى به هذا حتى يتكبر علينا؟ ويقول عز من قائل: {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} [الصفافات: ٣٥].

قصة خبيب بن عدي

خبيب بن عدي يأخذه الكفار أسيراً، ويدخلونه بيتاً غير مسقوف، وتصهره الشمس ولكن إيمانه يبرده، يأتيه البرد ولكن إيمانه يدفعه، يأتيه الجوع ولكن إيمانه يشبعه، يأتيه الظمأ ولكن إيمانه يرويه، تقول إحدى النساء من اللواتي عشن قريباً من خبيب: رحم الله خبيباً، والله لقد كنت أنظر إليه وقد حصر في مكة في بيت، ما في مكة عنبه واحدة وإن قطاف العنب يأكله خبيب، من أين؟ من عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، {أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: ٣٧] وخرج إلى ساحة الإعدام ساعة الصفر في حياة المسلم، يوم يستعلي على كل شيء، ساعة الصدق مع الله، خرج أهل مكة ليقتلوه، وهو ما قتلهم وما سرقهم {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} [غافر: ٢٨] لكنه ذنبه أنه رجل يعلن التوحيد، واجتمعوا في جمع حاشد في ضاحية من ضواحي مكة، فقال لهم: أريد أن تمهلوني لأصلي ركعتين، قالوا: صل ركعتين واستعجل، فقام يتوضأ وهو يعرف أن الموت سوف يأتيه بعد ركعتين، فصلى ركعتين ثم سلم ثم قال: [[والله الذي لا إله إلا هو، لولا أن تقولوا: جزع من الموت لطولت صلاتي، ثم قال: اللهم أخبر رسولك ما نلقى الغداة -يعني: أخبره بما يفعلوا بنا هذا اليوم، وفي سيرة موسى بن عقبة: {كان عليه الصلاة والسلام وهو في المدينة وخبيب! في مكة يقول: السلام عليك يا خبيب! السلام عليك يا خبيب! السلام عليك يا خبيب!}- قال: اللهم أبلغ رسولك ما نلقى الغداة، وأخذ يقول للكفار: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، فلما رفعوه إلى مشنقة الموت -هل بكى؟ لا.

لأن الأبطال لا ييكون في ساعة الصفر، هل جزع؟ لا.

لأن الأبطال لا يجزعون ساعة الموت، وهل ندم وتحسر؟ لا.

لأنه يريد هذه الساعة، ويعمل لها، إنه يريد الجنة- قال له أبو سفيان في آخر لحظة: هل تريد أن محمداً مكانك وأنت في أهلك ومالك سليماً معافى؟ قال: والله الذي لا إله إلا هو، ما أريد أني في أهلي سليماً معافى وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصاب بشوكة، ثم أخذ ينشد- هل رأيت شاعراً ينشد عند لحظة الموت؟ إن سمعت شاعراً فهذا هو الشاعر العظيم، شاعر الإيمان والحب والطموح، لا شاعر الفن الرخيص العفن المتخلف، الذي يشعر لهدم الأمم ويزيل الشعوب ويخرب القلوب- أخذ على المنصة يلقي قصيدته الرائعة المدوية على رءوس الأَشْهاد لتحفظ في ميزان حسناته يوم القيامة، يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أشلاء شلو ممزع

ثم قتل]]

ولكنه ما قتل! إنه حي عنده سبحانه وتعالى مع الشهداء إن شاء الله، {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ} [فصلت: ٣٠ - ٣١] لا يكتشف طريق الجنة عند كثير من الناس إلا في سكرات الموت، وكثير من الناس لا يستفيق من سكاره وخماره إلا في ساعة

الموت، تلك الساعة التي يضعف فيها القوي، ويفتقر الغني ويعجز الجبار، ساعة الموت
يوم لا تنفع المنعة ولا الدفاع، ساعة الموت الواخزة المؤلمة المجيرة المدهشة.